

وَجَاءَ النِّقَاشُ

عَبَّاسُ الْعَمَّادِ



بَيْنَ الْيَمَنِ وَالْيَسَارِ

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عَبَّاسُ الْعَقَّادِ
بَيْنَ الْيَمِينِ وَالْيَسَارِ

رجاء النقاش

عَبَّاسُ الْعَقَّادِ بَيْنَ الْيَمِينِ وَالْيَسَارِ

المؤسسة العسكرية للدراسات والنشر
بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

شارع سوريا - مكتبة صيدى - دمشق
ص.ب. ٥٦٦ - هاتف ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

العقّاد والوفد
العقّاد والّاخوان المسلمون
العقّاد ومصر الفتاة
العقّاد والماركسيّة
العقّاد والنازيّة
العقّاد والصهيونيّة
العقّاد والوحدّة العربيّة
العقّاد، وثورة ٢٣ يوليو .

مقدمة

في هذا الكتاب محاولة لتقديم دراسة عن عباس محمود العقاد وحياته السياسية . ولقد كانت الفكرة الاساسية في تأليف هذا الكتاب ، هي محاولة تقديم دراسة شاملة عن العقاد ، في مختلف جوانب شخصيته ، في السياسة والادب والحياة . ولكنني عندما بدأت أجمع مادة الدراسة، وجدت ان العقاد قد عاش فترة طويلة في الحياة الادبية والسياسية ، وامتد نشاطه من سنة ١٩٠٦ تقريبا ، حتى وفاته سنة ١٩٦٤ ، وهو في خلال هذه الفترة التي تقرب من ستين عاما ، يكتب بانتظام ، ويساهم في الحياة السياسية عن طريق الفكر ، او عن طريق العمل المباشر في عضوية مجلس النواب ، او عضوية مجلس الشيوخ . وهو على الدوام وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ عضو في حزب من الاحزاب ، يناصره ويصطدم بأعدائه السياسيين ، ومن هنا كان من الصعب تقديم دراسة واحدة ، تشمل كل جوانب العقاد في الادب والفكر والحياة ، لان مثل هذه الدراسة سوف تصل الى الف صفحة او تزيد على ذلك ، وهو امر يمثل عقبة عملية بالنسبة للكاتب والقارئ والناشر على السواء ، ومن هنا آثرت ان أقدم دراستي عن العقاد في كتابين ، واخترت ان يكون الكتاب الاول عن العقاد وحياته السياسية ، ثم يكون الكتاب الثاني عن العقاد وحياته الادبية .

وكان اختياري للبداية بحياة العقاد السياسية راجعا لعدة اسباب ، فهناك تجاهل او شبه تجاهل من الدارسين لحياة العقاد السياسية وفكره السياسي ، ويعود ذلك الى صعوبة الاحاطة بكتابات العقاد السياسية ،

لأنها مقالات منشورة في عشرات الصحف والمجلات على مدى زمن طويل يزيد على نصف قرن ، ولم يحرص العقاد في حياته على جمع هذه المقالات في كتب ، أما لانشغاله عن القيام بهذه المهمة ، أو لاعتقاده أن نزع هذه المقالات من الصحف قد يترتب عليه نوع من اساءة فهمها ، حيث أن المقال السياسي في الصحيفة يكون مرتبطا بظروف نشره ، وبالأحداث التي تدور حوله ، ونزع المقال من الصحيفة قد يعزله عن هذه الظروف ويؤدي إلى اساءة فهمه ، خاصة وأن العقاد قد اتخذ عديدا من المواقف السياسية التي تبدو متناقضة ، فهو تارة يكتب في صحف الوفد ويؤيد الوفد ، وهو تارة أخرى يعارض الوفد ويكتب في صحف خصومه السياسيين وهكذا .

على أنني لاحظت عموما ، أن هناك نوعا من عدم الاهتمام الذي يكاد يبلغ درجة عدم الاحترام لكتابات العقاد السياسية ، رغم كثرتها وتنوعها ، وما أحدثته في وقت ظهورها من ضجيج في الأوساط السياسية ، وفي أوساط الرأي العام .

وعدم الاحترام هذا ، أو عدم الاهتمام بالجانب السياسي في العقاد ، يكاد يشترك فيه كل الباحثين في حياة العقاد ، بل لقد كنت أحس أحيانا أن العقاد نفسه يكاد يشعر بأن هذا الجانب في حياته وفكره ، لم يكن جانبا جديا يستحق الاهتمام ، أما الجانب الذي يستحق الاهتمام ، فهو الجانب الأدبي أو الفكري وحدهما ، ومن هنا ولد سبب آخر لعدم اهتمامه بجمع ما كتبه في السياسة . . . لقد كان يعتبر نفسه أديبا ومفكرا دينيا بالدرجة الأولى ، أما ما يخالف ذلك فهو على الهامش ، ولعله كان نوعا من أنواع المهنة التي اضطرتة إليها ظروف الحياة ، وسواء كان هذا الاحساس عندي بعدم اهتمام العقاد بما كتبه في السياسة صحيحا أو خاطئا ، فالنتيجة واحدة . . . ذلك لأن العقاد لم يهتم بجمع كتاباته السياسية ولم يحرص على نشرها في كتب أثناء حياته ، وسار الباحثون في شخصية العقاد على هذا الطريق ، فلم يظهروا اهتماما بالجانب السياسي في شخصيته ، اللهم إلا في حدود ضيقة لا تكفي للكشف عن حياة العقاد السياسية بصورة سليمة .

وهذا الموقف هو موقف معظم الباحثين في حياة الجيل الأول من أدبائنا العرب المعاصرين للعقاد ، من أمثال طه حسين والمازني وتوفيق الحكيم والرافعي وزكي مبارك وسلامة موسى وهيكلي ويحيى حقي . فالشائع في الدراسات المختلفة عن هؤلاء الكتاب والأدباء ، هو دراسة

الجانب الادبي والفكري فقط . . . اما دراسة الجانب السياسي في حياة هؤلاء الكتاب فهو امر شبه مهمل وشبه معدوم ، رغم ان هؤلاء الكتاب جميعا قد اشتغلوا بالسياسة بصورة او باخرى ، وبشكل يختلف بين الواحد منهم وبين الآخر ، كما انهم جميعا قد تأثروا بعملهم السياسي ، وأثروا ايضا على الرأي العام عن طريق العمل السياسي بدرجات متفاوتة من التأثير ، وهذا الموقف من جانب الباحثين المعاصرين هو موقف خاطيء ولا شك ، لانه يلغي جانبا هاما من جوانب حياتنا الفكرية ، كان له قيمته وتأثيره وما زال له حتى الان له قيمة وتأثير .

فهناك قضايا خدمها هؤلاء المفكرون بعملهم السياسي ، وهناك قضايا أخرى أخطأوا فيها وقصروا في خدمتها من خلال هذا المجال السياسي بالذات .

وقد حاولت من قبل ان أقدم بعض الدراسات المحدودة في هذا المجال ، مثل دراستي عن «طه حسين والاحزاب السياسية» وهي الدراسة المنشورة في كتابي «أدباء معاصرون» كما قدمت في نفس الكتاب دراسة قصيرة عن «مصر في أدب توفيق الحكيم» .



واليوم أقدم للقارئ العربي الكريم هذه المحاولة عن العقاد بين اليمين واليسار «العقاد وحياته السياسية» والتي سوف أتبعها بدراسة أخرى عن العقاد وحياته الادبية .

وقد رجعت الى شتى الصحف والمجلات التي كتب فيها العقاد ، حتى استطعت ان أقدم في آخر الامر صورة لفكره السياسي ، وهذه المحاولة هي في ظني محاولة ضرورية الى ابعد مدى من عدة جوانب رئيسية .
فهي ضرورية لفهم الحياة السياسية في مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ . فقد اشتبك العقاد مع الحياة السياسية في مصر طيلة هذه الفترة ، بكل ما عرف عنه من عنف وحدة ودأب وانتظام ، بحيث أصبحت دراسة فكره السياسي هي في الواقع دراسة لمعظم التيارات الرئيسية في الفكر السياسي المصري خلال هذه الفترة الهامة من التاريخ ، فقد كان العقاد على صلة قوية مع هذه التيارات الفكرية السياسية : اما بالتعبير عنها ، او بمعارضتها والوقوف منها موقف الخصومة والرفض ، وكان ممثلو هذه التيارات السياسية المختلفة يشعرون بأهمية موقف العقاد ، فيردون عليه

او يساعدونه ويؤيدون آراءه .

فدراسة الفكر السياسي للعقاد ، هي في الحقيقة دراسة للفكر السياسي المصري خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر المعاصر ، وما لها من تأثير وانعكاسات على تاريخ الامة العربية بأكملها .

ومن ناحية أخرى نجد ان حياة العقاد الادبية قد تأثرت اشد التأثير بفكره السياسي ومواقفه السياسية ، ويكفي ان نقف امام ملاحظة واحدة هي ان العقاد كان اكبر المتحمسين والمبشرين بالتجديد الادبي خلال فترة ارتباطه بالوفد ، وبالحركة الوطنية الشعبية ، وأنه اصبح من معارضي التجديد الادبي ، ومن اشد خصومه بعد ان انتقل الى معسكر أحزاب الاقلية وأخذ يدافع عن حكوماتها الرجعية .

ومن ناحية ثالثة فان العقاد قدم نموذجا واضحا للمفكر والاديب الذي لم ينزل عن مجتمعه وعصره ، رغم ان صورته الخارجية هي صورة الانسان المتوحد المنعزل البعيد من أحداث الحياة ، كأنه ذئب منفرد مبتعد عن الناس يخشاه الجميع ...

لقد كان العقاد على العكس منغمسا في أحداث الحياة من حوله ، يشارك في هذه الأحداث بالرأي الواضح الصريح ، وبالعامل المباشر والمواقف المختلفة ... واذا كان العقاد قد تحمل مسؤولية الكاتب من وجهة نظره ... فماذا يمكن ان نخرج به من دراسة أفكاره ومواقفه السياسية ؟ ما هو المدى الذي كان فيه صادقا وأميناً مع نفسه وعصره ، وما هو المدى الذي خالف فيه ما يمكن ان نسميه بالضمير العام ؟ ... ذلك ما يمكن ان تكشفه الدراسة ، بل ما يجب ان تكشفه دراسة من هذا النوع .



ولقد كان يسيطر على نفسي احساس كبير وانا اقوم باعداد هذه الدراسة ... هذا الاحساس هو ان الكاتب لا يمكن ان يفلت من كلمة كتبها وتركها وراءه ... ان ما كتبه الكاتب في اي لحظة من لحظات حياته هو قيد عليه ، وصوت يقف دائما ليحاسبه او يدافع عنه ... ومن هنا فان الكتابة مسؤولية وعيب وضمير .

ولا يجوز للكاتب ان يتصور يوما ان ذاكرة الناس سوف تنسى بعض ما كتبه او سوف تنظر اليه بغير اهتمام ... ان الكتابة ليست مياها

تتبخر بمرور الايام ، وليست دخانا يتبدد في الهواء ... كل كلمة تطارد كاتبها وتمسك بخناقها وتجري وراءه ، وتطالب بالحساب الصحيح والجزاء العادل .

ليس هناك كلمة تضيع في الهواء، او خطأ يختفي الى الابد ، او موقف شريف وحقيقي يمكن ان يضيع .

كل شيء يبقى ليوم من ايام الحساب او كل شيء كما يقول ابنساء الشعب البسطاء «بحسابه» .

لا شيء يتلاشى او يتبدد . ومن هنا كان عبء الكلمة صعبا الى ابعد الحدود .

وها نحن نقدم هذه المحاولة في دراسة كلمات لم يهتم العقاد ولا الباحثون من بعده بجمعها وتركوا معظمها تائها في صفحات قديمة .

ولكنها كلمات هامة مع ذلك وهي كلمات تكشف عن جوانب القوة وجوانب الضعف في شخصية العقاد ورؤيته لعصره ... انها كلمات تطارد العقاد بالورد او بالشوك ولا تتخلى عنه بأي حال من الاحوال .

ولعل في هذا الدرس الذي وعيته وأنا ابحث في حياة العقاد السياسية ما يعلمنا جميعا ان الكلمة كما يقول شاعرنا «أحمد حجازي» - «حمل وأمانة» و«القباض في هذا العصر على كلمته كالمسك بالجمرة» .

وأن الكلمة تبقى لكاتبها او تبقى عليه حتى النهاية وأن الكاتب لا يجوز ان يمسك القلم ليلهو او ليتخفف من ضميره او ليجمال لان كل شيء باق ومحسوب ... ولا شيء يضيع او ينسى .



واخيرا اود ان اقول انني في هذا الكتاب لست مع العقاد او ضده ، رغم ما أحمله من احترام وتقدير واعجاب بجهد العقاد الرائد ، في ميدان الادب والفكر والسياسة . ولكنني حاولت ان اخرج من دائرة ذلك التقسيم الشائع للباحثين في شخصية العقاد : بعضهم معه بحماس حتى أقصى درجات العشق والوجد الصوفي، وهؤلاء لا يحتملون من احد ان ينقد العقاد، او يشير الى خطأ من أخطائه ، والبعض الآخر ضد العقاد بحماس ايضا، لا يجدون فيه خيرا ولا يعترفون له بأي فضيلة او موهبة ولا يحتملون كلمة اعجاب به او ثناء عليه .

الواقع ان هناك خانة ثالثة ما تزال خالية هي خانة البحث الموضوعي في شخصية العقاد ... تعترف بما له وما عليه ، تعطيه ما يستحقه وتأخذ منه ما يزيد على حقه .. وفي هذه الخانة الثالثة الخالية حاولت ان اقف وأرجو أن أكون قد وفقت الى شيء مما أريد : خدمة للفكر العربي ... وخدمة للعقاد وللحقيقة في آن واحد .

رجاء النقاش

القاهرة

سبتمبر - ايلول - ١٩٧٣

تيارات واتجاهات

وصل العقاد الى القاهرة في السنوات الاولى من هذا القرن ، وذلك بعد ان ترك اسوان ، مدينة الشمس ، ومدينة مولده ونشأته وصباه ، وكانت القاهرة في ذلك الحين مليئة بالتيارات العديدة المتنوعة ، كانت اشبه بالانسان الذي يفيق من حالة اغماء عنيف ويبدأ في الاحساس بالدنيا من جديد .

وكانت حالة الاغماء التي اصابته مصر كلها نتيجة لفشل الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ .

لقد تبددت بهذا الفشل احلام القرن التاسع عشر كلها ، تلك الاحلام التي دارت في الرؤوس منذ ان عاد رفاعة رافع الطهطاوي من باريس ، وعندما وقف عرابي في ميدان عابدين ليطالب بحقوق الشعب ، يعلن من فوق فرسه ان الخديوي اذا لم يستجب لهذه المطالب فان هناك كلمة اخرى سيقولها عرابي ورفاقه عند اللزوم ، اي ان الزعيم الفلاح سوف يرفع السلاح في وجه الخديوي ويرغمه على اجابة المطالب الشعبية .

واحلام القرن التاسع عشر هي نفسها الاحلام التي كانت تدور في راس عبد الله النديم عندما كان يصدر جريدة ساخرة خفيفة الظل او عندما كان يلقي خطابا في الجماهير المصرية حيث كان يمزج الشعر بالزجل ، والسجع بالاسترسال ، والنكتة بالتفكير الجدي الرصين ...

لقد تبددت هذه الاحلام كلها بعد ان فشلت الثورة العرابية ، وبعد ان تفرق الذين تجمعوا من اجل الحلم العظيم الاكبر وهو تحرير الفلاحين المصريين من القصر والشراكسة والاتراك والنفوذ الاوربي الجديد الناشئ،

وهذا الحلم نفسه هو بناء دولة عصرية تخدم هؤلاء الفلاحين بدلا من ان تخدم الخديوي والحريم والتمصرين والتجار وأصحاب رؤوس الاموال الاجانب ، ولا يبقى للمصري الفلاح في هذه الدولة حتى ولا العظام القليلة، وكانت الدولة العصرية آنذاك تعني الشورى او الديمقراطية البرلمانية ، ثم بناء صناعة وطنية ، ثم توسيع نطاق التعليم حتى يشمل الجميع ، ثم حرية التفكير والتعبير في البرلمان والصحف والكتب والاجتماعات السياسية المختلفة .

وبعد ان فشلت الثورة العربية ودخل الخديوي توفيق القاهرة - يده في يد الجنرال «ولسلي» قائد الغزاة الانجليز - بعد هذا الفشل سكنت روح مصر الثائرة وملأها اليأس من كل جانب ، واستمر الامر على ذلك ما يقرب من عشرين عاما متصلة ، ولم يكد القرن العشرون يبدأ حتى بدأت معه الحيوية تدب من جديد في اوصال البلد المهزوم .

والحقيقة ان الثورة العربية كانت اشبه بسيل كبير غامر ، وكانت الفكرة المحركة للثورة هي التغيير الشامل للمجتمع في كل وجوهه ، وعندما تصدى الاستعمار الانجليزي لهذه الثورة ، لم يستطع ان يقضي على السيل بصورة نهائية ، وكل ما استطاع ان يفعله هو تمزيق السيل الكبير الى قنوات صغيرة متفرقة ، كانت كل قناة تعمل وحدها منفصلة عن الاخرى في ميدان مستقل وظلت هذه القنوات تعمل في خفاء عن الاعين حتى بداية القرن العشرين، فظهرت بوضوح واصبح صوتها مسموعا من الجميع وكانت هذه القنوات تعمل بروح ثورية احيانا وبروح اصلاحية في احيان اخرى ، ولم تلتق هذه القنوات المختلفة مع بعضها البعض الا في ثورة ١٩١٩ ، حيث ظهر السيل من جديد وغداه السخط الشعبي غداء خصبا فاندفع يجرف ما امامه ويتحداه .

وفي بداية هذا القرن ، ومن خلال تناقضات عديدة ضخمة بدأت الف شرارة وشرارة تشتعل في مصر ، كل شرارة تحمل تيارا اساسيا مسن التيارات التي نبعت في الاصل من ثورة عرابي ، وكان الذي يجمع بين معظم هذه التيارات هو الرغبة في الخروج من اليأس العظيم الى الامل العظيم - الخروج من الظلام الى النور .

ولنقف لحظة امام بعض هذه التيارات الرئيسية لعلنا بذلك نستطيع ان نعرف المناخ الفكري في هذه المرحلة وهي بداية القرن العشرين ، وهي المرحلة التي نشأ فيها عباس العقاد ، وحدد موقفه في كثير من القضايا

الرئيسية ، ولقد كانت هذه المرحلة من ناحية أخرى تحمّل المقدمات المباشرة للثورة الوطنية الكبرى في مصر والتي ظهرت في أعنف صورها سنة ١٩١٩ ، وهي نفس الثورة التي برز فيها العقاد وساهم في قيادتها الفكرية واستمد منها كثيرا من مواقفه وأفكاره بعد ذلك .



كان هناك تيار يدعو الى تجديد التراث العربي الاسلامي حتى يتلاءم مع روح القرن العشرين ، وحضارة القرن العشرين ، وكان زعيم هذا التيار ومنبعه الاكبر هو الشيخ محمد عبده .

كان محمد عبده يريد ان يخرج المصريين والمسلمين عموما من التخلف الحضاري الكبير ، ومن اليأس المر الذي كان يسيطر عليهم نتيجة لهذا التخلف . فالانسان في مصر - في ذلك الحين - لا يكاد ينظر الى نفسه نظرة سريعة حتى يدرك على الفور ما حل به من الدمار والانهيار ، وحتى يدرك انه في مقياس الحضارة انسان من الدرجة الثانية او الثالثة ، وكان يكفي ان يقارن الانسان في مصر بين احوال امته واحوال الامة المسيطرة عليه وهي الامة الانجليزية حتى يصل الى هذا الشعور اليأس الحزين وفي هذا الميدان الحضاري بالذات وقف محمد عبده يشن حربه ويخوض معركته الكبيرة . انه احد زعماء الثورة العربية ، واحد الذين شربوا مرارة الفشل الثوري ، واحد الذين انتهوا في آخر الامر الى انه لا بد من خوض معارك جزئية مختلفة ما دامت الثورة الشاملة قد فشلت .

وكانت المعركة الجزئية التي اختارها محمد عبده هي ازالة التناقض الشكلي الذي اقامته الرجعية الفكرية والدينية بين الاسلام والحضارة العصرية ، فالاسلام لا يرفض - في روحه - او نصوصه - مظاهر التقدم في الحضارة الحديثة . وكان محمد عبده يتحدث في أبسط الامور وأعقدها معا ، فكان يتحدث عن ان «التماثيل والصور» ليست حراما ، ما دامت تقوم بوظيفة كبرى هي حفظ تقاليد الناس وعاداتهم وأذواقهم ، وكان محمد عبده يكتب في نفس الوقت الى الفنان والمفكر الروسي العظيم «تولستوي» والذي تحول في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن الى قديس يذيب نفسه دفاعا عن المظلومين والمظلومين ، وكان محمد عبده يرأسه ليبارك دعوته الى العدل بين الناس . وفي نفس الوقت كان محمد

عبده يغذي الدعوة الى تحرير المرأة وتعليمها . حتى لقد نسب اليه أعداؤه الذين كانوا يحاربونه ويحملون عليه انه هو الذي ألف كتابي قاسم أمين المعروفين : «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وأنه تخفى تحت اسم قاسم أمين حرصا على مركزه الديني .

وهكذا كان محمد عبده في أوائل هذا القرن يخوض معركة جزئية ولكنها معركة كبيرة وكان في هذه المعركة يمثل تيارا من التيارات المدوية التي بدأت تتحرك بعنف داخل المجتمع في مصر ، وكان الهدف الأكبر من وراء هذا التيار هو تخليص الاسلام من الفهم الرجعي المتخلف ، السلي ينتهي به الى الوقوف في وجه الحضارة العصرية . وبذلك تنحصر مصر ومن ورائها العالم العربي والاسلامي في حدود تخلف حضاري كبير ، بحجة واهية خاطئة ، هي : ان الدين الاسلامي يريد ذلك ويدعو اليه .



والتيار الثاني الذي كان قائما في هذه الفترة ايضا كان تيارا يمثله مصطفى كامل وهو تيار سياسي بالدرجة الاولى ، لقد كان مصطفى كامل يريد ان يمسح كل ما علق بقلب مصر من آثار اليأس بعد هزيمة العربيين . . نفس الهدف عند محمد عبده ، ولكن بأسلوب مختلف . لقد كانت خطب مصطفى كامل نوعا من الشعر الرومانسي الجميل ، موضوعه مدح مصر والتغني بعظمتها وجمالها ، ولعل مصطفى كامل كان يتصور انه من خلال هذا الموقف ، سوف يعيد الى قلوب المصريين عشقهم الكبير لبلادهم ، هذه المعشوقة التي لا يجوز ان يسلوها احد ، او يتخلى عن هواها انسان .

وكان موقف مصطفى كامل من ناحية اخرى يعتمد على الربط بين مصر وتركيا ، بهدف ضرب انجلترا في مصر والخلاص من سلطتها نهائيا . ولذلك اتجه مصطفى كامل الى السلطان العثماني ، وجعل منه املا كبيرا في تحرير مصر . وكان مصطفى كامل في نفس الوقت يعتمد على فرنسا ليدفن انجلترا امام الرأي العام الاوروبي ، وكان يساعده في هذا الامر العداء العنيف الذي كان قائما بين انجلترا وفرنسا في ذلك الحين ، وعندما حدث الاتفاق بين لندن وباريس سنة ١٩٠٤ وتضمن هذا الاتفاق اطلاق يد انجلترا في مصر ، واطلاق يد فرنسا في تونس والمغرب

والجزائر ... في هذا العام انتهى التحالف بين فرنسا وبين الحركة الوطنية المصرية ، وأصيب مصطفى كامل بخيبة أمل لم يتخلص منها مدى حياته التي استمرت مدة اربع سنوات مرة بعد هذا الاتفاق بين انجلترا وفرنسا .

ولكن مصطفى كامل - على اي حال - قاد تيارا عظيم الاهمية في مصر في بداية هذا القرن وهو التيار الوطني الاسلامي الذي يعتبر الرابطة الاسلامية رابطة سياسية تشد مصر الى تركيا .

وكان هناك تيار ثالث يمثله ابناء الاعيان من اصحاب الثروات ، وهؤلاء في معظمهم قد تعلموا في اوروبا وعادوا الى مصر ، يحملون في رؤوسهم فكرة عصرية عن القومية والوطنية ، ان المسألة عندهم ليست مسألة دين ولا مسألة عنصر ، ولكنها بالتحديد مسألة مصالح مشتركة بين الناس ، وهذه المصالح المشتركة هي الاساس في فكرة الوطن وفكرة القومية .

ومن خلال هذا المنهج في التفكير ، توصل هؤلاء العائدون من اوروبا الى شعار «مصر للمصريين» ، فأصحاب هذا التيار لا يشعرون بأي ولاء لتركيا كما هو الامر عند مصطفى كامل والحزب الوطني ، بل ان ولاءهم الاساسي لمصر وحدها ، اما تركيا التي يتجه اليها مصطفى كامل فلا تفرق عندهم عن انجلترا التي يحاربها المصريون ويريدون التخلص منها .

وكان زعيم هذا التيار هو لطفي السيد . انه تيار علمي ، وهو الى جانب ذلك يؤمن بالتدرج والاعتدال الى أقصى حد . انه لا يؤمن بالثورة ولا بالعنف ، ولكنه يطالب بالاصلاح الهادئ - خطوة بعد خطوة ، وكان هذا التيار ولا شك هو - بدون قصد او عمد - اقرب التيارات في مصر الى «الفابيين» في انجلترا لا من ناحية الاهداف والمبادئ ، ولكن من ناحية الاسلوب السياسي العملي . لان الخلاف كان كبيرا بين «الفابيين» وبين تيار لطفي السيد وحزب الامة الذي ينتسب اليه ، بل ويعتبر زعيمه الروحي ومفكره الاكبر فالفابيون اشتراكيون بمعنى من معاني الاشتراكية، ولطفي السيد مع اعضاء حزب الامة ، لم يتحدثوا عن الاشتراكية بأي معنى من المعاني ، بل كان مطلبهم الاساسي هو : تحرير مصر سياسيا من السيطرة الانجليزية . ولكن وجه الشبه بين التيارين ... تيار حزب الامة ولطفي السيد وتيار «الفابيين» هو - الاعتدال والتدرج في أسلوب العمل السياسي لتحقيق الهدف .

وهكذا فان حزب الامة لم يكن يطالب بالاستقلال العاجل ، بل كان

أقصى ما يتمناه ويدعو اليه هو استقلال أشبه بالحكم الذاتي ، بحيث تحكم مصر نفسها ولكن مع ارتباط وثيق بانجلترا وتنسيق كامل معها في شتى القضايا والشؤون .

ولكن قيمة التيار الذي خلقه لطفي السيد في بداية هذا القرن في مصر ، كانت راجعة الى اصراره على شعار « مصر للمصريين » من جانب ، والى الدعوات الإصلاحية التحررية التي كان يتبناها هذا التيار ويناصرها من جانب آخر ، مثل - الدعوة الى تحرير المرأة ، والدعوة الى التعليم الجامعي ، وما الى ذلك من دعوات كان لها قيمتها وأهميتها في بداية هذا القرن .

ان الازمة الاساسية التي كانت تحرك هذا التيار ، هي أزمة التخلف الحضاري بمظاهره العملية والاجتماعية والعمرانية ، فأصحاب هذا التيار هم كما أشرت في البداية من أبناء « الاغنياء والاميان » وكانوا يسمون أنفسهم بهذه التسمية الغريبة وهي « أصحاب المصالح الحقيقية » . ولذلك لم تكن القضية بالنسبة لهم قضية حادة عنيفة ، لانهم كانوا في النهاية اقل طبقات الامة تأثرا بمظالم الاستعمار الانجليزي ، وان كانوا يعانون من التنافس الاقتصادي بينهم وبين المصالح الانجليزية ومن هنا كان منهجهم في « التغير » هو التدرج والإصلاح ، والعمل على التخلص من التخلف الحضاري بأسلوب هادئ ، وخطوة بعد خطوة .

ولم يكن في هذا التيار أي خطر مباشر على الانجليز ، بل كان هذا التيار على العكس أقرب الى التحالف مع الانجليز .



بقي من التيارات الهامة التي كانت تملأ مصر في بداية القرن العشرين ، تيار رابع هو تيار المهاجرين من الشام الى مصر . وهذا التيار لم يكن مثل التيارات السابقة أثرا من آثار فشل الثورة العربية ، وانما ولدته ظروف أخرى هي ظروف الثورة ضد الحكم العثماني الذي كان مسيطرا على الشام وغيرها من بلاد آسيا العربية . وقد هاجر أصحاب هذا التيار من الشام ، واختاروا مصر ملجأ لهم وساعدهم على النجاح ، ان مصر كانت مهياة لقبول هذا التيار في بعض جوانبه الرئيسية ، وقد اختار معظم أصحاب هذا التيار أن يتحالفوا مع الانجليز ضد الأتراك بما فيهم من جهل

وظلم وتخلف ، وكانوا يرون ان الانجليز اكثر استنارة وحضارة من الاتراك ، وهي رؤية صحيحة ولا شك ولكنها رؤية ناقصة فالانجليز يمثلون استعمارا جديدا لا يقل قسوة عن الاستعمار العثماني . ومن المصاحبات لهذا التيار: يعقوب صروف وشبلي شميل وفرح أنطون وفارس نمر . ورغم الخلافات الجزئية بينهم فانهم جميعا كانوا يدعون الى العلم والحضارة الغربية العصرية ، وكانوا يحاولون ان ينزعوا عن الشرق كل ما له علاقة بالاتراك وعصرهم المظلم .

ولقد روج هؤلاء لكثير من الاتجاهات العلمية الغربية، مثل نظرية التطور عند دارون ، والدعوات التجريبية الاخرى عند روسو وفولتير وغيرهم من كتاب أوروبا المعروفين بالتجديد والثورة في ميدان العلوم والفنون والحياة الاجتماعية والسياسية .

وكان فرح أنطون بلا شك هو اكثر الجميع ميلا الى الثورة والفكر الثوري بينما كان يعقوب صنوع وشبلي شميل عالمين هادئين يحلمان بتأصيل الفكر العلمي عند المصريين وبقية العرب عموما ، وذلك للخروج بالعقل العربي من جو الخرافات ولتحريره من التعصب الديني الضيق ، ففي ظل الفكر العلمي لن يكون هناك تعصب ديني وانما ستكون هناك مجتمعات عصرية تجمع بين مختلف الاديان في تعاون وثيق من أجل حياة جديدة، ويتميز شبلي شميل عن الجميع ايضا بدعواته المبكرة - حوالي سنة ١٩٠٨ - الى الفكرة الاشتراكية حيث عرض هذه الفكرة في بعض مقالاته وايدها ونادى بها .

هذه هي التيارات الفكرية الرئيسية التي ملأت مصر في هذه الفترة ، وهي التيارات التي كانت تحرك مصر وتحاول ان تخرج بها من أزمتها العنيفة ، وكان كل تيار من هذه التيارات يعمل بطريقته الخاصة وحسب مبادئه ومعتقداته .

ومهما كان الاعتراض على هذا التيار أو ذاك في جانب أو آخر فان هذه التيارات كلها كانت تيارات تقدمية بمعنى من المعاني ، لانها كانت في النهاية تحاول ان توقف مصر وتحررها من بعض قيودها وتربط بينها وبين التيار الكهربائي الحضاري في العالم الحديث بعد ان أصيبت خلال الاعوام التي تلت هزيمة العربانيين سنة ١٨٨٢ أو حتى مطلع القرن العشرين باللام كبيرة وركود عظيم حتى كان من يراها في ذلك الحين يحسب انها في عداد الموتى الذين لن تقوم لهم قائمة على الاطلاق . وهذا ما كان يتصوره ممثل الاستعمار الانجليزي الاكبر اللورد كرومر ، بعد ان عمل له بجد واجتهاد

كبيرين ، ولم يدخر جهدا في سبيل الوصول اليه .
وفي أواخر القرن الماضي وفي مطلع القرن العشرين كان كرومر يظن انه
أتم رسالته الكبيرة فجعل من مصر أرضا صالحة للسيادة الانجليزية الابدية
ولكن مصر بدأت تكذب أحلام كرومر ، وبدأ الجليد فيها يدوب في تيارات
مختلفة حتى جاء اليوم الموعود سنة ١٩١٩ فالتقت معظم هذه التيارات
وأثمرت ثمرتها العظيمة في شكل ثورة وطنية شاملة .
هذا هو الجو الذي نشأ فيه العقاد ، جو اليقظة بعد اغفاء طويلة، وجو
التنبه بعد الاغماء ، جو الحركة ذات الاتجاهات المتعددة بعد الجمود
والركود
فماذا كان موقف العقاد في هذه المرحلة ، وماذا فعل مع هذه التيارات
المتعددة وماذا فعلت به ؟

البحث عن طريق

بدأ العقاد الكتابة سنة ١٩٠٧ تقريبا ، وكان عمره آنذاك حوالي ١٨ سنة حيث أنه ولد سنة ١٨٨٩ ، وهي نفس السنة التي ولد فيها طه حسين . وهكذا يكون العقاد قد بدأ خطواته الفكرية الأولى في قلب فترة مليئة بالحركة والحيوية والاتجاهات المتعددة ، ولقد كانت هذه الفترة بما فيها من قلق فكري واتجاهات عديدة كفيلة بأن تربك الذهن والقلب ، وتشير الاضطراب الذي ما بعده اضطراب أمام شاب جديد يبحث عن طريق . فهل يلتقي الانسان مع أصحاب الهوى العثماني الذين يريدون التحرر من الانجليز عن طريق احياء الرابطة القديمة مع تركيا تحت راية الاسلام ؟ هل يقف فكريا مع الذين يتجهون الى ما وراء البحر الابيض المتوسط في الغرب ويريدون الاخذ بأساليب الحضارة الغربية على أن يتخلصوا من الاتراك والانجليز معا بطريقة هادئة معتدلة وديعة كما كان يريد لطفى السيد ومدرسته ؟ هل يفصل الفكر عن السياسة ويعمل على بذور بذور الحضارة عن طريق الفكر العلمي المادي وحده كما كان يفعل يعقوب صروف وشبلي شميل وفارس نمر وأنصارهم رغم أن كثيرين من هؤلاء لم يجدوا مانعا من الارتباط بالانجليز الذين كانوا في نظرهم أفضل من العثمانيين ؟

لقد كانت فترة تثير الحيرة والارتباك ، فماذا فعل العقاد الذي كان في بداية شبابه آنذاك ، ولم يكن قد وصل الى العشرين بعد ، أن العقاد لم يرتبط بتيار واحد من هذه التيارات العديدة . فالحقيقة أنه كان هناك في كل تيار من هذه التيارات جانب سلبي وجانب ايجابي وقد حاول العقاد الى حد كبير أن يرتبط بالجوانب الايجابية من وجهة نظره ، دون أن يرتبط بتيار

واحد ارتباطا ايجابيا نهائيا لا فكاك منه .

أخذ العقاد من مدرسة محمد عبده نظرتة العميقة الصائبة الى التراث العربي الاسلامي ، فقد رأى أن هذا التراث ينبغي أن يعاد النظر اليه في ضوء العلم الحديث ، ورأى في هذه الدعوى من الاصاله ما ربطه بها الى حد بعيد ، حيث ظل أثر مدرسة محمد عبده باقيا في شخصية العقاد حتى نهاية رحلته في عالم الفكر وعالم الحياة سنة ١٩٦٤ ، ان العودة الى التراث العربي تساعده مساعدة جدية على أن يحس أنه مفكر له جذور ، وليس كائنا هشا لا جذور له على الاطلاق . وهذا الشعور بالانتماء الى ثقافة لها قيمتها ودورها الحضاري كان شعورا مناسبا لطموحه أشد المناسبة فقد كان منذ البداية طموحا يشعر بالاعتزاز الشديد بنفسه وليس من المنطقي مع انسان مثل العقاد يعتز بنفسه أن يقتنع بسهولة أنه انسان بلا ماض ، بلا تراث ، بلا جذور ، او أن يقتنع بأن بلاده التي ولد فيها بلاد مقيم عاقر ، ليس لها ماض من أي نوع .

ولكن تيار محمد عبده ، اذا كان يقدم الى العقاد منهجا عصريا جديدا في النظر الى التراث العربي الاسلامي بحيث يتلاءم هذا التراث مع الحضارة العصرية ، ولا يستعصي عليها او يعوقها . . . اذا كان هذا المنهج يقدم هذه الهدية الثمينة التي تجعل منه كائنا راسخا في الارض ، فانه من ناحية الموقف العملي ليس كاملا بحال من الاحوال ، ذلك لان محمد عبده قد آثر بعد فشل القوى الثورية وتشتتها ، أن يهادن الاحتلال ، وكان كرومر من جانبه معجبا بمحمد عبده أشد الإعجاب راضيا عنه كل الرضا ، والسبب في هذا الموقف أن محمد عبده بعد أن كان «عرابيا» عظيما يقف على رأس العرابيين ، وجد بفريزته العملية أن الإصلاح أجدى من الثورة الم يجرب الثورة ، فتسبقت الثورة زعماءها وهو واحد منهم ، وكان من نتيجتها فقدان الاستقلال وسيادة الاحتلال ؟ لقد اهتدى محمد عبده أخيرا الى أن الشعب نتيجة لقرون طويلة من الظلم والتخلف بالاضافة الى ظروف الاحتلال الجديدة ليس مستعدا للثورة الشاملة ولا قادرا عليها ولذلك يجب اعداده بصبر وانضاجه فوق نار هادئة يمكن ان تثمر على مر الزمن بلا عنف ولا طفرة واسعة، وقد وصل الامر بمحمد عبده الى ان تنكر للعرابيين القدماء وعلى رأسهم زعيم الثورة نفسه احمد عرابي ، وقال محمد عبده في هذا الزعيم أقوالا سيئة ، ولا شك أن هذه الأقوال ظالمة ، مهما كان وراءها من المبررات والأسباب، ونستطيع ان نتصور وقع كلمات محمد عبده على نفس

الزعيم العجوز أحمد عرابي بعد عودته من منفاه ، لقد كان عرابي يسمع مثل هذه الآراء ضده وضد ثورته وهو جالس على مقهاه المفضل ، «مقهى المالية» بلا ظوغي ، وكانت نفسه ولا شك تتمزق وتتألم الى اقصى الحدود .

هذا الجانب الواقعي من فلسفة محمد عبده لم يقنع العقاد ولم يرق له كما يبدو من السلوك العملي للعقاد في تلك الفترة ولذلك فقد رفض تماما فكرة المهادنة للانجليز أو لمثليهم في مصر ورفض أن يعمل في أي جريدة خاضعة لنفوذهم أو في أي عمل يمكن أن يكون لهم فيه سيطرة مباشرة أو شبه مباشرة . لقد كان العقاد من هذه الناحية فتى مصرياً يدرك بالشعور أولا وبالعقل ثانيا أنه لا معنى على الإطلاق للاقتراب من الانجليز أو للاتفاق معهم في أي شيء . هكذا كان شعوره وهكذا كان الشعور الوطني العام في نفس الوقت .

أما بالنسبة للتيار الثاني الذي كان يمثله مصطفى كامل فقد رفضه العقاد منذ البداية وذلك لأنه كان تيارا يريد ربط مصر بتركيا ولم تكن تركيا بالنسبة لشباب مستنير مثل العقاد أملا من الآمال ماذا يمكن أن يجد هذا الشاب في تركيا ، أو ماذا يمكن أن يحب فيها ؟ انها لا ترمز لحضارة مزدهرة ، ولا ترمز لثقافة مستنيرة عميقة ، لا تمثل شيئا من عظمة الماضي ، ولا تحمل بصيصا من نور المستقبل . لقد كانت تركيا بالنسبة لهذا الشاب المستنير المثقف ظلما في ظلام ، ولذلك لم يتحمس إطلاقا للربط بين مستقبل مصر ومستقبل هذه الدولة العثمانية المظلمة كذلك لم يكن العقاد متحمسا لمصطفى كامل تحت تأثير عامل آخر ، فدعوة مصطفى كامل الى الوطنية ، هي دعوة تغلب عليها العاطفة الرومانسية والعقاد منذ البداية عقل متفتح يميل الى الايمان العقلي والبرهان العقلي على الدوام ، لقد كان يحس بنهم شديد الى المعرفة العلمية الخاضعة للمنطق ، لا الى المشاعر الغضة التي مهما بلغت من الجمال فانها خالية - في نهاية الامر - ضعيفة من ناحية المضمون العقلي . ولذلك لم يستجب العقاد لدعوة مصطفى كامل ولم يتجاوب معه .

ولقد روت الكتب التي تحدثت عن شباب العقاد الاول أن سبب نفور العقاد من مصطفى كامل يكمن في حادثة وقعت للعقاد في صباه في أسوان ، حيث زار مصطفى كامل مدرسة العقاد ، وثارَت مناقشة - في أحد الفصول - بين الزعيم الكبير والتلميذ الصغير وخرج التلميذ الصغير عباس العقاد من هذه المناقشة بأن مصطفى كامل انسان متعصب مغرور لا يحب

لاحد ان يخالف رايه بحال من الاحوال . وقد روى العقاد نفسه هذه الحادثة في بعض كتبه ومقالاته .

ومن الممكن ولا شك ان تكون هذه الحادثة الصغيرة سببا من اسباب النفور من مصطفى كامل عند العقاد ، خاصة ان نفسية العقاد كانت من انفسيات الحساسية التي تتأثر بالعوامل الشخصية الذاتية تأثرا كبيرا ، ولكن هذه الحادثة لا يمكن ان تكون السبب الوحيد ولا السبب الرئيسي ، فالمسألة في جوهرها هي الخلاف بين زعيم يعتمد على التأثير العاطفي بالدرجة الاولى وشاب مثقف مستنير يحتاج اكثر ما يحتاج الى الاقناع العقلي .

والعقاد في موقفه من مصطفى كامل يلتقي بمفكر آخر من أبناء جيله هو سلامة موسى . وهذا الموقف من مصطفى كامل هو أحد المواقف القليلة التي التقى فيها العقاد بسلامة موسى التقاء كاملا أو شبه كامل . وقد كان سلامة موسى يرفض من مصطفى كامل اغراقه في الدعوة الى الاسلام . وكان يتصور أن مثل هذا الموقف سوف يؤدي الى فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين لان موقف مصطفى كامل يكاد يشير الى ان مصر وطن المسلمين فقط . أي أن سلامة موسى كان يرفض من مصطفى كامل ما كان يتصوره نوعا من التعصب الديني والوطني والفكري وهذا التعصب المبني على الاندفاع العاطفي هو نفسه ما كان يرفضه العقاد من مصطفى كامل ، رغم أن أسباب العقاد لهذا الرفض كانت تختلف عن أسباب سلامة موسى . فنزعة مصطفى كامل العاطفية البعيدة عن المنطق العلمي الرصين كانت توحى الى العقاد بأن مصطفى كامل هو في نهاية الامر زعيم ضيق الافق متعصب محدود الرؤية ، ولذلك ابتعد عنه ونفر منه .

وليس هنا مجال للحكم لمصطفى كامل أو عليه ، ولكن من الضروري أن نقول في هذا المجال كلمة سريعة ، فمصطفى كامل ولا شك قد ساهم في بداية هذا القرن في إعادة الحماس الى قلب مصر ، بعد أن كان اليأس يسيطر عليها ، ولقد كان مصطفى كامل بأسلوبه العاطفي الحار الذي رفضه العقاد وسلامة موسى معا عاملا من العوامل الفعالة التي ساهمت في إيقاظ الوعي العام في مصر وفي تعبئة الشعور الوطني تعبئة رائعة ، لقد كان مصطفى كامل شاعرا ألهب شعلة الوطنية المصرية في وقت كانت مصر فيه أحوج ما تكون الى شاعر كبير يبعث الى روحها بالامل والتفاؤل .

نعود بعد ذلك الى التيار الثالث ، تيار لطفي السيد وحزب الأمة ، تيار

« مصر للمصريين » . لقد كان هذا التيار أقرب ما يكون الى العقاد لانه تيار يقوده العلماء والمثقفون ، انه تيار اصحاب العقل الكبير والثقافة العالية الواسعة ، واصحاب هذا التيار لم يكونوا يتحدثون قط عن شيء الا وبين ايديهم البرهان العلمي الدقيق المستمد من أعمق الفلسفات التي عرفتھا الانسانية منذ أقدم العصور حتى أوائل القرن العشرين... فلقد كان لطفي السيد على سبيل المثال المفكر الاول لهذا التيار مترجما لارسطو وتلميذا من تلاميذه .

فما هو سر ابتعاد العقاد عن هذا التيار ؟ سره ولا شك هو تكوين العقاد الاجتماعي ، فهو شاب مصري فقير نشأ في ظل أسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة فأبوه موظف صغير والعقاد نفسه قد بدأ حياته موظفا صغيرا ، ولذلك فقد كان يحس بأن لطفي السيد وأعضاء حزب الأمة عموما، بعيدون عنه وعن الطبقات الفقيرة والمتوسطة من أبناء الشعب فهم كلهم من كبار الملاك والاقطاعيين ، فكيف يلتقي هذا الشاب الفقير بتجاربه الاجتماعية القاسية وواقع حياته الشاق مع هؤلاء الذين يمثلون في النهاية طبقة عليا متعالية على الشعب مهما أظهرت من الاهتمام بشؤون الشعب وقضاياه .

لقد كانت هذه النقطة بالذات كفيلة بأن تبعد العقاد تماما عن هذا الحزب وعن أنصاره حتى ولو كانوا من الفلاسفة والعلماء أمثال لطفي السيد وغيره . ولقد كان اصحاب هذا التيار في نهاية الامر - جماعة من المعتدلين الهادئين الذين ينظرون الى الاحتلال الانجليزي بأعصاب باردة ، انهم يرفضونه ولا شك ، ولكنه رفض الارستقراطيين الذين لا يجدون بأسا في ان يحققوا نوما من التعايش السلمي مع الاستعمار الانجليزي وممثليه . فكيف يلتقي العقاد الذي يرفض الاستعمار الانجليزي رفضا كاملا مع هؤلاء المعتدلين الهادئين العقلاء ؟ ... لقد التقى العقاد بمنهجهم المتفتح على الفكر الغربي والثقافة الغربية ولكنه لم يلتق معهم بعد ذلك في شيء ، بسبب تكوينهم الاجتماعي كطبقة عليا في المجتمع المصري وبسبب اعتدالهم المسرف في النظر الى قضية الحرية والاستقلال .

بقي التيار الاخير والذي يمكن أن نسميه بتيار المقتطف نسبة الى مجلة المقتطف التي كان يصدرها يعقوب صروف وهذا التيار هو الذي يمثلته المفكرون المهاجرون من وجه الطفيان التركي في الشام وكان اصحاب هذا

التيار من أمثال - يعقوب صروف وشبلي شميل من أكثر العناصر المتحررة من الناحية العلمية ، لقد فهموا الثقافة الغربية فهما عميقا وروجوا في كتاباتهم لاعمق ما في هذه الثقافة من اتجاهات وآثار . ولقد كانوا على وجه التقريب بيئة غربية تقيم في مصر ... وكان في هذا التيار جاذبية شديدة عميقة بالنسبة للعقاد فهو تيار يتلاءم مع نهمة العقلي الى الثقافة الغربية المعاصرة وقد استفاد العقاد الى اقصى حد من هذا التيار واعتمد عليه شخصا في بعض المراحل حيث عاش فترة من الوقت في رعاية يعقوب صروف العملية فقد ساعده في الحصول على وظيفة باحدى المدارس ، وقد أشاد العقاد بما استفاده من يعقوب صنوع في عدد من مقالاته .

على أن العقاد رغم ذلك كله لم يلتق بهذا التيار الفكري التقاء كاملا لانه بحكم تركيبه كان تيارا مهادنا للانجليز متعاوننا معهم الى اقصى حد ، فقد كان العدو الاول بالنسبة لهذا التيار يتمثل في الاتراك بظلمهم السياسي وعدائهم للعلم والعقل وقد وضع معظم اصحاب هذا التيار - وليس كلهم بالطبع - يدهم في يد الانجليز وكان من بين هؤلاء على سبيل المثال فارس نمر احد زعماء الثورة ضد الاتراك في الشام، ومن عجب ان يجيء هذا الشائر من الشام لينشئ في القاهرة جريدة المقطم التي كانت لسان حال الانجليز في مصر ... - أنه - في الشام - ثوري ضد الاتراك ولكنه في مصر حليف الانجليز ووثيق الصلة بهم . لقد كانت عيون اصحاب هذا التيار مركزة على عدوهم الرئيسي في تركيا ولم يلتفتوا الى خطورة التحالف مع الانجليز، فاذا كان الاتراك يمثلون نوعا قديما من الاستبداد فالانجليز يمثلون نوعا عصريا من الاستبداد لا يقل في نهاية الامر خطورة عن الاستبداد التركي .

وهكذا لم يجد العقاد في هذه التيارات تيارا واحدا يرتبط به ارتباطا كاملا نهائيا وظل يعيش في هذا المناخ الفكري مترددا بين هذه التيارات جميعا دون ان يدوب في أي واحد منها ، او يستسلم استسلاما نهائيا له . وقد كانت هذه المرحلة هي فترة النشأة والتكوين الاساسي بالنسبة للعقاد وتركت هذه المرحلة آثارها في حياة العقاد الشخصية فشقي وتعب وأصابه المرض وتعرض لكثير من الازمات الاقتصادية ولكنه كان في كل هذه الازمات مثالا للشباب المصري الوطني الذي لا يبيع نفسه للانجليز ، وقد عرض عليه الانجليز العمل معهم بلسان السكرتير الشرقي بقصر الدوبارة - مقر المندوب السامي الانجليزي آنذاك - وذلك عندما كان العقاد موظفا في وزارة الاوقاف ، وكان السكرتير الشرقي يغري العقاد بأن يساعد الانجليز على التشهير

بالخديوي عباس حلمي الثاني ، وكان بينه وبين الانجليز معركة اراد منها الخديوي اثبات سلطانه ، ورفض العقاد هذا العرض لا حبا في الخديوي ، ولكن اصرارا منه على الا يكون أداة في يد الانجليز .

وقد جمع العقاد في هذه الفترة، فترة نشأته الفكرية قبل ثورة ١٩١٩ ، بين الاهتمام الكبير بالثقافة الغربية واقباله المتلف على فهمها واستيعابها وهضمها وبين الاهتمام بالثقافة العربية القديمة، وحرص العقاد حرصا تاما على عدم الوقوف بأي شكل من الاشكال مع الاستعمار الانجليزي وأجهزته ، او مع القصر او مع الارستقراطية المصرية مهما قدمت له من اغراءات وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن طه حسين في هذه الفترة بالذات لم يجد مانعا من الارتباط بلطفي السيد وحزب الامة اي بالارستقراطية المصرية ، حيث كان طه حسين يجد بيئة فكرية متحررة تستطيع أن تتقبل آراءه الجديدة المتمردة ، وتستطيع أن تقف الى جانبه وتحميه من ثورة المحافظين ضده . وقد ظل طه حسين مرتبطا بهذه الارستقراطية المصرية حتى اثناء ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، وذلك لان الذي كان يعنيه بالدرجة الاولى في ذلك الحين هو التجديد الفكري وقد تغير موقف طه حسين بعد ذلك ، ولكننا نذكر موقفه في هذه المرحلة لكي يتضح امامنا موقف العقاد الذي كان واحدا من المواقف الصلبة المحددة في عداثها للاستعمار الانجليزي وللطبقة المصرية العليا معا .

وخلال هذه الفترة كان العقاد يعيش على بعض الوظائف الحكومية الصغيرة وعلى العمل في بعض الصحف الوطنية ، وكانت حياته صعبة قاسية ولكنه احتملها بشجاعة ، وقد لاقى كثيرا من المصاعب بسبب اصراره على موقفه الوطني ضد الانجليز والطبقة العليا في المجتمع ، مما فرض عليه احيانا ان يعود الى بلده أسوان ، عندما كانت تسد في وجهه ابواب الرزق . ولكن العقاد في هذه الفترة على أي حال استطاع بارادته القوية وذهنه المتفتح النهم أن يستكمل تكوينه الفكري الاساسي وأن يرتفع بخبرته التعبيرية الى درجة عالية من الكفاءة بحيث لم تكد ثورة ١٩١٩ تندلع حتى كان العقاد قد احتل مكانه في الصف الاول ككاتب لامع من الكتاب المجددين .

وهكذا نجد العقاد في السنوات السابقة على ثورة ١٩١٩ ممثلا حقيقيا للطبقة الوسطى الناشئة في مصر ، فقد كان يجسد في شخصيته ثورية هذه الطبقة الناشئة ، فهو شديد الطموح الى الثقافة الغربية التي كانت وجها

رائعا من وجوه الحضارة الاوروبية ، حيث كانت الطبقة الوسطى تشعر بالحنين الكبير الى اللقاء مع هذه الحضارة لقاء كاملا ، ففي هذه الحضارة كل ما يفري هذه الطبقة . فيها العلوم العصرية ، وفيها التقدم الآلي وفيها الحرية السياسية والفكرية والعملية ، على أن العقاد في ايمانه بالحضارة الغربية والثقافة الغربية لم يكن متفرنجا ... مثل بعض المتفرنجين الذين خلعوا انفسهم نهائيا من الواقع المصري العربي بل كان يمثل أيضا أجمل ما في هذه الطبقة الوسطى الناشئة التي تريد أن تنتمي الى وطن روحي ، ولذلك تمسك بالثقافة العربية القديمة وساعده على ذلك أنه كان ينظر الى هذه الثقافة من زاوية جديدة مكنته من أن يكتشف ما فيها من جمال وروعة . كذلك كان العقاد يمثل النخبة على الاقطاعات وعلى كل تبعية للانجليز أو للاتراك ولقد كان مثالا نابغا للطبقة الوسطى ، وهي الطبقة التي كانت بحكم ظروفها طبقة متمردة مهياة للثورة في ذلك الحين ، أنها الطبقة النامية المليئة بالطموح ، طبقة الافندية الذين يملكون الوصي ولا يملكون شيئا آخر لانهم محرومون من كل الامتيازات التي كان ينالها الاجانب والمتمصرون « وأبناء البيوتات » من الاقطاعات والتجار .

وفي هذه المرحلة بدأت معارك العقاد الادبية وكان أهم هذه المعارك معركته التي اشترك فيها - بالتأييد والموافقة دون الكتابة المباشرة - مع زميله المازني ضد المنفلوطي وكان المنفلوطي يكتب أدبا رقيقا دامعا ، هو في نهاية الامر أدب شكوى وبكاء ، وهو أدب يتلاءم مع روح الهزيمة التي كانت شائعة بعد فشل العربيين الى حد بعيد ، ولكنه لا يتلاءم مع الطموح والتمرد ، ولا يتلاءم مع روح الثورة التي بدأت تسود بين أبناء الطبقة الوسطى الناشئة ، هذه الثورة التي كان فكر العقاد مظهرا من مظاهرها الحية ، وفي هذه المرحلة أيضا بدأت معركة العقاد ضد شوقي ولكنها لم تنفجر في صورتها العنيفة الا بعد ثورة ١٩١٩ .

هذه خلاصة موقف العقاد في الفترة السابقة على ثورة ١٩١٩ ، أي في فترة التعبئة والتمهيد لهذه الثورة وفترة « البحث عن طريق » في الفكر والحياة بالنسبة للعقاد .

كاتب الثورة

عندما اندلعت ثورة ١٩١٩ كانت هذه الثورة بداية مرحلة جديدة في تاريخ مصر وتاريخ العقاد على السواء، ولقد كانت الفترة السابقة على ثورة ١٩١٩ هي فترة « حمل ثوري » بما فيها من تعبئة فكرية وروحية وبما تعرض له الشعب خلال هذه الفترة من ضغوط وتجارب قاسية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وكان الظلم الذي يفرضه الانجليز على المصريين عاملا قويا يتحرك في اعماق المجتمع حتى انتهى الامر الى الانفجار .

لقد وقعت حادثة « دنشواي المشهورة سنة ١٩٠٦ ، حيث تم شنق عدد من الفلاحين في قريتهم دنشواي وامام انظار اهلهم ومواطنيهم وظلت هذه الحادثة تعيش في ضمير مصر منذ وقوعها كذكرى سوداء تنادي بالانتقام والثأر والتحرر من الذين صنعوا هذه الجريمة وفرضوا على الناس كل هذا الظلم والعدا ب . وكانت الحرب العالمية الاولى وما ذاقته مصر خلال هذه الحرب المريرة سببا قويا من اسباب الثورة والتمرد . لقد تم الاستيلاء على شباب الفلاحين في مختلف القرى بالقوة لكي يعملوا في خدمة الجيوش الانجليزية ، ولنترك المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرفاعي يقدم لنا صورة لما فعله الانجليز في مصر اثناء الحرب الاولى وقبل ثورة ١٩١٩

يقول الرفاعي في كتابه « ثورة ١٩١٩ » « ص ٥٤ » :

« لقد جندت السلطة العسكرية العمال والفلاحين في مختلف أرجاء البلاد لاستخدامهم في أعمال الجيش البريطاني وبلغ تعدادهم نيفا ومليون مصري، وكانوا يؤخذون كرها باسم المتطوعين ، وما هم بمتطوعين ويعاملون معاملة

المعتقلين وما هم بمذنبين يربطون بالحبال ويساقون كالانعام ويقام عليهم الحراس وينقلون بالقطارات في مركبات الحيوانات ويعاملون أسوأ معاملة ، ولا يعنى بصحتهم ولا بغذائهم وراحتهم ، وكانوا يوعدون بأن يستخدموا لمدة محدودة ، ثم تستمر على الرغم منهم . ومات كثيرون منهم في ميادين القتال ، أو في صحراء سيناء والعريش ، أو في العراق وفرنسا ، وأصيب كثير منهم بالأمراض والعاهات التي جعلتهم عاجزين عن العمل ، واجتمعت الى تلك المظالم مظالم أخرى بما لجأت اليه السلطة العسكرية من مصادرة الناس في أرزاقهم وحاصلاتهم الزراعية ومواشيهم ودوابهم فقد استولت عليها بأبخس الأثمان وبأسعار تقل كثيرا عن أسعارها في الأسواق وفرضت على كل مركز من مراكز القطر المصري مقدارا معيناً من الحبوب يورده الى الجيش بهذه الاسعار البخسة فكان الاهلون يطلب منهم في بعض الاحيان أكثر مما عندهم . فيضطرون تحت تأثير الضغط الى شراء ما يطلب منهم بأسعار السوق ، ويقدمونه كرها بالسعر البخس » . هذه إحدى صور الواقع المصري في الحرب العالمية الأولى كما يرسمها لنا عبد الرحمن الرفاعي ، ولقد كانت هذه الصورة وغيرها هي الظلم الظاهر ، ولكن كان هناك أشياء أخرى قصد بها الانجليز أن يقضوا على كل أصالة في مصر وأن يفرضوا العقم الحضاري والتخلف على المصريين ، فقد حارب الانجليز على سبيل المثال مشروع انشاء الجامعة المصرية ، وأصطنعوا مشروعا للكتائب واختلقوا مناظرة مفتعلة بين التعليم العام والتعليم العالي ، وقالوا ان مصر أكثر حاجة الى التعليم العام «الأولي والابتدائي» منها الى التعليم الجامعي العالي . كذلك كان الانجليز يحاولون اشعال ثيران التعصب الطائفي للقضاء على وحدة الأمة . وهناك بدور أخرى للشر لا تنتهي بذرها الانجليز بمصر عن طريق الخبراء والمستشارين وعلى رأسهم « دنلوب » مستشارهم الشهير لشؤون التعليم ، وكانت ثورة ١٩١٩ اعتراضا على المظالم الظاهرة والمظالم الخفية التي لا تلاحظها العيون الا بعد البحث والدراسة ولقد تجمع السيل الذي تفرق سنة ١٨٨٢ تحت قيادة عرابي . . . تجمع هذا السيل من جديد سنة ١٩١٩ بعد أن زادت الظروف خبرة ووعيا وسلحتهم بتجارب مريرة ولكنها مفيدة الى حد أقصى .

كيف كانت صورة العقاد سنة ١٩١٩ ؟ كان العقاد قد أصبح في الثلاثين من عمره وكان قد نضج فكريا وأصبح شخصية واضحة تمام الوضوح ، ولم يتردد العقاد في اختيار طريقه بعد أن تردد طويلا من قبل

بين ما هو سلبي وما هو ايجابي في التيارات المختلفة التي سبقت الثورة .
لقد ارتبط العقاد منذ اللحظة الاولى بالثورة وساهم فيها مساهمة
مباشرة ، وكانت مرحلة ثورة ١٩١٩ هي المرحلة التي يمكننا أن نطلق فيها
على العقاد اسم كاتب الشعب الاول - فقد اشترك العقاد بكل كيانه في
العمل الثوري وكان أبرز كتاب حزب الوفد الذي قاد الثورة وكان ينشر مقالاته
في « الاهرام » سنة ١٩٢٠ ، ثم في البلاغ عند صدوره ابتداء من
ديسمبر ١٩٢٢

كانت المقالات التي يكتبها العقاد في تلك الفترة من المقالات الرئيسية
التي تعبر عن وجهة نظر القيادة الثورية وتدافع عنها . ولم يتردد العقاد
لحظة خلال مراحل الثورة المختلفة ، بل كان دائما يقف في أقصى الجناح
اليساري المتطرف في هذه الثورة . ومن اعمال العقاد ذات الدلالة في هذه
الفترة أنه كان يكتب منشورات جماعة « اليد السوداء » إحدى الجماعات
السرية الرئيسية أثناء الثورة . ومن مواقفه الشهيرة أيضا تصحيحه لبيان
« لجنة ملنر » التي جاءت الى مصر بعد اندلاع الثورة بشهور لمحاولة البحث
عن طريق للخروج من المأزق الذي وقعت فيه انجلترا داخل مصر نتيجة
للثورة ، ولقد أصدرت اللجنة بيانا جاء في ترجمته العربية . « أن اللجنة
ترغب رغبة صادقة في أن تمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى
ترقية شؤون البلاد تحت أنظمة دستورية » وسارع العقاد الى تصحيح
الترجمة ، فالعبارة الصحيحة التي قصد الانجليز اخفاءها كانت « تحت
أنظمة حكم ذاتي » ولم تكن « تحت أنظمة دستورية » وكان الفرق بين
العبارتين كبيرا جدا في نظر الوطنيين . لقد كان الوطنيون يريدون الاستقلال
والدستور .

ويريدون أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، ولم يكن المصريون يطلبون
الحكم الذاتي ، فالحكم الذاتي لم يكن يختلف كثيرا عن نظام « الحماية »
الذي كان قائما قبل الثورة وكان من أهم اسباب الثورة .

واذا عدنا الى كتابات العقاد في هذه الفترة نجد أن العقاد يحارب
بعنف وقوة على عدة جبهات ، فالعقاد يهاجم الانجليز باعتبارهم العدو الاول
للحركة الوطنية وهو ينادي بالدستور ويدعو اليه دعوة حارة قبل أن يصدر
فالدستور هو أعز أهداف ثورة ١٩١٩ الوطنية ، فهو أساس الاستقلال
والحرية ، وبعد أن يصدر الدستور في ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ يدافع العقاد
بقوة عن الدستور ويهاجم أعداء الدستور هجوما قاسيا لا يقبل العقاد فيه

رحمة ولا مساومة، كما يدافع العقاد بقوة عن الوفد باعتباره الممثل الحقيقي للثورة الوطنية ثورة الحرية والاستقلال ، ويدافع عن سعد زغلول قائد الثورة ، وفي نفس الوقت يشن العقاد نيرانا من الهجوم الحاد ضد أعداء سعد وأعداء الوفد وأعداء الحركة الوطنية الذين انشقوا على الوفد وخرجوا على زعامة سعد، وقد تجمع أعداء الحركة الوطنية هؤلاء في حزب « الاحرار الدستوريين » .

كان العقاد في هذه الفترة يركز في كتابته على فضح الانجليز ومواقفهم في مصر، ويحاول دائما أن يثير الرأي العام ضد الاحتلال وسيئاته المتعددة، ومن نماذج كتابته في تلك الفترة ما كتبه في « البلاغ » في فبراير ١٩٢٣ أي قبل اصدار الدستور . . . في هذا المقال يقول العقاد « نشرت زميلتنا الاخبار في ١٤ يناير الماضي خبرا جاء فيه أن مسجوننا يخدم في حديقة احد الموظفين الانجليز اكل « طماطة » واحدة ملقاة ، فما كان من السيدة زوجة الموظف الانجليزي وقد رأت المسجون الا أن أمرت الاونباشي الحارس أن يظل يضرب المسجون بالكرباج حتى تكلفه أن يكف . . . الخ » .

« ومن هذا اليوم الذي نشر فيه الخبر الى يوم امس لزمّت السلطات الصمت فلم نقرأ له تكديبا ولم نعلم بتحقيق حدث لاطلاع الرأي العام على نتيجته ، كل ما علمناه اخيرا أن الاستاذ مدير الاخبار استدعى على اثر نشر الخبر وسئل عما ورد فيه وطلب اليه ذكر اسم كاتبه فرفض افشاء هذا السر الصحفي ثم انصرف على ان يجري التحقيق في هذه الحادثة ويبلغ بنتيجته » .

« أما النتيجة التي بلغت الى حضرته بعد استدعائه كما تقدم فهي ما ظهر امس من أن السلطات المختصة تنوي محاكمة حضرته لنشره خبرا « يحدث الفزع والقلق بين الاهالي المدنيين وطبقة منهم » وهذا كما تقول ورقة الاتهام مخالف لنصوص المادة ١٤ من الاعلان الصادر في ١٤ مايو سنة ١٩١٦ ومخالف لقانون مصر لانه - والاشارة هنا الى مدير الاخبار « ينشر ويوزع ويحفظ للبيع في محل عمومي مادة مطبوعة من شأنها إثارة احساسات الاحتقار أو البغض لطبقة من الاشخاص » . . . ان المصريين لم يعد يخفى عليهم غرض الانجليز من التسوية في الغاء الاحكام العرفية بحجة ينتحلونها بعد حجة ولكن الانجليز هم الذين تخفى عليهم الحقيقة وهي أنهم لن يلبغوا بابقاء احكامهم العرفية غرضهم الذي يرمون اليه من هذه

البلاد « ١ » .

وبعد صدور الدستور يواصل العقاد هجومه على الانجليز في كل مناسبة تتيح له ذلك لان الانجليز لم يخرجوا من البلاد بعد صدور الدستور بل استمر احتلالهم للبلاد، واستمرت محاولتهم للتحكم في السلطة لتحقيق مصالحهم على حساب مصالح الشعب .

ففي سنة ١٩٢٦ واثناء وزارة عبد الخالق ثروت الائتلافية ، حيث كان سعد زغلول آنذاك رئيسا لمجلس النواب ، قام المندوب السامي البريطاني بزيارة للمنيا فكتب العقاد في البلاغ يقول :

« مهما يكن الرأي في زيارة المندوب البريطاني للمنيا فالامر الذي لا نزاع فيه ولا يصح أن يكون فيه نزاع هو أن هذه الزيارة يجب ألا تتكرر في اقليم آخر ، وألا نسمع مرة أخرى ان المندوب البريطاني يقف بين المصريين موقف الحاكم بين رعاياه ليحدثهم عن اهتمام حكومته برفاهيتهم وسعادتهم ، ويعددهم الوعود ويشجعهم على مخاطبته والرجوع اليه ، فان البلاد لم تثر ثورتها على الحماية البريطانية ولم تفقد زهرة شبابها وحبّة أموالها وتصابر على مضانك الجهاد أربعين عاما لتسكت بعد ذلك عن مظاهر فضولية لا معنى لها الا اننا لا نزال في ظل الحماية وان « رفاهيتنا ومصالحنا » لا تزال في كفالة الحكومة البريطانية وقد كنا نفهم أن يزور المندوب البريطاني المنيا بصفته الشخصية ، أو أن يزورها بصفته الرسمية ولكن لا تحشد له الوفود ولا يسمع منه ذلك الكلام الذي تجاوز فيه حكومة البلاد الى مخاطبة رعاياها في شؤون لا يجوز لغير تلك الحكومة أن تتولاها ، بل كنا نفهم بشيء من الجهد أن يتجاوز الحكومة ذلك التجاوز ويداري افتياته عليها بكلام يفيد الاعتراف لها بالاستقلال والمجاملة لها فيما تطلبه من مطالب وتسعى اليه من الحقوق ، ولكن زيارة مندوب أجنبي لاقليم من اقاليم مصر « المستقلة » لا لشيء الا ليقول هناك كلاما يفغل فيه حكومة البلاد ويدعي لنفسه ولحكومته حقوقا تتنافى مع أبسط معاني الاستقلال امر غير مفهوم من ذلك المندوب الاجنبي ، وغير مفهوم من الحكومة المصرية ان تسكت عليه وأن تدع الباب مفتوحا لتكراره والتوسع فيه » .

« ان الحكومة البريطانية عرفت كيف توجه نظر حكومتنا توجيهها جديدا

الى احكام صدرت من المحاكم المصرية وكيف تعلن ذلك على الملأ مع ما فيه من التشهير بأخلاق المصريين وقضاء المصريين - أفلا تعرف حكومتنا كيف توجه نظر المندوب البريطاني توجيهها جديا الى أن رفاهية الفلاحين شيء لا يعنيه وأن حكومة بريطانيا «العظمى» لا تعرف ولا ينبغي أن تعرف أفراد الشعب المصري بغير وساطة الحكومة الوطنية... وهكذا كان العقاد يهاجم الانجليز هجوما مباشرا خلال الثورة . وكان يهاجمهم هجوما مباشرا أثناء اعداد الدستور حيث كان الانجليز يقومون بمحاولات مستميتة للإبقاء على الاحكام العرفية والاستمرار في ارباب المصريين والضغط عليهم ، وكان العقاد يهاجم الانجليز بعد صدور الدستور كلما بدرت منهم محاولة لتعطيل الدستور وجعله دستورا شكليا للبلاد ، ثم تحويل الاستقلال المصري نفسه الى استقلال على الورق ليس له قيمة فعلية يحس بها المواطنون .

واذا كان العقاد قد تصدى للهجوم على الانجليز وتحريض الراي العام ضدهم ، فقد تصدى في نفس الفترة للرجعية المحلية ووقف في وجهها بعنف، خاصة وان الرجعية المحلية قد بدأت تتآمر على الدستور بعد صدوره، وتحاول أن تقضي على الحرية والديموقراطية ، واخذت الرجعية تعمل بالتحالف مع القصر والانجليز لهدم مكاسب ثورة ١٩١٩ الديموقراطية الوطنية .

وقد ركز العقاد في البداية حملته على حزب « الاحرار الدستوريين » هذا الحزب الذي تألف أساسا لمحاربة الوفد ، وليكون سندا للسراي والانجليز ، وكما يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بحق ، فان هذا الحزب الذي تم اعلان تشكيله في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢ تألف « لا استنادا الى تأييد الشعب بل ارتكانا على سلطة الحكومة ، وقد لازمه هذا العيب طول حياته فهو ليس حزبا شعبيا يرتكز على ارادة الشعب ، بل هو حزب حكومي يعتمد على قوة الحكم ، ومن هنا جاء تغلبه لسلطة الحكومة على سلطة الشعب وميله الى اهدار سلطة الامة لكي يصل الى مناصب الحكم ، ولا ترتقي الامة بهذه الاساليب في النضال السياسي لان النضال الذي يقوم على التوهين من سلطة الامة انما يرمي في آخر الامر الى استعباد الشعب ، ومن ثم ظهرت في محيط هذا الحزب معظم الوسائل والتدابير التي ترمي الى حرمان الشعب حقوقه السياسية . وكان وجود هذا الحزب موضع اطمئنان السياسة البريطانية اذ كانت تهدد به كل هيئة

نيابية لا تميل الى التسليم في حقوق البلاد . كما كان مع غيره من الاحزاب الرجعية وسيلة لاستعادة الحكم المطلق» (١) . . . هذا هو التقييم السياسي الذي يقدمه عبد الرحمن الرافعي لحزب الاحرار الدستوريين وهو تقييم صحيح اذ أن هذا الحزب اعتمد منذ نشأته على مجموعة من كبار الملاك الاقطاعيين انضم اليهم بعض كبار الرأسماليين ، فمن الاقطاعيين المعروفين محمد محمود وأمثاله ومن الرأسماليين اسماعيل صدقي وأمثاله . وكان الاقطاعيون والرأسماليون معا يجدون الخير والمصلحة لهم في التعاون مع الانجليز والسراي ، أكثر مما يجدون الخير والمصلحة في التعاون مع القوى الوطنية والديمقراطية ، وقد ساهم الاحرار الدستوريون باستمرار في كل اعتداء على الدستور والحريات ، منذ تكون حزبهم سنة ١٩٢٢ حتى قيام ثورة ١٩٥٢ ومن هنا اتخذ العقاد موقفه الفكري الواضح ضد الاحرار الدستوريين ، فهم الذين ظهروا في أعوام الثورة الوطنية ليمثلوا بوضوح « ثورة مضادة » لاهداف ثورة ١٩١٩ ، وليكونوا أداة في يد الانجليز والسراي لعرقلة حركة النمو الوطني والديمقراطي في البلاد . ويكتب العقاد في تلك الايام مقالا عنيفا بعنوان « ماذا تخسر مصر لو فقدت الاحرار الدستوريين (٢) » ، وفي هذا المقال يبدأ بالهجوم العنيف على هذا الحزب الرجعي ، ثم يتوقف بعد ذلك ليقدم تحليلا موضوعيا للحزب ثم ينتهي الى الهجوم الشخصي الحاد على اعضاء الحزب . . . في البداية يقول العقاد اجابة على السؤال الذي جعله عنوانا لمقاله « . . . ماذا تخسر مصر لو فقدت الاحرار الدستوريين » :

« سؤال غريب ! وكأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت الوصولييين المنافقين عشاق المناصب وعباد المآرب وانصار كل غالب وغاصب ، أو كأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت الكذابين الدسائسين الذين يميتهم الصديق والنور ويحجبهم الكذب والظلام ، أو كأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت تجار السياسة الذين يبيعون الوطن في سوق المطامع ويسعون بين الامة وغاصبيها سعي السوء ويبدون لها غير ما يضمرون ويريدون بها غير ما تريد » ثم ينتقل العقاد الى تحليل « الاحرار الدستوريين » وعلاقاتهم

١ - عبد الرحمن الرافعي - في اعقاب الثورة المصرية - الجزء الاول ص ٦٩ و ٧٠ .

٢ - عامر العقاد - صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

السياسية فيكتب في نفس المقال : « الاحرار الدستوريون عورة السياسة المصرية وموطن الضعف فيها وباب المطامع الذي يلج منه الانجليز الى دخیلتها ، ولولاهم ولولا تهافتهم على المناصب ووقوفهم بالمرصاد لكل فرصة سانحة واستعدادهم لكتابة العرائض التي يستجدون بها الوزارات ويستعطفون بها الانجليز - لولا ذلك لعلم الانجليز ان الامة يد واحدة وكلمة واحدة لا مساومة فيها ولا مناورة ، فاما ان يعطوها كل ما تريد واما ان يناوئوا منها امة كاملة مجمعة على الالباء والمقاومة والثبات على مطالبها حتى تنالها جميعا وتبلغ من الاستقلال والحرية ما تريد . ولكن الاحرار الدستوريين ظلوا مع الوفد المصري حتى سنحت لهم بارقة الامل من ناحية مشروع ملنر « بحمايته الصريحة » فتكالبوا عليه ووثبوا الى الفرصة يرتجفون وجلا من ان تفلت من ايديهم ، وانلدروا سعد بالتفرق عنه والانفضاض من حوله ، وراوا انهم قد جاوزوا الحد في الجهاد وكلفوا انفسهم فوق ما تطيق من الصبر والثبات » وكان الاحرار الدستوريون يقيمون دعايتهم على انهم حزب الفنيين الذي يضم مجموعة عالية من الكفاءات الطبية والقانونية . . . الخ . وهنا وقف العقاد ضد هذا الادعاء بانهم حزب المواهب والكفاءات ، يقول العقاد : « ان هذا الخلق الذي يحمل لواءه بعض المحترفين على المنافع الزائلة يزعم انه « خلق الكفاءة » . لا شيء الا لانه مجرد من الاخلاص . كان الكفاءة والاخلاص وصفان متنافيان في عصف هؤلاء واثك لتسأل من هم الاحرار الدستوريون القائمون بهذه الدعوة في مصر ؟ فيقال لك انهم على الاكثر عشرون أو ثلاثون محاميا على طبيب ممن لم يعرفوا في حياتهم قط بشيء من التضحية أو حماسة المبدأ والعقيدة . فماذا تفقد مصر لو لم يكن فيها هؤلاء العشرون أو الثلاثون محاميا على طبيب ؟ أترى ان اصحاب الدعاوي يحملون قضاياهم الى ابواب المحاكم فلا يجدون عندها من يتولى المرافعة فيها ؟ أترى ان الامهات تدفن أطفالها من اليأس لان مدير السياسة (١) ناقص من عداد الاربعة عشر مليون الذين يقيمون في هذه البلاد ؟ أترى ان القانون يأبى ان يتعلمه المتعلمون وان الطب يدرسه الدارسون ؟ ومن من هؤلاء العشرين أو الثلاثين محاميا على

١ - يقصد العقاد هنا الدكتور حافظ عفيفي مدير جريدة السياسة التي أصدرها الاحرار الدستوريون وكان حافظ عفيفي طبيب اطفال .

طبيب من تعجز الامة عن تعويضه بمائة من مثله اذا شاءت المقادير الا يذكر فيها اسمه ولا يطلع عليها نحسه ؟»

وينتقل العقاد بعد ذلك الى الهجوم الشخصي العنيف على بعض الاسماء في حزب الاحرار الدستوريين فيتساءل من من هؤلاء لا تستطيع الامة تعويضه : « ... أهو العقل الفبي محمد محمود ؟ او الارعن المسلوب عبد العزيز فهمي ؟ او « البلياتشو » المحزن جلاد دنشواي (١) ؟ او طبيب الاطفال وطفل الاطباء حافظ عفيفي ؟ او الرجل التام الرجولة كامل البنداري ؟ او سمسرة المحاكم العسكرية « وهيب دوس اخوان » ؟ او المسفسط المأفون محمد علي ؟ من من هؤلاء يعيي هذه الامة مكان نده او يعجزها ان تعوضه بألف من مثله ؟ ما هي آثارهم التي كتبت لهم هذه الكفاءة التي يدعونها ؟ واين هي اذناهم او قرونها او زوائد أعضائهم التي تعرف بها فصيلتهم على المئات من رجال الوفد المحامين والمعلمين والاطباء والمهندسين الذين يفوقونهم في المعرفة والدكاء والاخلاص والنخوة النفسية والعقيدة الوطنية » .^١

ويواصل العقاد هجومه على الاحرار الدستوريين ودفاعه عن سعد زغلول والوفد بمثل هذا العنف والشراسة ، ولا يتوقف عن حملته هذه تحت تأثير الارهاب والاضطهاد ، بل يواصل موقفه بشجاعة نادرة وعنف ناري ، ولا يتردد في استخدام شتى أساليب الهجوم والتشهير ضد أعدائه ولا شك أن كتابته في تلك الفترة كانت نوعا بارزا من « أدب الهجاء السياسي » ، فلم يترك العقاد واحدا من رجال الرجعية في السياسة المصرية في ذلك الحين الا وجعل منه موضوعا لسخرية الجماهير وسخطها واستنكارها له .

وقد قامت الرجعية السياسية في مصر بعد اصدار الدستور سنة ١٩٢٣ بانقلابين كبيرين على هذا الدستور في العشرينات ، وقد تم الانقلاب الاول بقيام وزارة أحمد زيور « في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ » وذلك بعد استقالة وزارة سعد زغلول على اثر حادثة مقتل « السير لي ستاك » الشهيرة ، وقد قامت هذه الوزارة بالغاء البرلمان المنتخب لان أغلبيته كانت وفدية ، وقامت باجراء انتخابات جديدة ولكنها جاءت بأغلبية وفدية أيضا .

١ - يقصد العقاد بجلاد دنشواي ابراهيم الهلباوي وكان عضوا في الاحرار الدستوريين .

بدأت هذه الوزارة بالاعتداء على الدستور واعتقال عدد كبير من شباب الوفد البارزين ، وقد أدلى عبد العزيز فهمي رئيس «حزب الاحرار الدستوريين» ووزير «الحقانية» في هذه الوزارة بتصريح كانت كلماته واضحة في اظهار استعداد الرجعية المصرية للاعتداء على الدستور والقضاء عليه... وقد ادلى عبد العزيز فهمي بتصريحه في ١٧ مارس سنة ١٩٢٥ وقال في هذا التصريح بالنص «في أعقاب الثورة المصرية - الجزء الاول - عبد الرحمن الرافعي ص ٢١٧» :

«لقد اشتغلت بلجنة الدستور وكنت أعتقد ان الدستور مناسب لبلدنا، ولكن العمل أظهر انه ثوب فضفاض ، وبالرغم من هذا الذي أظهره العمل سنحافظ عليه ونرعاه» .

وبعد ان قال عبد العزيز فهمي «ان الدستور ثوب فضفاض على الامة» حاول ان يؤكد سلطة «الملك» وحقه في العبث بدستور البلاد فقال في نفس التصريح :

«في هذا الدستور حق مقرر لجلالة مولانا الملك وهو حل مجلس النواب في كل وقت ومتى اراد ومتى رأى في ذلك المصلحة للبلاد» . وهكذا أفتى عبد العزيز فهمي، القانوني الكبير وأحد واضعي الدستور بأن من حق الملك ان يعيث بحرية الامة ودستورها ، وانه اكتشف ان الدستور «ثوب فضفاض» لا يناسب المصريين ومنطق عبد العزيز فهمي هنا هو منطق الرجعية المصرية في ذلك الحين ، وهو منطق حزب الاحرار الدستوريين الذين ظهروا على سطح الحياة السياسية المصرية لاداء هذا الدور الرجعي في تحطيم الحريات ومساندة الملك والانجليز ضد الامة وضد مصالح الجماهير ومن اجل تصفية ثورة ١٩١٩ . والغريب ان عبد العزيز فهمي نفسه قد استقال من وزارة «زيور» بعد شهور وراجع موقفه السابق من الدستور ، وعاد الى المطالبة بالمحافظة على الدستور حيث قال «ان من الواجب علينا ان نحافظ على الدستور في كل مقام بقطع النظر عن كل اعتبار»... ولكن تحول عبد العزيز فهمي لم يحمل معه اي تحول جذري في حزب الاحرار الدستوريين ، حيث ظل هذا الحزب مؤيدا في معظم مواقفه للانقلابات الدستورية، مشاركا في انتهاك الحريات والوقوف في وجه الحركة الوطنية الديمقراطية ، حريصا على تصفية ثورة ١٩١٩ وتصفية كل ما حققته من انجازات .

قام النواب في عهد وزارة زيور باتخاذ قرار باجتماع مجلسهم الذي

حلته الحكومة ، وقد منعت الحكومة الاجتماع في مقر المجلس ، فعقد النواب اجتماعهم في فندق «الكونتنتال» في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ وانتخبوا سعد زغلول رئيسا للمجلس وأصدروا بيانا قالوا فيه انهم ارادوا عقد المجلسين «النواب والشيوخ» في دار البرلمان فمنعتهم القوة من الوصول اليه ، وعلى ذلك اجتمعوا في فندق الكونتنتال وتكامل عددهم القانوني ... وقد قرر النواب في اجتماعهم :

اولا - الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور وعلى منسح الاجتماع في دار البرلمان بقوة السلاح .

ثانيا - قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة طبقا للمادة ٦٥ من الدستور وهي المادة التي تنص على انه اذا قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة وجب عليها ان تستقيل فاذا كان القرار خاصا بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة .

ثالثا - اعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا واستمرار اجتماعات المجلسين في المواعيد والامكنة التي يتفق عليها الاعضاء» (١) .

وحول حادث انعقاد البرلمان في فندق الكونتنتال رغم موقف الحكومة ومعارضتها لهذا الاجتماع ومحاصرتها لمقر مجلس النواب والشيوخ لمنع ممثلي الامة من الاجتماع... حول هذا الحادث الذي كان يعتبر الحادث الاول من نوعه في تاريخ النضال الوطني في مصر كتب العقاد في جريدة «البلاغ» مقالا تحت عنوان «يوم الامة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥» يقول العقاد في هذا المقال :

«في هذا القرن العشرين لن تدين الامة لسلطة الافراد ولن تحكم باسم القوة والاستبداد . في هذا القرن العشرين لن تورث الامم كما تورث الماشية الدلول لمن يحمل العصا وراءها ويدعي السيادة عليها . في هذا القرن العشرين لن تستطيع وزارة ان تقوم بغير دستور او ان تشهر الحرب على وطن ينكر عليها دعواها ويعرف لنفسه حقه ويتفق على ان يكون سلطانه هو الغالب ولو حالت دونه المصاعب والعراقيل . في هذا القرن العشرين يعلم الدساسون - طوعا او كرها - والاذلاء وسماسرة السوق ان قد بطل

١ - عبد الرحمن الرافعي - في امقاب الثورة المصرية - الجزء الاول ص ٢٤١ .

الايمان بذلك الحكم المطلق الذي آمنت به الشعوب في قديم العصور ، وان لن يبقى على الارض حكم قد بطل الايمان به وانقضت القلوب من حوله . فمن لم يعقل ذلك منهم طوعا فسيقله وانفه راغم ويده مغلولة الى عنقه وجبينه منكس في الخيبة والهوان»

ثم يتحدث العقاد عن حادثة انعقاد مجلس النواب رغم أنف الحكومة ورغم ارهابها وطفيانها فيقول :

« . . . ان هذا اليوم (٢١ نوفمبر ١٩٢٥) لفاتحة النضال الفعال بين الامة والوزارة الشائرة على الدستور الخارجة على حكم الاجماع ، وانه ليوم مكسوب من ايام هذا البلد التي حفل بها وطاب الانباء والذكريات ، ولئن لم ينته باجتماع للنواب في دارهم المعلومة ليكون ذلك اقرب مما تحسب الوزارة او يحسب لها الذين يدبرون امرها في الخفاء ، وليكونن في يوم لن نجد الوزارة فيه بين يديها عدة تشهرها على احد او تحتمي بها من حق ، وليكونن في يوم يخرج فيه جبابرة اليوم مجرمين منبوذين لا يدفعون العدل عن انفسهم ولا هم يرحمون » . . . ثم يحذر العقاد من « ثورة دموية » فيقول : « اما والله لو شاء هذا الشعب ان ينفذ كلمته قسرا لما اعياه ذلك ولا انتهى هذا اليوم الا بما يريد ، ولكنه يحذر العواقب في بلد يحتله الفاصب وتشتبك فيه مصالح الاجانب ، ويعلم ان عصابة الشائرين على الدستور تستغل منه ذلك العلم ما وسعها ان تستغله ، وتلتمس النجاء به مما استطاعت ان تلتمسه . فهي تعرض عن صوت ذلك الاجماع الذي يواجهنا به نواب البلاد ويؤيدهم عليه كل ذي رأي في مصر . وكل فرد من افرادها لا مارب له في دوام هذه الحال » .

ثم يقول العقاد :

« ان السبت الثالث من هذا الشهر «نوفمبر ١٩٢٥» لم ينقض ونحن نكتب هذه السطور ، وان مجلس النواب ليجتمع فيه حيث أمكنه الاجتماع وان حيل بينه وبين مكانه المعلوم ، وان الحوادث في هذا اليوم لتجري على قدر لا يعلم به الا علام الغيوب ، ولكن قبل ان ينقضي بياضه ، بل قبل ان يكتب عنوانه ، نعدده من ايام مصر المذكورة ، ونسجل فيه نصرا عزيزا للدستور ، على دولة الظلم الدائلة ، وخطوة جديدة للزمن السائر الى الامام يخطو بها على رؤوس الراجعين به الى الوراء ، وفاتحة للنضال يختتمها الشعب بيديه كما اراد هو لا كما يريد المستخفون به والشائرون عليه » .

ولم يفت العقاد ان يسجل على وزارة الانقلاب الاول على دستور ١٩٢٣

وهي وزارة أحمد زيور ... لم يفت العقد ان يسجل على هذه الوزارة انها غير قادرة حتى على فرض ارهابها ضد الامة، فكتب يقول في يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ في البلاغ ، اي بعد اجتماع البرلمان في فندق الكونتيننتال بيومين :

« .. لقد دلت هذه الوزارة في يوم السبت الماضي ٢١ نوفمبر على حمق مخجل ، وقصور نظر معيب، وعرضت نفسها للسخرية والاستضعاف من حيث ارادت ان تظهر القوة والحزم ، وتطلع على الناس بالرهبة والجبروت ، فقد اعلنت يوم الاربعاء الماضي بلاغها الذي قالت فيه انها «تنبه بان كل اجتماع للبرلمان يعقد في غير المكان المعين له ، يكون هو ايضا غير مشروع ، وتعلن انها قررت ان تمنع بالقوة ، كل اجتماع داخل البرلمان ، او في اي مكان آخر». وبينما هي تحشد كل قواها حول دار البرلمان ، وتجمع كل عدتها والتفاتها في طريق تلك الدار ، وتظن ان النواب والشيوخ لا يجتمعون في ذلك اليوم ، الا اذا وصلوا الى البناية التي حضرتها بالجند والشرط ، ورابطت حولها بالعيون والارصاد ، واذا بالنواب والشيوخ يعقدون في فندق الكونتيننتال - في صباح اليوم نفسه - جلستهم التاريخية المشهودة ويصفعون الوزارة بقرار عدم الثقة بها ، ويباشرون عملهم كأن ليس في مصر وزارة تصدر حقوقهم ، وتعلنهم بتفريق اجتماعهم بالقوة ، داخل البرلمان او في اي مكان آخر ، فاثبتوا بذلك سخف الوزارة وغباوتها ، حتى في الدفاع عن نفسها ، والاحتياط لتنفيذ مقاصدها ، وأخرجوها هزاة للعالم ، تحمل الجلاجل في رجلها وفوق رأسها ، وهي التي خرجت له في الصباح جبارا كميًا ، يتقلد السيف ، وينذر بالنار والحديد ! » .

وهذه الملاحظة التي حرص العقد على تسجيلها ، وهي ضعف الوزارة الرجعية ، فيما زعمته لنفسها من قوة الضغط والارهاب ، والقدرة على الحكم بالحديد والنار ... هذه الملاحظة لها اهميتها لان الوزارات الرجعية عادة لا تعتمد على تأييد الشعب ، ولا تعتز بأي صفة غير القوة والقدرة على السيطرة على الاوضاع المختلفة داخل المجتمع ، وفرض الارهاب على الناس ... تلك هي الصفة الوحيدة التي تستطيع الحكومة الرجعية ان تزعمها لنفسها ، وعندما تصبح الحكومة غير قادرة حتى على الارهاب، فانها تفقد أعز ما تملكه وأعلى ما تفخر به . وقد حرص العقد على الخروج بهذا المعنى، وحرص على ان يطعن الوزارة الرجعية من خلال هذا الضعف الظاهر.

وقد حرص العقاد على تكرار هذه الملاحظة ، ضد حكومة الانقلاب الثاني على دستور ١٩٢٣ ، وهي حكومة محمد محمود كما سيأتي بعد قليل ، لقد حرص العقاد على ان يفضح الحكومات الرجعية ، ويجردها مما تدعيه لنفسها من انها حكومات ارباب ، ويد قوية ، وقدرة ادارية على ضبط الامن ، وإسكات كل صوت في البلاد يمكن ان يرتفع بغير ما تريده مثل هذه الحكومات .

وقد اعلن العقاد في ختام مقاله السابق تحديه لوزارة أحمد زيور : «هل تجسر الوزارة على تحكيم الامة على خلافها هذا مع نواب البلاد؟ بل هل تجسر على تقديم النواب الى القضاء لمحاكمتهم على ذلك الاجتماع الذي تزعم انه اجتماع غير مشروع ؟ هل تجسر على ذلك ؟ اننا نتحداها بأصرح عبارة ، فهل تقدر على ان تجيب ؟ انها لن تجيب ، ولن تقدر ، ولن تنال من النواب منالا بيد الامة ولا بيد القضاء» .

وقد أثمرت المعارضة الشعبية ، بما فيها حملة العقاد العنيفة ضد وزارة أحمد زيور ، فاستقالت في ٧ يونيو سنة ١٩٢٦ ، وتم اجراء انتخابات حرة جاء بعدها سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب، كما قام عدلي بتأليف الوزارة التي كانت وزارة ائتلافية ، وكان سعد زغلول هو الذي اختار عدلي لرئاسة الوزارة ، بعد ان تنازل عن حقه كزعيم للأغلبية في ان يكون رئيسا للوزارة ، وذلك في محاولة منه لعدم الاصطدام المباشر بالانجليز ، او بالملك فؤاد ، وكان الانجليز والملك يخشون من التعامل مع سعد زغلول كرئيس للوزراء .

وهكذا انتصرت القوى الوطنية والديمقراطية في تلك المعركة العنيفة ضد اول انقلاب على دستور ١٩٢٣ ، وكان للعقاد في هذه المعركة دور بارز، ومساهمة واسعة وواعية ، فقد استطاع بقلمه الشائر آنذاك ، ان يفضح وزارة زيور الرجعية ، وأن يفضح اهدافها ورجالها ، وأن يشن على هذه الوزارة حملة متصلة جندت الراي في مصر ضدها ، وجعلت النصر من نصيب القوى الوطنية والديمقراطية .

على ان الملك والانجليز لم يهدأ لهما بال ، فظلا يتآمران على الدستور، وعلى الديمقراطية في البلاد ، حتى كانت سنة ١٩٢٨ ، فوقع الانقلاب الجديد على الدستور ، وكانت الاداة في هذه المرة هي حزب « الاحرار الدستوريين » ، الذي اعتمد عليه الملك والانجليز من قبل ، وعرفوا فيه الاستعداد لخدمة السراي والانجليز مقابل الوصول الى الحكم والسلطة ، على حساب حق الشعب في الدستور والحرية .

وقد بدأ الانقلاب الثاني ضد الدستور في يونيو سنة ١٩٢٨ ، عندما استقال محمد محمود من وزارة النحاس الائتلافية ، التي كانت قائمة في ذلك الحين ، ثم انتهى الامر بتأليف محمد محمود للوزارة ، في ٢٧ يولية سنة ١٩٢٨ يقول عبد الرحمن الرافعي في كتابه «في أعقاب الثورة المصرية الجزء الثاني ص ٤٥» عن هذا الانقلاب الجديد ضد الدستور :
«بدأ الائتلاف يتعثر في سيره في عهد وزارة النحاس الاولى ، ذلك ان ثمة اتفاقا قد انعقد بين دار المندوب السامي البريطاني ، وحزب الاحرار الدستوريين والسراي ، على تعطيل الدستور» وكانت وجهة نظر السراي كما يقول الرافعي «ان الدستور يحول دون تدخلها في الحكم ، وانفرادها به ، فكانت تترقب الفرص لتعطيله ، وكانت تعلم ان الحكومة البريطانية ، لا تعترض على اي انقلاب يدبر ضد الدستور ، اما «الاحرار الدستوريون» فهدفهم الوحيد ، هو الوزارة والمناصب ، واذا رأوا انهم لا يصلون الى احتكار هذه المناصب ، وإرضاء جميع اعضاء حزبهم من طريق الدستور ، فليصلوا اليها عن طريق تعطيل الدستور ، وفي الحق انهم أسرفوا في اطماعهم غاية الاسراف ، لانهم كانوا مشتركين فعلا في وزارة النحاس ، ولهم فيها أربعة مقاعد ، فماذا كانوا يبغون اكثر من ذلك ؟ ولكنها الاطماع الشخصية ، لا تقف بهم عند حد ، وهكذا كان تاريخهم القديم والحديث» .
ويقول الرافعي بعد ذلك في نفس الكتاب «في أعقاب الثورة المصرية الجزء الثاني ص ٤٩» :

«كان حزب الاحرار الدستوريين هو محور هذا الانقلاب ، وان المرء لتأخذه الدهشة من ان حزبا لم يكن له في البرلمان سوى ثلاثين نائبا ، على اكثر تقدير ، من مجموع ٢١٤ نائبا ، يستأثر بالحكم ، غير مكترث للاوضاع الدستورية ، ولا لارادة الامة ، وتزداد دهشته اذا لاحظ ان الثلاثين مقعدا التي كانت لهذا الحزب ، لم ينل معظمها الا بسبب الائتلاف اذ لم ينل في انتخابات سنة ١٩٢٤ سوى ستة مقاعد» .

«ولا شك ان اعتزام هذا الحزب الاستئثار بالحكم ، باشتراكه مع الاتحاديين الذين كان يخاصمهم من قبل ، معناه انه يضر تعطيل الحياة الدستورية ، لان الدستور يتنافى مع تولي الحكم اقلية ضئيلة لا تتمتع بثقة الامة ، وقد ظهر في الاق من اقالة الوزارة البرلمانية ان الحياة الدستورية ستلغى او تعطل ، وهذا ما وقع فعلا ، وهكذا عاد حزب «الاحرار الدستوريين» الى خطتهم الاساسية في الاعتداء على الدستور

الوصول الى الوزارة ، وكان اعتداؤهم الاول في أواخر سنة ١٩٢٤ ، واتضح ان تظاهريهم بالتوبة من هذا الوزر في سنة ١٩٢٥ ، لم يكن الا لانهم طُردوا من الحكم وقتئذ ، ولم تكن توبة نصوحا ، فانهم عادوا الى فعلتهم الاولى ، لكي يستأثروا بالحكم ويقتسموا مفانمه» .

هذا هو ما كتبه الرافعي عن الانقلاب الثاني ضد دستور ١٩٢٣ ، وهو الانقلاب الذي قام به محمد محمود وحزبه ، حزب الاحرار الدستوريين . وتحليل الرافعي لهذا الانقلاب ، ولحزب الاحرار الدستوريين هو تحليل سليم ، فالحزب يتكون من مجموعة من الاقطاعيين وعدد من الرأسماليين ، كما سبقت الإشارة الى ذلك ، وهؤلاء جميعا يمثلون بحكم مصالحهم موقفا معاديا للشعب ، ومعاديا للحرية والديمقراطية ، ففي ظل حكومة شعبية منتخبة من الجماهير تستطيع هذه الجماهير ان تعبر عن مشاكلها في داخل البرلمان ، وأن تسعى لنيل حقوقها الاقتصادية والسياسية ، وكل ما تناله الجماهير الشعبية من تقدم ، وكل ما تحققه لمصلحتها من قوانين وانجازات مختلفة هو ضد مصالح الاقطاعيين والرأسماليين الذين يريدون الاستئثار بالسلطة بعيدا عن اي رقابة شعبية ، حتى تزيد ثرواتهم على حساب طبقات الشعب الاخرى .

وقد واصل العقاد في تلك الاعوام المجيدة من حياته السياسية ، حملاته على الرجعية ، على الاقطاعيين والرأسماليين ومن ورائهم الملك والانجليز . وقد وقف العقاد ضد محمد محمود وحكومته الرجعية ، موقفا في غاية القوة والصلابة والحدة .

بدأ محمد محمود حكومته سنة ١٩٢٨ بالطعن في شعب مصر ، وبالطعن في احقية هذا الشعب للحرية والدستور ، واعتبر ان البرلمان في حالته الحاضرة ، لا يعين على الوصول الى الحالة الطبيعية التي تتوق اليها البلاد وأصدر بالفعل قرارا بحل البرلمان ، وشن حربا عنيفة على الصحافة ، وسمى حكومته باسم «حكومة اليد الحديدية» وأطلق يد الملك في التصرف في كل شيء في البلاد ، فأصبح الملك حاكما مستبدا لا يعارضه احد . وتصدى العقاد للحكومة الرجعية ، يحاربها ويهاجمها بمنتهى العنف والقوة .

كتب في «كوكب الشرق» مقالا بعنوان «مجنون في يده سيف» يقول : «فلأجل ان تصبح مصر مستعمرة بريطانية ، قام محمد محمود في الحكم ، وافترى على المصريين ما افتراه من الكذب والتشهير . ولأجل ان

تصبح مصر مستعمرة بريطانية صنعوا كل ما صنعوه» (١) .
وكتب مقالا آخر في «البلاغ» بعنوان «يد من حديد في ذراع من جريد»
وقد جرى عنوان هذا المقال على السنة الجماهير مجرى الامثال ، وجعل
من وزارة محمد محمود موضوعا للسخرية والتهكم لدى المواطنين ...
يقول العقاد في هذا المقال :

«خطيب بلا هوادة ...! ومن هو الخطيب ؟ هو محمد محمود العمي
الألكن ، المنكر الصوت ، المسلوخ المخارج كأنه عجائز الجوارى ينشزن في
محافل الزار ، هذا هو خطيب الوفود ، ورب الجنود ، والضارب على
الدنيا في غير هوادة بلسان من قصدير ويد من حديد» .

«وقف بين وفد قنا فتكلم ، وبين وفد ابي تيج فتكلم ، وبين وفد الجزيرة
فتكلم . وكان كلامه كله انه لا يهاود ، وانه سيضرب بيد من حديد ! وما
علمناه يملك الا تلك اليد التي تمتد في الظلام ، الى اختلاس منصب ليس
له باهل ، ولا هو من المؤتمنين عليه ... فلو صح القول لكان احرى به ان
يقول : انه سيضرب بيد من «ذهب» فانها أليق بالدين يتسللون في الخفاء ،
لافتصاب ما لم ينالوه من طريق القانون والدستور والخلق الكريم» .

«خاطب المحافظين والمديرين فقال لهم : انه امر بان يعطوا من السلطة
والنفوذ ، ما يسهل عليهم اداء مهمتهم على الوجه الاكمل ، فاما اللسان
الذي يقول هذا فقد عرفناه ، فهو لسان الانجيليين الذين طالما عطفوا وذابوا
عطفا وحنانا على السلطة التنفيذية ، ورثوا لها وراثتها الشكلى حين سلب
البرلمان سلطتها وجردها من القوة الباطشة التي يريدونها لها ولا
يريدونها للبرلمان» .

«هذا هو اللسان . واما اليد الباطشة الجبارة فلمن تكون ؟ يد
الحديد نعني ونسال :

لمن تكون هذه اليد المستعارة في ذراع محمد محمود ؟
«للانجليز ان شاء الباشا ، وهو لا بد يشاء هذه السمعة ، لانه يريد
الارهاب ، والناس لا يرهبون ، وهو اعزل من قوة الامة ، ومن قوة
الشخصية ، ومن قوة الانجليز» .
«ولكن الانجليز لا يركبون يدهم الحديد في ذراع من جريد ... فلا

نظنها الا يدا ستبتر عما قريب» (١) .

وكما فعل نواب الامة في وزارة أحمد زيور ... وزارة الانقلاب الاول على الدستور ، حيث اجتمعوا برئاسة سعد زغلول في فندق الكونتنتال ، بعد ان منعتهم الحكومة من الاجتماع تحت قبة البرلمان ، فعل نواب الامة نفس الشيء مع وزارة محمد محمود ، فقد حلت الوزارة البرلمان ، ومنعته بالقوة من الاجتماع تحت قبة البرلمان ، وقرر النواب ان يجتمعوا في بيت احدهم ، وهو بيت مراد الشريعي بشارع محمد علي ، في الساعة السادسة من مساء السبت ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٨ ، وفي هذا الاجتماع الذي عقد رغم انف الحكومة ، وبدون ان تعرف الحكومة مواعده ولا مكانه ، قرر النواب «ان البرلمان قائم وله حق الاجتماع ، ويقرر البرلمان ان وزارة محمد محمود تائرة على الدستور ، ويعلن عدم الثقة بها ووجوب تخليها عن الحكم وان كل تشريع تصدره هذه الحكومة يعتبر باطلا» .

ويعلق العقاد على هذه الحادثة الوطنية ، كما علق على الحادثة المشابهة سنة ١٩٢٥ ... يقول العقاد في تعليقه الجديد :

«ظلت اليد الحديدية تفتح وتنقبض ، وتنقبض وتفتح سحابة يوم امس ... ولعلها لا تزال منفتحة منقبضة الى هذه الساعة ، لتقبض على الشيوخ والنواب ، قبل ان يجتمعوا حيث ارادوا الاجتماع ... هذا ان لم يكن بلغها من ملحق «البلاغ» انهم قد اجتمعوا وانفضوا ، واصدروا ما اصدروا من القرارات ، فيكون للبلاغ فضل عليهم ، نرجو ان يذكره بالشكران ، والا ينسوه حين يطبقون قانون المطبوعات ، الذي مضى عليه خمسون سنة ، واعادوه الان ، لانهم يمشون بالبلد الى الامام في سبيل الحرية والحق» .

ثم يقول العقاد في نفس المقال :

«مئتان بين شيوخ ونواب ، كل فرد منهم معروف ، وكل فرد منهم مراقب في الاسبوع الاخير ، مراقب في بلده ، مراقب في بيته ، مراقب في الفندق الذي ينزل فيه ، مراقب في غدواته وروحاته ، وكل ذلك لتمنع الحكومة اجتماعا قد عرف يومه وساعته ، والمدينة التي انعقد فيها ، ولم يبق الا ان يعرف البيت الذي انعقد فيه ، ثم لا تنجلي هذه المراقبة

١ - المرجع السابق ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

كلها عن شيء ، ولا تؤخر الشيوخ والنواب دقيقة واحدة عن الساعة الموعودة ، ولا تعلم أعيان الحكومة بالاجتماع الا كما علم سائر الناس غير جاهدين ولا مترقبين ... فالحق ان أعيان الحكومة غير جديدة وان كانت لها يد من حديد» .

«تالله لهذه الحادثة وحدها كافية لسقوط الوزارة ، لو كان لقياس امثال هذه الوزارة او سقوطها معيار معروف . فان وزارة من الوزارات لا يمكن ان تثبت عجزها عن التصرف ، وفشلها في التدبير ، وجهلها بما يجري حولها ، وغفلتها عما تهتم اشد الاهتمام بالتيقظ له ومنع وقوعه ، باظهر من هذا الدليل الذي قضى عليها كل قضاء» .

ثم يسخر العقاد بعد ذلك من محمد محمود فيقول في نفس المقال :
«ها انت تطلع على مسرح الدكتاتورية بعد مصطفى كمال وموسوليني، فيتلقي الناس مطلقك الجميل بالطرب والسرور ، ويستزيدونك من هذه الفصول ، التي تنبسط لها الوجوه ، وتسري عن النفوس ... لقد أتعبك الشيوخ والنواب في هذه المرة وانت تعدو وراءهم - سامحهم الله - لاهثا من الحيرة وفرط الاعياء ، ففي المرة الآتية لا نراهم ينصفون اذا هم لم يطلعوك على اسم الشارع ، ورقم المنزل وعنوان البرق والبريد ، فحسبهم امتحانا ليدك الحديدية ، وسمعك المرهف ، ان يكتموا عنك مكان الحجرة التي ينتظر فيها الاجتماع ...» (١) .

وكانت حكومة محمد محمود هي في طابعها الرئيس، حكومة للاقطاعيين والاعيان ، وهم الذين كانوا يسمون أنفسهم باسم «اصحاب المصالح الحقيقية» ، وقد أورد الدكتور عبد العظيم رمضان في كتابه الهام عن «تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦» ص ٦٨٧ فقرات من خطاب لاحمد عبد الغفار ، احد الاعضاء البارزين في حزب الاحرار الدستوريين، واحد الاقطاعيين المعروفين ، وقد ألقى أحمد عبد الغفار هذا الخطاب في استقبال محمد محمود ، اثناء رياسته للوزارة سنة ١٩٢٨ عندما قام بزيارة للمنوفية ، وباعتبار أحمد عبد الغفار ممثلا للمنوفية ... قال أحمد عبد الغفار في هذا الخطاب :

«اننا يا صاحب الدولة ، ويا اصحاب المعالي والسعادة ، والعزة ،

١ - المرجع السابق ص ١٨٢ .

نبتهج بياستقيالكم ، ونرحب كل الترحيب بكم ، باعتباركم أعيان البلاد ،
ووجوه ذوي الرأي والكلمة فيها ، وأقليمنا هذا والذين يرحبون بكم بنوع
خاص ، يفهم حكومة الاعيان : يفهمها لان آباءهم وأجدادهم من الاعيان
كانوا يفهمون حكم هذه الطائفة على وجهه الصحيح ، على انه اذا كان معنى
الحكيم السيادة على الناس ، فان لهذه السيادة مقابلا هو ان تكون سيادة
ابوة واصلاح ، وان تكون لمصلحة المحكومين لا مصلحة الحاكمين . وطبيعي
لهذا ان نرحب بكم ابلغ ترحيب لانكم تمثلون في حكومتكم ما نفهمه ، وما
كان يفهم آباؤنا من معاني الحكم»

لقد كانت حكومة محمد محمود هي حكومة الاقطاعيين والاعيان ، وكان
مؤيدوها وانصارها يفخرون بهذه الصفة فيها ، كما راينا في حديث أحمد
عبد الغفار ، وكانوا يحاولون تقديم تفسير خاص لهذه الصفة يجعل منها
صفة طيبة في المجال السياسي ، فحكم الاعيان - في حساب هذا التفسير -
هو حكم «الابوة والاصلاح» ولكن الحقيقة هو ان حكم الاعيان كان على
الدوام حكما في غير صالح الغالبية العظمى للشعب، حيث كان هؤلاء الاعيان
يفضلون التحالف مع القصر ، او مع الانجليز ، على ان يتحالفوا مع القوى
الشعبية الوطنية ، وهم اذا تحالفوا مع القوى الشعبية الوطنية لحظية
فسرعان ما يتآمرون على هذا التحالف وينسحبون منه كما فعلوا مع وزارة
النحاس السابقة على قيام حكم محمد محمود .

كان العقاد منتبها أشد الانتباه ، لطبيعة حكم «محمد محمود» ، وحكم
«الاحرار الدستوريين» بوجه عام انهم مجموعة من الاعيان والاقطاعيين ،
تحالفت معهم قوى أخرى من الرأسماليين . ومن الارستقراطيين او ادعياء
الارستقراطية ، ولذلك فقد حرص العقاد ، في هذه الفترة على ان يوضح
«حكم الاعيان» هذا أمام الرأي العام ، ويكشف الاصول الاجتماعية لرجال
هذا الحكم . . . وهي الاصول التي تؤكد انفصالهم عن الشعب .

كتب العقاد في البلاغ في أواخر يوليو ١٩٢٨ ، سلسلة من المقالات
يكشف فيها هؤلاء الحكام ، وكان أولهم بالطبع هو محمد محمود حيث يقول
العقاد عنه :

« نجمال تاريخ محمد محمود في كلمة واحدة هي مفتاح حياته
كلها ، وتفسير مبادئه كلها ، وعنوان ماضيه وحاضره ومستقبله ، وهي
«الوظيفة» فمنذ اختار له ابوه مدارس الانجليز ، الى أن تكفل به
«اللورد كرومر» في وظائف الحكومة ، الى ان غضب عليه المستر «هينز»

فعرف الوطنية واتصل بالوفد ، الى ان خذل الوفد ولحق بالطائفة العدلية يوم توقع تأليف الوزارة على يدها ، الى ان خيخوا امله فاعتصم بالائتلاف ، الى ان راح يوغر صدور النواب على ثروت باشا ، الى ما كان اخيرا من نقض الائتلاف ، وتعطيل الدستور ، وايقاع البلد في شر محنة جناها عليها الوزراء في تاريخها الحديث ، لا معنى لكل عمل من هذه الاعمال ، ولا غرض له ولا تفسير ولا عنوان ، الا الوظيفة ، وحب المنافسة باللقاب ، بين اصحاب البيوتات في الصعيد ! »

« ومن عرف ان نفخة صاحبنا كلها لا ترجع الى شيء اكثر من ان جدا له ارتقى في سالف الزمان ، الى درجة وكيل مديرية لم يستغرب ان يكون للقب صاحب الدولة ، ورئاسة الوزارة على عقله مثل ذلك السلطان الذي لا يغالب ، والفواية التي لا تدفع ، فهو مستضعف مغلوب على هواه ، لم تكتب له المتانة في جسم ولا رأي ولا خلق ، ولا يد له في الامر الا ما يكون للمأخوذ المسحور وما هو الا المأخوذ المسحور بعينه وما نعرف له من الوصف الا انه الدكتاتور المسكين » (١) .

فالعقاد في حديثه عن محمد محمود ، يكشف عن نفسيته كواحد من الاعيان ، او كما يقول العقاد - من اصحاب «البيوتات في الصعيد» هؤلاء الذين يتنافسون على الالقاب والمصالح لا على خدمة القضايا والمبادئ وهؤلاء يترددون في موقفهم ويتنقلون من موقف الى موقف ، لا شيء الا لانهم يجرون وراء مصالحهم حيثما لاحت هذه المصالح ، وهم ايضا «خدام» السلطة حيثما كانت هذه السلطة ، في يد الانجليز او في يد القصر . وفي مقال آخر نشره العقاد في تلك الفترة «اول أغسطس ١٩٢٨» يرسم العقاد صورة رائعة لاحد وزراء محمد محمود وهو الدكتور حافظ عفيفي ، وفي هذه الصورة يكشف العقاد بوضوح عن حقيقة نموذج من «أدعياء الارستقراطية» في تلك الفترة ، وهم الذين تحالفوا منذ البداية مع الاعيان والاقطاعيين ووقفوا حياتهم على خدمتهم .

يقول العقاد عن حافظ عفيفي :

«أما حافظ عفيفي فمصيبته الكبرى انه يدخن «البيبة» ، ويزور نادي محمد علي ، ويترقق ويتخافت في الكلام ، فهو اذن جنتلمان ! وهو اذن

١ - عامر العقاد - صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١٨٤ .

ارستقراط ! وهو اذن من غير هذا الشعب الذي يطالب بحقوق الاستقلال، وحقوق الدستور ... فلو كان الشعب كله او لو كان زعماء الوفد كلهم يدخلون «البببة» ، ويزورون نادي محمد علي ، ويتدققون في الكلام ، لكانوا من طبقة حافظ عفيفي الجنتلمان الارستقراط ، ولكن زعماء الوفد - او اكثرهم - طبقة اخرى من طراز ابراهيم لنگولن لا من طراز الظرفاء الارقاء . لا يفهمون الرشاقة ! لا يفهمون الاناقة ! لا يفهمون التأنت ! لا يفهمون الاندية والسهرات ! فاذا كان التاريخ قد اخطأ مرة في تقدير ابراهيم لنگولن وزملائه ، فحسبه هذا الخطأ في القارة الامريكية ، ولا ينبغي ان يتكرر خطؤه في مصر مرة اخرى ، فيتقلد الزعامة أناس لا يدخلون «البببة» ، ولا يختلفون الى نادي محمد علي ... ويحرم الزعامة أناس يدخلونها ، ويجلسون هناك مع عدلي يكن وانداده ليتحدثوا كما يتحدث ندمان هذه الطبقات !»

«يمينا لو صدر قانون بتحريم تدخين البببة ، والتأنت في الكلام ، والجلوس في النادي ، لرجع حافظ عفيفي في اليوم التالي الى الشعب ، وآمن بحقه في الدستور ، او لرجع الى الايام التي كان يجوب فيها صحراء طرابلس ، من قلة العمل في القاهرة ، ولا جنتلمانية ولا ارستقراطية ولا تأنت ... ولكن هذا القانون لم يصدر ، وتكاليف الجنتلمانية أخف من تكاليف الجهاد ، فالشعب اذن حقير وحافظ عفيفي رجل ممتاز» . ورغم ما في كلمات العقاد من سخريه لاذعة ، وهجاء مر لحافظ عفيفي، الا ان هذه الكلمات تكشف عن فئة كاملة من ادعياء الارستقراطية بالحق والباطل ، كان عملها على مسرح السياسة المصرية ، هو التآمر على الشعب ومعاونة غيرهم من المتآمرين عليه ، وكانت نفسية هؤلاء جميعا هي نفسية التعالي على الشعب ، وعدم الولاء له ، والاعتزاز بالانتماء الى اوساط اجنبية في لغتها وعواطفها ومصالحها . وقد لعبت هذه الفئة دورا سيئا في السياسة المصرية في شتى المراحل ، وكان على رأسها حافظ عفيفي ، كما كان من بين هذه الفئة حسن نشأت الذي ظهر قبل حافظ عفيفي ، وكان المهندس الأكبر لمؤامرات الملك فؤاد على الشعب ، وكان من بين هذه الفئة ايضا امين يوسف وعبد الفتاح عمرو وغيرهما من ادعياء الارستقراطية في سائر مراحل الحياة السياسية في مصر المعاصرة . لقد كان ولاء هذه الفئة للانجليز والقصر والاقطاعيين والراسماليين اكثر من ولائهم للشعب ومصالحه .

واذا كان العقاد قد هاجم الاعيان والاقطاعيين ممثلين في محمد محمود، وهاجم ادعياء الارستقراطية والمتفرنجين ممثلين في حافظ عفيفي ، فانه قد شن هجومه على الراسماليين ممثلين في اسماعيل صدقي، وبذلك يكون العقاد قد كشف التحالف الذي قام بين هؤلاء جميعا . . . وهو تحالف رجعي ، هدفه القضاء على الحرية والديمقراطية ، وضرب المصالح الوطنية والشعبية ، بالتحالف مع الانجليز والقصر .

عندما أنشأت وزارة محمد محمود في أواخر سنة ١٩٢٨ ، ديوان المحاسبة واختارت اسماعيل صدقي رئيسا لهذا الديوان بدرجة وزير ، كتب العقاد مقالا بعنوان «المحتسب الاعظم اسماعيل صدقي باشا» «البلاغ ١٤ سبتمبر ١٩٢٨» . . . وفي هذا المقال يقوم العقاد بعملية تشريح قاسية وصريحة لاسماعيل صدقي ، كنموذج للرأسماليين المتحالفين مع الاعيان ، وادعياء الارستقراطية في التآمر على الشعب . وبهذا التشريح يكون العقاد قد كشف في الضوء الساطع كل جوانب حركة محمد محمود الرجعية سنة ١٩٢٨ أمام الشعب وأمام التاريخ . . . بحيث تبدو مقالات العقاد في هذه الفترة صفحة مضيئة في تاريخه النضالي ضد الرجعية المصرية ، وهي صفحة تتميز بالحرارة والاصالة وقوة التعبير ، مما أتاح لها تأثيرا شعبيا واسعا على الرأي العام ، كما ان هذه الصفحة تتميز بوضوح الفكر وعمقه وصحة الفهم للعناصر الثلاثة الرئيسية التي يتكون منها الحلف الرجعي الذي تآمر على مصر في تلك الايام .

وعناصر هذا الحلف هم ، أولا : الاعيان او الاقطاعيون ، ثانيا : الارستقراطيون والمتفرنجون ادعياء الارستقراطية، وثالثا : الراسماليون. يقول العقاد في مقاله عن اسماعيل صدقي النموذج المثالي للرأسمالي في التحالف الرجعي الكبير ، وذلك تعليقا على تعيين اسماعيل صدقي رئيسا لديوان المحاسبة بقرار من حكومة محمد محمود سنة ١٩٢٨ :

« . . . ما معنى تعيين اسماعيل صدقي باشا لهذا المنصب الذي جعله البرلمان وسيلة للاشراف على تنفيذ مقترحاته ورغباته ، ولم يجعله عبثا لارضاء شهوات المناصب واتقاء عداوات الخصوم ؟ ما معنى اختيار اسماعيل صدقي لهذا المنصب في عهد وزارة يرأسها محمد محمود ؟ معناه الذي يجب ان يكون هو ان محمدا محمودا يقول لاسماعيل صدقي في العلانية : «يا اسماعيل باشا ! انت رجل عفيف طاهر الدليل ، نقي السمعة معروف بالرغبة في الاعمال المالية التي تجرب فيها قدرتك ، وتشبع فيها

ميولك وتكون فيها مثالا يقتدى به في النزاهة والاخلاص وصدق النية والاستقامة ، فها نحن نعطيك هذه الفرصة السعيدة لتجرب فيها قدرتك وتشبع فيها ميولك ، وتكون فيها مثالا يقتدى به في النزاهة والاخلاص وصدق النية والاستقامة . فها نحن نعطيك هذه الفرصة السعيدة لتجرب فيها من نزاهتك وأمانتك ما هو مشهور ومعلوم ومعروف ومفهوم . . . هذا معناه الذي يقوله محمد محمود في العلانية . . . اما المعنى الذي لا يقوله فهو : «انك يا صاح خطر علينا وانت بعيد عنا ، فتعال معنا الى الحظيرة ، لنخربها على رأسك اذا خطر لك ان تخربها على رؤوسنا في يوم من الايام . . .» ولماذا تخربها وتفكر في خرابها وها انت في هذا المنصب السري تفعل ما تشتهي وتبلغ ما تروم ! كذلك يقول محمد محمود في الجهر والخفاء» وانه لقول جدير بوزارة الاخلاق وحرى بالقوم الذين نقضوا دستور امة لانهم قوم مصلحون لا لانهم طلاب منفعة متهمون بتوزيع المناصب وتقسيم اسلاب الوظائف .

«اننا نقول مع محمد محمود كل ما يريد ان يقول في اسماعيل صدقي . . . نقول انه رجل امين عفيف ، ورجل طاهر السمعة شريف ، ورجل قدير في تناول المسائل المالية ، خبير بتدبير الصفقات الاقتصادية، كل ذلك نقوله وننادي به ونضيف اليه من عندنا سطرا آخر على سبيل العلاوة والتوكيد ، وهو ان اسماعيل صدقي لا يبالي بمصلحته في خدمة المصلحة العامة ، ولا يفعل الا ما هو جميل وكريم» .

«ذلك مقرر محقق لا ريب فيه ولا جدال ، ولا خلاف ولا مرأ ، ولكن مقرر محقق لا ريب فيه ايضا ولا جدال ولا خلاف ولا مرأ ان اسماعيل صدقي مستشار لشركات الدخان .

وان اسماعيل صدقي رئيس او مدير لشركة احتكار الادوية .
وان اسماعيل صدقي مستشار لشركة السيارات المعروفة باسم شفروليه .

وان اسماعيل صدقي له علاقات مالية بكثير من المشروعات والشركات الاقتصادية وان اسماعيل صدقي عضو في مجلس الادارة ببعض المصارف المشهورة .

«فاسماعيل صدقي هذا ليس بالرجل الذي تسند اليه الرقابة على مصروفات الحكومة واعتماداتها لان صاحب هذا المنصب يجب ان يكون بمعزل عن جميع العلاقات المالية ، وان تطمئن الشركات جميعها اليه وتعتقد

ان علاقاتها معه قائمة على أساس المساواة في كل شيء» .
هذه هي خلاصة موقف العقاد في «العشرينات» اي منذ قيام ثورة
١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٠ .

لقد وقف العقاد الى جانب الوفد وسعد زغلول والنحاس من بعده
وقفة صلبة قوية ، وكان جوهر موقفه الرئيسي هو الدفاع عن الدستور
والحرية ضد الانجليز وألقرصر ، كما كان العقاد في تلك الفترة خصمًا
عنيدا للرجعية ، وخاصة في معناها «السياسي» حيث حاولت الرجعية
مرتين في «العشرينات» ، تعطيل الدستور وفرض حكم استبدادي على
الشعب ... المرة الاولى على يد أحمد زيور ، والثانية على يد محمد
محمود ، ولم يكن هجوم العقاد على الرجعية هادئا ، بل كان عنيفا
وقاسيا وكان نوعا من التشهير بالرجعية وفضحها امام الجماهير والرأي العام .
وكانت كتابات العقاد في تلك الفترة ، تعبيرا صادقا عن الثورة الوطنية
في مصر، تلك الثورة التي قامت تحت قيادة الطبقة الوسطى «البورجوازية»
من الطلبة والمحامين والاطباء والتجار ، وكان الهدف الاول لهذه الثورة
الوطنية هو التخلص من الاحتلال الانجليزي بجلاء قواته عن الاراضي
المصرية ، وتدعيم الديمقراطية البرلمانية حتى يختار الشعب ممثليه في
البرلمان بحرية حقيقية دون ضغط او ارهاب .

وفي هذه الحدود كان العقاد يعمل بكل ما لديه من قدرة وموهبة
وذكاء وثقافة ومثابرة للتعبير عن هذين الهدفين والدفاع عنهما بقوة
وحرارة . ولعل هذا الاندفاع في التعبير عن الهدفين الرئيسيين للثورة
الوطنية «الجلاء والدستور» هو الذي لم يترك للعقاد فرصة لاكتشاف
بعض الاخطاء الرئيسية في دستور ١٩٢٣ ، هذا الدستور الذي قال عنه
نهر في كتابه «لمحات من تاريخ العالم ص ٢٩٣ - الترجمة العربية» :

«أهدي لمصر «المستقلة» دستور لا يشبهه دستور آخر في الرجعية،
وهو دستور أعطى الملك فؤاد ، ذلك الحاكم الذي فرضه الانجليز على
المصريين صلاحيات واسعة جدا» وهذه النقطة التي اشار اليها نهر ، هي
نفسها التي انتقدها سعد زغلول في حديث له حيث قال: «اذا كان من الخطر ان
توضع سلطة كبيرة في ايدي الملوك ، الذين هم بمعزل عن نفوذ اجنبي ...
فالخطر من ذلك اعظم وأشد ، في بلاد يسود فيها النفوذ الاجنبي ، ويدعي
ان العرش في سلامته بفضل جنوده ... فهذه القوة التي تركت للملك ،

ستصبح في الواقع حقوقا في يد الاجنبي ، يستعملها لاغراضه ضد مصالح الوطن» . . . لم يلتفت العقاد لمثل هذه الاخطاء في الدستور ولم ينبه اليها ، ولعل موقفه في ذلك الحين كان متأثرا بموقف الوفد الذي قبل دستور ١٩٢٣ في آخر الامر رغم عيوبه ، ورغم ما فيه من نصوص رجعية ، ذلك لان الدستور كان يسمح من الناحية العملية بأن يعبر الشعب عن رأيه ، وينتخب ممثليه في البرلمان ، رغم القيود الموضوعة على هذه الانتخابات ، وقد اثبتت التجربة ان اللحظات القليلة ، التي التزمت فيها الحياة السياسية بالدستور ، كانت هي اللحظات التي يصل فيها حزب الوفد وهو حزب الاغلبية الشعبية الى السلطة ، وفي هذه اللحظات كانت الهزيمة تحل بالانجليز وبالقصر على السواء .

على ان الباحثين التقدميين المعاصرين ، قد لاحظوا الموقف الرجعي لدستور ١٩٢٣ من الناحية الاجتماعية ، وهي ملاحظة لم يلتفت اليها العقاد في تلك الفترة ، وقد نص دستور ١٩٢٣ في مادته التاسعة على «ان الملكية، حرمة ، فلا ينزع من احد ملكه الا بسبب المنفعة العامة ، في الاحوال المبينة في القانون ، وبالكيفية المنصوص عليها فيه ، وبشرط تعويضه عنها تعويضا عادلا» ، كما اشترط الدستور على من يرشح نفسه للانتخابات ان يدفع ١٥٠ جنيهها . ويعلق الدكتور عبد العظيم رمضان على النص الخاص بالملكية الفردية قائلا: «بهذه المادة ضمنت طبقة كبار الملاك الزراعيين، والرأسماليين الاحتفاظ بممتلكاتها ، وعدم محاولة نزعها منهم لاعادة توزيع الملكية الزراعية بصورة عادلة . واصبحت اي دعوة لمثل هذا الاجراء الاخير جريمة يعاقب عليها القانون . وبهذا ايضا أصبح من المتيسر استخدام الدستور وسيلة لمناهضة الدعوات ، التي قد تنادي بتأميم الخدمات العامة ، وكذلك انصناعات الاحتكارية ، التي تهدد مصالح الجماهير» .

«ومعنى هذا ان الحرية السياسية التي كفلها الدستور لجميع المصريين، قد اصبحت من جهة الحقيقة والواقع ، قاصرة على الطبقة البرجوازية ، والكبيرة منها على وجه الخصوص . فباحتفاظ كبار الملاك الزراعيين والرأسماليين بثرواتهم ، صار في مستطاعهم ، بفضل ما يتمتعون به في الريف ، من نفوذ اقتصادي واجتماعي ، ان يدفعوا بأنفسهم وأنصارهم الى البرلمان ، وأن يسيطروا على الاحزاب التي يقدونها بالاموال ، وبالتالي على الاداة التنفيذية . وهكذا يكفلون حماية مصالحهم . وبمعنى آخر ان الديمقراطية التي اقامها دستور ١٩٢٣ ، لم تكن في حقيقتها الا دكتاتورية

البرجوازية الكبيرة ، وقد اكد الدستور هذه الحقيقة ، عندما اشترط على من يرشح نفسه للبرلمان ، دفع تأمين قيمته ١٥٠ جنيها ، وهو تأمين باهظ ، كفيل وحده بصد الطبقات الجماهيرية العاملة ، عن الاقتراب من مقاعد البرلمان . فاذا أضفنا الى ذلك عجز الطبقات عن تحمّل نفقات المعارك الانتخابية في ذلك العهد ، أدركنا سبب عدم دخول اي فلاح او عامل ، مجلس النواب المصري ، حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو» (١) .

لم يلتفت العقاد اذن الى جوانب الضعف المختلفة في دستور ١٩٢٣ ، وقد كان العقاد في هذا الموقف يعبر عن التيار الرئيسي في الحركة الثورية المصرية في ذلك الحين ، وهو التيار الذي مثله حزب الوفد خير تمثيل ، فقد كانت الاهداف الرئيسية امام هذا التيار الوطني الجارف ، تتركز في تحرير البلاد من الاحتلال الانجليزي ، وهو مطلب اساسي وضروري ، حتى بالنسبة لدعاة الثورة الاجتماعية ، فالاحتلال هو السند القسوي للاقطاعيين والراسماليين وسائر فئات الرجعية المحلية ، ولا يمكن التفكير في اصلاحات اجتماعية حقيقية دون القضاء على الاحتلال ، ومن هنا التفت الجماهير الشعبية ، من الفلاحين والعمال والطبقة الوسطى حول زعامة سعد زغلول والوفد المصري ، فقد أدركت هذه الجماهير ، انه لا خلاص لها مع وجود الاحتلال ، ولا أمل أمامها في تحقيق اهدافها في الثورة الاجتماعية ، والانتصار على الرجعية ، الا بضرب الاحتلال وتحقيق الجلاء . فالانجليز هم السند الاكبر للرجعية في كل المجالات والظروف .

وهذه المعركة الوطنية التي خاضتها مصر بقيادة سعد زغلول والوفد المصري ، والتي عبر عنها العقاد خير تعبير في «العشرينات» ، هي التي تفسر لنا ما يقوله نهرو عن حزب الوفد ، في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» :

«كانت حركة الوفد حركة وطنية بورجوازية ، كانت تناضل في سبيل الاستقلال ، ولم تتدخل في الاصلاحات الاجتماعية . وعندما كان البرلمان ينعقد ، كانت تعمل اعمالا طيبة في حقل التعليم وغسيره من الحقول . والحقيقة ان البرلمان قد عمل في فترة وجيزة ، اكثر مما عملت الادارة الانجليزية خلال الاربعين سنة السابقة ، برغم انشغاله في الكفاح الوطني .

وقد ظهرت شعبية الوفد في الانتخابات والمظاهرات ، ومع ذلك فان حركته التي تمثل الطبقة الوسطى ، لم تستطع اثارة حماس جماهير الشعب الى الحد الذي تستطيعه حركة تهدف لاصلاحات اجتماعية واسعة... هذا هو ما كتبه نهرو عن حركة الوفد في العشرينات والثلاثينات ، ولا شك ان الفكر الاجتماعي قد بدا يترك تأثيره على حركة الوفد في الاربعينات ، اي بعد ان كتب نهرو كتابه ، وذلك على يد المثقفين الاشتراكيين ، من امثال محمد مندور وعزيز فهمي . ولكن الطابع الرئيسي لحركة الوفد ، بقي كما يقول نهرو في نطاق النضال «الوطني والسياسي» ، بعيدا عن المطالبة باصلاحات اجتماعية ذات طابع ثوري ، كالدعوة الى تحديد الملكية ، او الدعوة الى تأميم الخدمات العامة مثل الطب وغيره ، ومع ذلك فالدور الذي قام به الوفد في قيادة الثورة الوطنية ، كان دورا رئيسيا ، بل كان هو الدور الرئيسي في مجال الحركة الوطنية ما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ .

في هذا الاطار وفي الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٣٠ ، كان العقاد يتحرك بفكره السياسي ، فقد كان يحارب بقوة من اجل الاستقلال والحرية ، ولكنه لم يلتفت للمعركة الاجتماعية ، ولم ينتبه للنصوص التي تقيد الثورة الاجتماعية في دستور ١٩٢٣ ، ولم يكن عدم التفات العقاد في تلك الفترة للقضية الاجتماعية بأمر ذي بال ، فقد كانت القضية الرئيسية للشعب هي قضية التحرير الوطني اولا وقبل كل شيء ، وكان العقاد في ميدان الكفاح الوطني ، يقف على اقصى بعد من ابعاد اليسار والتطرف الذي لا يعرف المساومة والاعتدال . ولكن المشكلة هي ان عدم رؤية العقاد للبعد الاجتماعي في ذلك الحين ، كان جرثومة كامنة في تكوينه الفكري ، دفعته بعد ذلك ، وفي الاربعينات ، عندما ظهرت القضية الاجتماعية على سطح الحياة السياسية المصرية بقوة ... اقول : ان الجرثومة القديمة الكامنة في فكر العقاد ، وهي عدم رؤيته الواضحة للعنصر الاجتماعي ، الموجود في الصراع السياسي ، هي التي ساهمت في ان تدفعه في القسم الثاني من حياته الى الوقوف بجانب الرجعية ، ومساندتها والدفاع عنها ، ومحاربة شتى ألوان الفكر اليساري ، بعد ان كان العقاد من أعنف أعداء الرجعية ، وأشدهم خصومة لها في العشرينات ، والنصف الاول من الثلاثينات ، وعندما كانت المعركة هي معركة الجلاء والدستور ، اما عندما أصبحت معركة الشعب في الاربعينات ، هي معركة العدالة الاجتماعية ، وتحقيق مطالب الجماهير الشعبية ، في الخبز والتعليم والعلاج ، فقد انتقل العقاد كما سنرى في القسم الثاني من حياته ، الى صفوف الرجعيين بعد ان كان

في طليعة الثوار .

على ان العقاد في تلك الفترة الاولى من حياته السياسية، فترة ثورة ١٩١٩ وما بعدها، يقدم ولا شك نموذجا رائعا للكاتب الوطني الثوري الحر، المدافع من حقوق الشعب ، ولم تكن المطالب والاهداف الاجتماعية واضحة امام الثورة الوطنية في ذلك الحين ، لان هدفها الاكبر ، وهو القضاء على الاحتلال واقرار الدستور وحمايته ، قد فطى على جميع الاهداف الاخرى، حيث ان تحقيق الجلاء ، وحماية الدستور ، كان شرطا اساسيا سابقا على اي حركة اخرى الى الامام .

أعنف معارك العقاد ضد الرجعية

سنة ١٩٣٠

كانت سنة ١٩٣٠ في حياة العقاد السياسية سنة صعبة وقاسية ، ولكنها كانت سنة مليئة بالنضال ، ولعل هذه السنة بالذات ، ان تكون اكثر السنوات في تاريخ العقاد السياسي كله اشراقا ، وامتلاء بالمواقف العنيدة والصلبة ، وقد انتهت هذه السنة بدخول العقاد السجن ، بعد الحكم عليه بتسعة اشهر ، عقابا له من جانب الملك والرجعية على مواقفه الشجاعة .

في يناير سنة ١٩٣٠ تولى مصطفى النحاس الحكم ، بعد سقوط حكومة محمد محمود ، وبعد انتخابات حرة أجراها عدلي يكن ، وكان من نتيجتها فوز الوفد بالاغلبية الساحقة في البرلمان ، وكان العقاد احد الذين نجحوا في الانتخابات ، حيث دخل البرلمان كنائب وفدي . ولكن الملك فؤاد لم يهدأ له بال ، بقيام هذه الوزارة الشعبية المؤيدة بأغلبية برلمانية ساحقة ، واخذ الملك يتأمر على الوزارة ، حتى انتهى به الامر في شهر يونيو من نفس العام ، اي بعد ستة اشهر فقط من قيام هذه الوزارة ، الى تعطيل مشروعات القوانين ، التي كانت الوزارة تقدمها الى الملك لتوقيعها ، واصبح عمل الوزارة مستحيلا ، فقدم النحاس استقالته الى الملك وقال في هذه الاستقالة : انه يتقدم بها «نظرا لعدم تمكننا من تنفيذ برنامجنا ، الذي قطعنا على انفسنا العهد بتنفيذه» ، وفي يوم تقديم الاستقالة وهو يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ ، حضر النحاس جلسة مجلس النواب المنعقدة في ذلك اليوم نفسه ، وأعلن تقديمه للاستقالة .لانه لم يستطع ان يحقق اهداف

هذه الوزارة ، في «صيانة أحكام الدستور ، وإحاطته بسياس من التشريع، يكفل له حياة متصلة ونموا مطردا». وغادر النحاس مجلس النواب ومعه وزراؤه بعد ان القى بيانه ، وهنا وقف الدكتور احمد ماهر وقال للنواب : «... لقد سمعتم بيان حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء فيجب ان تسمع الامة صوتكم اليوم ، نعم يجب ان تسمع البلاد تأييدكم لصاحب الدولة الرئيس ، في موقفه المشرف ، الذي يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية ، وعن النظام الدستوري للبلاد» ... وقوبلت كلمة احمد ماهر بالتأييد والحماس ، وأعلن مجلس النواب الثقة بالوزارة ، وفي هذه الجلسة نفسها ، وفي جو من الحماس الذي أثارته كلمة الدكتور احمد ماهر ، وقف العقاد في مجلس النواب ليقول :

«ألا فليعلم الجميع ان هذا المجلس مستعد ان يسحق أكبر رأس في البلاد ، في سبيل صيانة الدستور وحمايته» وأحس احمد ماهر بخطورة هذه العبارة ، وأحس بمسئوليته عن الهاب حماس النواب فوقف قائلا :

«ما هذا يا استاذ عباس انا لا أسمع بمثل هذا الكلام» . وطلب احمد ماهر حذف هذه العبارة من مضبطة الجلسة . وحذفت العبارة بالفعل ، ولم تنشرها الصحف الوفدية في الصباح التالي . ولكن صحيفة «السياسة» التي يملكها الاحرار الدستوريون ، حرصت على نشر هذه العبارة ، ووجدت فيها فرصة للتحريض على الوفد وزعمائه ، وقالت في التعليق على هذه العبارة : «سترى الامة غدا ان هذه العبارة تعبر بالفعل عن نفسية الوفد ونوابه ، ولولا هذا لما صفق النواب» (١) .

وقبلت استقالة النحاس بعد يومين من تقديمها ، رغم تأييد النواب ، ورغم المظاهرات التي عمت البلاد لتطالب الملك بعدم قبول الاستقالة ... وفي صفوف الشعب انتشرت عبارة العقاد في مجلس النواب انتشارا واسعا وسريعا ، وقرر الملك فؤاد الانتقام من العقاد في اللحظة المناسبة . وقد لقي العقاد من اصدقائه تحذيرا بأن الملك يمكن ان يدبر له تهمة ويأمر بحبسه ، ولذلك حاول بدكاء بالغ ، ودون ان يتراجع عن موقفه الصلب ، ان يفسر ما قاله في مجلس النواب بما يضمن عدم وقوعه تحت طائلة القانون الذي يحمي الملك ، ويعاقب كل من يذان بتهمة العيب في

الذات الملكية ، فقد كتب العقاد بعد يومين من موقفه في مجلس النواب أي في ١٩ يونيو سنة ١٩٣٠ في جريدة «كوكب الشرق» مقالا تحت عنوان «ان البلاد مستعدة لان تسحق كل رأس يخون الدستور» . ومن الملاحظ ان العقاد أجرى بعض التغيير على عبارته بما يتيح له التخلص من تهمة العيب في الذات الملكية ، فبدلا من ان تكون العبارة هي ان البلاد مستعدة لسحق «أكبر رأس» يخون الدستور ، أصبحت «ان البلاد مستعدة لسحق كل رأس» . . . ففي العبارة الاولى يصبح الحديث متجها الى الملك بصورة مباشرة ، فهو «أكبر رأس» في البلاد ، اما العبارة الثانية «كل رأس» فهي عبارة عامة لا تخص الملك وحده ، ويمكن من خلالها ابعاد التهمة عن العقاد . وفي هذا المجال ، بالاضافة الى ما قام به العقاد من تغيير في عبارته المشهورة ، يحاول العقاد ان يؤكد ان دعوته لحماية الدستور ، هي في نفس الوقت دعوة لحماية النظام القائم . . . يقول العقاد في هذا المقال : «ان البلاد مستعدة لان تسحق كل رأس يخون الدستور . هكذا نقول اليوم ، وهكذا نقول غدا ، وهكذا يقول القانون والدستور ، فان مصر دولة ملكية دستورية ، تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر ، وتعد حماية الدستور فيها فريضة لا تنسى ، وواجبا اقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء » .

وفي مقال آخر في «كوكب الشرق» نشر في ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ ، وهو اليوم الذي خرج فيه النحاس من الوزارة ، وهو نفس اليوم الذي القى فيه العقاد عبارته في مجلس النواب ، كتب العقاد يقول منبها الى ان دعوته لحماية الدستور لم تكن دعوة ضد الملك ، بل انها ينبغي ان تفهم على انها دعوة لصالح الملك والشعب معا . . . يقول العقاد في هذا المقال : «ويلوح لنا اننا في غنى عن القول ، ان حماية الدستور مصلحة عامة لكل من في مصر ، من ارفع مقام الى اصغر صغير في سواد الجماهير . فلا ننسى ان جو الانقلاب ، قد شجع اناسا من اصحاب المآرب ، على الطمع في المقام الارفع ، والسعي هنا وفي اوروبا لتحقيق ما يطمعون فيه . ولم يحدث شيء من هذا قط في عهد الدستور ، ولا يعقل ان يحدث فيه يوما لانه العهد الذي يقوم على النظام ، وحماية اصغر الحقوق فضلا عن الحق الاكبر الجليل » .

وفي مقال آخر في «كوكب الشرق» في ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠ كتب العقاد يقول :

«...» . فحماية الدستور ضمان ، لا يكرهه في الحقيقة الا الخوارج من اعداء الحياة النيابية ، واعداء العرش والنظام .
وهكذا جاول العقاد ان يفوت الفرصة على اعدائه ، حتى لا يزجوا به الى السجن بتهمة هجومه على الملك ، ولكنه في نفس الوقت حرص على الا يكون «تفويت» هذه الفرصة على اعداء مجالا للتراجع عن موقفه الديمقراطي الاصيل ، في دفاعه الشجاع عن الدستور .
وكل ما كتبه العقاد في هذه المقالات ، هو نوع مما يمكن تسميته «بالتكتيك» السياسي ، الذي يخدم الهدف اعظم الخدمة ، ويتيح لقلمه ان يستمر في أداء دوره النضالي الكبير ، في الدفاع عن الديمقراطية ودستور البلاد .

لقد كان موقف العقاد في عام ١٩٣٠ صلبا ورائعا ، وكان يكافح بقلمه من اجل الديمقراطية ، في ظروف غاية في الصعوبة والتعقيد ، فالملك ضده ووزارة الشعب برئاسة النحاس قد استقالت بطريقة لا فرق بينها وبين الاقالة ، واسماعيل صدقي يتولى الحكم ، ويعلن عن نواياه الارهابية بلا تردد ، والبرلمان الذي كان العقاد عضوا فيه قد تقرر حله . وهكذا ...
كانت الظروف كلها ضد العقاد ، ولكنه لم يفقد شجاعته ولا صلابته الوطنية في ذلك العام ، فاستمر في نضاله بقوة وبلا مهادنة او تردد .
وكانت سنة ١٩٣٠ هي السنة التي خاض فيها العقاد اروع وأعنف معاركه على الاطلاق ضد الرجعية ، ومنذ اللحظة الاولى لوزارة اسماعيل صدقي ، وقبل ان يقع الانقلاب الدستوري الكامل ، باعلان الغاء دستور ١٩٢٣ وفرض دستور جديد على البلاد ، يؤكد سلطات الملك الاستبدادية ، ويقضي على كافة الحريات الشعبية . . قبل ان يحدث هذا بالفعل ، كان من الواضح ان خطة الوزارة الجديدة ، هي تحقيق هذا الانقلاب الدستوري ، بمساعدة الملك فؤاد بل بتوجيه كامل منه .

وهنا وقف العقاد وقفته الصلبة ضد صدقي ، وضد خطة الوزارة الجديدة ، وتعتبر المقالات التي كتبها في هذه الفترة نموذجا حيا للكتابة الثورية العنيفة المتمردة الواعية ، ضد سلطة رجعية مغتصبة ، تتحدى ارادة الشعب ، وكان العقاد ينشر هذه المقالات الفريدة في جريدة يومية أنشأها الوفد ، وكانت هذه الجريدة تنطق بلسان الوفد ، بعد ان أغلق صدقي معظم الصحف الوفدية المعروفة ، مثل «البلاغ» و«كوكب الشرق» وكانت هذه الجريدة هي جريدة «المؤيد الجديد» لصاحبها محمد فهمي

الخضري ، وقد صدر العدد الاول منها يوم الاربعاء ٧ مايو سنة ١٩٣٠ ،
وقد كتب صاحب الجريدة يقول عنها وعن خطتها السياسية ، في ٢٤
اغسطس سنة ١٩٣٠ ، وهو يشير في هذه الكلمات الى ان «المؤيد الجديد»
سوف يمضي في نفس طريق «المؤيد القديم» ، مؤيد الشيخ علي يوسف...
يقول الكاتب :

«وقد عاهدت الله واعاهد القراء ، على ان يعود المؤيد سيرته الاولى ،
جريدة مصرية وطنية على مبادئ الوفد المصري ، وهي المبادئ التي
رسمها للأمة ذلك الزعيم الجليل المغفور له سعد باشا ، فهي تؤيد الحياة
النيابية ، وتتمسك بصيانة الدستور من كل عبث به ، وتحافظ على مبدأ
سلطة الامة وسيادتها ، وتدافع عن الحرية من جميع جهاتها وصفاتها...
هذه نيتنا وغايتنا ، فان عطلتنا الوزارة الحاضرة فاننا سنعود بالمؤيد
مرفوعا معززا مكرما ، قصر الزمان او طال ، ولن يقف في سبيل اهل
العزيمة حاجز ولا حائل...»

في هذه الصحيفة ، صحيفة المؤيد الجديد ، كان العقاد يكتب يوميا
على التقريب ضد الرجعية والرجعيين ، وكانت حملته نارية عنيفة ، وقد
وجد الملك فؤاد في هذه الحملة فرصته المناسبة ، لاعتقال العقاد والحكم
عليه بالسجن ، انتقاما منه على موقفه في البرلمان ، وعلى صرخته المشهورة ،
والتي لم يكن بالامكان محاكمته عليها لانها كلمة قيلت في البرلمان ، فهي
محاطة بالحصانة البرلمانية ، كما ان رئيس المجلس قد طلب حماية للعقاد
رفعها من مضبطة الجلسة .

كان هجوم العقاد مركزا على الرجعية والرجعيين ، وعلى رأس قائمة
المتهمين في رأي العقاد ، يقف اسماعيل صدقي ، ولذلك شن العقاد هجوما
عنيفا عليه . ولعل اسماعيل صدقي ذلك الراسمالي الكبير ، واحد الممثلين
البارزين للظلم الاجتماعي في تاريخ مصر الحديث ... لعل صدقي لم يعرف
في حياته هجوما بعنف هذا الهجوم الذي شنه العقاد ضده .

يقول العقاد في مقال بعنوان (ابو الفلاح) منددا بالذين أطلقوا هذا
الوصف ، على اسماعيل صدقي ، «جريدة المؤيد ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠» :
«ابو الفلاح ؟ اي نعم . ابو الفلاح المسكين ، الذي يلدون له في كل
ساعة أبا ، وهو حائر بأبنائه الكثيرين ، لا يدري ماذا يصنع معهم ، بكثرة
هؤلاء الآباء » .

ثم يقول العقاد عن اسماعيل صدقي ، انه يستحق اللقب من الفلاحين

بشيء كثير لا بشيء قليل :

«استحققه أولا : بالجهد الجهد الذي يبذله في حرمان الفلاح المصري من حق الانتخاب ، وحصر هذا الحق العام في أقل عدد مستطاع من غير الفلاحين . . واستحققه ، ثانيا : بإهمال مشروع البنك الزراعي ، الذي قرره وزارة الشعب ، لانقاذ الفلاحين من برائن المرابين ، واستحققه ، ثالثا : بزيادة التعريفية الجمركية على السكر الوارد من الخارج ، دون ان يفكر في زيادة ثمن القصب الذي تشتريه الشركة من الفلاحين . . واستحققه ، رابعا : ببيع ثلاثين ألف فدان لشركة كوم أمبو ، دون ان يفكر في وقاية ارض الفلاحين الفقراء من التبشيع الذي يصيبها ، ويضطرهم الى ترك ارضهم وخدمة الشركة بأبخس الاجور . . واستحققه خامسا : بإرضاء الاتحاد البريطاني الذي يسره ويسر اضرابه ان يهبط سعر القطن الى عشرة ريالات . واستحققه سادسا : بهذه الازمة التي جلبها على الفلاح وغير الفلاح ، فهبط سعر القطن على يديه جنيهين اثنين في كل قنطار ، ولا يمكن ان نعلل ذلك بالازمة العالمية ، لان القطن يزرع في بلاد اخرى غير مصر ، ولم يهبط ثمنه اخيرا في واحدة منها كما هبط في هذه البلاد . . واستحققه ، سابعا : بالبيع التي يباع فيها ارباب القمح بنصف ثمنه ، واقل من نصف الثمن في بعض الاحيان ، كأنما أسعار المحصولات في حاجة الى المزيد من عوامل النزول والكيساد . .»

ويعلق العقاد بعد ذلك بقوله :

«بهذا وما شاكله من خدمة الشركات ، وإهمال الفلاح ، استحقق صاحب الدولة «الكفاءات» ان يلقب بأبي الفلاح ، وان يكسب في أقل من ثلاثة شهور ما كسبه الحكام الروس في اكثر من ثلاثة قرون . فلم يبق الا ان نهى الفلاح ونبارك له بالأب الجديد ، الذي أنجبه في العهد الاخير . والفلاح أدري الناس بمعنى هذه التهنة وهذا التبريك» .

وكما نرى يفضح العقاد هنا بصورة قوية واضحة موقف اسماعيل صدقي حيث يكشف عن حقائق المصالح الرأسمالية التي يمثلها صدقي ، والتي تتجه الى ضرب الطبقات الشعبية في مصالحها اليومية بعنف وقسوة ، ويكشف هذا المقال ، عن مدى ما كانت تتميز به كتابات العقاد السياسية في سنة ١٩٣٠ ، من وعي دقيق بحقيقة المؤامرات السياسية ضد الشعب ، فلم يكن يهاجم صدقي هجوما سياسيا فقط ، بل كان يعمل على فضحه في الميدان الحقيقي لمؤامره ضد الشعب . . . وأقصد بهذا الميدان :

ميدان الاقتصاد .

وينتبه العقاد في هذه الفترة الالامعة من تاريخه ، الى قضية «حرية الصحافة» وما حاولته الرجعية المصرية بقيادة اسماعيل صدقي ، من ضرب الصحافة بشدة ، فكانت تصدر الصحف ، وتصدر قرارات باغلاقها ، اذا ما اتجهت هذه الصحف للتعبير عن مصالح الشعب ، اما الصحف المحايدة او الممالئة لوزارة صدقي ، فهي وحدها التي تبقى وتستمر . يقول العقاد في مقال «الصحافة والدستور - المؤيد الجديد - ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٠» :

« يظهر «المؤيد الجديد» وللأمة دستور وصحافة .. فأما الدستور فاين هو ؟ واين معالمة وآثاره ؟ واين حدوده وحرياته ؟ كل ما بقي منه ان تغلق الصحف باسمه . وان نسمع الحين بعد الحين ان هناك مادة في الدستور اسمها المادة الخامسة عشرة ، وصناعتها ان تعرض الصحافة للاغلاق والتعطيل ، وقديما كانت هذه المادة هي الحائل بين الوزارات واغلاق الصحف بالاوامر الادارية ... »

ثم يؤكد العقاد على عدم جدوى هذه الاجراءات الارهابية امام نضال الشعب :

«فماذا استفادت الوزارة من تعطيل الصحافة ؟ وماذا تداري ؟ وماذا تفيدها الإدارة ؟ افتخشي الوزارة مما نكتب ؟ اذا لتعلم اننا نسمع بأذاننا في حق الوزارة اضعاف ما نكتبه في اشد حملات الطعن والانتقاد ، ولتعلم ان ما نقوله نحن للناس هين جدا ، بل هو اهون شيء الى جانب ما نسمعه من الناس كلما اصفينا السماع» .

«ويا ما احلاكم واملحكم يا معشر هؤلاء الوزراء ؟ افكنتم تحسبون ان الناس كانوا يظنونكم حماة الدستور لو لم نكتب لهم نحن انكم معطلو الدستور ؟ افكنتم تتخيلون ان الناس يشهدون لكم بالقومية الخالصة لو لم نقل لهم انكم حزيون اشد من جميع الحزبيين ؟ افكنتم تتوهمون ان كلامكم جائز في العقول لولا اننا نزيفه ونظهر ما فيه من النقائص والاعاجيب ؟ افكنتم تترقبون ان يشغف الناس بكم حبا ويتهالكوا عليكم ثقة لولا اننا نقول انكم لا تحبون وانكم بالثقة غير جديرين ؟» .

«عطلوا الصحف او لا تعطلوها ، ان الحق لظاهر ، واننا لن نكتب الا لنقول الحق ساطعا قويا ، لا تلثم فيه ولا موارد ، وانكم لمعرفون في هذه الامة فما بها من حاجة اليها لنزيدها بكم تعريفا على تعريف» .

ولا يكتفي العقاد بفضح موقف الرجعية المصرية سنة ١٩٣٠ من حرية الصحافة ، بل يكشف عن مساندة الصحافة الرجعية في العالم لحكومة صدقي ، فيكتب في مقال له بعنوان «من أنصارهم تعرفونهم» - المؤيد الجديد ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٠ ليقول «ان الرجعيين من أنصار صدقي، يغتبطون بثناء الصحف الأجنبية عليهم» . «وزعيمة الصحف التي يغتبطون بثنائها ، ويرحبون بمقالاتها ، ويفرحون بطعناتها في الوفديين هي «المورنتج بوست» التي تستكثر الحرية على انجلترا نفسها وتعبر عن آراء أناس من المعائيه ، يقولون : ان الديموقراطية دسياسة يهودية دبّرها اليهود فسي جماعات الماسون السرية ، لينتقموا من الكنيسة ، ويضعفوا المسيحية ، ويحبون لو استطاعوا ان يختزلوا البرلمان الانجليزي ، فلا يبقى فيه الا مجلس اللوردات ، منتخبا او معينا على النظام العتيق ، الذي لا يؤمن بالديموقراطية ، ولا يصفي الى شيء اسمه حقوق الشعوب» .

لقد عني العقاد بشرح موقف الرجعيين المصريين سنة ١٩٣٠ من الصحافة الوطنية في مصر ، وهاجم هذا الموقف وندد به ، ولكي نتصور اهمية هذه القضية ، وما كانت الصحافة الوطنية تعانيه في تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصر الحديث ، في ظل ديكتاتورية الملك فؤاد ، وإرهاب اسماعيل صدقي ، يمكننا ان نقرأ بعض الفقرات من مقال لسلامه موسى نشرته «المؤيد الجديد» التي كان العقاد يشن فيها حملته على الرجعية والرجعيين . . . ففي العدد ١٩ من «المؤيد الجديد» ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ والى جوار مقال العقاد الافتتاحي في نفس الصفحة ، نشرت الجريدة مقالا لسلامه موسى بعنوان «فوز الصحافة السورية وهزيمة الصحافة المصرية» ، ووجود العقاد في تلك الفترة الى جانب سلامة موسى ، الكاتب التقدمي الثوري ، له دلالة ومعنى كبير ، فقد كان العقاد في سنة ١٩٣٠ يقف في قلب المعسكر الوطني ، بل كان من قادة هذا المعسكر ، وكان وجوده جنبا الى جنب مع سلامة موسى شيئا طبيعيا في تلك المرحلة ، حيث ان الكاتبين الكبيرين قد افترقا بعد ذلك اشد الافتراق ، فترك العقاد مكانه في قيادة التيار الوطني الثائر ، وبقي سلامة موسى في هذا المعسكر ، وحرص على مكانه حتى النهاية .

في مقال سلامة موسى عن الصحافة السورية والصحافة المصرية ، كشف لدور بعض الصحفيين الشوام الذين جاءوا الى مصر ، وارتبط بعضهم بالقصر والاستعمار الانجليزي ، وخاصة «مدرسة صحيفة المقطم» ،

وفي سنة ١٩٣٠ بالذات كانت هذه الصحف تدافع عن «صدقي» وتناصره بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، بينما كانت الصحف الوطنية كلها تتلقى من صدقي اعنف الضربات بالاغلاق والمصادرة ، وقد كشف سلامة موسى في مقاله هذه الحقائق بقوة ، وان كان المقال لم يخل من نزعة سلامة موسى «الاقليمية» المتعصبة الخاطئة ، والتي كانت ظاهرة في بعض جوانب فكره ، وحاول في آخر حياته الفكرية الخصبة ان يعدلها ويتخلص منها .

يقول سلامة موسى في مقاله :

«الصحافة تجارة مثل اي التجارات ، ولكن قيودها اثقل من سائر التجارات . والصحفي المصري يحمل هذه القيود راضيا ، وينزل على شروطها صاغرا ، لانه يراها تتفق ومصلحة وطنه التي هي اكبر من مصلحته ، ولكن الصحفي السوري لا يبالي بهذه القيود ، فهو ينشد من هذه التجارة الربح والربح فقط» .

«لهذا السبب مضى علينا عشرون سنة والجرائد المصرية تعطل ، بينما الجرائد السورية لا تعطل ... والصحفي السوري لا تتعرض جريدته للتعطيل ، لانه يسير مع كل حزب ، ويمشي وراء الغالب ، وهو لا يشعر بالعار ، يلحق بالانسان اذا استبدل بآرائه وخططه السياسية خططا وآراء اخرى كما يستبدل الانسان حذاءه» .

ويقدم سلامة موسى في هذا المقال نموذجا للصحفي السوري السدي يرفضه فيقول :

«بينما نرى الصحف المصرية معطلة ، والاقلام المصرية مقصوفة ، نرى المجلات السورية تنساب بين العامة ، كأنها الحيات السامة ، تشرح لهم كيف أن «الاستاذ» حافظ نجيب كان ينصب على الناس ، وكيف ان بطلا من أبطال الاوباش كان يأكل حذاء كاملا . وكيف استطاع شحاذ ان يشتري بالشحاذة عقارا ضخما ، وكيف يدخن الحشيش واين ، .. الخ . ويكتب هذا في مجلات انيقة الطبع ، تستهوي العين بالصور الجميلة ، وبالطبع الحسن ، فيقرأها الشاب المصري فيضعف عقله ، ويختل نظره للاشياء ، حتى ليظن العبقرية في النصب والشحاذة والسخافة» .

«ولنضرب مثلا على الصحفي السوري في مصر ، بهذا «الاستاذ» كريم ثابت ، ليرى القارئ كيف جعل السوريون الصحافة المصرية هذرا وهديانا ، يجمعون منها قروش العامة ويثرون منها ، بينما عبد القادر حمزه ، وعباس العقاد ، وحافظ عوض ، وتوفيق دياب ، وأبو طائلة ، وأحمد حلمي ،

وغيرهم تقصف أقلامهم وتخرب بيوتهم» .

«هذا «الاستاذ» كريم ثابت ، يكتب في مجلات الهلال قصصا ، يتكرر بعضها عشر مرات أحيانا ، عن فتح الله باشا بركات ، الذي يختلف عن سائر الناس أجمع ، من حيث انه لا يأكل المدمس ، وانما هو يغمس اللقمة في مرق المدمس فقط . ويذكر الامير فاروق فيقول عنه : «انه لا يخاطب جلالة والده او والدته بقوله «يا صاحب الجلالة» او «يا صاحبة الجلالة» وانما يقول كما يقول سائر الاطفال في العالم : «يا بابا» و«يا ماما» ثم يذكر الامير عمر طوسون فيقول عنه : «انه يدخن الشيعة قبل الظهر ، ويدخنها احيانا بعد الظهر . واحيانا لا يدخنها قبل الظهر او بعد الظهر ، ثم هو ، اي الامير ، يأكل في الغداء اكثر من العشاء ، واحيانا يأكل في العشاء اكثر من الغداء ، ثم يقول ان الاستاذ لطفي السيد تقابل مع علي الشمسي باشا فبدلا من ان يبدأ التحية علي باشا بدأها الاستاذ لطفي السيد» . ثم يقول سلامة موسى :

«هذا هو الكاتب المثالي السوري ، الذي يكتب للعامة هذا الهذر ، ليضعف عقولهم ، بينما كتابنا المخلصون قد قصفت أقلامهم ، وبعضهم يبحث عن عمل آخر غير الصحافة ، يمكنه ان يعيش منه دون ان يتعرض للجوع» .

ويقول سلامة موسى بعد ذلك :

«لقد تم اقبال ثلاثة مصانع مصرية... هذه المصانع المصرية هي: ١- البلاغ لصاحبه المصري عبد القادر حمزة . ٢- الكوكب لصاحبه المصري أحمد حافظ عوض . ٣- اليوم لصاحبه المصري توفيق دياب» . ويتحدث سلامة موسى عن «الاهرام» وموقفها من القضايا الوطنية آنذاك فيقول :

«هذا هو الاهرام ، الجريدة السورية التي تسير مع كل حزب ، وتجري مع كل ربح ، وتضحك منا جميعا» . تلك هي الصورة التي رسمها سلامة موسى لواقع الصحافة الرجعية في مصر سنة ١٩٣٠... واذا استثنينا ما في المقال من لهجة «اقليلية» متعصبة ، وجدنا ان المقال يقدم صورة حقيقية لمحنة الصحافة الوطنية ، في ظل حكومة صدقي الرجعية ، بل في ظل الرجعية المصرية بشكل عام ، فالرجعية المصرية قد وقفت بكل قوة لمساندة تلك الصحافة التي لا تعالج اي مشكلة جدية من مشاكل الوطن او الشعب ، بينما تلقى الصحافة الوطنية ألوانا متصلة من الاضطهاد

والارهاب . والحقيقة ان كريم ثابت وغيره من الصحفيين ، كانوا رجعيين في مصر وفي سوريا على السواء ... ولم تكن المشكلة هي انهم سوريون في مصر ، كما يرى سلامة موسى بل هي انهم رجعيون متحالفون مع الرجعية وخدام لها ، سواء كانت هذه الرجعية مصرية او سورية .

نعود بعد ذلك الى حملة العقاد على الرجعية المصرية سنة ١٩٣٠ . يركز العقاد على ظاهرة اخرى من مظاهر السياسة الرجعية في مصر سنسنة ١٩٣٠ ، غير ظاهرة اضطهاد الصحافة ، هذه الظاهرة هي محاربة استقلال القضاء ، فيكتب مقالا بعنوان « يطلبون استقلال القضاء من وزير الحقانية » « المؤيد الجديد ٢٩ أغسطس ١٩٣٠ » يعلق فيه على مقال نشره محمد علام باشا في الاهرام ، يطالب فيه علي ماهر « وزير الحقانية » في وزارة صدقي بالحرص على استقلال القضاء ... يقول العقاد في هذا المقال :

« ... لم يرد علام باشا هذا ان يكون مضحكا ، ولكنه اضحك من قراه فعلا ، لانه يلتمس استقلال القضاء ، من الوزارة التي وقع في زمنها اخطر حادث أصاب القضاء المصري في الزمن الحديث : وقع في زمانها ان يؤمر القاضي علانية بأن لا يحكم الا بما تفرضه عليه الوزارة ، ويوافق أهواء ملاحظي البوليس ورجال الادارة . ولا نعرف لوزارة من الوزارات سيئة هي أجسم وأهول من هذه السيئة ، التي زلزلت قواعد العدل ، وأصابت القضية المصرية في مقتل الصميم . نعم اصابت القضية المصرية في المقتل ، لانها مثلت القضاء المصري في أعين الاوربيين تمثيلا يعطيهم الحجة اذا رفضوا الثقة به والاحتكام اليه ، وتشبثوا بالامتيازات الاجنبية التي جاهدت الامة في اصلاح شأنها ، ذلك الجهاد الطويل » .

على ان القضية الجوهرية التي شن العقاد بسببها حملة عنيفة على الرجعية المصرية ، هي نقطة الاعتداء على دستور ١٩٢٣ ، والاتجاه الى تغيير هذا الدستور ، واصدار دستور جديد . يساند ديكتاتورية الملك فؤاد ، ويبرر ارهاب اسماعيل صدقي .

يكتب العقاد في ٢٥ اغسطس ١٩٣٠ في جريدة « المؤيد الجديد » مقالا بعنوان « مسألة الدستور مسألة كل انسان في مصر » يقول فيه :

« ويل لمن يجهلون ان مسألة الدستور هي مسألة كل مصري : مسألة القاضي والتاجر والزارع والمقرب وغير المقرب ، لا مسألة النائب والوزير والمشتغل بالسياسة دون سواه » .

« لقد كان لكل ازمة درسها البليغ ، ودرس هذه الازمة البليغ ان يعلم

الناس كيف يكون المصير ، اذا بطل في مصر حكم الدستور ، وويل لمن
يجهل ان مسألة الدستور هي مسألة الحرية والحياة .
وفي هذا المقال نفسه يقول :

«ان الاستبداد لا يقف عند حد ، ولا يعرف القيود والحريات ، فاذا
طمع اليوم في شيء فسيطمع غدا فيما هو اكثر منه ، واذا قلت اليوم انك
ترضيه بالطاعة في هذا وذاك من الامور ، فلن تنقضي عليك ايام حتى تعلم
ان الطاعة في هذا وذاك من الامور لا ترضيه ولا تكفيه ، وانه ينتظر منك
المزيد بعد المزيد ، حتى لا تعلم الفارق بين الرضى والغضب» .

«ماذا يحميك من المستبد اذا لم يحمك الدستور ؟ احميك القانون ؟
ايحميك القضاء ؟ ان ارادة المستبد هي القانون ، وان وظيفة القضاء في
رايهم هي تنفيذ ما يريدون . لقد رأينا كيف يعزل القاضي لانه حكم بغير
ما يرضاه الوزير ، رأينا كيف ينصون في امر العزل على هذا السبب ، ولا
يكلفون انفسهم ان يلففوه او يسكتوا عنه ويتركوا للناس ان يفهموا منه
ما يشاؤون» .

ثم يعلق على هذا الحادث فيقول :

«انه لاكبر من حل البرلمان والمساس بالحياة النيابية ، لان الامة قد
تعيش زمنا بغير برلمان ولكنها لن تعيش زمنا بغير استقلال القضاء . انه
لاكبر من كل حادث في ذاكرة المعاصرين ، لانه ضربة هادمة في اساس كل
حرية وكل ضمان» .

والعقاد يرد مثل هذه الاجراءات كلها الى الاتجاه لدى حكومة صدقي
الرجعية للاعتداء على الدستور . . . فالدستور هو الضمان الاساسي للوطن
والمواطنين ، ويواصل العقاد حملته العنيفة على اسماعيل صدقي وعلى
الرجعية والرجعيين في سنة ١٩٣٠ . . . ويقول العقاد في مقال بعنوان
«الرجعية هي العدو الاكبر في الازمة الدستورية الحاضرة» - المؤيد الجديد
في ٢٤ سبتمبر ١٩٣٠ :

«... هناك حقائق كثيرة ستتكشف في اوانها ، فيعلم المصريون جميعا
ان مصيبة الرجعية على هذا البلد اكبر من مصيبة الاحتلال ، وانها هي
التي مهدت له ، واستعانت به ، واوقعت البلد في البلاء الذي ادى اليه .
لولا كراهة الدستور القديمة في نفوس هؤلاء الرجعيين ، ولولا التكبر عن
الاعتراف للفلاحين العبيد بالحرية والحكومة العصرية ، لما حدثت في مصر
تلك الاحداث التي نعاني من جرائرها الى اليوم ، فالرجعية هي السوس

الناخر في أبدان هذه الامة من قديم الزمان ، والرجعية هي أصل المصاب وسبب الاحتلال ، وهي العدو الاكبر الذي يجب ان يبرز على حقيقته ليكون الجميع على بينة من امره . وكذب من قال : ان مصيبة الرجعية في هذا البلد أهون من مصيبة الاحتلال ، فان الذين يتتبعون التاريخ ليعلمون علم اليقين ، انه لولا الرجعية وكراهة «الفلاحين» ، لما كان الاحتلال ولا حدث شيء مما أوقع البلاد فيه .

ويتحدث العقاد في مقال آخر عن هؤلاء الرجعيين بأسمائهم ، فيقول عنهم في مقال عنوانه «حزب طلاب المصالح لا حزب اصحاب المصالح» - المؤيد الجديد في اول أكتوبر ١٩٣٠ :

«انما هؤلاء عصابة يطلبون الحكم ، لانهم يطلبون المصالح لا اكثر ولا اقل ، فعبد الجليل سمرة واحمد عبد الغفار وجماعة محفوظ وجماعة خشبة وجماعة محمود سليمان لا يصبرون عن الحكم ، لانه حاجة من الحاجات وضرورة من الضرورات» . ثم يقول عنهم : «من منهم يعد من ضحايا الحركة الوطنية او من الواقفين في صف الضعف والاضطهاد أمام القوة الفعلية ؟ ان اكثرهم جلالة تشبه الصلابة هو العتل محمد محمود سليمان . فهل يذكر هذا العتل لنفسه او يذكر له غيره موقفا واحدا يدل على نخوة او تضحية بمصلحة ؟»

ثم يتجه العقاد بين الحين والحين ، للهجوم الحاد العنيف على رأس هذه العصابة الرجعية «اسماعيل صدقي» فيكتب عنه في مقال بعنوان «فارغ بحمد الله» - المؤيد الجديد ١٧ سبتمبر ١٩٣٠ :

كانت الوزارة قدرا ساقه الله الى صاحب الكفاءات ليظهره على حقيقته فارغا ، لا نصيب له مما يدعيه ، او هو كما يقول الجاحظ يدعي من كل شيء بقدر جهله فقد كان صاحب الدولة يدعي الذكاء فظهر للناس ان مبلغ ما عنده من الذكاء هو سياسة «نيميها» التي عرف بها الحكام الاتراك في عهد الظلمات ! اضرب . اسجن - اقتل . امنع . اقفل . . . ثم لا شيء بعد ذلك من دلائل الذكاء والعلم والاقتدار . وما كان التعايشي بعاجز عن مثل هذه السياسة ولا في الارض من يعجز عنها الا اهل المروءة والشمم والذكاء . . . وتكلم صاحب الكفاءات ليقول ما يقوله الاذكياء فاذا هو لا يخرج من ورطة حتى يقع في ورطة ولا ينتهي من سخافة الا لابتداء في سخافة . . . ومن اراد ان يعرف الخيبة التي خابها صاحب الكفاءات في احاديثه الكثيرة ، فليجمعها كلها وليسال نفسه : اي كلمة يعز منها على

اجهل الجهلاء ان يقولها . اما ان كان المقصود بالدكاء ما يسهل البيوع والمكاسب والمكافآت ، ففي القطر الوف السماسرة ، يوقعون أصعب الصفقات ، ولا يقول احد انهم يعدون في الاذكياء ، في معنى من معاني الذكاء الدفينة ، فضلا عن ان يكون من نوابغ الاذكياء» .

وفي هذه الفترة التي كان فيها العقاد يشن حملته العنيفة على الرجعية تحل ذكرى ١٤ سبتمبر... ذكرى دخول الانجليز مصر، فيكتب العقاد مقالا بعنوان «ذكرى ١٤ سبتمبر» يرد فيه على ما يقوله الكتاب الرجعيون وبعض انصار الحزب الوطني من الهجوم على أحمد عرابي واتهامه في وطنيته ، فيدافع العقاد عن عرابي دفاعا مجيدا ، ويضعه في مكانه الصحيح من الحركة الوطنية في مصر ، وكأنه في هذه الفترة التي كان يهاجم فيها الرجعية والرجعيين ، انما كان في نفس الوقت يستمد الحماسة والحرارة من «استحضار» روح الزعماء الوطنيين الكبار ، حتى يكونوا له عوناً في معركته من اجل الحرية ، وحتى يساهموا في اشعال نيران الثورة لدى الشعب في نضاله الطويل .

يبدأ العقاد في هذا المقال بتسجيل حقيقة واضحة في الحركة الفكرية المصرية حتى ذلك الحين ، «المؤيد الجديد في ١٦ سبتمبر ١٩٣٠» يقول العقاد :

«على كثرة الدين كتبوا ويكتبون عن ذكرى ١٤ سبتمبر ، او ذكرى الاحتلال البريطاني للبلاد المصرية - لا نجد الا قليلا من الكتاب انصفوا الذكرى وعرفوا عبرتها حق عرفانها . لان اكثرهم يستمدون علمهم او شعورهم من اكدوبة قديمة ، عاشت في هذا البلد خمسين سنة لم يتعرض احد لتصحيحها ، واعادة النظر فيها الا ما ندر ، وتلك الاكدوبة هي ان البطل المصري الكبير أحمد عرابي كان خائناً لوطنه ، مأجوراً للانجليز على ان يقوم بالثورة ، ويمهد لهم سبيل الاحتلال وانه هو المسئول وحده عما حدث كله وليس هناك تبعة على احد سواه» .

« كل هذا خطأ شنيع ، بل كذب سافل ، روجه اصحاب التبعة الكبرى ليمسحوا جرائمهم في سمعة عرابي واخوانه ، ويبرئوا انفسهم بنسبة أوزارهم الى غيرهم ، فكل ما يبنى اذن على هذا الكذب لا يصلح ان يكون عبرة تاريخية صادقة ، ولا ان نتعظ به اتعازلاً صحيحاً ، في فهم الحوادث والرجوع بها الى منشأها» .

وهكذا يكشف العقاد عن دور «الرجعية» في تشويه التاريخ الوطني...

وهو يرد على هذا التشويه ، ويناقش التهم التي وجهتها الرجعية الى
عرابي فيقول :

«الذين وصفوا عرابي بالخيانة ، قد فعلوا ذلك وهم في مأمن من
التكذيب والمناقشة ، لانهم علموا ان الرجل وأصحابه مغيبون في منقاهم ،
لا يملكون وسائل الدفاع عن انفسهم ، ولا بيان الحقيقة لمن يجهلونهم ، ثم
علموا ان الميدان في هذا البلد خال لهم يستولون على آذان الجيل الناشئ
فيفرغون فيها ما عن لهم من التهم والباطيل ... علموا ذلك فلوثوا سمعة
الرجل وأصحابه أقبح تلويث ، وعكسوا الحقائق وأسندوا اليه ما اقترفوه
بأيديهم » .

وبعد ان يؤكد العقاد ان الرجعية هي السبب الحقيقي للاحتلال ، وأن
الرجعية هي التي تأمرت مع الانجليز وليس احمد عرابي يبدأ في الرد على
التهم الموجهة الى عرابي فيقول :

«فمن الكاذب التي خدعوا بها الجهلاء ، ان الانجليز قد حالوا بين
عرابي وبين الاعداء ، وتوسطوا في نفيه هو وأصحابه الى سيلان ، بعد
اصرار الخديوي توفيق على قتلهم اجمعين .

قالوا فهذا دليل على ان الرجل وأصحابه كانوا متواطئين مع الانجليز
على تسليمهم البلاد ، وإلا فلا يفهم احد كيف يحارب الانجليز عرابي
ويغلبونه ويتمكنون منه ، ثم يتوسطون في العفو عنه ، ويحولون بينه وبين
الاعداء ، وقد لقيت هذه الحجة قبولا عند الجهلاء وكانت هي اساس ما
شاع من الكاذب ، وكل ما تلبد حول اسم الرجل من التهم والوشايات ،
وما هي كما ترى الا سخافة لا ينخدع بها رجل يعرف حقيقة الاحوال التي
احاطت بالاحتلال البريطاني ، في بلاد الانجليز وفي هذه البلاد» .

«فالانجليز ما كانوا مستطيعين من جهة ان يحملوا على عاتقهم جريمة
اعداء عرابي وأصحابه ، وهم - اي «الانجليز» - كانوا اكبر المشهريين
بفضائح الحكم الذي ثار عليه العرابيون وضاقوا ذرعا باحتماله ، فقد
سوغ الانجليز احتلال مصر باختلال الحكومة المصرية ، والشقاء الذي كان
المصريون يعانونه على أيديها ، وتفاقم الفساد الذي أضر بمصالح الوطنيين
وأصحاب الديون على السواء ، فمن أبعد الامور عن المعقول ان يقبل الانجليز
على سمعتهم في العالم المتحضر ان يقتلوا أناسا لا ذنب لهم الا الثورة على
مفسدة هم اول المعترفين بها ، والمقرين بصعوبة احتمالها ، وتلك سببة
يعلم الدين يتبعون التاريخ الانجليزي الحديث ، ان القوم لا يستسهلون

حملها، ولا يودون ان تنسب اليهم، وفي وسعهم دفعها بذريعة من الدرائع». «هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، يجب ان نذكر في اي عصر حدثت الثورة العرابية ، لنذكر كيف عوقب عرابي بالنفي دون الاعدام ، فلقد وقعت تلك الثورة في ابان العصر الذي سادت فيه مبادئ الثورة الفرنسية بلاد الانجليز ، وانتشرت بينهم قواعد الحرية الحديثة ، وآراء الفلاسفة المبشرين بمذاهب الديموقراطية ، وفي تلك الفترة اجترف نفوذ الاحرار كل نفوذ المحافظين وأنصار المذاهب العتيقة ... ففي عصر كذلك العصر، ما كان بالمعقول ان توافق الحكومة البريطانية على اعدام أناس يطلبون الحرية ، ويدعون الى الديموقراطية ، ولهذا حال الانجليز بين البطل المصري والاعدام ، وصانوا سمعتهم التاريخية من تبعة قتله في مثل تلك الظروف، لهذا حالوا بينه وبين الاعدام، لا لانهم استأجروه ، ولا لانهم تواطأوا معه على خيانة البلاد » .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك عن الثمن الذي تقاضاه عرابي عن «خيائته» كما يقول أعداء الحركة الوطنية في مصر ، من الرجعيين وأنصارهم : «... ثم اين هي الاموال التي استؤجر بها عرابي ، وباع بها وطنه كما افترى المنافقون ؟ لقد كانت مصر كلها في قبضة ذلك الرجل ، فما اقتنى شيئاً ولا جمع مالا ، ولا ترك لابنائه من بعده كثيراً ولا قليلا ، وان رجلا كهذا لاشرف من ان يتهم بتلك الخيانة القبيحة ، بل هو اشرف الف مرة من أولئك اللصوص الذين لا تنبسط يدهم الا لجمعوا الملايين من السحت والسرقة والاعتصاب» .

ثم يقول العقاد عن عرابي :

«لا . لم يكن عرابي خائناً ولا متواطئاً مع الانجليز ، ولكنه كان رجلاً مخلصاً خدلت له الحوادث ، وانقلبت عليه المآرب السياسية والدسائس الأجنبية ، ففشل في حركته فشلاً لا حيلة له فيه ، وهو ناقد من حكم لا يملك الا النعمة عليه ، ومناض في طريق لا يملك الا المضي فيه ، ومن آيات اخلاصه انه كان يقبض على زمام الجيش والامة وكان يستطيع ان ينكل بخصومه تنكيلاً لا تنفعهم معه دسائس المستعمرين ، فما صنع شيئاً من ذلك ، بل رضي ان يظل مستهدفاً للمؤامرات الحقيرة مرة بعد مرة ، دون ان تمتد يده الى جرثومة المتآمرين» .

ثم ينتهي العقاد من دفاعه الصادق عن عرابي ضد الرجعيين ، بالتأكيد على ان الرجعية هي مصيبة البلاد الكبرى ومصدر الشر والتأخر فيها ...

يقول العقاد :

«فاذا شئنا ان نعتبر باليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر ، فلنعتبر به على اساس واحد ، وهو ان المصيبة الكبرى كلها انما جاءت من التشبث بأساليب الحكم العتيقة ، وتصلت الاغبياء من الشراكسة ونفائات الامم على المصريين ، في العصر الذي بزغت فيه القومية المصرية ، وتحركت فيه دوافع الحرية والاستقلال» .

«بهذا فلنعتبر كل الاعتبار ولننس كل النسيان ما قيل عن خيانة عرابي ، وما شاع حول ذلك من الاكاذيب والاراجيف ، فما من عبرة تبنى على هذا الاساس الا وهي عبرة خاطئة لا تفيد» .

وهكذا شن العقاد حملته العنيفة على الرجعية خلال سنة ١٩٣٠ في المجالات الاقتصادية والسياسية والقضائية ، بل في المجال الفكري والتاريخي حيث ارادت الرجعية ان تشوه تاريخ مصر الوطني وتقدم له صورة غير حقيقية ، وأن تتهم الزعماء الوطنيين مثل عرابي بتهمة زائفة حتى يبدو وجه التاريخ وجها مشوها لا الهام فيه للأجيال الجديدة من المناضلين الوطنيين .

وكانت ضربة العقاد الاخيرة هي الربط بين الحركة الرجعية في مصر وبين الانجليز ، حيث كتب في مقال له بعنوان «الرجعيون والانجليز المحليون» يقول فيه «المؤيد الجديد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠» : «في الخطاب المفصل الذي ارسله الينا صديقنا «ص» بيان واف للرأي القائل بأن الازمة الحاضرة في مصر هي ازمة الرجعية قبل غيرها ، وأن الانجليز لم يخلقوا الازمة ، وأنما حاولوا - ويحاولون - ان يستفيدوا منها بعد خلقها ، وهذا الرأي هو رأينا الذي لا تزيدنا الحوادث الا اقتناعا به ووثوقا منه ، ولا يدعونا الى تقريره وتوكيده الا ان يعرف المصريون الحالة على حقيقتها ، ويعلموا اصول الدسياسة من اين تنجم والى اي غاية تسعى . وفرق بين ان نقول ان فلانا قتل القاتل ليفتصب تركته ، وبين ان نقول ان فلانا رأى الورثة يتنازعون على تركه القاتل فأراد ان يستغل النزاع بينهم فيما يفيد ، فالانجليز لم يقتلوا القاتل في هذه الازمة ، ولكنهم تركوا الرجعية تفسد خنجرها ولم يمنعوها ان تقتل ، ولو انهم منعوها في بادىء الامر لاستطاعوا ان يجدوا الحجة لمنعها فتمتنع لا محالة . ولكنهم لم يجدوا لهم مصلحة في ذلك فلم يفعلوه» .

ثم يقول العقاد عن الرجعية :

« فالرجعية آثمة مصررة على إثمها ، ماضية فيه من زمن بعيد ، لا يشنيها عنه شقاء هذه الازمة ولا ما تبتلي به من الفاقة والشدة والخراب ، بل هي تنتهز هذه الفرصة لتضرب ضربتها ، فتزيد الامة فاقة على فاقة وشدة على شدة وخرابا على خراب » .

ثم يقول :

« فالرجعية تعتمد على تبادل المنفعة بينها وبين أعوانها الانجليز المحليين » .
هكذا كان موقف العقاد سنة ١٩٣٠ .

كان موقفا وطنيا صادقا كل الصدق ، واضحا كل الوضوح . كان العدو امامه محددا كل التحديد ، وهو الرجعية والرجعيون ، ولم تكن الرجعية ولا الرجعيون كلمات غامضة غير واضحة في ذهنه ، بل كانت الرجعية تتمثل فيما يلي :

اولا - العداء لطبقات الشعب الفقيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، والعمل على الاضرار بالمصالح الاقتصادية لهذه الطبقات .

ثانيا - محاولة الاعتداء على استقلال القضاء ، لتسهيل الاجراءات الارهابية ضد المواطنين ولتسهيل العبث بالدستور .

ثالثا - التحالف مع الانجليز لتحقيق المصالح المشتركة بين الرجعية المصرية والانجليز ضد مصالح الشعب في مصر .

رابعا - محاولة تشويه تاريخ مصر وتاريخ الزعماء الوطنيين من أمثال عرابي حتى لا يكون امام الحركة الوطنية في مصر نموذج او مثال او مصدر للإلهام .

خامسا - شدد العقاد في حربه ضد الرجعية على اهمية حرية الصحافة ، التي كانت ميدانا للارهاب والاضطهاد من جانب اسماعيل صدقي ، حتى لا تتمكن الحركة الوطنية من التعبير عن نفسها ، مع تشجيع لون من الصحافة التي لا تعبر عن مشاعر الشعب ومشاكله ، وانما تحاول اغراقه في التفاهات والوان الاثارة المختلفة .

سادسا - كان الميدان الاساسي لمعركة الرجعية ضد الحركة الوطنية في مصر هو ميدان «الدستور» ، وكانت الحركة الوطنية تتمسك بدستور ١٩٢٣ بينما كانت الرجعية تهدف الى تغيير هذا الدستور ، وقد نجحت في ذلك بالفعل ، فألغى اسماعيل صدقي الدستور ، وأصدر دستورا جديدا يمنح الملك سلطات واسعة ، ويضيق الخناق على الشعب .

كان هذا هو المعنى الذي يقصده العقاد بالرجعية ، وكان معنى واضحا في

ذهنه كل الوضوح وقد تميزت كتابات العقاد في تلك الفترة بالجاذبية والجمال والحرارة وقوة التعبير والقدرة على التأثير الواسع على وجدان الجماهير ... كل هذه العوامل دفعت الرجعية الى التريص بالعقاد وتمت بالفعل احواله الى التحقيق في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ واستمر التحقيق معه فترة طويلة ثم قدمته القوى الرجعية للمحاكمة، حيث دافع عنه محام وسياسي وطني بارز في ذلك الحين هو مكرم عبيد ، كما كانت هذه المحاكمة موضعاً لاهتمام واسع من الراي العام ، فقد رأت الجماهير الشعبية الكبيرة كاتبها الثائر عباس العقاد يقف في قفص الاتهام عرضة لانتقام الملك فؤاد ، وانتقام الرجعية المصرية. ولقد استندت الرجعية في محاكمة العقاد ، الى مقالاته العنيفة التي كتبها خلال سنة ١٩٣٠ والتي عرضنا لها في هذا الفصل .

فماذا كانت قصة المحاكمة والسجن ؟

المحاكمة والسجن

كان من الطبيعي ان يتربص الملك فؤاد بعباس العقاد بعد موقفه من البرلمان ، وبعد تهديده لأكبر رأس في البلاد بعقاب الامية اذا خيان الدستور ، والمعروف ان الملك فؤاد كان يكره رجال القلم الاحرار من الكتاب والفنانين ، فهو الذي امر بنفي الشاعر الشعبي الكبير بـيرم التونسي ، عندما سمع له قصائده الوطنية وكان بعضها هجاء للملك فؤاد نفسه ولاسرته ، وخرج بـيرم التونسي العظيم من مصر منفيا ومطرودا ومنفلوبا على امره ، ليتشرد في باريس سنوات طويلة ، عانى فيها الكثير من السوان الضياغ والتجوع والبؤس ، وقيل - ولم يثبت هذا القول تاريخيا - ان الملك فؤاد هو الذي تخلص من الكاتب اللامع الحر محمد تيمور ، الذي مات فجأة في شبابه الاول ، وكان يملأ الدنيا بكتاباتة الحرة الجريئة المستنيرة . ولقد قيل ان الملك فؤاد قتل هذا الشاب الموهوب المتحرر بالسسم ، وسواء صحت هذه الرواية او لم تصح فهي تدل ولا شك على سمعة الملك فؤاد ، وما عرف عنه من كراهية للفكر الحر المستنير .

كان من الطبيعي ألا يفلت العقاد من ارهاب الملك فؤاد ، ولم يستطع الملك ان يحاكم العقاد بسبب صرخته في البرلمان عن سحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور . لان العقاد كان يتمتع بالحصانة البرلمانية التي تمنع مثل هذه المحاكمة . وجاءت فرصة تقديم العقاد للمحاكمة بعد شهور قليلة ، وبعد ان شن العقاد حملته العنيفة ضد الرجعية والرجعيين ، بالصورة التي عرضنا لها في الفصل السابق .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ قدمت النيابة العقاد للتحقيق ، ومن يومها

دخل السجن حتى تمت محاكمته في ديسمبر ١٩٣٠ ، وانتهت المحاكمة بالحكم على العقاد بالسجن تسعة أشهر ، قضاها كاملة وخرج بعدها في ٨ يوليو سنة ١٩٣١ ، ليواصل من جديد كفاحه ضد الرجعية والرجعيين ، منذ اليوم الاول لخروجه من السجن ، وقد ظل العقاد ملتزما بموقفه الصلب على هذه الصورة ، حتى اصطدم بالوفد سنة ١٩٣٥ .

أحيلت قضية العقاد بعد التحقيق معه الى محكمة الجنايات ، وكان المتهم الاول في هذه القضية هو محمد فهمي الخضري ، صاحب جريدة المؤيد الجديد ، وكان المتهم الثاني هو عباس العقاد ، وكانت الصيغة القانونية للاتهام كالآتي :

«ان المتهم الاول محمد فهمي الخضري بصفته مديرا لجريدة المؤيد الجديد عاب علنا في الذات الملكية بأن نشر مقالات في الأعداد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٦ الصادرة في ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ و ٢١ ، ٢٤ سبتمبر ١٩٣٠ تشتمل على عبارات العيب ، وأن الثاني - عباس العقاد - بصفته شريكا للاول في الجريمة المتقدمة ، اتفق معه على ارتكابها ، وساعده مع علمه بها على الأعمال المسهلة والمتمة لها ، بأن حرر المقالات الواردة في الأعداد المتقدمة ، وسلمها اليه فنشرها ، وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة» . بهذه الصيغة القانونية وجهت محكمة الجنايات التهمة الى العقاد ، وكانت المحكمة مشكلة من المستشارين ، عبد العظيم راشد باشا رئيسا وعبد الباقي القشري بك ومصطفى جنفي بك عضوين ، أما ممثل النيابة فكان محمود منصور بك رئيس نيابة مصر الأهلية .

وكان محامي العقاد هو مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد ، والسياسي البارز الموهوب ، والمحامي اللامع في ذلك الحين ، وقد اخذت المحاكمة منذ اللحظة الاولى طابعا جماهيريا واسعا ، فكتبت جريدة الاهرام عن المحاكمة في ٢٢ ديسمبر ١٩٣٠ تقول :

«نظرا لاهتمام الجمهور بمثل هذه المحاكمة ، وترقب البوليس ازدحام الجلسة ، فقد ارسلت الحكمدارية قوة كبيرة من البوليس لحفظ النظام ، وكانت تلك القوة وفيرة العدد ، ولكنها مع الاسف لم تتمكن من ضبط النظام ، وأخفقت في مهمتها ، بالرغم مما أظهره فريق من رجالها من عنف واستعمال شدة ، وتناول على الكثيرين ، وهو مما يؤسف له ، وقد حضر رجال البوليس في الساعة الثامنة الاستاذ العقاد ، يحرسه احد

الضباط ، وأجلس في قفص الاتهام مع الاستاذ الخضري ، وفي منتصف الساعة التاسعة فتحت قاعة الجلسة ، وتدفق الجمهور اليها واحتل جميع المقاعد ، بما فيها مقعد الصحافة ، فاضطر مندوبو الصحف الى التشتت والجلوس في المقاعد الخلفية ، والوقوف على الأقدام ، وفي ذلك ما فيه من تعطيل لاداء مهمتهم ، ونحن نرجو ان يعنى حضرات الموكل اليهم في حراسة النظام بهذه المسألة ، وحجز مقاعد لمندوبي الصحف . لقد ازدحمت قاعة الجلسة ازدحاما شديدا وظل عدد كبير من النظارة وقوا خلف المقاعد . هذا هو وصف الاهرام الذي يكشف عن مدى اهتمام الرأي العام بهذه المحاكمة ، وقد استمرت المحاكمة عدة جلسات ، ثم نطق رئيس المحكمة بالحكم في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، وكان نص الحكم : « حكمت المحكمة بحبس المتهم الاول محمد فهمي الخضري ستة اشهر حبسا بسيطا ، وحبس المتهم الثاني عباس العقاد تسعة اشهر حبسا بسيطا ، ونشر هذا الحكم بثلاث جرائد يومية ، بمصاريف على حساب المحكوم عليهما » .

وعلقت جريدة « الشعب » وهي جريدة اسماعيل صدقي ، وجريدة الحكومة الرجعية وحزبها المفتعل ، الذي انشأه صدقي لمساندته في الحكم وسماه باسم حزب الشعب ... علقت هذه الصحيفة الرجعية على هذا الحكم ، في محاولة لتشويه صورة العقاد فقالت : « لما نطق سعادة الرئيس بالحكم على الخضري بالسجن ستة شهور اعتقد العقاد ان المحكمة ستدينه ، فتناول بعنقه وهو في حالة عصبية ، حتى كادت قدماه لا تقويان على احتماله ، فاستند الى « درابرين » القفص ، فلما اطمأن الى الحكم بتسعة اشهر فقط استعاد بعض قواه وجلس » .

وجريدة « الشعب » بالطبع كانت تحاول التشهير بالعقاد ، تحقيقا لاهداف حكومة صدقي الارهابية المستبدة ، وقد كانت هذه الجريدة مكروهة من الشعب ، وكانت توزع عن طريق فرضها بالاكراه على عمد القرى والموظفين ، وكتبت نفس الجريدة تعليقا بعنوان « عظة القضية » وحاولت ان تنال من العقاد بنفس الطريقة السابقة ، وان تشوه صورته وان تسيء الى موقفه الوطني الصلب ... قالت الجريدة في نوع من التشفي الواضح الذي لا خفاء فيه : « هناك عظة يخرج شباب هذا البلد بها ، فلا تدفعهم مقالات يقرأونها في الصحف من كتاب مهيجين ، الى اخذها قضية مسلمة ، فكم قرأوا من تهيجات العقاد افندي ، ما كانوا يتصورون معه انه مثل البطولة الاعلى ، ارسله الله ليقود الجحافل ، ويقتحم المعقل ، وما هم رأوا

كيف خارت عزيمته ، وارتعدت فرائضه ، من حكم أمكن لكثيرين من كبار الرجال الذين ساء حظهم ان يحتملوه فليكن الوفديون عن التحدث عن البطولة والابطال ، فان هذا الحادث كان دليل جبنهم بل مضرب الامثال... وهكذا استطاع هذا الموقف البسيط ان يحني بل ويسحق رأس الكاتب الكبير .

اما جريدة مصر الوفدية فقد قالت ان العقاد قد تلقى الحكم بشجاعة ورباطة جأش ، ولا شك ان الصورة التي رسمتها جريدة «الشعب» هي صورة زائفة ، وهي نوع من الحرب النفسية التي شنتها الرجعية في تلك الفترة ضد العقاد ، ذلك لان كتابات العقاد التي كانت سببا في دخوله السجن ، كانت تنطق بشجاعته واستعداده لدفع الثمن ، كما ان هذه المقالات كانت تقطع بأنه يتوقع عقوبة من هذا النوع في اي لحظة، وبعد ان خرج العقاد من السجن واصل كتابته بنفس القوة والحماس والاندفاع، مما يؤكد ان نفسية العقاد في تلك الفترة لم تكن نفسية كاتب متردد خائف فاقصد للشجاعة كما حاولت جريدة «الشعب» ان تصوره .

نعود الى الحكم بسجن العقاد ، فنجد ان المحكمة في خيشتها قد بنت هذا الحكم على اساس من تفسيرها لكلمتي «الرجعية والرجعيين» فسي مقالات العقاد التي نشرها في المؤيد الجديد سنة ١٩٣٠ ، فقد فسرت المحكمة هاتين الكلمتين ، بأن المقصود بهما هو الملك فؤاد ، وعلى اساس هذا التفسير اعتبرت مقالات العقاد عيبا في الذات الملكية وحكمت بسجن العقاد .

قالت المحكمة في خيشت الحكم وهي الخيشت التي نشرناها بالنص في آخر هذا الكتاب كوثيقة تاريخية «... من حيث ان المطلع على هذه المقالات اي مقالات العقاد ، يجد الادلة تفيض على ان المتهم الثاني -العقاد- قد اقترف جريمة العيب في الذات الملكية الرفيعة ، فأسند اليها امورا ليس فيها فقط اخلال بالواجب المفروض على كل فرد من الاجلال لهذه الذات السامية ، باسناد اعمال لجلالته تؤذي شعوره ، وتظهره بمظهر المعتدي على حقوق الامة . ومن حيث ان القارئ للمقالات المشار اليها يجد ان «ص» (١) والعقاد قد تلاقيا عند نقطة الرجعية ، ووقع اختيارهما

١- احدى كتاب جريدة المؤيد الجديد وكان يكتفي بالتوقيع بالحرف الاول من اسمه ولعله صبري ابو علم احد الشخصيات الوفدية البارزة في تلك الفترة .

عليها ، وجعلها عنوانا للمقام الاكبر الجليل ، الذي لا يجرآن على ذكره بالتصريح ، وهو مقام الملك المعظم ، لانهما ذكرا هذا اللفظ في مناسبات وملابس تاريخية وسياسية ، تصرفه حتما وبلا عناء في التفسير والتأمل ، الى حضرة صاحب الجلالة الملك ، كما سيجيء البيان . وعليه فليست كلمة الرجعية في المقام الذي ذكرت فيه ، واعتبرتها المحكمة بسببه دالة على جلالة الملك ، مقصودا بها كما قال الدفاع «كل فكرة او شخص او هيئة مسئولة الان او فيما مضى ، عن هدم دستور البلاد او العبث بحرياتها» ، وليس مثلها مثل عبارات الديمقراطية او الديماغوجية ، وليس مقصودا بها لا الاحزاب ولا الوزراء بل الذات الملكية ...»

«ومن حيث ان المتهم الثاني «العقاد» كتب بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٣٠ ما ياتي «اعتقادي ان هذه الازمة هي ازمة الرجعية قبل كل شيء ، والرجعيون اعداء الدستور كانوا يتهيئون من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية ، او لابقائها ناقصة مشلولة تمكّنهم من الحكم ، كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى ، وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية ، تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ... الى آخر ما جاء في هذه العبارة ، والمفهوم بداءة من ذلك : ان المتهم الثاني -العقاد- قصد بالرجعية والرجعيين جهة غير جهة الوزارة الوفدية المراد تأليفها ، ذلك لان الجهة التي تستطيع تأليف وزارة او اسنادها - وهو المعنى المقصود هنا - جهة ذات سلطان ، وتعيينها على هذا الوجه يصرفها مباشرة الى جلالته الملك الذي يملك وحده حق اسناد الوزارة - والتعبير هنا بالرجعية والرجعيين واحد فان اللفظة تجيز استعمال الجمع في مقام المفرد تنويها في التعبير » .

ثم تواصل المحكمة تفسيرها لكلمة الرجعية على هذا الوجه نفسه ، وهو ان الرجعية عند العقاد هي الملك فؤاد ، فتقول : «... ومن حيث ان المتهم الثاني «العقاد» كتب كذلك في المقال الانف الذكر ما يلي : «فلا يسعني أن اعتقد ان كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية ، وأن الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية ... هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين ...» وظاهر جليا ان الكاتب اراد جهة الرجعية جهة ذات مكان عال وسلطان عظيم ، وإلا لما استقامت هذه المقابلة ، فلا يمكن افتراض ان الكاتب قد قابل هنا بين سلطة الانجليز وسلطة الوزارة والافراد ، انما البادي للذهن ، والمتبادر للفهم ، انه انما يقابل بين جهتين عظيمتين ، هما جهة الانجليز ،

وجهة صاحب الجلالة» .

«ومن حيث ان المتهم الثاني «العقاد» كتب في المقال المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠ العبارة الآتية : «تستطيع الرجعية ان تظن ظنا او تتوهم توهمًا ، انها هي التي طلبت ذلك» «يشير الى الاستقلال» فكان ، او انها كانت تطلبه على اي وجه من الوجوه فيكون ، - «تستطيع ان تذكر لنا كلمة واحدة قالتها في سبيل ذلك ، او تدبيرا واحدا دبّرته ، او نية واحدة أظهرتها بأي نوع من انواع الظهور ؟...» فهذه العبارة قاطعة في الدلالة ، على ان المتهم انما اراد بلفظة الرجعية جلالة الملك ، لان معنى العبارة لا يستقيم بأي حال من الاحوال اذا كان المراد بالرجعية هنا الوزارة ، كما يقول الدفاع ، اذ المعلوم للكافة ان بعض رجالها على الاقل قام بما ينفي الكاتب صدوره من الرجعية ، وانما اراد الكاتب ان يستغل جهل الجمهور بالتقاليد الملوكية ، التي تتنافى مع اظهار ما يبذله الملوك عادة في هذا السبيل» .

«ومن حيث ان الكاتب «ص» كتب في مقال نشر في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وافق عليه المتهم الثاني «العقاد» في مقاله المنشور في ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ «ان الرجعية سعت في انجلترا ليكون هذا التعديل في صالحها ، ليحل استبدادها محل استبداد محمد باشا محمود ، فلما لم تفلح في هذا المسعى ، وعادت الحياة الدستورية ، ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكون آلة للاعتداء على حقوق الامة ، ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هذا ، فاستقالت حكيمه كريمة ، وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب»

«والمحكمة ليست في حاجة الى التدليل بأن الرجعية هنا انما يقصد بها جلالة الملك وليس أدل على ذلك من تلك المناسبات التي يذكرها الكاتب ، فليس في هذا البلد هيئة سياسية فضلا عن افراد ، تستطيع ان تجعل وزارة النحاس باشا آلة للاعتداء على حقوق الامة ، بحيث اذا لم تقبل تضطر للاستقالة» .

هذه نماذج من تحليلات المحكمة التي ادانت العقاد ، وهي تحليلات تثبت مدى الارهاب الذي فرضه الملك فؤاد على القضاء ، فأصبح القضاة يحاسبون الكاتب حتى على نواياه ، ويحاولون - بجهد كبير - ان يثبتوا التهمة ضد الكاتب لارضاء الملك ، بما يذكرنا بمحاكم التفتيش التي كانت تحكم على الانسان لا بأفعاله وأقواله فقط ، بل بنواياه الباطنية التي تفترضها المحكمة على هواها ، وعلى هوى ما تريد ان تصدر من احكام ظالمة ،

هدفها تحقيق نوع من الارهاب القانوني ضد الكتاب ، ولمصلحة الملك والرجعية والانجليز .

وامام هذه المحكمة وقف مكرم عبيد ببلاغته وقوة بيانه ووضوح حججه ، ليقدم دفاعا سياسيا عميقا رائعا عن العقاد ، ويعتبر هذا الدفاع من أجمل وأعمق ما تردد في المحاكمات الفكرية ، في تاريخنا العربي المعاصر . وقد حرصنا على نشر نص هذا الدفاع في آخر الكتاب كوثيقة تاريخية .

حدد مكرم عبيد القضية منذ البداية «على انها مأساة امة تمثلت في مأساة فرد» ويقول مكرم بعد ذلك : «الواقع ان هذه القضية التي تبدو في الظاهر بين النيابة والاستاذ العقاد هي في الحقيقة بين الرجعية والدستور ، او هي بالاحرى بين مبدأي التأخر والتقدم ، ايا كان الشكل الذي قد يتخذه كل من هذين المبدئين ، او الاسم الذي يتسمى به في مختلف الازمنة والظروف ، وما العقاد الا خصم للرجعية عنيد ، انهال عليها بضربات قاتلة ، رات الا قبل لها بها ، فاعتزمت ان تنكل به قبل ان ينكل بها ، ولما لم تقو عليه فرت الى السدة الملكية تتعلق بركابها ، وتسمح بأعتابها ، ولم تستع ان تتخذ منها ستارا لعيوبها ، فأسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب فيها » .

ثم يحدد مكرم عبيد معنى الرجعية التي يحاربها العقاد بعنف فيقول : «ولكن ما هي الرجعية التي عناها العقاد ؟ هي كل فكرة او هيئة او شخص مسؤول عن العبث بالدستور ، او بحريات البلاد في اي زمن من الازمان ، وبما ان نفس الدستور الذي استمات العقاد في الدفاع عنه ، يقضي بأن الملك غير مسئول ، وأن ذاته مصونة ، فلا يمكن ان ينصرف لفظ الرجعية الى الذات الملكية ، لا موضوعا ولا قانونا» . ثم ينتقل مكرم عبيد بعد ذلك الى تحديد واسع لمعنى الرجعية ، وأنصار التقدم والحرية ، وهنا يحاول مكرم ان يستفيد من قضية العقاد لكي يؤكد معنى رئيسا ، كان مكرم عبيد احد رموزه البارزة في المجتمع المصري في تلك الفترة ، واقصد بهذا المعنى «الوحدة الوطنية» بين المسلمين والاقباط ، من خلال الدين المسيحي والدين الاسلامي معا ، وبذلك يلعب مكرم دوره في الربط بين مشاعر المسلمين والمسيحيين من خلال القضية الوطنية ... قضية العقاد ، وهو من ناحية ثانية يقدم تفسيرا سياسيا دقيقا وذكيا للنضال الديني للانسان . يقول مكرم عبيد :

«لو ان هذه القصة هي الوحيدة من نوعها ، لجاز ان يكون تصويرنا لها،

وتعليلنا لاسبابها محل ريبة وتشكك ، ولكن الدليل لا يعوزنا ، على ان
الرجعية في صراعها الدائم مع خصومها ، طالما لجأت الى مثل هذا السلاح
المعيب ، وهو التحكك بالعرش ، وشخص الجالس عليه ، من غير ان يكون
للعرش اي شأن قريب او بعيد في الخصومة ، وإليكم بعض الامثلة على ما
ذكرناه ، وهي امثلة رائعة لا يأتيها الباطل من اي ناحية من نواحيها» .

« ... منذ امد بعيد ينوف على الالف وتسعمائة سنة ، ظهر بين
الناس رجل من رجال الله الاطهار ، هو كلمة الله وروح منه ، ولكنه كان
بين الخلق متواضعا فقيرا ، لا يكاد يجد لجسمه غطاء ولا مثوى ، حتى انه
كان يقول عن نفسه : ان لطيور السماء أوكارها ، وليس لابن الانسان مأوى،
وكانت رسالته الى الناس ان اعبدوا الله عبادة الروح والحق ، وانبدوا من
الدين تقاليد الرجعيين من رجاله ، اذ هي ليست من الدين في شيء» .

«خصومة دينية كما ترون ، ولكن الرجعيين من رجال الدين ، لم
يجدوا سبيلا للانتقام من خصمها الا ان ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم
الولاء لقيصر صاحب العرش ، ورغم قوله صراحة «اعطوا ما لقيصر لقيصر
وما لله لله» فانهم شكوه الى الحاكم الروماني مدعين انه طعن على قيصر ،
ولو ان لخصومه لسان النياحة المصرية لقالوا بالامس ما تقوله هي اليوم «انه
هاب في الذات الملكية» .

«الا ترون يا حضرات المستشارين ، كيف تلجأ الرجعية حتى فسي
المسائل التي لا شأن لها بالملك ولا بالملك ، الى الانتقام من خصومها ، باتهامهم
بالمعيب في الذات الملكية ؟ وهل لا ترون بأن الرجعية هي هي اليوم والامس
والى الابد واحدة في تفكيرها وتدبيرها» .

«ساقوا المسيح الى المحاكم فأخذت الحاكم الروماني روعة من رنة
صوته ، وجلال صمته ، ولما تبينت له براءته من كل عيب أسقط في يده ،
ولم يدر ما عساه يفعل ، ولعله أحس في النفس حسرة ، او خشي من
الضمير ثورة ، فأمر بإحضار إناء من الماء وغسل يديه أمام الجميع ، ثم
صاح قائلا : «اني بريء من دم هذا البار» ولكن وأسفاه ! فانه برغم
مستوليته وإعلان حياده التام ، سلم المتهم البريء الى خصومه الرجعيين ،
وكان اسمهم وقتئذ الفريسيين ، وأمر جنده من الرومان ان يرقبوا التنفيذ
فأحاطوا به مهددين مستهزئين» .

ثم تحدث مكرم عبيد بعد ذلك عن الرجعية التي واجهت محمدا في
الصحراء العربية عندما بدأ دعوته الجديدة النبيلة : «لم يكد يمضي على

هذا الحدث الجلل قرابة نستمائة عام ، حتى ارتفع من صحراء العرب صوت رهييب عذب - ينذر الكافرين فتلهع النفوس لدويه ، ويبشر المؤمنين فتتفتح القلوب لوحيه ... بدأ الرسول الامين بتبليغ رسالته الى بنسي قومه ، فدعاهم الى عبادة ربهم ، وتحطيم اصنامهم ، وما كان لقومه وقد عرفوا فيه الامانة والقناعة والوداعة ان يسندوا اليه مطمعا خفيا ، او يظنوا انه كان يبغى من متاع الدنيا شيئا ، وهو الذي كان يدعو باسم ربه الى الاجلة دون العاجلة ، ولكن زعماء الجاهلية الاولى - والجاهلية هسي هي الرجعية - اتهموه بالطعن على حكمهم ، والطموح الى سلطانهم ، وتمادى بهم الوهم الى حد ان عمه ابا طالب فاتحه في ذلك ، ولوح له بالحكم والسلطان ، على ان يتنازل عن رسالته ، فما كان من النبي الكريم الا ان قال له : «يا عم - لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على ان اترك هذا الامر ما فعلت ، حتى يظهره الله او اهلك دونه» . اذن : يستخلص من هذين المثليين الرهييبين ، اللذين هما محل ايمان واجماع ، ان الرجعية لا تتورع حتى في المسائل الدينية والنفسية البحتة ، عن اتهام خصومها بالمساس بنظام الملك ، او بشخص ولي الامر ، وذلك تحقيقا للنكاية بهم ، وإمعانا في الانتقام منهم » .

ثم يقول مكرم عبيد بعد هذا التفسير السياسي للمسيحية والاسلام متحدثا عن قضية العقاد :

«... فكيف الامر في قضية كقضيتنا هذه ، تتصل مباشرة بالشئون السياسية والنظم الحكومية ؟ هل من عجب اذا كانت الرجعية السياسية او الحكومية تنقم على الاستاذ العقاد دفاعه الباسل عن المبادئ والنظم الدستورية ، فترميه بتهمة العيب في الذات الملكية ، وترى من السهل عليها ان تقلب بشيء من التحوير والتفسير والتنقيب بين السطور، الطعن البريء في نظام الحكم الى عيب في شخص الملك ؟» ثم يقول مكرم عبيد : «لا عيب ولا غرابة ، بل الغريب ان نتطلب من الرجعية اساليب غير رجعية ، ولا حياة للرجعية في جو من الانصاف والحرية» .

ثم يواصل مكرم عبيد دفاعه السياسي المجيد ، فيكشف ان المؤامرة على العقاد ، والرغبة في الزج به الى السجن ، هي جزء من المؤامرة على الامة كلها ... على حرياتنا ودستورها ، ورغبتها في التقدم والتطور ... يقول مكرم عبيد :

«... اما نفسية العقاد بازاء الرجعية الحكومية ، فهي من نفسية الامة جمعاء ، ومثلها مثل رجل رأى بيته عرضة للزلازل والعواصف ، فشرع في

تدعيم جنباذه وسد فتحاته ، فجاءت الحكومة غاضبة صاخبة ، وهدت البيت على رأس صاحبه ، ولم تجد لها عذرا في تحطيمه ، الا ان المسكين شرع في تدعيمه» .

«واذا كان للعقاد صفة تمتاز بها شخصيته كرجل ، او عبقريته ككاتب وشاعر ، فهي الصراحة التي تأبى المداراة والمواربة ، او اللف والدوران على حد تعبيره في بعض مقالاته ، ولو ان النيابة تفهمت نفسيته ، لادركت ان مثل هذه الصراحة ، تأنف ان تستتر وراء لفظ او عبارة ، وانها تعني ما تقول وتقول ما تعني» .

«بيد ان هذه الصراحة نفسها ، هي التي حفزت خصومه الى المبادرة بنكيمها . فقد كان العقاد صريحا وجريئا في هجومه على الرجعية وفضح نيائها ، وكان اول من عناه بالرجعية الوزارة الحالية «وزارة اسماعيل صدقي» كما هو ظاهر من مقالاته . والوزارة خافت اول الامر من تلك الصراحة ، فحاولت اسكاتها بتعطيل الجرائد التي كان يكتب فيها العقاد ، كما عطلت غيرها من الجرائد التي تولى امرها غيره من الكتاب الاحرار، وها هي اليوم تسوقه الى المحاكمة كما فعلت مع غيره ، وكما ستفعل مع غير هذا الغير من بعد ، اذا طال بهذه الوزارة العهد» .

ثم يقارن مكرم عبيد بعد ذلك بين عقلية العقاد ، وعقلية الرجعية التي يمثلها صدقي وحكومته : «عقليتان احدهما لمصري حر ، وكاتب فذ ، ونائب من نواب الامة ، راي البرلمان يغلُق ، والاقلام تحطم ، ودعائهم الدستور تقوض ، وحرياته تنقص ، فشحد قلمه ولسانه وفكره ، وهي كل اسلحته ، لمحاربة الرجعية ، والدود عن دستور الامة ، الذي اقسام يمين الولاء له ، والدفاع عنه ، وما كان لمثل العقاد ان يحنث بيمينه واليمين حبة من قلبه ، وعهد الى ربه ، والعقلية الاخرى عقلية وزير تسنم ذروة الحكم على انقراض الدستور ، وكان مبيتا النية على هدم الدستور ، حتى قبل ان يتولى الحكم ، كما اعترف بذلك في حديث له الى جريدة المقطم» .

ثم تحدث مكرم عبيد بعد ذلك عن اجراءات اسماعيل صدقي لخنق الحريات ، وموقف العقاد من هذه الاجراءات . واستعان مكرم في هذه الفقرة بأبيات لخليل مطران ، دون ان يذكر اسم الشاعر . . يقول مكرم: «... ولقد ثارت لهذه الاجراءات الخائفة نفس العقاد الحرة ، فكتب بقلم من نار ، محذرا الوزارة وانصارها من مغبة هذه الاساليب الرجعية ، منذرا اياهم في احدى مقالاته بأنه اذا حطمت الاقلام فالالسنة تنطلق ، واذا كملت الافواه فالنفوس تشتعل وكأنه يقول مع القائل :

كسروا الاقلام هل تكسرها
قطعوا الألسن هل تقطيعها
يمنع الألسن أن تنطق جهرا
يمنع الأعين أن تنظر شذرا
أغمضوا الأعين هل إغماضها
يمنع الأنفاس أن تخرج زفرا

ذلكم بيان موجز لنفسية العقاد ، ونفسية خصومه ، ومنه ترون ان العقاد كان له نصيب الأسد ، في محاربة الرجعية . فلا عجب ان يكون له اكبر نصيب من تقمتهـا» .

ويسجل مكرم عبيد بعد ذلك ملاحظة دقيقة وهي : ان «القانون» ليس شيئا مثاليا مطلق العدالة ، بل هو انعكاس لنوع السلطة ولونها ، فان كانت سلطة ارهابية طاغية ، انعكس هذا الطابع الارهابي على نوع القوانين وطريقة تنفيذها . ويقول مكرم عبيد مسجلا هذه الظاهرة ومستنكرا لها :

«... ولكن اذا لم نعجب من عقلية الوزارة وتصرفاتها الرجعية ، فالعجب ان تكون النيابة —وهي الامينة على الدعوى العمومية— أداة للرجعية، وسوطا لنقمتهـا ، فلم تكتف بأن اتهمت العقاد حيث لا تهمة ، بل سايرت الوزارة في سبيل الانتقام منه ومن قلمه ، فقررت القبض عليه ، ومعاملته في السجن معاملة اللصوص ، وفاتها انها بحبس العقاد قد غيبت قلمه ، وفضحت نفسها ، فاتها انها هي نفسها ، وفي تهمة كهذه التهمة نفسها ، لم تقرر القبض على متهم آخر ، لا لسبب الا انه لم يكن عباس العقاد » . ثم يذكر مكرم بعد ذلك النموذج الذي يثبت وجهة نظره ، وهو تغير موقف القانون «بتغير نظام الحكم» :

«... ما معنى القبض على العقاد وعدم القبض على غيره فيما مضى، كاستاذ محمود عزمي مثلا ، والتهمة واحدة في الحالتين . والنيابة هي هي لم تتغير . فما الذي تغير اذن ؟... هو نظام الحكم ولا ريب . فقد كانت الوزارة وقتئذ دستورية شعبية ، واصبحت الان استبدادية رجعية . هي الرجعية اذن التي تحرك النيابة ، فتنطق بلسانها وتقبض بسلطانها . اليس كذلك يا رجال النيابة ؟ وإلا فافتونا كيف تكيلون بكيلين .. فتحلونه عاما وتحرمونه عاما » .

ثم يتحدث مكرم عبيد بعد ذلك عن مرض العقاد ، وسوء معاملته في السجن ، ويورد مكرم نص رسالة ارسلها العقاد يقول فيها لمدير السجن :

«انني اذا قلت يا صاحب السعادة : ان الرطوبة في الرنزاثة تتلف صحتي ، وتعرض حياتي للخطر ، فلست اقول غير الواقع ، الذي يتساوى في العلم به الطبيب وغير الطبيب ، فانني اصببت فيما مضى بالالتهاب الرئوي والنزلات الشعبية ، وحالة الانف والحنجرة والصدر ، هي عندي

معرضة للنزلات التي لا يسهل شفاؤها مع جو الرطوبة . بل لا تريدها الرطوبة الا تفاقم واشتدادا ، وهذا عدا عسر الهضم المزمن ، ومرض الاعصاب ، ومن كان في مثل هذه الحالة ، يحتاج الى الشمس حاجته الى الحياة ، ويتوقى الرطوبة كما يتوقى السم القاتل» .
ثم يقول العقاد في رسالته الى مدير السجن ، والتي قراها مكرم عبيد في مرافعته :

«خلاصة ما اقول ان صحتي تتلف في هذا الجو الرطب الذي اعيش فيه ، وان حياتي نفسها معرضة للخطر ، وانني لا اطلب الا الشمس في المكان الذي ابنت فيه ، وليس من العسير تدبير ذلك» .
ويعلق مكرم عبيد على هذه الرسالة في مرافعته فيقول :

«ليس هذا هو التعذيب بكل معانيه في عصرنا هذا ، هصر المدينة والنور ... سجين مريض بصدوره يطلب الشمس فيحرمها؟! ورجل فدا من أنبغ الكتاب المصريين ، وأكبرهم نفسا ، وأطهرهم يدا ، يرجو ان ينتقل الى سجن الاجانب ، ليعامل كما يعامل القتلة واللصوص ممن الاجانب فيستكثرون عليه ذلك» !

ثم يركز مكرم عبيد بعد ذلك في دفاعه على تحديد معنى الرجعية عند العقاد ، ليؤكد ان العقاد لم يكن يعني الملك ، وانما كان يعني «كل فكرة او شخص او هيئة مسئولة الان ، او فيما مضى عن هدم دستور البلاد والعبث بحرياتها ، وان لفظ الرجعية لا ينصرف لا في مبناء ولا في معناه الى شخص الملك ، سيما وان الدستور يخلي جلالته من المسؤولية ، وينص صراحة على ان اوامر الملك الشفهية او الكتابية لا تخلي الوزارة ممن المسؤولية» .

ويسخر مكرم من موقف النيابة التي تتهم العقاد بالغيب في الذات الملكية فيقول :

«... اما الدليل الاول والاكبر الذي تركز عليه النيابة في تحقيقها ومرافعتها ، فهو من أغرب ما رأينا من أبواب التدليل . فتقول النيابة ان عبارة الرجعية تعني جلالة الملك . ولماذا؟! لانها لا يمكن ان تعني الا جلالة الملك . وهنا يتساءل العقاد ايضا لماذا هذا والعبارة عامة لا ذكر فيها لشخص معين ، فتجيب النيابة بصوت الظافر المنتصر : نعم ... فان عدم ذكرك لشخص معين ، هو الدليل على انك تقصد صاحب الجلالة الملك...»
ويمضي مكرم بعد ذلك في تحليل مقالات العقاد ، لاثبات المعنى العام الذي كان يقصده من الرجعية ، وأنه لم يكن يقصد الملك بهذه العبارة ...

يقول مكرم :

«ان الرجعية هي من العبارات المصطلح عليها ، والتي تستعمل لذاتها، فيفهم الناس مدلولها بمجرد الاطلاع عليها ، من غير حاجة الى تعيين اشخاص او نظم ، مثلها في ذلك مثل عبارات الديمقراطية، والارستقراطية، والديماغوجية ، والاستعمار الخ وليس ادل ما ذكرنا من تعريف الاستاذ العقاد نفسه للرجعية ، فقد سئل منذ اول التحقيق عن المعنى الذي يقصده من كلمتي الرجعية والرجعيين في مقالاته فأجاب من غير تردد «الرجعية هي مجموعة عوامل مختلفة ، تكره التقدم ، وتدعو الى الجمود على القديم في كل شيء ، سواء كان سياسة او اجتماعا او تفكيرا ، وهي قديمة العهد في مصر بطبيعة تكوينها ، ولها مظهر تبدو به في كل ظرف من الظروف في تاريخ النهضة المصرية» - ثم تكلم عن الرجعيين في الادب والدين الى ان قال : «وفي السياسة يوجد رجعيون يكرهون الدستور ، ويشيعون عنه اشاعات باطلة ، ويستعينون على هدمه بطلاب المصالح الشخصية ، وقد كان هؤلاء الرجعيون موجودين في مظهر من المظاهر قبل خمسين سنة» . نكتفي بهذا القدر من تلخيص دفاع مكرم عبيد عن العقاد ، ويستطيع من يحب مراجعته ، ان يقرأه في آخر هذا الكتاب ، حيث حرصنا على نشره كاملا ، كما سبقت الاشارة لقيمته كوثيقة تاريخية . على ان هذا الدفاع السياسي الممتاز ، الذي قدمه مكرم عبيد عن العقاد ، لم يغب شيئا امام المحكمة التي اذانت العقاد ، وان كانت قد سجلت تقديرها لجهد مكرم عبيد بقولها ، في حيثيات الحكم : «ان الدفاع عن المتهم الثاني - العقاد - قد بذل جهدا محمودا ، محاولا طي هذه الصحف التي سودها المتهم المذكور بقلمه ، وإسدال ستر على ما فيها ، ولكن الجهد مهما بلغ ، ما كان ليستطيع ان يداري جريمة واضحة ، وأدلة قائمة بينة ، بل ان مهمة الدفاع كانت فوق كل مجهود ، والتهمة لا دافع لها» .

وهكذا انتقلت الرجعية سنة ١٩٣٠ من العقاد ، ولكن هذا الانتقام لم يستطع ان يمحوا اثر كلمات العقاد القوية في نفوس الجماهير ، حتى لقد كانت المحاكمة نفسها شهيرا بالرجعية ، وتمجيда لقلم العقاد الحر . حيث استفاد مكرم عبيد من دوره كمحام ليؤكد آراء العقاد ، ويدافع عنها ، ويرددها ويشرحها ويفسرهما ، فجاءت المحاكمة فصلا آخر ، من فصول الحرب العنيفة التي شنها العقاد ، مع القوى الوطنية في مصر ضد الرجعية ، ممثلة في الملك وفي حكومة اسماعيل صدقي سنة ١٩٣٠ . وفي السجن قام علي ماهر وزير الحقانية في وزارة صدقي ، بزيارة العقاد ،

ولكن العقاد رفض ان يرد تحية علي ماهر ، بل استقبله وهو مستلق في سريره ، وقد مد رجله وجعل حذاءه في وجه الوزير ، ويبدو ان العقاد قد أحس بأن علي ماهر كان يزوره ليتشفى فيه ، كما ان علي ماهر - من ناحية - كان الوزير المسئول عن القضاء ، ولا شك ان القضاة الذين حاكموا العقاد وأدانوه ، قد فعلوا ذلك بتوجيه وتشجيع من وزير الحقانية ، فهو مسئول بالمشاركة في محاكمة العقاد ، وفي ادانته والحكم عليه بالسجن ، على ان علي ماهر يقول ان زيارته للعقاد في السجن ، كانت محاولة بريئة من جانب ، للاطمئنان على العقاد ، والتخفيف عنه ، ولم تكن محاولة للتشفي والانتقام ، ولكن الذي لا شك فيه ، ان علي ماهر كان احداً المسئولين الرئيسيين عن محاكمة العقاد وسجنه ، ولا يمكن تبرئته من مسؤولية هذه الجريمة التاريخية... وعندما خرج العقاد من السجن لم يخرج متخاذلاً خائفاً ، بل استمر في هجومه على الرجعية منذ اليوم الاول ، وكان استمراره في معركته عاملاً من العوامل القوية ، التي ساهمت في اسقاط حكومة اسماعيل صدقي سنة ١٩٣٤ ، لقد انتهى طغيان صدقي ، وكان للعقاد في القضاء على هذا الطغيان دور كبير واضح ، وهو دور مشرق ومشرف معاً . وفي اليوم الذي خرج فيه العقاد من سجن مصر العمومي بالقلعة ، في ٨ يونيو سنة ١٩٣١ ذهب الى ضريح سعد ، وألقى هناك قصيدته المشهورة ، التي يؤكد فيها ولاءه للثورة الوطنية ، والتي قال فيها مشيراً الى الشهور التسعة التي قضاها في السجن :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر وهانذا في ساحة الخلد أولد
عدائي وصحبي لا اختلاف عليهما سيعهدني كل كما كان يعهد
وكتب العقاد بعد خروجه من السجن مقالا بعنوان «بقية من مداد» نشره في جريدة مصر في ١٥ أغسطس سنة ١٩٣١... وفي هذا المقال يتحدث عن القلم الذي تسلمه من «الامانات» ، بعد خروجه من السجن . وتصور ان هذا القلم بعد تسعة اشهر من السجن ، لا بد ان يكون خالياً من المداد ، ولكنه فوجيء بأن مداده القديم ما زال فيه... او فيه منه بعض القطرات ، وفي كلمات شعرية جميلة يتحدث العقاد عن قطرات المداد التي وجدها في قلمه ، ويتحدث من خلالها عن واجب الكاتب ورسالته ، وفي هذه الكلمات يكشف العقاد عن اصراره على موقفه الوطني بعد خروجه وحرصه على ان يواصل رسالته ويؤدي دوره كاملاً دون خوف او ارتباك ، بعد ما اصابه من السجن والاضطهاد... يقول العقاد في هذا المقال الجميل - ولعله اول مقال كتبه بعد خروجه من السجن ، مندداً بارهاب

صدقي وحكمه الرجعي الذي بدل الدستور ، وأراق دماء الأحرار في
الطرق : .

«قطرات من المداد ، بعد زهاء مائتين وسبعين يوما في غيابات
السجون ... يا لك من قطرات كريمة في قلم كريم !. وتريدون ايتها
القطرات ان تلمسي النور كما كنت تلمسين ، وتريدون ان تؤدي الأمانة كما
يجب ان تؤدي ، وأن تقولي في هذا الزمن الأسود أشد من سوادك - كل
ما يجب ان يقال ؟ يا لك اذن من قطرات كريمة في قلم كريم !.

«انك اذن لا تعلمين ما حدث بعدك في مصر ، وما يحدث فيها من غير
وكوارث ، لا يحصرها قلم طليق ولا حبيس ، ولا يشملها حساب عسير ولا
يسير ... انك اذن لا تعلمين ان دستورا تبدل ، وشريعة نسخت ، وأرواحا
فاضت على قوارع الطرق ، أرخص ما تفيض الأرواح ، وبيوتا أصبحت
سجوناً لساكنيها ، وسجوناً أصبحت بيوتا للمحشورين فيها ، وحققا هان،
وباطلا عز ، ونفوسا آدمية بات كل ما عندها من حرية تحت سماء الله
وفوق أرضه ان تأكل وتشرب ، ان وجدت سبيلا الى الشراب والطعام ...
انك اذن لا تعلمين كل هذا ، ولا تعلمين فيما حدث كل هذا ... لا تعلمين
انه من أجلك انت ومن أجل مثيلتك من أقلام الكاتبين ، وكلمات الناطقين،
قد وضعت هذه الاسوار ، وأرصدت هذه الارصاد . ولا تعلمين كيف اعتد
قوم لكل قطرة منك طوفانا من المدافع والحدود ، وبركانا من البروق
والرهود ، ولا تعلمين كيف فزع منك ومن مثيلتك ايما فزع ، وفيما اتفوك
انت ومثيلتك ايما اتقاء ، فلو كنت سيلا من سيول العرم تجرفين وتعصفين
وتفرقين وتزهقين ، لما خافوك بعض هذه المخافة ، ولا تحصنوا منك بعض
هذه الحصانة ... في قوانين الصحافة» .

«انت لا تعلمين هذا ولا تعلمين اي طراز من القلم يريدون ، وأي صفة
من صفات القلم يشربون . فأما عهدك بهذه الاداة الضعيفة المخيفة ، فذاك
ان تريها جواد ميدان بكر بفارسه ، حيث يحمله الاقدام ويدفعه الواجب
وتدعوه حومة الجهاد» .

«وأما شرطهم في هذه الاداة الضعيفة ، فذاك ان يروها حصان بهلوان،
يظل حياته يقفز بين الحواجز ، ويرقص على الطبل ، ويركع بين يدي
النظارة ، وتحت هوامز المرتزقة باللاعيب» .

«شرطهم ان يكون المداد أرخص مبدول ، وهو حين يحمل امانة الضمير
إغلى من الدم الغالي ، وأصون من ماء العيون : فهل تريدون بعد هذا ايتها
القطرات ، ان تؤدي الأمانة كما يجب ان تؤدي ، وأن تقولي في هذا الزمن

الاسود ، اشد من سوادك - كل ما يجب ان يقال ؟»

ويختتم العقاد مقاله المؤثر الجميل بقوله :

«فعلى بركة الله ايتها البقية من مداد ، وعلى بركة الله كل قطرة تلحق بك وتجري في مجراك . شأنك والحرية ! ولا شأنك معنا ولا شأن مثيلاتك طول العمر ، الا كشأن كل فيض لا يفيض وكل مد لا ينفد وستنظرين وينظر الفوم غدا ، انك لن تفقدي - بعد - قطرة تشيعينهم بها كما شيعت غيرهم ، وتذكرينهم بها كما يطيب للناس ذكرهم ، وسيبحثون هم يومئذ عن بقية مداد في أقلامهم ، يصدرون بها الاوامر ويصوغون بها القوانين فسلا يجدون ... ولا تفني منهم الاوامر ولا القوانين» .

وهكذا التزم العقاد بعد خروجه من السجن بنفس موقفه قبل السجن . . . التزم بأن يكون كاتباً ثوريا حراً ، معبراً عن آمال الشعب ومطالبه ، وعدوا لا يهدأ للرجعية ومؤامراتها على الحرية والدستور والوطن . وقد واصل العقاد بالفعل موقفه بنفس الصلابة والقوة ، حتى حوالي سنة ١٩٣٧ . . . وبعدها انتقل من موقفه الثوري ، الى مواقع الرجعيين ، تحت تأثير ظروف عديدة ، سوف نعرض لها في الفصول القادمة من هذا الكتاب .

ومن المصادفات الغريبة ان يصدر العقاد عن حياته في السجن كتاباً ، هو «عالم السدود والقيود» ، وقد أصدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٧ ، بعد ان انتقل من معسكر الثورة الوطنية ، الى معسكر الرجعيين . . . ومن هنا جاء هذا الكتاب بعيداً تمام البعد عن تصوير حقيقة قضية العقاد ، وصراعه السياسي العنيف ضد الرجعية . . . لقد اقتصر العقاد على تسجيل ملاحظاته الانسانية والنفسية «السيكولوجية» على السجن والسجناء ، فهو يتحدث عن ضرورة توفير اسباب العلاج الجسدي والنفسي للسجناء ، ولا يتعرض ابداً في هذا الكتاب لقضيته الحقيقية ، او لاسباب سجنه ، وكأنه كان مسجوناً في حادث سرقة ، او هتك عرض ، او جريمة قتل ، ولم يكن مسجوناً من اجل فكرة حرة ودعوة ثورية ! . . ان العقاد لا يتعرض في هذا الكتاب لمعركته مع الرجعية وصراعه ضدها ، وهو الصراع الذي أدى به الى السجن . لقد تجاهل العقاد في كتابه هذا الجانب من جوانب قضيته ، وهو جانبها الاساسي ، ولذلك جاء الكتاب قاصراً كل القصور ، وضعيفاً اشد الضعف ، وهو بعد ذلك محاولة من العقاد ، لطمس معالم قضيته السياسية ، ولا تفسير لذلك الا انه كان في تلك الفترة ، سنة ١٩٣٧ ، يسعى الى الصلح مع الرجعية ، التي كانت معركته ضدها سبباً في

سجنه . . . لقد بدأ العقاد صلحه مع الرجعية بهذا الكتاب الغريب « عالم السدود والقيود » ، وحرص على الا يذكر موقفه في البرلمان ضد الملك فؤاد ، ولا كتاباته الثورية المتطرفة ضد الرجعية ، ولا حقيقة المحاكمة الارهابية التي أعدت له كلون من ألوان العقاب والتهديد والتأديب ، وبذلك حاول العقاد ان يطمس صفحة من اعلى صفحات تاريخه الوطني والسياسي، في سبيل صلحه مع الرجعية . . . وكأنه يطلب منها الغفران ، ويقدم شهادة ميلاد جديدة له ، يريد بها من الرجعية ان تنسى ماضيه وتغفره في نفس اللحظة .

وقد نسيت الرجعية ماضي العقاد وصفحت عنه ومدت اليه يدها سعيدة بأن تكسب كاتباً مثله بين صفوفها، وكان هذا الكتاب بأكمله عملاً مؤسفاً، بدأ به العقاد طريقاً جديداً في السياسة . . . فبعد ان كان كاتب الشعب أصبح كاتب الرجعية .

على ان قصة العقاد مع الثورة لم تنته بعد ، وما تزال فيها صفحات مشرقة أخرى ، قبل ان نصل الى سنة ١٩٣٧ .

العقاد وحرية الفكر

كانت حرية الفكر من أئمن ما دافع عنه العقاد ، وحرص على تأييده خلال ارتباطه بالثورة الوطنية في مصر ، وقد وصل في دفاعه عن حرية الفكر الى الحد الذي أدى به كما رأينا في الفصل السابق الى دخول السجن ، من أكتوبر ١٩٣٠ الى يوليو ١٩٣١ ، وذلك على اثر هجومه على الملك فؤاد ، لانه كشف عن نواياه في تغيير دستور ١٩٢٣ ، ليقتضي بهذا التغيير على ما ينادي به هذا الدستور من حرية في التفكير والتعبير . ولم يكن موقف العقاد من حرية الفكر موقفا نظريا ينادي بهذا الرأي ، دون ان يعمل على تطبيقه ، ولم يكن موقفا سياسيا يدافع فيه عن حزب من الاحزاب ، وهو حزب الوفد الذي كان ينتسب اليه سنة ١٩٣٠ ضد طفيان الملك والاحزاب المؤيدة له كلا . . . بل لقد كان موقف العقاد أبعد من ذلك ، فقد كان يلتزم بموقف الدفاع عن حرية الفكر حتى مع اعدائه السياسيين ، وحتى مع الذين يختلفون معه في الرأي والفكر والنظرة الى الامور .

وفي حياة العقاد ثلاثة مواقف تكشف لنا بوضوح عن شدة ايمانه - في فترة ارتباطه بالثورة الوطنية من ١٩١٩ الى ١٩٣٧ - بحرية الفكر وحرية التعبير .

اما الموقف الاول فهو موقفه من قضية كتاب «الاسلام واصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق . وقد صدر هذا الكتاب في ابريل ١٩٢٥ . فثار الكتاب ضجة واسعة ، وأدى الى محاكمة دينية مؤلفه ، انتهت في ١٢ أغسطس ١٩٢٥ بقرار هذا نصه :

«حكمنا نحن شيخ الجامع الازهر ، باجماع اربعة وعشرين عالما معنا ،

من هيئة كبار العلماء ، باخراج الشيخ علي عبد الرازق ، احد علماء الازهر ، والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ، ومؤلف كتاب «الاسلام واصول الحكم» من زمرة العلماء» . . . وكان هذا القرار موقعا من الشيخ محمد ابو الفضل شيخ الجامع الازهر آنذاك ، وهو الذي كان يرأس المحكمة الدينية ، التي عقدت لمحكمة الشيخ علي عبد الرازق . وقد صدر هذا الكتاب على اثر قيام مصطفى كامل في تركيا في ٣ مارس سنة ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة العثمانية ، وما تبع ذلك من اتجاه عدد من الملوك العرب ، الى العمل على وراثة لقب خليفة المسلمين ، لما يحمله ذلك اللقب من تدعيم للمركز السياسي لمن يحصل عليه ، فالمفروض ان يمتد نفوذ هذا الخليفة الى ابعد من منطقة نفوذه السياسي الحقيقي ، لانه سوف يصبح خليفة للمسلمين في كل مكان . وكان من بين الطامعين في هذا اللقب الملك فؤاد . وقد بدل فؤاد كثيرا من الجهد ، لكي ينال هذا اللقب الكبير . وفجأة ظهر كتاب الشيخ علي عبد الرازق ليقول «ان الخلافة ليست اصلا من اصول الاسلام ، وليس في القرآن - او السنة النبوية ما يشير الى الإمامة والخلافة» . . . وأخذ الشيخ علي عبد الرازق يبرهن في كتابه على سلامة هذا الرأي ، الذي كان يعني من الناحية الواقعية نسفا لكل محاولات الملك فؤاد في ان يصبح خليفة للمسلمين . كما ان علي عبد الرازق قد أثار في هذا الكتاب عديدا من الآراء والمناقشات التي دفعت عددا كبيرا من رجال الدين للوقوف ضده ، مثل قوله «ان حكومة ابي بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة «لا دينية» بدلا من وصفها - كما يقول الاستاذ محمد عمارة في كتابه الاسلام واصول الحكم دراسة ووثائق صفحة ١٧ - ، «بأنها حكومة سياسية مدنية مثلاً» وذلك في وقت كانت كلمة لا دينية تعني «الزندقة والالحاد» . . . كل ذلك وامثاله - كما يقول الاستاذ عمارة ايضا «يجعل وقوف العديد من رجال الازهر ، ضد هذا الكتاب امرا بديهيا والاعتراض عليه من قبلهم امرا طبيعيا ، بل ويجعل الامر غير الطبيعي والشاذ هو سكوتهم عنه ، ناهيك بالرضى عما جاء فيه» . . . على ان الذي يعنينا في هذه الدراسة عن العقاد ، هو ما أثاره كتاب علي عبد الرازق من اختبار لمسدى الايمان بحرية الرأي والفكر والتعبير لدى الاطراف المختلفة في الحياة الفكرية عند صدور الكتاب . فقد لقي علي عبد الرازق هجوما من الكثيرين من المفكرين ، وكان على رأسهم صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا ، ولكن العقاد كان على رأس الذين دافعوا عن الشيخ علي عبد الرازق . . . ودافعوا على وجه الخصوص عن حرية

في التفكير والتعبير عن آرائه . ولا تبدو لنا قيمة دفاع العقاد عن الشيخ علي عبد الرازق ، وأهمية هذا الدفاع ودلالته على مدى إيمان العقاد بحرية الرأي والتفكير والتعبير ، إلا إذا وضعنا أمامنا هذه الاعتبارات الثلاثة : الاعتبار الأول - أن كتاب الإسلام وأصول الحكم قد تضمن في بعض صفحاته هجوما جريئا يكاد أن يكون هجوما مباشرا على الملك فؤاد . فمؤلف الكتاب يقول على سبيل المثال : «لولا أن نرتكب شططا في القول ، لعرضنا على القارئ سلسلة الخلافة إلى وقتنا هذا ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة ، وليتبين أن ذلك الذي يسمى عرشا ، لا يرتفع إلا على رؤوس البشر ، ولا يستقر إلا فوق أعناقهم ، وأن ذلك الذي يسمى تاجا ، لا حياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر ، ولا قوة إلا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم» (١) . . . هذا نموذج مما كتبه علي عبد الرازق . . . وهو يكشف عن أن الدفاع عن مثل هذا الكتاب ، معناه الوقوف بوضوح ضد الملك فؤاد ومعاداته والتعرض لبطشه وغضبه . . . وقد كان هذا الأمر - ولا شك - واضحا تماما في ذهن العقاد ، وهو يحمل قلمه للدفاع عن علي عبد الرازق ، فالعقاد كان يعيش في قلب الحياة السياسية آنذاك ، وهو يعرف حقيقة موقف الملك فؤاد ، ويعرف ميله الواضح إلى الطغيان والاستبداد .

الاعتبار الثاني - أن الهجوم ضد علي عبد الرازق ، قد امتد إلى اتهامه ببعض التهم العنيفة ، التي كانت تبدو خطيرة ومثيرة ، إلى أبعد الحدود في ذلك الحين «سنة ١٩٢٥» .

ومن هذه التهم ما وجهه الشيخ محمد شاكر ، أحد كبار علماء الأزهر ، في مقال له إلى الشيخ علي عبد الرازق من اتهام يقول فيه أن علي عبد الرازق «يحبذ أن تقوم في مصر جمهورية لا دينية ، وأنه نائر على الحكومة وخارج عن نظمها الثابتة» .

بل لقد جاء في حكم هيئة كبار العلماء ضد الشيخ علي عبد الرازق ، اتهام أخطر - في ذلك الحين من الاتهام السابق - وخاصة بالنسبة للرأي العام المتدين . . . تقول هيئة كبار العلماء في قرارها : أن الشيخ علي عبد الرازق يقف في كتابه من المسلمين ، «موقف الطاعن على دليلهم الديني» والخارج على أجماعهم المتواتر على شكل حكومتهم الدينية ، أو موقف المجيز

١ - محمد عبادة - الإسلام وأصول الحكم ، دراسة ووثائق ، ص ١٠ .

للمسلمين اقامة حكومة بلشفية ، وكيف ذلك والدين الاسلامي في جملته وتفصيله يحارب البلشفية ، لان البلشفية فتنة في الارض وفساد كبير . لقد وضع الدين الاسلامي للموارث احكاما ، يلجأ اليها احيانا غير المسلمين ، لما فيها من الرحمة والعدل ، واوجب على المسلمين مقادير من الصدقات ، تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، وامر باقامة الحكومة الدينية التي تحفظ لكل ذي حق حقه ، ولكل عامل ثمرة عمله ، وجعل للدماء والاعراض والاموال حرمة لا يجوز انتهاكها ، وضرب على أيدي المفسدين في الارض ، وحسبنا في ذلك ان نقول : ان البلشفية تهدم نظام المجتمع الانساني ، وتضيع حكمة الله في جعل الناس درجات ينتفع بعضهم من بعض (١) .

هذا هو الاتهام الخطير الثاني الذي وجهه علماء الدين الى علي عبد الرازق ، فبعد اتهامه بأنه يدعو الى جمهورية لا دينية ، يقوم ضده اتهام جديد أعنف وأخطر بأنه داعية الى البلشفية .

وهاتان التهمتان الخطرتان في ذلك الحين ، تعطي لدفاع العقاد عن الشيخ علي عبد الرازق مزيدا من القيمة ، والتعبير عن الجرأة والشجاعة الفكرية .

الاعتبار الثالث : وهو اعتبار دقيق وهام بالنسبة للعقاد ولدفاعه عن علي عبد الرازق ، فقد كان العقاد وفديا مرتبطا أشد الارتباط بحزب الوفد وزعيمه سعد زغلول ، وكان علي عبد الرازق مرتبطا أشد الارتباط بحزب الاحرار الدستوريين ، وهو الحزب الذي قام على اساس معارضة الوفد والوقوف ضده ، ومن هنا يكون موقف العقاد تجاوزا للموقف الحزبي ، في دفاعه عن مفكر يقف في صفوف حزب معارض .

... هذا الموقف من جانب العقاد ، هو دليل لا شك فيه على شدة ايمان العقاد بالقيمة التي يدافع عنها ، وهي حرية الفكر والتعبير والرأي . ويتضح لنا هذا الموقف بصورة اعمق ، عندما نعلم ان سعد زغلول زعيم الوفد كان معارضا لكتاب علي عبد الرازق ، ولا شك ان العقاد كان يعرف رأي زعيم الوفد ، فقد كان وثيق الصلة به ، وليس من المعقول الا يناقشه في مثل هذه القضية الهامة ، وقد جاء هذا الرأي في كتاب «سعد زغلول ذكريات تاريخية طريفة» لمحمد ابراهيم الجزيري الذي كان سكرتيرا خاصا لسعد زغلول ، وقد صدر هذا الكتاب بعد وفاة سعد زغلول بفترة طويلة .

يقول سعد زغلول عن كتاب «الاسلام وأصول الحكم» :
«لقد قرأت هذا الكتاب بامعان لاعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب ، فعجبت كيف يكتب عالم ديني بمثل هذا الاسلوب في مثل هذا الموضوع؟!... وقد قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن منهم في الاسلام حدة كهذه الحدة في التعبير ، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق . . لقد عرفت انه جاهل بقواعد دينه ، بل بالبسيط من نظرياته ، وإلا كيف يدعي ان الاسلام ليس مدنيا ولا هو نظام يصلح للحكم ؟ فأية ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الاسلام ؟ هل البيع والاجارة او الهبة او اي نوع آخر من المعاملات ؟ ألم يدرس شيئا من هذا في الازهر ؟ أولم يقرأ ان أمما كثيرة حكمت بقواعد الاسلام فقط عهدا طويلة كانت انصر العصور ؟ وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد وهي آمنة مطمئنة ؟ فكيف لا يكون الاسلام مدنيا ودين حكم ؟»

ثم يقول سعد زغلول بعد ذلك :

«... وما قرار هيئة كبار العلماء باخراج الشيخ علي من زميرتهم الا قرار صحيح لا عيب فيه ، لان لهم حقا صريحا - بمقتضى القانون او بمقتضى المنطق والعقل - ان يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم ، فذلك امر لا علاقة له مطلقا بحرية الرأي...»

ثم ينهي سعد زغلول رأيه في كتاب علي عبد الرازق بقوله : «وكم وددت ان يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأي وبين قواعد الاسلام الراسخة التي تصدى كتابه لهدمها» .

. هذه هي الاعتبارات الثلاثة التي تعطي لدفاع العقاد عن الشيخ علي عبد الرازق قيمة وأهمية كبرى حيث تدل دلالة راسخة على مدى إيمانه بحرية الرأي... فهو يدافع عن الشيخ علي عبد الرازق رغم انه يواجه الملك فؤاد بعنف في كتابه ، ورغم انه معرض لتهمة هدم نظام الحكم وتهمة البلشفية ، ورغم انه لا يحظى بأدنى تأييد من زعيم حزب الوفد الذي ينتسب اليه العقاد .

بقي ان نقرأ ما كتبه العقاد في دفاعه عن علي عبد الرازق ، ففي عدد ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٥ من جريدة البلاغ مقال بعنوان : «روح الاستبداد في القوانين والآراء» وفي مقدمة هذا المقال يقول العقاد :

«من معاني الاستبداد في القوانين ، ان تكون أحكامها مطلقة غير مقيدة بنص يتواضع عليه الحاكمون والمحكومون ، ويلتزم القضاء حدوده ، كما يلتزمها كل فرد يدان بتلك الحدود ، فان القوانين توضع لتقييد القضاء،

كما توضع لتقييد المأخوذين بها ، ولا معنى لقانون لا يعرف منه المتهم هل هو بريء أم مدين إلا اذا نطق القاضي بالحكم ورجع الى تقديره الشخصي الذي قد يختلف من تقدير اكثر الناس ، بل قد يختلف احيانا عن تقدير غيره من القضاة ، والمستغلين بالقانون . وليس الحكم المطلق الا نوعا من اطلاق «الشريعة» وردها الى الآراء المتضاربة ، والتقدير المتفاوتة ، لا الى النصوص الواضحة التي يتفق عليها الجميع» .

ثم يتحدث العقاد في نفس المقال عن قضية الشيخ علي عبد الرازق فيقول :

«على اننا نخشى ان تكون الروح الاستبدادية ، قد سرت من هذه الوزارة الى بعض جوانب الرأي العام ، فنسينا ما يجب لحرية الفكر من الحرية وما ينبغي للباحثين من الحقوق . اقول هذا بمناسبة الضجة التي اثارها بعض الكاتبين ، حول كتاب صدر حديثا في «الاسلام وأصول الحكم» لاحد القضاة الشرعيين ، فقد رأينا اناسا يطلبون محاكمة المؤلف ، او تقديمه الى مجلس ينشأ لاجله خصيصا ، ثم لمن يقتدون به في المستقبل من المؤلفين ، او رأينا اناسا يطلبون من الوزارة ان تصدر الكتاب . . . وهي الوزارة التي نستكثر عليها ان تصدر الصحف بعد تقديمها الى القضاء ! فها هنا الامر ، ورجعنا الى الكتاب الذي اقاموا حوله هذه الضجة ، فما وجدنا فيه مسوغا لشيء من هذا الذي يجترئون على طلبه ، وينسون انهم يطلبون به خنق الحرية ، وتسليم الوزارة واتباعها سلاحا تشهره في كل لحظة على رؤوس الكتاب والباحثين ، وما وجدنا في الكتاب الا ان صاحبه يرى في الخلافة رأيا يستند فيه الى الاحاديث النبوية ، ومأثورات الصحابة واقوال الفقهاء ، وليس يعنينا هنا خطأ في الاستناد والتخريج او اصاب وانما الذي يعنينا انه صاحب رأي يباح له ان يعلنه ، كما يباح لغيره ان يرد عليه ويفنده ، اما ان يحاكم او يقسر على ترك رأيه ، لانه خالف به بعض العلماء او غير العلماء ، فهذا ليس من روح الحرية التي تحمينا جميعا ، ويجب علينا ان نحميها جميعا ، وليس من روح الدين الذي يفارون عليه ، ويشنون هذه الغارة باسمه . . . وان من العزاء للمتشائمين في هذه الضجة التي ثارت حول «الاسلام وأصول الحكم» ان نعلم ان اكثر القائمين بها ، مدفوعون اليها بدوافع لا علاقة لها بالعقائد والآراء ، وانها لم تمنع ان يروج الكتاب بين الخاصة والعامة ، وأن يقبل على قراءته الذين حذروا من الاطلاع عليه . وان في ذلك لعبرة في الرأي بالمصادرة والاستبداد ، ودرسا لمن يحاربون التفكير بغير البحث الحر والانتقاد المشروح» .

ثم يختم العقاد مقاله بقوله عن الشيخ علي عبد الرازق :
«أنا لا نعرف صاحب «الاسلام وأصول الحكم» اذا رأيناه في الطريق،
وليس هو من شيعتنا في السياسة او غير السياسة ، فنحن لا ندافع عن
شخصه ، ولا عن مذهبه السياسي ، حين نكتب هذه الكلمة ، ولكننا نود
ان يعلم الذين لا يعلمون ، ان قد مضى الزمان الذي يتصدى فيه جماعة من
الناس ، بأي صفة من الصفات ، لاكره الافكار على النزول عند رأيها ،
وأستمداد الحرية في البحث من فضلات ما تسخو به لانصارها والمتمسحين
فيها » .

هذا هو موقف العقاد في دفاعه عن حرية الرأي والفكر والتعبير ...
لقد اتخذ هذا الموقف الصريح ، رغم ما في هذا الموقف من مخاطر ، فهو
رأي يثير الملك فؤاد ورأي يثير علماء الدين المعارضين للشيخ علي عبد الرازق،
والذين يتهمونه بأعنف الاتهامات ، وهو رأي يناصر مفكرا يقسف
بقوة في صفوف الحزب المعارض لحزب العقاد ، وهو اخيرا رأي يتعارض
مع رأي زعيم الوفد سعد زغلول ... وهو الحزب الذي كان العقاد ينتسب
اليه ويكتب في صحفه ويحتل فيه مكانا بارزا .

على ان موقف العقاد من حرية الفكر ، قد امتد الى معارك أخرى في
هذه الفترة ، فقد اشترك العقاد في الدفاع عن طه حسين ، عندما ثارت
عاصفة حول كتابه «الشعر الجاهلي سنة ١٩٢٦» . فقد دافع العقاد عن
طه حسين ، وحقه في البحث الحر ، والتفكير الخالي من القيود . ونستطيع
ان نعرف قيمة موقف العقاد هنا ايضا في دفاعه عن طه حسين ، لو عرفنا
الظروف المختلفة المحيطة بموقف العقاد في هذه القضية . فمن ناحية نجد
ان العقاد في تلك الفترة كان وفديا ، بل كان أبرز كاتب من كتاب الوفد ،
وكان عضوا في مجلس النواب الذي يرأسه زعيم الوفد سعد زغلول ،
بينما كان طه حسين منتميا الى حزب الاحرار الدستوريين ، وهو الحزب
المعادي للوفد والمعارض له . ولكن العقاد لم يحسب حسابا لهذا الاختلاف
الحزبي ، وسارع الى الوقوف بجانب حرية الرأي والبحث والتفكير
والتعبير .

ومن ناحية أخرى نجد ان زعيم الوفد سعد زغلول ، كان له رأي خاص
في كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين ، فقد خطب سعد زغلول في إحدى
المظاهرات التي قامت ضد طه حسين فقال :

«ان مسألة كهذه لا يمكن ان تؤثر في هذه الامة المتمسكة بدينها ، هبوا
ان رجلا مجنونا يهذي في الطريق ، فهل يضير العقلاء شيء من ذلك . ان

هذا الدين متين ، وليس الذي شك فيه زعيما ، ولا إماما نخشى من شكه على العامة ، فليشك من يشاء ، ماذا علينا اذا لم تفهم البقر» .
هذا هو رأي سعد زغلول في طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي ، وقد كان من المنتظر ألا يعارض العقاد ، وهو كاتب الوفد الاول ، زعيمه سعد زغلول بهذه الصورة العلنية الواضحة . . . ولكن العقاد قد تجاوز فكرة التعارض بينه وبين زعيم حزبه ليؤيد مبدأ من المبادئ التي كان في ذلك الحين مؤمنا بها اشد الايمان . وهو مبدأ «حرية الفكر» و «حرية الرأي والتعبير» .

وبذلك تعرض العقاد في دفاعه عن طه حسين ، لخطر اتهامه بعدم الانضباط الحزبي ، وبمعارضته لزعيم الحزب وغير ذلك من الاتهامات التي كانت كفيلة باضعاف مركزه الممتاز في صفوف حزب الوفد ، ولكن العقاد قد تجاوز هذه الاحتمالات جميعا في سبيل دفاعه عن حرية الفكر . ومن ناحية ثالثة نجد ان العقاد كان معرضا لان تمسه الاتهامات الخطيرة التي كانت موجهة الى طه حسين ، فدفاع العقاد عن طه معناه الوقوف في وجه هذه الاتهامات الخطيرة والتصدي لها ، وقد كان طه حسين متهما بعدة اتهامات هي كما جاءت في قرار النيابة سنة ١٩٢٦ :
«ان طه حسين اهان الدين الاسلامي بتكذيب القرآن في اخباره عن ابراهيم واسماعيل ، وان طه حسين أنكر القراءات السبع المجمع عليها ، فزعم انها ليست منزلة من الله تعالى ، وان طه حسين طعن في نسب النبي ، وأنه أنكر ان للاسلام اوليته في بلاد العرب وأنه دين ابراهيم» .
كل هذه الاتهامات كانت موجهة الى طه حسين ، مما جعل جانبا كبيرا من الرأي العام في مصر والوطن العربي معارضا لطله حسين ، ولقد كانت هذه الظروف كفيلة بأن تجعل العقاد يتردد في الدفاع عن طه حسين . . . ولكنه على عكس ذلك تماما لم يتردد في الدفاع عن حرية الفكر ممثلا في حق طه حسين في التعبير عن آرائه المختلفة .

اما المعركة الثالثة التي خاضها العقاد في سبيل حرية الفكر فهي معركة متصلة بمسرحية «جان دارك» لبرنارد شو . . . ويحدثنا العقاد نفسه عن هذه المعركة في كتابه عن برنارد شو ص ١٤٧ فيقول : «تقرر في سنة من السنين الدراسية «١٩٢٧ - ١٩٢٨» تدريس رواية جان دارك لبرنارد شو في الجامعة المصرية ، فأثار القرار اعتراضا شديدا ممن سمعوا بالرواية ولم يطلعوا عليها ، لان النبي عليه السلام يذكر فيها باسم راعي الإبل» .
«ووصلت الحملة على الرواية الى مجلس النواب ، وتصدى اربعة من

النواب لاستجواب الحكومة في هذه المسألة ، وكان كاتب هذه السطور عضوا فيه ، فاشتريت في المناقشة لبيان الحقيقة ، وذكرت المجلس بموقف برنارد شو في قضية دنشواي ، وقلت ان العبارة المشار اليها قد وردت على لسان شخص من شخوص الرواية لا على لسان المؤلف ، وأن المؤلف وضع على لسان شخص آخر رده المفهم عليها ، فقال ان اتباع محمد عليه السلام أوفر أدبا من هذا في كلامهم عن السيد المسيح ، وأنهم يوقرون الحواريين ولا يقولون عن واحد منهم انه «صياد سمك» .
ويواصل العقاد شرح القضية فيقول :

«ونمي الخبر اثناء ذلك الى برنارد شو فقال لندوب صحيفة « نيسوز كرونكل » الذي قصد اليه لمحدثته في شأنه : ان ما جاء في الرواية لم يكن رأيي انا بل هو رأي الكنيسة في القرون الوسطى - وكان ناقلو الخبر قد اساءوا نقله وافهموا برنارد شو ان الاعتراض على الرواية قد جاء من قبل الاساتذة والطلبة فقال :

«ان الطلبة المصريين فاتهم على ما يظهر ان العبارة التي لم ترقهم لم تصدر مني ، وانما صدرت من كوشون الذي عاش في القرن الخامس عشر ، وانني أفهم ان تسيء هذه العبارة وأمثالها الى جماعة من الاميين ، بيد انني لا ادري كيف يأتي سوء الفهم من هيئة علمية كالجامعة المصرية ، ألم يستطع أولئك الجامعيون ان يروا ما في المقارنة من المديح والثناء على النبي ؟... ولماذا لم يقرأوا ما قال «إيرل وارديك» من الاشادة بالاسلام على حساب المسيحية ، ثم ختم برنارد شو الحديث بشطحة من شطحاته فقال : ان آخر كلمة أقولها في هذه القصة ، ان الاساتذة يستحقون العزل العاجل جزاء لهم اما الطلبة فقد يستحقون الصفح والافضاء ... وعزاء الاساتذة الذين عناهم شو ، ان العقوبة التي اختارها لهم ، أخف عقوباته لمن يتهممهم بالجمود والتضييق على الحرية الفكرية ... فهي رحمة وغفران منه ، حيث لا تقبل الرحمة والغفران» .

هذه هي المعركة التي خاضها العقاد دفاعا عن برنارد شو، وكما يرويها لنا العقاد بنفسه ... ولقد كان دفاع العقاد عن شو ، هو في جوهره دفاع عن الحرية الفكرية ، ودفاع عن حرية الرأي ، ودعوة الى عدم الضيق بآراء المعارضين مهما كانت هذه الآراء عنيفة وحادة ، مع مواجهة الرأي بالرأي ، والفكرة بالفكرة . وهكذا وقف العقاد بقوة وشجاعة ، في فترة ارتباطه بالثورة الوطنية من ١٩١٩ الى ١٩٣٧ ، موقفا قويا وصريحا في الدفاع عن حرية الفكر ، وقد كانت مواقفه الثلاثة التي قدمناها كنموذج لايمانه بحرية

الفكر ، متصلة كلها بالدين ، وهو ميدان من أخطر الميادين الفكرية ، التي يتعرض لها المنادون بالحرية ، والمدافعون عنها ، لاثهامات واسعة سواء من المفكرين الدينيين ، او من الراي العام نفسه ، ومع ذلك فان العقاد لم يتردد في المسارعة الى الدفاع عن حرية الفكر ، رغم ما كان يعرفه من ان هذا الدفاع عن الحرية الفكرية ، وخاصة في ميدان الدين ، يمكن ان يجر عليه الكثير من المتاعب ، والمشاكل المعقدة . ومن الملاحظات الواضحة حول موقف العقاد في تلك الفترة ، انه لم يكن يدافع عن حرية الفكر دفاعا نظريا ، بل كان على الدوام يرتبط بمواقف عملية ومعارك واقعية كان يدافع عن حرية الفكر ويده في النار . . . اي انه كان يعرض نفسه لمخاطر عديدة في سبيل دفاعه عن حرية الفكر ، ولقد كان دفاعه عن دستور ١٩٢٣ ضد طغيان الملك فؤاد ، دفاعا قويا صريحا مدويا ، وقد دفع ثمن موقفه بأن حوكم ودخل السجن تسعة اشهر ، وكذلك كانت مواقفه الاخرى . . . فانه لم يقتصر على الكتابة في الدفاع عن حرية الفكر ، بل كان يقف في البرلمان اذا كان عضوا فيه ليناصر على الدوام هذه الحرية ، وفي البرلمان لا تكون القضية قضية كلمات تقال ، بل انها تتعدى ذلك الى قرارات سياسية لها تأثيرها الفعلي على الواقع العملي ، ولقد ساهم العقاد مساهمة فعالة ، في الدعوة الى اصدار مثل هذه القرارات السياسية التي تؤيد حرية الفكر وتناصرها مناصرة عملية .

لقد كان موقف العقاد من حرية الفكر ، واحدا من ائمن مواقفه في تلك الفترة الذهبية من حياته . . . فترة ارتباطه بالثورة الوطنية « ١٩١٩ - ١٩٣٧ » وتعبيره بأمانة واخلاص وشجاعة عن هذه الثورة .

ازمة وانتكاسة : الخلاف مع النحاس والخروج على الوفد

وقف العقاد بقلمه ونشاطه السياسي مع الثورة الوطنية منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٥ ، وكانت هذه الثورة تهدف الى تحرير البلاد من الاحتلال الانجليزي ، وتدعيم سلطة الطبقة الوسطى الجديدة الناشئة ، وخلق مجتمع سياسي «ليبرالي» يعتمد على الانتخاب والبرلمان ، وحرية الرأي والتعبير، وتعدد الاحزاب السياسية ، وحكم الاغلبية البرلمانية ، ولم يتخلف العقاد عن معركة من معارك هذه الثورة الوطنية ، بل كان دائما في المقدمة . لقد وقف العقاد من الانجليز والرجعيين مواقف صلبة ، سواء في مقالاته العنيفة النارية او مواقفه السياسية العملية ، وكان العقاد يهاجم قوى الثورة المضادة للدستور بعنف ، كما راينا في الفصول السابقة بالتفصيل، ولم تكن مواقفه السياسية خافتة او هادئة ، بل كانت مواقف مدوية ، ولها اثرها الواسع العنيف على الجماهير . وقد كانت الفترة الممتدة من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ فترة معارك متصلة في حياة العقاد السياسية ... بدأت هذه المعارك بدفاعه عن ثورة ١٩١٩ ، وامتدت بعد ذلك الى دفاعه عن الوفد وسعد زغلول ، وهجومه على الانجليز ، ثم هجومه على الحكومات الرجعية ، وهي حكومات أحمد زيور ومحمد محمود واسماعيل صدقي بل امتدت هذه المعارك الى هجومه على الملك فؤاد نفسه . وفي هذه المعارك كلها كان العقاد مرتبطا اشد الارتباط بالجنساح اليساري المتطرف في الثورة الوطنية ، والتي كان يقودها حزب الوفد . وجاءت سنة ١٩٣٥ ، وكانت سنة حاسمة في حياة العقاد، حيث بدأت ازمته مع الوفد .

وقد بدأت هذه الازمة عندما هاجم العقاد وزارة توفيق نسيم التي جاءت بعد وزارتي اسماعيل صدقي ومبد الفتاح يحيى ، وكان رأي الوفد هو مهادنة هذه الوزارة، على اعتبارها وزارة انتقالية ، تمهد لانتخابات حرة ، تؤدي الى عودة الوفد الى الحكم ، ولكن العقاد رأى ان الوزارة لم تكن صادقة في أداء مهمتها الانتقالية ، وانها كانت امتدادا لوزارة صدقي السابقة في عداؤها للدستور ، ولذلك اندفع العقاد في الهجوم على هذه الوزارة هجوما عنيفا بدون اذن الوفد ، ومعنى هذا الموقف ان العقاد كان اكثر تطرفا من حزب الوفد نفسه ، اي انه كان يقف على أقصى اليسار بالنسبة للوفد وللثورة الوطنية في اهدافها العريضة ، وعلى رأسها المحافظة على دستور ١٩٢٣ ، والمطالبة باستكمال الاستقلال السياسي ، والواقع ان موقف العقاد كما اثبتت الحوادث بعد ذلك ، كان اكثر صوابا من موقف الوفد ، فقد ثبت بالفعل ان حكومة توفيق نسيم هي حكومة تميع وتهدة، وانها حكومة مترددة الى أقصى الحدود في اعادة دستور ١٩٢٣ الى الحياة بدلا من دستور ١٩٣١ الرائف الذي أعده صدقي . وفي هذا العام بالذات عام ١٩٣٥ ، وفي ظل حكومة توفيق نسيم التي هاجمها العقاد ، واختلف فيها مع الوفد ، أصدر وزير خارجية بريطانيا في ذلك الحين ، صمويل هور - تصريحاً شهيراً قال فيه : «عندما استشيرت الحكومة البريطانية في شأن الدستور ، نصحت ألا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور ١٩٣١ . اذ ظهر ان الاول غير صالح للعمل والثاني لا ينطبق على رغبات الامة» .

اذن فقد كانت حكومة توفيق نسيم تستشير الحكومة الانجليزية في مطالب الشعب وتنتظر أوامرها ، وكشفت حكومة توفيق نسيم حقيقتها امام الشعب الذي ثار عليها ثورة عنيفة قاسية، وسقط منه شهداء كثيرون، وكان شهداء هذا العام من بين الطلبة والعمال ، ومن بين سكان العاصمة وسكان الاقاليم على السواء، ومن اشهر شهداء هذه الانتفاضة محمد عبد الحكم الجراحي السدي كان طالبا بكلية الطب بجامعة القاهرة ، والسدي كان موضوعا لاكثر من قصيدة قالها الشعراء في ذلك العام ، وفي انتفاضة هذا العام بالذات كان بين الجرحى طالب صغير عمره سبعة عشر عاما هو : جمال عبد الناصر . ولم ينس الطالب الصغير ذكريات هذا العام الدامي، في كل مراحل حياته السياسية بعد ذلك . هكذا اصطدم العقاد بالوفد ، لانه كان اكثر تطرفا من الوفد نفسه ، وكان اكثر يسارية منه في ميدان الثورة الوطنية .

ويروي لنا الاستاذ طاهر الجبلاوي صديق العقاد وتلميذه ، قصة

اللقاء الذي تم بين مصطفى النحاس زعيم الوفد وبين العقاد ، وذلك عندما بدأ العقاد يهاجم توفيق نسيم على غير رأي الوفد . . . يقول طاهر الجبلاوي وكان شاهدا لهذا اللقاء :

«استدعى النحاس «باشا» الاستاذ العقاد لمقابلته بالاسكندرية ، فسافر الاستاذ العقاد الى الاسكندرية وأنا في صحبته ، وجلست معه في القطار وأنا صامت طوال الوقت ، فلما وصل الى الاسكندرية توجه مباشرة لمقابلة النحاس «باشا» وحدثت بينهما مناقشة خادة .
قال النحاس : لماذا تحمل على الوزارة (وزارة توفيق نسيم) يا استاذ عقاد ؟

العقاد : لانها انحرفت عن الطريق السوي ، وهي تماطل في اعادة الدستور ، وتعمل لصالح السراي والانجليز ، ووزير معارفها نجيب الهلالي يضطهد الوطنيين .
النحاس : ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة ، وعند توليته الحكم يصلح كل شيء .

العقاد : انا لا استطيع ان اغض الطرف عن اعمال الوزارة ، ولن اقف موقف الاغضاء عن مساوئها ، وهي تنكشف يوما بعد يوم .
النحاس : انا زعيم الامة فما عساك ان تصنع يا عباس يا عقاد ؟
العقاد : انت زعيم الامة لان هؤلاء انتخبوك (مشيرا الى بضعة اشخاص من اعضاء الوفد) ولكني كاتب الشرق بالحق الإلهي .
النحاس : ان وزارة توفيق نسيم باقية ما دام الوفد يؤيدها ، ويضع نقته فيها .

العقاد : لن تنتهي برية هذا القلم وإلا قد انتهى أجل هذه الوزارة ، «وأخرج قلما صغيرا من جيبه» .

وانصرف العقاد والحاضرون يتشبهون به حتى يزيلوا ما بينه وبين النحاس ، ولكن العقاد أصر على الانصراف وكانت اول كلمة سمعتها منه بعد هذه المقابلة : «لسنا مع الوفد بعد اليوم» .

هذه الرواية التي يقدمها لنا صديق العقاد وتلميذه طاهر الجبلاوي . . . على اننا نجد رواية اخرى لهذه الحادثة يقدمها لنا مكرم عبيد ، في مقال له ضد العقاد سنشير اليه بعد قليل . . . ومكرم يروي لنا نفس الحادثة ولكن بطريقة مختلفة ، يقول مكرم :

« . . . لما اشتدت حملة العقاد البديئة على وزير المعارف أحمد نجيب الهلالي ، لفت دولة الرئيس النجيب مصطفى النحاس نظر العقاد الى ما كتب

قائلا : انه يحيد الانتقاد ولكنه يكره التحامل ، فما كان من عباس العقاد الا ان اجاب متعازما انا كاتب الشرق ، فرد عليه الرئيس متواضعا وانا يسرني ان اكون رئيسا على كاتب الشرق .

وسواء كانت الحادثة قد وقعت كما رواها مكرم عبيد ، او وقعت كما رواها طاهر الجبلاوي ، فان هذه الحادثة كانت تمثل نهاية العلاقة بين العقاد والوفد ، فبعدها لم يلتق العقاد بالنحاس ، وانفجرت الازمة بين الحزب وكاتبه الاول . . . وظهر الازمة ان العقاد كان اكثر تطرفا ويسارية من الوفد في موقفه من حكومة توفيق نسيم الانتقالية . . . كان الوفد يؤمن بنفس الاهداف والمبادئ التي يؤمن بها العقاد ، ولكن الوفد كما يتضح من الحوار بين النحاس والعقاد في رواية طاهر الجبلاوي - كان يؤمن بسياسة المراحل واسلوب التهذئة حتى يحقق اهدافه . بينما كان العقاد يرفض هذه السياسة ، ويؤمن بالمعارضة العنيفة حتى تسقط حكومة توفيق نسيم وغيرها من حكومات الاقليات المناصرة للانجليز والسراي ، والمعارضة للدستور والمصالح الشعبية . على ان هناك عاملا آخر كان ولا شك من اسباب الازمة بين العقاد والوفد ، هذا العامل الجديد هو العامل الشخصي ، فالعوامل الشخصية تلعب في حياة العقاد دورا كبيرا ، وكم من المواقف حدثت في حياته بسبب صداقته لشخص او عداوته لشخص آخر ، ويعود ذلك الى ان العقاد كان شديد الحساسية شديد التأثير ، وانه كان على الدوام معتدا بنفسه معتزا بها ، وكان كثيرا ما يحس ان ما يتناقض مع اعتداده بنفسه لا بد ان يكون خطأ في خطأ ، وكانت هذه الحساسية الشديدة مظهرا من مظاهر الذاتية في نظرة العقاد للحياة . حيث كانت هذه الذاتية تبعده احيانا عن الفهم الموضوعي الصحيح الكامل للامور ، وتملأ امامه الدنيا بالضباب ، فلا يستطيع ان يرى الاشياء كما هي ، انه هنا أشبه بالفنان منه بالعالم والباحث الموضوعي ، فالفنان يقيم نظريته الى الحياة على اساس من الانفعال بالاشياء ، لا على اساس من الدراسة والتأمل العقلي والبحث ، وان كان العقاد لديه دائما تلك القدرة الخارقة التي لازمتها منذ بداية حياته العقلية ، على ان يبرر موقفه الانفعالي تبريرا فكريا يستفيد فيه من ثقافته الواسعة ، غير ان مثل هذا التبرير يعجز احيانا عن اخفاء حقيقة موقفه الانفعالي الاساسي . . . وخاصة في اللحظات التي يغلب فيها انفعاله العاطفي على تفكيره ومنطقه العقلي .

ويروي مكرم عبيد في مقاله الذي اشرت اليه ان السبب المباشر في ازمة العقاد مع الوفد هو سبب شخصي خاص بالعقاد ، فقد كان سبب

هجوم العقاد على وزارة توفيق نسيم ووزير معارفها نجيب الهلالي ، هو ان وزير المعارف قد نقل صديقين من اصدقاء العقاد من القاهرة الى الصعيد ، وهذان الصديقان اللذان لم يذكرهما مكرم في مقاله وذكرهما الاستاذ فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» هما : طاهر الجبلأوي وعبد الرحمن صدقي . . . وقد حول العقاد هذا الموقف الشخصي كما يقول مكرم الى موقف سياسي عام . وترك مكرم ليروي هذه القصة فيقول : «ان العقاد اشترط لايقاف الحملة ضد وزير المعارف ان ينقل صديق له من وظيفته الكتابية بقنا الى وزارة المعارف بمصر ، وان يعود صديق له في اسيوط - وهو كاتب آخر - الى مقر الوزارة بمصر .

وفي ذات يوم زارني في الفندق بالاسكندرية حضرات الاساتذة محمد صبري ابو علم والشيخ عباس الجمل وابراهيم عبد الهادي - وحضر بعدهم مصادفة صديقي احمد ماهر - وتكلمنا معا في وجوب ايقاف حملة العقاد التي اصر عليها حضرته تحديا لامر دولة الرئيس الجليل ، فاقترح حضراتهم علي وعلى صديقي ماهر ، ان نعد العقاد بالتوسط لدى وزير المعارف في نقل هذين الموظفين الى مصر على ان يقف العقاد حملته ، فرضينا بهذا الحل ، وقام احد الزملاء فعلا وتكلم مع العقاد تلفونيا من غرفتي بالاسكندرية فهاج العقاد وماج واشترط لوقف الحملة شروطا ثلاثة :

اولا - ان يتكلم مكرم فورا مع وزير المعارف لنقل الموظفين الاثنين الى مصر (وكان صديقي ماهر قد اخبرني انه علم ان احدهم فاسد الخلق والآداب) .

ثانيا - ان يتم نقلهما من اسيوط وقنا الى مصر في ظرف ثلاثة اسابيع لا اكثر !

ثالثا - اذا لم يتم النقل في الميعاد المحدد ، او تأخر عنه قليلا ، عادت الحملة على الوزير بأشد مما كانت !

ضحكنا كلنا من هذا الانذار النهائي . . . وغضب احد الزملاء ، وطلب مؤاخدة العقاد على هذا التحدي وهذا الصلف . . . ولكن الذي يعنيني من هذه الرواية المضحكة المبكية ان عباس العقاد كان كيف سياسته بأهوائه ؟ فاذا نقل الصديقان الى القاهرة حسنت سياسة الوزير وسكت عليه ، واذا لم ينقلا قبحت سياسة الوزير وحمل عليه . . . ارايت ايها القارئ الكريم الى اي حد بلغت وطنية هذا العقاد ، والى اي درك هوى تقديره للصالح العام ، والى اية غواية شخصية تسخر الجرائد السياسية ؟! . هذا هو ما قاله مكرم عن احد الاسباب الرئيسية لمخالفة العقاد لسياسة

الوفد . . . وقد قال العقاد في كتابه «أنا» متحدثا عن نفسه ومؤكدا حساسيته الشديدة بكل ما يتصل بشخصيته :
«انني اذا عوملت بالتسامح لا أبدا بالعدوان ابدا ، واذا هاجمني احد لا أرحمه » .

على ان العامل الشخصي في ازمة العقاد مع الوفد كان أبعد من مجرد غضبه وانفعاله بسبب ما اصاب صديقين له ، بل كان هذا العامل الشخصي يتمثل في شيء اساسي آخر هو اختلاف نوع الزعامة التي يتعامل معها العقاد بين سعد زغلول ومصطفى النحاس . كان سعد الزعيم الاول سياسيا مرنا. حسن التصرف الى أبعد حد ، وكان يتميز في عمله السياسي بالدهاء وسعة الحيلة والصبر الطويل ، ولم يكن يحقق اهدافه ابدا بضربة واحدة ، بل كان في حقيقته فلاحا مصرية ، يضرب الارض بفأسه مئات الضربات المتتالية قبل ان يشعر انه سيطر على الارض ، وأعدا اعدادا كاملا لكي تثمر وتخصب ، وهو ينتظر الشهور الطويلة لا يسأم ولا يمل ، حتى تظهر الثمرة في الارض بعد ان كانت بذرة مدفونة في جوف التراب . لا يفكر ابدا في ان يحقق هدفه بين يوم وليلة . . . هكذا كان سعد زغلول ، واذا فكر سعد في ان يضرب ضربة عنيفة كما فعل سنة ١٩١٩ ، فهو يفعل ذلك بعد ان يتأكد كل التأكد ان الوقت قد اصبحت مناسبة لهذه الضربة بعد طول الاعداد ، ففي سنة ١٩١٩ قال سعد كلمته المشهورة «لا بد من قارعة» . . . و«القارعة» هي الثورة في أسلوب آخر بسيط . ولم يعلن سعد الحاجة الى «القارعة» الا وقد رأى كل الظروف مهية لهذه القارعة. ولو القينا نظرة سريعة على حياة سعد زغلول السياسية ، لعرفنا فيه على الدوام هذا الرجل المرن الداهية الواسع الافق . فلقد تعاون سعد زغلول مع وزارة مصطفى فهمي وكان وزيرا للمعارف في هذه الوزارة سنة ١٩٠٦ ، ثم تولى الوزارة بعد ذلك عدة مرات ، ولعل سعدا في ذلك الوقت كان يميل الى الاختفاء ويؤثر زرع بذور صغيرة متناثرة هنا وهناك حتى يأتي اليوم الذي يمكن فيه ان يعلن الثورة او القارعة ، بعد ان يتهيأ لها الشعب وتتهيأ الظروف. ويا لها من مسيرة طويلة صابرة في حياة سعد زغلول السياسية . . . تبدأ من التعاون مع الانجليز سنة ١٩٠٦ ، وتنتهي بقيادة ثورة شاملة ضدهم سنة ١٩١٩ ، وهي مسيرة لا يقدر عليها بهذا الصبر وبهذه المرونة سوى سياسي فلاح مثل سعد زغلول .

هذه خطوط عامة في شخصية سعد زغلول الذي كان العقاد يعمل معه في المرحلة الاولى من الثورة الوطنية ، وقد كان سعد بدهائه وسعة أفقه

يفهم العقد فهما كاملا ، وكان يعرف اعتداده بنفسه وحساسيته الشخصية ويعرف ان الاحتفاظ برجل مثل العقد في صفوف حزبه يحتاج الى معاملته بطريقة خاصة ، واعطائه الفرصة الكاملة لكي يشعر ان شخصيته مستقلة كل الاستقلال ، وانه ليس هناك احد على الاطلاق يفكر في ان يرغم العقد على شيء ، وكان الاحتفاظ بالعقد يحتاج ايضا الى احتمال بعض نزوات عناده وتمرده ، وحبه للانفراد برأيه وموقفه ... كان سعد الفلاح الصبور الداهية ، يفهم هذا كله ، ويعامل العقد على هذا الاساس ، وهناك مواقف عديدة اتخذ فيها العقد رأيا مخالفا لرأي سعد ورأي الوفد في ظل سعد ، مثل اعتراض العقد الصريح على خطبة العرش الاولى التي القاها سعد بعد ان ألف وزارته سنة ١٩٢٤ .. وكانت مثل هذه المواقف تؤلم سعدا ولكنه كان يعالجها باللين ، وكان يحرص على الا يقف مع العقد ابدا موقف الحزب من كاتب الحزب ، ولا شك ان هذا الموقف من جانب سعد لم يكن راجعا فقط الى دهائه ومرونته ، ولكنه كان ايضا يعود الى احترامه للفكر ، وايمانه بان المفكر يجب ان يعامل بطريقة تحفظ عليه استقلاله واحترامه لنفسه . يقول العقد في كتابه عن سعد زغلول «ص ٥٥٧» :

«وقد لازمت سعدا سنوات ووافقته كثيرا وخالفته كثيرا كما يعلم القراء فلا اذكر يوما انه طلب مني او طلب من غيري امامي ان نكتب في رأي بغير ما نراه، وانما كان أسلوبه في هذه الحالة ان يفتح باب المناقشة فيما يريد الكتابة فيه ، فان خالفناه واقنعناه لم يطلب منا كتابة ولم يلمح الى طلبها اقل تلميح ، وكثيرا ما كان يتلطف فيقول : انت جبار المنطق يا فلان ... وهذا هو اللقب الذي تفضل فأطلقه على كاتب هذه السطور» .

هذا ما كتبه العقد عن سعد ، وبهذه الطريقة استطاع سعد ان يتفادى الاصطدام بالعقد ، وأن يحتفظ به : قوة فكرية من قوى الثورة الوطنية طيلة زعامة سعد للوفد وللثورة الوطنية ... لقد كان سعد يعلم في نهاية الامر ان العقد لا يمكن ان يقبل وليس من الضروري ان يقبل الوصاية عليه حتى لو كان ذلك نوعا من الانضباط الحزبي .

اما النحاس ، فقد كان طرازا آخر من الرجال ... فقد كان يميل الى فرض نوع من السلطة الابوية على الجميع وكان يميل الى الدين يذوبون فيه بالحب او بالطاعة ، وكان - لكثرة ما تعرض للعدوان عليه والانشقاق عنه والتآمر ضده - يشعر بشيء من سوء الظن في موقف المختلفين معه ، ولم تكن اهتماماته الادبية والفكرية من ناحية أخرى بنفس العمق والاتساع كما نرى في شخصية سعد : الذي تعلم في الازهر وتعلم على محمد عبده ،

دما اعطى شخصية سعد بعدا ثقافيا وأدبيا لم يتوفر في خليفته مصطفى النحاس ، ومن ناحية أخرى فإن النحاس على ما فيه من جاذبية وإخلاص وأصالة وقدرة على اكتساب محبة الجماهير لشدة بساطته وصدقه - لم يكن يتمتع بما عرف عن سعد زغلول من دهاء ومرونة وبعد نظر ، بل كان صريحا واضحا لا يخفي انفعالاته حتى ما كان منها قريبا سهلا ، وحتى ما كان ينبغي على السياسي الماكر ان يخفيه ولا يظهره ، ولهذا لم يستطع النحاس ان يفهم العقاد بما فيه الكفاية ولم يستطع ان يعرف التركيب الحقيقي لشخصيته ، وعامله كأي كاتب حزبي آخر ، وكان هذا كفيلا بأن يؤدي الى فصم العلاقة بين العقاد والوفد في عهد النحاس ... لقد أراد النحاس ان يملئ ارادته على العقاد ، وان يطالب العقاد بالتزام موقف الوفد التزاما نهائيا من وزارة توفيق نسيم ... ومثل هذا الخلاف لو حدث في عهد سعد لما تشدد سعد زغلول على الاطلاق مع العقاد ، ولترك للعقاد حريته مهما كان في قرارة نفسه غاضبا من موقفه غير راض عنه ، وكانت هذه الزوبعة بالتأكيد يمكن ان تمر دون ان ينشق العقاد عن الوفد .. خاصة ان الوفد التقى بعد ذلك بوقت قليل مع العقاد في موقفه من وزارة توفيق نسيم ، فعارضها ووقف ضدها بقوة وحزم .

والعقاد نفسه في كتابه عن سعد يقدم لنا نماذج للخلاف بينه وبين الزعيم ، ويكشف لنا عن طريقة سعد في معالجة هذا الخلاف. يقول العقاد «سعد زغلول سيرة وتحية ص ٥٥٨» :

«... ومن ذاك اننا كتبنا مع الكاتبين عن زيارة اللورد جورج لويو للمنيا ، واستقباله في الاقاليم استقبال اصحاب العروش . واشتدت الحملة على اللورد من جراء هذه الزيارات حتى اشترك فيها مجلس النواب على اختلاف الاحزاب ، فبلغ الحنق باللورد ان يخلق بعدها أزمة يستحضر من جرائها سفن الاسطول الى الاسكندرية ليزيل ما اصاب هيئته من تلك الحملات . كل ذلك وسعد لا يشير اليها ولا الى غيرنا بكلمة ولا ايحاء . وظل كذلك حتى انقضت الازمة ومضى على انقضائها اسابيع ، ودخلت عليه يوما فقال: أتدري ماذا صنعت لينا يا فلان ؟ ان اللورد جورج يتهمنا بأننا كننا الموعزين بحملة الصحافة وحملة مجلس النواب على زيارته للاقاليم ... اما انا فأقول له : انها تهمة لا أدفعها او شرف لا أدعيه» .

هكذا كان سعد زغلول يعامل العقاد عندما يكون هناك خلاف بينهما ... وبهذه الطريقة استطاع سعد ان يحتفظ بالعقاد ويحافظ عليه ، بينما لم يستطع النحاس ان يحافظ على العقاد في صفوف الوفد الى النهاية ، بل

حاسبه حساباً عنيفاً بسبب خروجه على الخط السياسي للوفد . على ان الخطأ لم يكن خطأ النحاس وحده ، فالمراجع المختلفة التي تحدثت عن أزمة العقاد مع الوفد ، تؤكد ان الوفد لم يسارع الى اتخاذ قرار بفصل العقاد من الحزب ، بل تريت الوفد طويلاً في اتخاذ القرار ، وحاول عدد كبير من اعضاء الحزب استرضاء «العقاد» وتصفية الازمة ، ولكن العقاد تشدد في موقفه ، ورفض كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ، بل لقد سد جميع الابواب المفتوحة بينه وبين الوفد ، مما يرجح ان العقاد كان قد اتخذ موقفاً لا رجعة فيه ، بالانفصال عن الوفد والوقوف منه موقف المعارضة . ومن بين الذين تدخلوا وحاولوا استرضاء العقاد وتهديته أم المصريين صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول فقد ذكرت السيدة فاطمة اليوسف في مذكراتها «ص ١٨٤» ان أم المصريين «حاولت ان تنهي الخلاف بين العقاد وبين جريدة «الجهاد» التي كانت ناطقة بلسان الوفد في ذلك الحين ، فاستدعت السيدة صفية زغلول العقاد ورجته في ايقاف الحملة على «الجهاد» .

... وتوقفنا عن الحملة فعلاً ، ونشرنا كلمة في العدد ٢٠٠ من روز اليوسف نقول فيها : اننا نسكت بناء على تدخل شخصية جلييلة المقام ... وقلنا ان «الجهاد» اذا عاد الى الحملة فليس امامنا الا ان نعود ، ولم يسكت الجهاد» .

هذا ما ذكرته السيدة روز اليوسف في مذكراتها ، ويبدو ان صحيفة الجهاد في هجومها على العقاد ، كانت تعبر عن عدم رضا القيادة الوفدية من موقف العقاد الاساسي ، وهو هجومه المستمر على وزارة توفيق نسيم ، وبالتحديد على وزير معارفها أحمد نجيب الهلالي ... وقد حاولت السيدة روز اليوسف كما تقول في مذكراتها - ان تعمل هي نفسها على حل المشكلة بين العقاد والوفد ، حرصاً على صحيفتها التي اكتسبت مكانتها وتأثيرها على اساس انها جريدة وفدية ، وقد نشرت السيدة روز اليوسف في مذكراتها رسالة كتبتها الى مكرم عبيد سكرتير الوفد في ذلك الحين ، وتحاول روز اليوسف في هذه الرسالة ان تستعيد ثقة الوفد في جريدتها وفي كاتبها الاول : عباس العقاد ، وفي هذه الرسالة تقول روز اليوسف : «حضرة المجاهد الكبير الاستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد المصري -

أخبرني حضرة مراد افندي عبد الرحمن احد مخبري جريدة «روز اليوسف» في الثغر ان دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس غير راض عن المجلة وعن الجريدة . لان ادارتي تحريرهما قد امعنتا منذ زمن في مهاجمة الوزارة القائمة «وزارة توفيق نسيم» . كما اتخذنا موقفاً يكاد يكون عدائياً ضد

فردين من أفراد الوزارة هما صاحبي السعادة احمد عبد الوهاب باشا
واحمد نجيب الهلالي بك . اما عن سياسة المجلة فأقول ان مجلة
«روز اليوسف» الاسبوعية لم تتخذ ضد الوزارة الحاضرة موقفا عدائيا
لأنها تعرف ان الوفد يؤيدها ...»

«... أما عن الجريدة فأصرح بأن الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد
وفدي صميم له من ماضيه المجيد في الدفاع عن الوفد ، وعن القضية
المصرية ، ما يجعله فوق الشبهات . وقد فاتحت الاستاذ العقاد في هذا
الامر فأخبرني بأنه مستعد لان يقابل دولة الرئيس الجليل ليطلع على وجهة
نظره في كتاباته التي ينتهجها .»

وكان رد مكرم عبيد على رسالة روز اليوسف عنيفا ، حيث قال في
هذا الرد : «انك لتعلمين ان الوفد لا يحجر على حرية انسان ما او صحيفة
ما - ولكن اذا رأت احدى الصحف المنتمية الى الوفد ان تنتهج خطة
تغاير خطة الوفد ، فعليها ان تتحمل نتائج ما تنتهج» .

وانتهت المعركة بذلك اللقاء العاصف بين النحاس والعقاد ، والذي
اشرنا اليه في بداية هذا الفصل ... وخرج العقاد من هذا اللقاء ليقول
كلمته : «لسنا مع الوفد بعد اليوم» .

وتدخلت السيدة صفية زغلول مرة ثانية لتصفية الخلاف بين الوفد من
جانب ، وبين روز اليوسف والعقاد من جانب آخر ، ولكن المحاولة فشلت ،
واصدر الوفد بيانا في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٥ يقول فيه :

«قرر الوفد المصري بجلسته المنعقدة اليوم في بيت الامة برياسة
حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا انه نظرا لان
جريدة روز اليوسف قد اجترأت على نشر مقالات تتضمن الطعن على الوفد
ومكانته من الامة فان هذه الجريدة لا تمثل الوفد في شيء ولا صلة لها به» .
وواضح ان قرار الوفد لم يتعرض للعقاد بصورة مباشرة ، ولكن
«فصل» روز اليوسف من الوفد كان من اسبابه الاساسية ما كتبه العقاد
من مقالات ضد وزارة توفيق نسيم وضد وزير معارفها نجيب الهلالي ،
ومن هنا يكون القرار قد تضمن اخراج العقاد من الوفد وان لم يشر
الى ذلك ، وقد أصدر الوفد بعد ذلك بايام قرارا صريحا بفصل العقاد من الوفد .
بدأت المعركة بين العقاد والوفد ، لهذا السبب الجزئي الذي لا يمثل
خلافاً جذرياً في الاتجاه السياسي بل كان خلافاً جزئياً يمكن تسويته بشيء
من الجهد ، ولكن العقاد أصر على موقفه ، وأصر الوفد على موقفه ، ويبدو
ان القيادة الوفدية في ذلك الحين ، رأت في موقف العقاد ما هو بداية

انشقاق مدير ضد الوفد ، خاصة وأن «روز اليوسف» كانت معروفة بصلتها بعلي ماهر ، رجل القصر ، واحد كبار المهندسين العاملين على اضعاف الوفد ، ولذلك فقد واجه الوفد موقف العقاد بشدة وعنف ، قاصدا بذلك ان يوجه ضربته لمن يعملون في الخفاء ضد الوفد . ومن ناحية أخرى اخذ العقاد منذ اليوم التالي لصدور قرار الوفد بفصل «روز اليوسف» بمهاجمة الوفد وقادته ، وقال في اول تعقيب له على هذا القرار في مقال نشرته «روز اليوسف» في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٥ :

«برئت من الوفدية الف مرة ان كانت هذه هي الوفدية» .
«ما علمناها حين ايدناها الا حرية وكرامة فكيف نفقد حريتنا وكرامتنا لاننا نطلب الحرية والكرامة للناس اجمعين ؟ ما علمناها حين ايدناها الا الامة كاملة لا الامة منصرفة سائمة كما شاءت سياسة مكرم والنحاس ، فكيف تتعطل وظيفة النقد في امة كاملة ، من اجل وزارة لم ترفض قط للانجليز مطلباً ، ولم تحقق قط املاً للمصريين ؟...»

«واني لأسف ان يصير النحاس باشا بالوفد الى هذا المصير ، وان ينعكس المقصود من ثقة الامة على يديه ، فيصبح قصارى نفعه ان يتقرب بضماير الانصار على مذابح الخصوم . ولكنني على أسفي هذا احمد الله ان قيض لي الحرية الكاملة ، وساق النحاس باشا نفسه الى اطلاق قلبي فيما يعقب به على الاعمال والآراء والهيئات والتبعات ، لا فرق بين النحاس باشا ونسيم باشا وسائر المسئولين من سياسة البلاد ، ويزيدني حمدا انني حين انفصل الراي بيني وبين النحاس باشا وجماعته كنت انا في مكاني وكان هو الذي تحول عن مكانه واستقبل حياة الدمة والرخاء ، وحصر القضية كلها في التسبيح للوزارة المعبودة عسى ان تسبح هي للانجليز ، عسى ان ترق لنا بدستور ممسوخ او حكومة دستورية يعصفون بها في لمحة عين ! وما كان انتظار الرحمة على هذا المنوال بالبرنامج الخطير الذي يفتقر الى زعامة ومشاورة وخطط ظاهرة وخطط خفية فيما به يلفطون . ولكنسه برنامج قانع وادع سقيم ندرکه ونحن نائمون ، «فاذا كان لا بد من انفصال الراي بيني وبين هذه السياسة الخاشعة الخائفة ، ففي هذا المفترق الكريم فلننفصل على بركة الله والحمد لله على ذلك ، الحمد لله» . واستمر العقاد في هجومه على الوفد بهذا الاسلوب الحاد العنيف ، وركز هجومه على النحاس ومكرم عبيد . قال عن النحاس في مقال آخر في تلك الفترة «روز اليوسف ٢ اكتوبر ١٩٣٥» . «وسرى القراء غدا ما هي تلك الخرافة التي يسمونها صلابة مصطفى النحاس قبل وزارة توفيق نسيم ،

فسيعلمون انه ما وقف موقف الصلابة قط الا عن اضطرار لا فضل له فيه، وما اتسع له باب الاستسلام مرة الا وذهب فيه الى ابعد مراميه وقد اتيح له باب الاستسلام اليوم ، والوقوف بين الصفيين فاذا هو اضعف المستسلمين ، واذا هو اعدى للرأي الصريح والصلابة في الحق من كل عدو عرفناه .

واستمرت حملة العقاد على الوفد والنحاس ، منذ انفصاله عن الوفد سنة ١٩٣٥ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ . وفي هذا الهجوم على الوفد تراجع العقاد عن كل آرائه السابقة في تأييد الوفد وفي تأييد زعامة النحاس ، ووصل به الامر سنة ١٩٤٤ الى الطعن على النحاس في «صفة» كانت جديرة بأن تكون مصدرا لتقديره ، وهي احساس النحاس بشعور الجماهير ، وادراكه لما تحس به وتفكر فيه ، ولكن العقاد قلب هذه الصفة وجعل منها خنجرا يطعن به النحاس والجماهير على السواء ، فوصف النحاس بأنه رجل يشبه العامة في الدوق والشعور . . . وهو المنطق الذي أصبح مناسباً للعقاد ، بعد ان أعلن عداؤه للأفكار الشعبية والجماهيرية في شتى صورها وأشكالها ، وأصبح مرتبطاً بأحزاب الاقلية الرجعية .

يقول العقاد في هذا المقال الذي نشره في روز اليوسف في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤ :

«النحاس باشا قاعدة ولا تمثال . فليس له حجم يرى بالعين اذا زالت من تحته القاعدة التي يقوم عليها . . . والقاعدة التي يقوم عليها هي بناء الوفد الذي أسسه وعلاه زعيم مصر الاكبر سعد زغلول رحمه الله . . فالنحاس باشا بغير سمعة سعد رحمه الله لا شيء ، ليس بالخطيب ، وليس بالكاتب ، وليس بالمحضر الجذاب ولا بالمنظر المهيب . . . وليس فيه من دواعي الشهرة الا مشابته للعامة في الدوق والشعور والرجاء ، فهو لا يقيس الشهرة ولا العظمة ولا المجد ولا أقدار الرجال الا بالمقياس الذي يعرفه العامي في الاسواق ، والزفة التي تعجبه وتطربه ، فهي الزفة التي تعجب ذلك العامي وتطربه بغير اختلاف كبير ولا صغير . . .»

ثم يتحدث العقاد في نفس المقال عن خطب النحاس فيقول :

«ان النحاس يتكلم منذ ثلاثين سنة ولا يقول كلمة واحدة يهتز لها الشعور ويتناقلها السامعون . . . كل خطبة من التفاهة بحيث تخلو من الشعور كما تخلو من التفكير ومن حسن التعبير . . . فهي كمحضر الجرد ، او سجل التركات ، او حجج البيوت التي تفيض بالارقام ، والتواريخ ، والعناوين ، ولا تحتوي شيئاً غير ذلك يستعيدده الدهن او يتملاه الخاطر او

يتحرك له الضمير » .

هذا مثال لما اخذ العقاد يكتبه بعد انفصاله عن الوفد . وكما هو واضح فان العقاد يخالف فيه كل ما كتبه عن الوفد والنحاس قبل ذلك ، فهو يكتب عن الوفد منذ ثورة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥ بالتمجيد والتأييد ، وهو يكتب عن النحاس بالتمجيد والتأييد ايضا منذ ان تولى زعامة الوفد بعد وفاة سعد سنة ١٩٢٧ . وهو الذي اهدى النحاس كتابه عن «الحكم المطلق في القرن العشرين» وكتب في الاهداء :

«الى مصطفى النحاس باشا خليفة سعد وعنوان ثقة الامة». على ان النقد الرئيسي الذي يمكن توجيهه الى العقاد حول الكلمات السابقة هو اتهامه للنحاس بأنه يشبه العامة، والعامة هنا هي الجماهير في كلمة أخرى، وإذا كان النحاس قد عرف عنه طيلة حياته انه زعيم قريب الى الجماهير شديد الاحساس بمشاعرهم وأفكارها ، قادر على التأثير فيها ، فان هذه الصفة ولا شك تعتبر من أفضل صفاته ، بل من أفضل الصفات التي يمكن ان يتحلى بها اي زعيم شعبي ، ولكن العقاد وجد فيها عيبا ، وانحرف بهذه الصفة حتى أصبح نقده للنحاس نقدا للجماهير في نفس الوقت ، والجماهير ليست مقدسة وليست فوق النقد ، ولكن اتهامها المطلق بالتخلف في الدوق والشعور والتفكير هو موقف خاطيء وغير سليم ، ففي ميدان السياسة بالذات ، يكون الاقتراب من الجماهير وفهمها وحسن التعبير عنها ، هو الموقف السليم من وجهة نظر السياسة الوطنية والتقدمية ، حيث تطالب مثل هذه السياسة بأن يكون العمل السياسي خدمة للجماهير وتعبيرا عنها. ولكن العقاد قد ابتعد عن هذا المنطق ، وأصبح مرتبطا بمنطق سياسي يستنكر الجماهير، ويستنكر الزعامات التي تعبر عن هذه الجماهير، خاصة بعد ان تخلت الجماهير عن العقاد ، على اثر خروجه من الوفد .

ونتابع بعد ذلك قصة خروج العقاد من الوفد .

لقد بدأ العقاد هجومه الصريح على الوفد بعد صدور قرار الوفد بفصل «روز اليوسف» واعتبارها جريدة خارجة على سياسة الوفد ، وبدأت الصحف الوفدية الاخرى مثل «الجهاد» و«كوكب الشرق» تردان على مقالات العقاد ، ولكن اهم رد على العقاد هو الرد الذي كتبه مكرم عبيد حيث تشاء الظروف أن يتولى مكرم عبيد. بالذات مواجهة العقاد بأعنف التهم وأقساها وهو الذي كان يقف منذ خمس سنوات - في سنة ١٩٣٠ - ليقدم دُفاعه المجيد عن العقاد في ساحة القضاء .

ان الموقف يتغير الآن ويصبح محامي العقاد هو ممثل الاتهام ضد العقاد.

ففي ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٥ نشرت جريدة «كوكب الشرق» الوفدية مقالا بقلم المجاهد الكبير مكرم عبيد وكان عنوان المقال « آخره عباس العقاد - حقيقة الكاتب وما كتب ». وفي هذا المقال الذي كتبه مكرم عبيد جانبان: الاول هو ما يتصل بواقعة خروج العقاد على الوفد ، والثاني هو جانب عام يتصل بشخصية العقاد ، وراي مكرم في هذه الشخصية ، حيث يوجه مكرم للعقاد تهما قاسية مثل الفرور الشخصي ، والعمل مع الانجليز في بداية حياته الصحفية ، كما يتهمه مكرم بالالحاد الديني ، فيقول أن العقاد تعود أن يقسم بقوله « والله الذي لا وجود له » كما يقول أن العقاد قد رد على بعض أعضاء الهيئة الوفدية ، الذين حاولوا أن يوقفوا حملته على النحاس ومكرم بقوله « انا باشتم ربنا ، أفلا اشتم هذين الولدين » والعقاد يقصد بالولدين : النحاس ومكرم .

وسوف أعرض هنا ما يتصل بالجانب الاول وهو خروج العقاد من الوفد ، أما الجانب الثاني فاني أتركه للقراء ليحكموا عليه بأنفسهم ، وقد نشرت نص مقال مكرم عبيد ورد العقاد عليه في آخر هذا الكتاب كوثيقة تكشف عما كان يحيط بالعقاد من تناقض ... سواء في موقف العقاد من الحياة السياسية ، او في موقف الحياة السياسية من العقاد .

بدأ مكرم بتسجيل تناقض العقاد بمدحه السابق للوفد والنحاس ومكرم ، ثم هجومه العنيف بعد ذلك عليهم وتنكره لما قاله بالامس يقول مكرم في مقاله :

« اسبوع كامل دبج فيه الاستاذ العقاد بمعاونة حليفه الجديد الاستاذ عزمي - المقالات والشذرات والمختارات على اختلاف أحجامها وعناوينها ... ولما اشرفا على اليأس خيل اليهما ، واليأس خيال فخيال - انهما قديران في ظل السيدة روزاليوسف ، على هدم ذلك الطود الشامخ الذي شيده المصريون حجرا بعد حجر ، على أعناق المجاهدين ، واشلاء المستشهدين ، ذلك الطود الذي هو الزعامة والنحاس » . « ولعلمهم حسبوا أن الأمة لم يتم لها النضوج السياسي والفكري بعد ، وأن عملية الهدم عندهما لا تقتضي أكثر من بعض الالفاظ الضخمة والدعاوى المبهمة فراحوا ينبشون ما افتراه الخصوم قديما على الوفد ، واتخذوا من تلك المفتريات معاول جديدة للهدم والتحطيم ، ناسين أو متناسين أنهم كانوا حتى الامس القريب يسبحون بحمد من جحدوا وينكرون كل الانتكار ما عادوا فأكدوا ! أليس عجيبا أن يطعن العقاد بعد مديح في زعامة النحاس وصلابة النحاس ووطنية مكرم ؟ وهلا أدرك المسكين أنه بذلك يضع نفسه بين شقي الرحي ،

او لا مفر له من احد امرين : فاما انه كان يبغى بالمديح نقاقا ... او انه كان يبغى من ورائه اجرا او جزاء وفاقا... كلا الامرين شر واحلاهما مر». وبعد ان يتحدث مكرم عن هذا التناقض بين دفاع العقاد عن الوفد والنحاس ومكرم قبل سنة ١٩٣٥ وبين هجومه العنيف على الوفد والنحاس ومكرم سنة ١٩٣٥ ... بعد الحديث عن هذا التناقض في موقف العقاد يركز مكرم على النقطة الرئيسية وهي ان موقف العقاد ليس مجرد موقف فردي، بل هو موقف مدبر ، وأنه تم بالاتفاق بين العقاد وبين بعض « الجهات » ، وان هذا الموقف انما هو جزء من مؤامرة كبيرة ضد الوفد ، والحقيقة التاريخية تؤكد ان خروج العقاد قد تبعه بعد سنتين انشقاق كبير في الوفد حيث خرج أحمد ماهر والنقراشي ، وتم تأليف الحزب السعودي الذي انضم اليه العقاد ، وبقي مرتبطا به حتى قيام ثورة ١٩٥٢ وحل الاحزاب ، كذلك بقي خروج العقاد على الوفد ترحيبا كبيرا من الاحزاب المعادية للوفد، وعلى رأسها حزب الاحرار الدستوريين ، بزعامة محمد محمود ، وهو حزب رجعي كبير ، وقد قام أساسا لمحاربة الوفد والعمل على هدمه ، والحلول محله في قيادة العمل السياسي في مصر ، وكان في معظم مراحل حياته السياسية حزبا معاديا للمطالب الشعبية . وقد حضر العقاد بعد خروجه من الوفد بشهر واحد تقريبا مؤتمرا عقده الاحرار الدستوريون في ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٥ وقد رحبت جماهير الدستوريين بالعقاد ترحيبا غير عادي وطالبته بالكلام في هذا المؤتمر تعقيبا على خطاب محمد محمود ، وألقى العقاد كلمة موجزة علق فيها على الخطاب بالتأييد، وكان مما ذكرته الصحف يوم ذاك ان جماهير الاحرار الدستوريين ما ان رأت العقاد حتى دوى الهتاف بحياة كاتب الشرق الحر ، ولم تدعه الجماهير يسير على قدميه قاصدا المكان الذي يجلس فيه الصحفيون ، فحملته على الاعناق الى ان جلس في مكانه الذي اختاره بين زملائه الصحفيين ، ومعنى هذا ان الاحرار الدستوريين أعداء الوفد ، والذين طالما تلقوا من العقاد أعنف الضربات في الماضي قد فرحوا أشد الفرح بخروج العقاد على الوفد ، ووجدوا في ذلك كسبا كبيرا لهم حتى ولو ان العقاد لم يعلن انضمامه اليهم ... لقد غفروا له كتاباته العنيفة القديمة ضدهم ، ورحبوا بموقفه الجديد ولكن ... ما هي براهين مكرم عبيد في ان خروج العقاد على الوفد، كان جزءا من خطة شاملة مدبرة ؟

يقول مكرم في مقاله عن هدف هذه الخطة الشاملة :

« ... انها لخيانة ما بعدها خيانة ارتكبها العقاد بصفة كونه مصريا ،

فقد حاول ان يخرب بيديه المعقل المصري الاوحد ، يعلم ان الوطن المصري مهدد بخطر الحرب الداهم ، وان مصر بأسرها متحدة في وفدها واقفة للانجليز بالمرصاد ، تطالبهم باستقلالها وازالة العقبات من طريق دستورها . . . فلو ان الزعامة انهارت ودب الانقسام في صفوف الشعب بفضل جريمة العقاد ومن معه ، فما الذي كان يبقى لنا في أشد الاوقات حرجا ؟ اللهم الا اشتاتا مبعثرة لا يحسب المستعمرون لمفاضبتها او محاسبتها حسابا» . . . ثم يقول مكرم بعد ذلك عن الخطة المدبرة ضد الوفد: « . . . ولقد كانت الخيانة دسيسة مدبرة مأجورة ، وأريد بها ان تكون واسعة النطاق، لولا ان الله قد وضع في نفوس الامة غريزة تلهم الحق الهاما فقتلت المؤامرة في مهدها ، واذا كانت المصلحة الكبرى تأبى ان تكشف عن خبايا هذه الدسيسة في الوقت الحالي ، فحسبي ان أقول محمدا ومؤكدا ان العقاد وبعض من على شاكلته كانوا من ورائها ، وان من وراء هؤلاء خصوما للوفد معينين وبعبارة أصرح فمن الثابت « أولا » ان العقاد ومن معه طرف في المؤامرة «ثانيا» ان وراءهم جماعة من خصوم الوفد يمولون المؤامرة بالمال «وثالثا» ان الغرض الاول من المؤامرة هو هدم الوفد في زعامته وسياسته . . » ثم يقول مكرم بعد ذلك :

« ولقد كانت هناك مقابلات واتصالات بين العقاد وبعض خصوم الوفد المعينين ، ومثلها بين عزمي وبينهم ، ولدينا على هذه الاتصالات أدلة لا يتطرق اليها الشك ، ولكن واجبا أكبر يحتم علينا كتمان ما نعرف ، وحسبنا ما يأتي من الادلة المستمدة من نفس الوقائع ، ففيها ما يغني عن كل دليل سواها .

أولا - قبل صدور القرار باقصاء جريدة روز اليوسف سبق جماعة العقاد ومحرضوهم الحوادث فأصدروا منشورين بتوقيع مستعار، ينضحان بأقذر السباب واكذب المفتريات ، ضد دولة الزعيم وضدي ، وقد وزع المنشوران على أعضاء الهيئة الوفدية ، واللجنة السعدية للسيادات ، وكثيرين من أعضاء اللجان الفرعية والطلبة والموظفين ، الخ وكان الطبع متقنا ، والتوزيع واسع النطاق ، مما دل على أن من وراء الطابعين والموزعين أشخاصا من ذوي الجيوب الرحبة الواسعة .

ثانيا - بعد صدور قرار الوفد بفصل الجريدة والعقاد معها ، رأينا في الجريدة مقالات وعناوين واطارات تتفق في المعنى وفي اللفظ مع المنشورات البديئة المشار اليها ، فردت المنشورات جميعها الى أصلها ، لانها هي أيضا سبق ان أخذت عن الجريدة مطاعن منقولة بالفاظها فضلا عن معانيها .

ثالثا - ولعل اقطع دليل على تأمر العقاد ومن معه انه منذ اكثر من شهر وقبل أن يعرف جمهور الناس شيئا عن الخلاف بين الوفد والعقاد ، صدر منشور « نمرة ١ » موقعا عليه بنفس التوقيع ولقد حذر المنشور رئيس الوفد من المساس بالعقاد العظيم ، وتهجم على الزعامة مهونا من شأنها بالقياس الى عظمة العقاد .

أما ما خفي فكان أعظم . وسيأتي وقت يعلم فيه الناس ما يجهلونه من اغراض الجريمة وأشخاص المجرمين ... فلقد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

تلك هي أدلة مكرم على تأمر العقاد ، وارتباطه بخروجه من الوفد بخطة شاملة لتدمير هذا الحزب الشعبي الكبير ولا شك أنه كانت هناك مؤامرة لتحطيم الوفد ، ولسنا بحاجة الى البحث عن أدلة لاثبات وجود هذه المؤامرة ، فكل الصفحات في تاريخ مصر الحديث منذ سنة ١٩١٩ حتى ١٩٥٢ تؤكد أن القصر والانجليز والجناح الاكبر من الاقطاعيين والراسماليين في مصر ، كانوا جميعا يعملون على تدمير الوفد من خارجه بالاضطهاد ، ومن داخله بتشجيع الانشقاق عليه ، وفتح ابواب مغرية لهذا الانشقاق . . ولكن السؤال الذي يهمنا هنا : هل كان العقاد مرتبطا بمؤامرة صريحة من هذا النوع عندما خرج على الوفد ؟

ان الحجج التي يرددها مكرم عبيد ، تشير الى احتمال اشتراك العقاد في مؤامرة من هذا النوع، ولكنها لا تكفي للقطع باشتراك العقاد في المؤامرة . ولكننا عندما نفكر - صموما - في شخصية العقاد ، وفيما حدث اثناء ازمته مع الوفد ، وبعد الازمة بسنوات قليلة ، نستطيع القول بأن العقاد لم يكن على اتفاق من البداية مع أحد في معركته ضد الوفد ، ولكن موقفه العنيد ضد الوفد ارضى اعداء الوفد وأسعدهم ، فاستغلوه واستفادوا منه فائدة واسعة ، واصبح العقاد بعد أن قام وحده بالخطوة الاولى ضد الوفد ، جزءا من الخطة العامة لهدم الوفد بعد ذلك .

لقد كان سبب الخلاف كما أشرنا غير جوهري ، وهو اعتراض العقاد على وزارة توفيق نسيم الانتقالية ، وهجومه على وزير معارفها نجيب الهلالي ، وكان يمكن تسوية هذا الخلاف داخل نطاق الوفد ، ولكن اعداء الوفد والذين يخططون لهدمه وهدم الحركة الوطنية من خلاله ، استفادوا من الفرصة وأشعلوا النار في الخلاف بين العقاد والوفد ، ولا شك ان العقاد قد لقي تشجيعا بطريقة أو أخرى من المعسكر المعادي للوفد . أما ان يكون قد اتفق في الخفاء مع أحد اعداء الوفد - مثل علي ماهر أو غيره -

فهو أمر لا يتفق مع الطبيعة الشخصية للعقاد، ولا يتفق مع اعتداده بنفسه، ورفضه لان يكون أداة سهلة في يد الآخرين .

والذي لا شك فيه ، ان التدبير والتخطيط قد تم في الظلام بين بعض الاطراف، وان العقاد كان موضعاً للاستغلال في هذه المعركة للهجوم على الوفد... ربما دون ان يدري بأنه يعمل لحساب خطة متكاملة مدبرة، ومما يدل على ان هناك نوعاً من التدبير في هذه الخطة ، ان الخلاف لم يكن بين الوفد وبين العقاد وحده ، بل قام الخلاف في وقت واحد بين العقاد ومحمود عزمي وروزاليوسف مجتمعين ، ولو كانت المسألة مجرد خلاف بين الوفد والعقاد ، لاكتفى الوفد بفصل العقاد منه ولالتزمت روز اليوسف بقرار الوفد وانتهى الامر... ولكن المسألة أخذت طابعاً عاماً هو الانشقاق عن الوفد بأسلوب جديد ، يتمثل في خروج جريدة بكل هيئة تحريرها من الوفد في وقت واحد... مما يقطع بوجود نوع من التخطيط والتآمر ، وراء هذا الموقف وان لم يكن العقاد على علم كامل به ، لما يعرفه المخططون لمثل هذا التدبير، من صعوبة اقناع العقاد بأن يلعب دور الكاتب الذي تحركه خيوط خفية بهذه الصورة المباشرة .

على أن العقاد بعد خروجه من الوفد في أواخر سنة ١٩٣٥ ، بقي ما يقرب من سنتين دون ان يرتبط ارتباطاً واضحاً بحزب سياسي محدد ، ويمكننا في هذه الفترة ان نسميه باسم « اللامنتمي » حيث أنه كان وحيداً في بحر الحياة السياسية المصرية... قبل أن يلتقي آخر الامر بأحمد ماهر والنقراشي، اللذين انشقا على الوفد سنة ١٩٣٧ ، ليبقى معهما بعد ذلك حتى نهاية الحياة الحزبية في مصر .

ماذا فعل « اللامنتمي » عباس محمود العقاد في هاتين السنتين : من ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ وقبل أن يتحول نهائياً الى صف الرجعية السياسية في مصر ؟

بعد الوفد: اللا منتمي

انفصل العقاد عن الوفد سنة ١٩٣٥ ، فالى أين يذهب بعد ذلك ، وهو الذي عاش طويلا في قلب الحياة السياسية والعمل السياسي ؟ أين يذهب هذا الكاتب الوطني ووراءه تاريخ حافل بالنضال والكفاح ، ووراءه ذكريات اشتراكه في ثورة ١٩١٩ ، ووقوفه الدائم ضد حكومات الثورة المضادة والانقلاب على الدستور؟ أين يذهب ومعه ذكريات موقفه ضد الملك فؤاد والرجعية.. هذا الموقف الذي قاده يوما الى السجن ، فسجل بذلك أنه مستعد أن يقف على أقصى اليسار بالنسبة للثورة الوطنية ، وأن يدفع الثمن مهما كان غاليا ؟

ليس من المعقول ان يستجيب هكذا بسهولة الى اغراءات الرجعيين له بعد خروجه على الوفد، وكان هؤلاء الرجعيون يتجمعون حتى الآن « ١٩٣٥ » في بعض من يسمون أنفسهم باسم المستقلين ، وفي حزب « الاحرار الدستوريين » الذي يتكون من كبار الاقطاعيين ، لقد رحب « الاحرار الدستوريون » على وجه الخصوص بالعقاد ، والتقى بهم العقاد في مؤتمر سياسي - كما أشرنا في الفصل السابق - ولكن هذا اللقاء لم يبلغ حد الاتفاق الكامل ، والتعاون النهائي ، فلقد كان لقاء عابرا ولم يطل كثيرا .

لقد وقف العقاد بعد ان خرج من الوفد وحيدا ، لا منتميا ، يعتمد على عناده الشخصي ، واعتداده بنفسه ، وأخذ يبحث عن طريق جديد ، وفي هذه الفترة كان هناك حزب جديد ظهر في الحياة السياسية المصرية هو حزب « مصر الفتاة » وكان اعلان قيام هذا الحزب في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، وقد نشأ هذا الحزب الجديد متتبعا خطوات الحزب النازي في المانيا ، ورفع الحزب الجديد منذ نشأته شعار « مصر فوق الجميع » ، مقلدا بذلك شعار النازيين « المانيا فوق الجميع » ، وكانت حفلة افتتاح الحزب تقليدا للحفلات النازية ، حتى في طريقة التحية برفع اليد

الى الامام ، وبالطبع لم يعلن العقاد انضمامه الى هذا الحزب ، لانه كان حزبا عاطفيا تائها بلا جذور شعبية ، وكان يشكو على وجه الخصوص من الضعف الفكري ، فلم يكن وراء هذا الحزب أي تراث فكري عميق ، بل كان في نشأته مجرد رد فعل للحزب النازي الالماني ، الذي كان يعيش اكثر فترات حياته ازدهارا في ذلك الحين ، صحيح ان الاحزاب المصرية الاخرى كانت ضعيفة في جانبها الفكري ، ولكن صفوف هذه الاحزاب كانت ممثلة بالشخصيات الفكرية اللامعة ، التي كانت تعطي لهذه الاحزاب بعض الحيوية الفكرية ، وتضفي عليها قيمة سياسية أعمق .

أما « مصر الفتاة » فلم يكن فيها آنذاك غير شبان متحمسين يعيشون حياتهم الحزبية على الطاعة المطلقة، ويقلدون النازية والفاشية في تنظيماتهم المختلفة ، ولقد كان كثيرون منهم بالتأكيد شبانا وطنيين ، ولكنهم كانوا محدودين من الناحية الفكرية الى حد بعيد .

ومع ذلك فقد ارتبط العقاد بنوع من الصداقة والتعاطف مع حزب « مصر الفتاة » ، بعد أزمة خروجه من الوفد سنة ١٩٣٥ ، وبعد أن بدأ العقاد يهوي بقلمه على الوفد ، وزعماء الوفد في صحيفة « روز اليوسف » في أواخر عام ١٩٣٥ .

وقد تردد في تلك الفترة أن « علي ماهر » هو المحرض على انشاء حزب « مصر الفتاة » ، كوسيلة من وسائله المختلفة للقضاء على الوفد ، وتبديد شعبيته ، ومن هنا أشاع مكرم عبيد سكرتير الوفد آنذاك، أن مقالات العقاد ضد الوفد ، هي من وحي « علي ماهر » وبتحريض منه ، وقد رد العقاد على هذه التهمة بعنف ، وكتب يقول في « روز اليوسف » :

« قد يقال لستم عملاء المستعمرين ولا الطليان ولا الوزارة ، ولكنكم اجراء علي ماهر باشا كما يهمس مكرم بين أصحابه وقلوله من حين الى حين ... حسن أيضا ... نحن لا نذكر القراء ماضينا مع علي ماهر ، كلما شاع ترشيحه لمنصب أو وزارة أو رئاسة وزارة ، ولا نذكر القراء ماضي علي ماهر معنا ، مما هو مشهور أو غير مشهور ، ولكننا نختصر الجسدال والكلام بدعوة صريحة ندعو اليها مكرما والمكرمين اجمعين ... ها هي ذي ابواب الصحيفة مفتوحة لكل من يشاء منهم أن يكتب نقدا عنيفا أو رقيقا لسياسة ماهر باشا ، حاضره أو ماضيه أو مستقبله ، ونحن ننشره على الدوام كلما شاءوا الكتابة في هذا الموضوع الى اجل غير محدود » .

« وهكذا نفى العقاد نفيا قاطعا أي صلة له بعلي ماهر ، الذي كان معروفا أنه كان صديقا لحزب « مصر الفتاة » ... سواء صح ما قيل أن

هذه الصداقة كانت صداقة رعاية وتمويل وتحريض لهدم الوفد ، أو كانت صداقة بريئة . على أن من الثابت أن حملة العقاد العنيفة على الوفد قد لقيت ترحيبا من الحزب الناشيء ، حزب « مصر الفتاة » ، وتطلع الحزب السى « العقاد » ، لعل خروجه على الوفد أن يكون فرصة لضم شخصية فكرية بارزة مثله الى حزب مصر الفتاة ، أو تكون الفرصة على الاقل مناسبة لكي يكون العقاد صديقا للحزب الناشيء متعاطفا معه .

لقد كانت نقطة اللقاء هي العداء الحاد للوفد .

ولقد كتب أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة رسالة الى العقاد ، يؤيد فيها حملته على الوفد ويمد يده اليه باسم مصر الفتاة . ولا شك أن « مد اليد هنا » يعني دعوة العقاد الى الانضمام للحزب ، وإن لم يطلب أحمد حسين ذلك بصورة صريحة مباشرة .

يقول أحمد حسين في رسالته الى العقاد :

« عزيزي الاستاذ الكبير :

.... ان القضية المصرية لن تحل بسياسة التفاهم وسياسة اللين والاستسلام ، ولكنها ستحل بسلاح واحد هو أن تكون اقوياء واقوياء أولا و أخيرا هو أن تكون صفا واحدا متراسين ، وأن نقاطع الانجليز والا نمكنهم من الحصول على موافقتنا الا على شيء واحد هو الاستقلال التام لمصر والسودان ولقد رميت بالخيانة اذ قلت هذه الكلمات بالأمس ولقد حيكت لي الدسائس التي تحاك لك اليوم ، والقرآن الكريم يقول :

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » ، ولقد كنت ادعو الله دائما : اللهم ان كنت على حق فانصرني .. وهذا أنت تمد يدك لكل عامل ، وكل راغب في الجهاد ، غير ناظر للأشخاص ، وغير مقيم وزنا الا للمبادئ والاعمال وهذي يدي أمدها لك ، لاكون جنديا وأياك ، نعمل تحت لواء الكفاح الخفاق نشاطر الجهاد والقتال ، ولنقتسم في نهاية الامر ما قد ينتظرنا من سجن واغتراب واعدام هذا أنا أيها العقاد الشائر ، وليس لي من برنامج سوى مكافحة الاستعمار عن طريق العمل ، وحتى الرmq الأخير وليس يعني أن نتصر أو نموت في الطريق وليس يعني أن تكون عشرة أو أن تكون الوفا ، ما دمنا مطمئنين الى أن هناك من يتولى الكفاح بعدنا ... وأن مصر الباقية لن تغلب أو تموت هذا أنا أمد يدي اليك وليس يخيفني السجن أو العذاب أو الاضطهاد ،

وحياتي كلها وروحي وقف على مصر ومجدها ... »

« هذا أنا باسم مصر الفتاة، التي تضم اليها أعز شباب مصر، وأصدقهم جهادا وتضحية ، أمد اليك يدي وأعاهدك على العمل ولست أعرف ماذا سيكون نصيب هذا التقدم من ناحيتي ، ولكنني أقوم بواجبي وهذا حسبي ، وهذا جل ما أصبو اليه ... تحية ايها العقاد الظافر أرسلها اليك . والمجد لمصر » (١) .

وقد رد العقاد على رسالة احمد حسين في روزاليوسف في اليوم التالي لنشرها ، أي في ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ وبدأ العقاد رده بأنه كان يشك في جماعة « مصر الفتاة » ، لأنها نشأت في عهد وزارة صدقي ، وكانت تصدر مجلة منتظمة دون ان يعرف أحد مصدر تمويل هذه المجلة ، كما أن حكومة صدقي لم تتعرض « لمصر الفتاة » ، رغم أن هذه الحكومة قد فرضت ارهابها العنيف على جميع الاحزاب والمنظمات السياسية وقد قال العقاد أنه تحدث بهذه الشكوك جميعا للاستاذين احمد حسين وفتحي رضوان وهما زعيما مصر الفتاة فردا عليه بما يلي :

« فأما الرد على الشبهة الاولى «الخاصة بانشاء صحيفة منتظمة للحزب» ، فقد أطلعني الاستاذ فتحي رضوان على أوراق كثيرة ، فيها بيان للديون التي استدانها الجماعة ، والرهون التي عقدها بعض انصارها ، والمبالغ التي أنفقت من هذه الديون والرهون ، وقال لي الاستاذ احمد حسين : ان الصحيفة كانت تجمع في بعض الاوقات ما يسد نفقاتها ، وكانت تجمع من اجور الاعلانات ما يساعدها على استمرار الظهور . أما الرد على الشبهة الاخرى ، «أي عدم تعرض صدقي للحزب» فهو ان الوزارة الصديقة لم تقابل الجماعة بالقمع والمصادرة والتشتيت ، لأنها تعلم انها مستقلة عن القيادة الوفدية ، التي انحصرت هم الوزارة الصديقة في محاربتها ، فكانت تحسب أن جماعة « مصر الفتاة » ، ستقصر همها على تلك المحاربة ، فأفضت عنها في انتظار تلك النتيجة ، ولكنها لما رأت ورأي معها الانجليز ، أن محاربة الاستعمار هو غرض الجماعة الاول ، وانها جادة في تحقيق هذا الغرض لا هازئة ولا متوانية ، قلبت لها ظهر المجن ، وتعقبتها بالمصادرة والقسوة والاتهام والمحاكمة في كل مكان » .

وختم العقاد مقاله بالاجابة على نداء الاستاذ احمد حسين له فقال :

١ - عامر العقاد - صفحات من معارك العقاد السياسية - ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

« جوابي للاستاذ » أحمد حسين : « أني أقوم بواجبي حين أرحب بدعوته المشكورة ، وأرحب معها بكل عمل مصري يتجه الى احياء الجهود القومية وتنظيمها ، حتى تنتظم كلها في قبضة الزعامة التي تستقل بتلك الجهود القومية عن مناصب الوزارة ومطامعها ، ولا تجعل «الروح الوطني» قوة خاضعة للمناصب والمطامع، حكمها في ذلك حكم الموظفين في الدواوين، وهيهات ان تظفر بالاستقلال أمة كل من يجاهد فيها موظف في ديوان » . وهكذا نجد أن العقاد يقدم شهادة براءة لحزب «مصر الفتاة»، من التهم التي كانت تتردد ضد هذا الحزب الناشيء ، وأهمها تهمة « التمويل والحماية من القصر او من الانجليز لهدم الوفد » ، وموقف العقاد يعتبر دفاعا صريحا عن الحزب في وقت ثارت حوله الشكوك المتعددة .

على أن العقاد - رغم دفاعه عن جماعة مصر الفتاة ، وتبرئته لها من التهم الموجهة اليها - فإنه لم يرتبط معها بوعده للعمل في صفوفها ، بل كان رده على نداء أحمد حسين ردا فيه من المجاملة والتأكيد على المعاني العامة، أكثر مما فيه من الارتباط والالتزام بالحزب الجديد .

وهذا الموقف من جانب العقاد موقف يتناسب مع طبيعته وتاريخه وطريقة تفكيره ، فلقد كان العقاد حتى أوائل سنة ١٩٣٥ معدودا في الصف الاول من كتاب الشعب ، وكان قد عاش في المقدمة مع أكبر حزب وطني عرفه الشعب ، وهو حزب الوفد ، وعاش خلال هذه الفترة كلها مرتبطا بزعيمين كبيرين هما سعد زغلول ومصطفى النحاس ، وكان يحمل الكثير من الاعتزاز بنفسه والاعتداد بقلمه .

مثل هذه الطبيعة وهذا التاريخ ، لا يمكن أن يسمحا للعقاد بالانضمام الى حزب ناشيء زعيمه شاب صغير ، هو في مقام تلاميذ العقاد أن هذا الحزب يمكن أن يحظى بعطفه أو تعاطفه ، ولكنه لا يمكن أن يحل أزمته الرئيسية ، وهي أزمة الانتماء الى حزب سياسي كبير .

وقد كتب العقاد في صحيفة «مصر الفتاة»، عندما ضاقت عليه حلقات الحياة السياسية بعد أن ترك الوفد ، وخاصة عندما تصدى لنقد معاهدة ١٩٣٦ ، حيث كانت الاحزاب المصرية جميعا قد شاركت في توقيع هذه المعاهدة ما عدا الحزب الوطني وحزب مصر الفتاة ، وإذا كان الحزب الوطني قد رفض التوقيع على المعاهدة تأكيدا لمبدئه المشهور « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ، فقد كانت القوى السياسية المختلفة متفقة بالنسبة لحزب «مصر الفتاة»، على أنه حزب ناشيء يتكون من جماعات صغيرة لا وزن لها في الحياة السياسية في تلك الفترة ، ومن هنا لم يفكر احد في دعوته الى

الاشتراك في توقيع المعاهدة ، وكان الحزب من ناحية أخرى يعارض المعاهدة اشد المعارضة .

وهكذا وجد العقاد لفترة قليلة من حياته حزبا صغيرا ناشئا متحمسا ، فعاش في ظله من سنة ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ ، دون أن ينتمي اليه انتماء صريحا ، ودون أن يصبح جزءا من هذا الحزب في أي صورة من الصور .

كانت تلك الايام فترة من فترات الجراة والشجاعة والصمود في حياة العقاد ، فقد تحدى في هذه الفترة الزعامة الشعبية للبلاد ممثلة في الوفد والنحاس ، ولعله كان يتصور لشدة اعتزازه بنفسه أنه سوف يهدم هذه الزعامة ، ولكن الذي حدث هو أن الزعامة الشعبية حاصرتة وعزلته عن الجماهير ، حتى كاد أن يختنق ، لولا ما حدث بعد ذلك من تطورات سياسية ، وتطورات في حياة العقاد الفكرية .

أما التطور السياسي فهو الانشقاق في الوفد، وانشاء الحزب السعودي بزعامة احمد ماهر والنقراشي ، وانضمام العقاد الى هذا الحزب ، حيث ظل مرتبطا به حتى نهاية الاحزاب السياسية في مصر سنة ١٩٥٤ .

أما التطور الفكري : فهو اتجاه العقاد الى الكتابة في «الاسلاميات» ، وكانت هذه الاسلاميات هي طريق العقاد الى الشهرة الشعبية الواسعة من جديد وهي الشهرة التي خسرها بالانفصال عن الوفد وكسبها ، بل كسب أضعافها بمجموعته الاسلامية .

وكانت فترة ارتباط العقاد بمصر الفتاة فترة قصيرة ، ولكنها كانت فترة حارة في حياته .

كان فيها عنيفا الى اقصى درجات العنف .

وكان فيها وحيدا يحس لأول مرة بقسوة هذه الوحدة في الميدان السياسي ، فلم يكن شباب مصر الفتاة قادرين على ان يملأوا حياته ، وهم الذين كانوا ما زالوا يبحثون عن يملأ حياتهم ، وعن يحدد لهم طريقا أوضح وأعمق وأقوى كانوا يجتمعون في بيت العقاد ، ويلتفون حوله كما يقول لنا فتحي رضوان ، أحد زعماء مصر الفتاة في كتابه « عصر ورجال » (ص ٢٢١) :

« في هذه الفترة فكر حزب مصر الفتاة ان يقيم اجتماعا سياسيا في يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، على ان يكون العقاد من خطبائه ، ولكن وزارة نسيم منعت الاجتماع في نفس اليوم ، وكنا قد اجتمعنا في منزل العقاد في مصر الجديدة ، فبدأ أن هناك رأيين ، رأي يقول باذاعة أمر المنع قبل موعد الاجتماع ، ورأي يقول باخفاء أمر المنع حتى يذهب المدعوون الى

الاجتماع في موعده ومكانه ... »

على أن هذا الاجتماع الذي كان الاعداد له يجري في بيت العقاد ، مع زعماء « مصر الفتاة » لم ينعقد واستطاعت الحكومة ان تمنعه .
رغم هذه الصلة الوثيقة في تلك الايام بين « العقاد » و « مصر الفتاة » فان العقاد كان يشعر بالوحدة والعزلة السياسية .

ومما يكشف احساس العقاد بالوحدة في هذه الفترة نفسها ، ما يرويهِ فتحي رضوان أيضا في كتابه السابق ، من أن العقاد عندما خرج عن الوفد « ذهب يبحث عن زعيم » و « كتب مقالا افتتاحيا في جريدة صباحية يحدد فيها شرائط الزعيم المطلوب ومواصفاته » و « ذكر له البعض عزيز المصري » ولكنه لم يوافق « ثم جاء العقاد إلينا ، وقال ما رأيكم في « محمد فريد وجدي ؟ » وكان العقاد قد اشتغل معه في تحرير جريدة الدستور ، وكان الاستاذ فريد وجدي قد ترك حياة الصحافة السياسية ، ولم يباشر عملا سياسيا منذ ١٩٠٨ ، ولم يحضر اجتماعا يضم اثنين . ولذلك كان هذا الترشيح من جانب العقاد مفاجئا لنا » .

هذا هو ما يكشفه لنا فتحي رضوان ، وما يكشف لنا ، بدوره أن العقاد كان يبحث عن شيء آخر ، لم توفره له « مصر الفتاة » ...
كان يتذكر زعامة سعد التي عاش في ظلها الشعبي الوارف ... ويتذكر زعامة النحاس التي سرعان ما تكونت لها شعبيتها ودورها النضالي ، ويتذكر حزب الوفد الذي وفر له « الدفء الشعبي » الكامل منذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥ .

انه الآن يقضي فترة قلق وانتظار في ظل مصر الفتاة .
ولا بد له من شيء جديد .

ولقد كانت هذه الفترة القصيرة « من ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ » هي نقطة التحول الاساسية في حياته السياسية كلها ، فانتقل بعدها من المعسكر الشعبي في السياسة الوطنية ، الى معسكر الاقليات والحكومات الرجعية .
وفي سنة ١٩٣٦ اتاحت للعقاد فرصة أخيرة يقف فيها موقفا يساريا متطرفا في القضية الوطنية ، فقد تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ عن طريق جبهة وطنية بقيادة النحاس وحزب الوفد . وسجلت هذه المعاهدة بعض التنازلات من جانب انجلترا ، بسبب ظهور بواذر المعركة العالمية بين انجلترا من جانب والمانيا النازية وايطاليا الفاشية من جانب آخر . لقد أرادت انجلترا أن تحمي ظهرها ، وتنشر نوعا من الهدوء النسبي في المستعمرات ، ولذلك سعت الى عقد معاهدة ١٩٣٦ .

ولقد كانت معاهدة ١٩٣٦ قاصرة بالنسبة لاهداف الثورة الوطنية قصورا ملموسا ، وقد قام النحاس نفسه بإلغاء هذه المعاهدة سنة ١٩٥١ وقال في البرلمان كلمته المشهورة « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها » .

ولقد كان الكسب الواضح في هذه المعاهدة هو إلغاء الامتيازات الأجنبية ، وحصول مصر على مزيد من الاستقلال وحرية الحركة ، وخاصة في ميدان بناء الجيش وبناء الدولة ، وقد دخل عدد كبير من الشبان المصريين الجيش بعد المعاهدة ، حيث فتحت لهم وزارة النحاس ابواب الكلية الحربية التي كانت مغلقة في وجوههم ، وكان من بين أفراد «الدفعة» التي دخلت الجيش على أثر توقيع معاهدة ١٩٣٦ : جمال عبد الناصر وعدد كبير آخر من زملائه الذين اشتركوا في تكوين تنظيم الضباط الاحرار ، وقاموا بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان دخولهم الجيش جميعا نتيجة من نتائج زيادة عدد الجيش المصري على أثر توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

على أن المعاهدة كانت قاصرة في جوانب أخرى كثيرة . فقد سمحت المعاهدة ببقاء القوات الانجليزية في القاهرة والاسكندرية اولا ، ثم في القناة بعد ذلك ، ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على الشروط العسكرية للمعاهدة ، حتى يتبين لنا مجافاتها للمطالب الوطنية الكاملة ، فقد فرضت المعاهدة بقاء قوات انجليزية في أرض مصر ، « بحيث لا تزيد على عشرة الاف من القوات البرية ، واربعمئة من الطيارين مع الموظفين اللازمين لعمالهم الادارية والفنية ، وهذا التحديد هو في وقت السلم ، اما في حالة الحرب او خطر الحرب او قيام حالة دولية مفاجئة ، فان انجلترا لها الحق في أن تزيد قواتها الى ما تشاء » (١) .

ومن الطرائف المضحكة المبكية والتي وردت في نصوص هذه المعاهدة ، ان انجلترا اشترطت عدم نقل قواتها من القاهرة والاسكندرية الى القناة ، الا بعد أن تقوم مصر ببناء الثكنات والمنشآت الصالحة في منطقة القناة ، وفقا لاحداث النظم ، لاقامة القوات البرية والجوية ، مع المستلزمات الفنية بما فيها اىصال المياه ، وتوفير أسباب الراحة للجنود ، بغرس الاشجار وانشاء الحدائق والملاعب ، مع بناء مساكن للمتزوجين من الضباط ، ومن دونهم من مراتب الجندية ، واقامة معسكر استشفاء على ساحل البحر الابيض المتوسط بالعريش ولذلك كان على مصر بحكم هذه المعاهدة

١ - عبد الرحمن الرافعي في اعقاب الثورة المصرية ج٣ ص ٢١ .

أن تهتم حتى بأماكن النزهة بالنسبة لأفراد الجيش البريطاني ، ولم يكن كافيا أن تحتل أقامتهم في أرضها .

ومهما يكن من أمر فإن معاهدة ١٩٣٦ كانت في حينها خطوة الى الامام ، بالنسبة للمطالب الوطنية ، ولكنها كانت خطوة ناقصة ، تركت كثيرا من مظاهر المرض الاستعماري في مصر كما هي ، او عدلت فيها تعديلا طفيفا لا يحقق الاماني الوطنية الصحيحة .

وقد وقف العقاد من هذه المعاهدة موقف المعارضة العنيفة ، ففندها واحتج عليها أشد الاحتجاج ، ومرة أخرى نجد العقاد - بعد موقفه من وزارة توفيق نسيم - يمضي في طريق اليسار الوطني المتطرف - وكان موقف العقاد هنا في صعود ثوري ، وكان هذا الموقف أيضا هو آخر وأعلى نقطة ثورية وصل اليها العقاد في تاريخه السياسي . لقد ازدادت المسافة بينه وبين الوفد بعدا ، وازدادت الجفوة بينهما عمقا ، لانه كان أكثر ثورية من الوفد في ذلك الحين ، ولقد كان من الضروري أن يلتقي العقاد في هذه اللحظة من تاريخه بطرف خيط جديد لقد كان عليه أن يبحث عن فكرة تفنح له عالما جديدا ، يطل فيه على وجه جديد للثورة في مصر ، بعد أن بدأ الوجه القديم للثورة يذبل ويشيخ ، ويميل الى الاستسلام والمهادنة . وكانت الفكرة التي يمكن أن تمنح العقاد ضوءا جديدا ، ينظر به الى الامور ويفكر من خلاله الى المستقبل هي الفكرة الاشتراكية ، ولكنه في أزمته مع الوفد لم يهتد الى هذه الفكرة . . . بل ابتعد عنها - على العكس - أشد الابتعاد .

وقد ركز العقاد نقده لمعاهدة ١٩٣٦ في انها اعطت الكثير للانجليز ، وخاصة فيما يتصل « بالمواد العسكرية » حيث اعتبر العقاد ان المواد العسكرية هي أساس الاحتلال ، وأن ما كسبه الانجليز في هذه المعاهدة هو تدعيم للاحتلال ، ويستشهد العقاد على ذلك بما قاله اللورد «جورج لويد» وهو من أشد دعاة الاستعمار الانجليزي ومن أكبر المؤيدين له يقول العقاد في مقال له بعنوان «غنيمتنا التي كسبناها» نشره في جريدة الضياء في ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٦ :

« . . . قال ذلك اللورد جورج لويد وألقى نفسه أمام حقيقة ناصعة لا تحتل المكابرة ولا التشكيك ، فلم يسعه إلا أن يصرح « بأن المواد العسكرية في المعاهدة جاءت أفضل بما لا يقاس من كل ما اتفق عليه من قبل » ثم يواصل العقاد في نفس المقال نقده للمعاهدة ، على أساس ما فيها من شروط عسكرية تحقق أهداف الانجليز ، دون أهداف مصر :

« وجاءت «التيمس» في اليوم التالي تقول : أن شهادة المستميتين للمعاهدة قد دلت على أنها لم تدع شيئاً قسطنطين للطوارئ والمصادقات . »

« فالشروط العسكرية ليست خيراً من الشروط في المعاهدات السابقة وليست مثل الشروط في المعاهدات السابقة . . . وليست أفضل قليلاً من الشروط في المعاهدات السابقة . . . كلا ، بل هي أفضل بما لا يقاس من تلك الشروط جميعاً : يصرح بذلك واحد من المعروفين بالغلو في بخس القضايا الوطنية ، والقضية المصرية خاصة ، «هو لورد لويد» ولا يصرح به واحد من العمال أو من الأحرار أو من عامة المحافظين . هذا هو الحكم في الشروط العسكرية فما هي قضية الاحتلال كلها غير قضية الشروط العسكرية ؟ » .

ثم يقول العقاد في نفس المقال عن معاهدة ١٩٣٦ :

« نال الانجليز أفضل ما نالوه بتلك المعاهدة . »

« نالوا بها قطرين عظيمين هما مصر والسودان ، وهما أكبر من البلاد الانجليزية مرات »

ويفسر العقاد بعد ذلك سر الترحيب والتهليل في مصر للمعاهدة ، رغم ما فيها من خسارة للمصريين ، مع عدم الترحيب والتهليل بها في إنجلترا مع أنها كسب واضح للانجليز . . . يفسر العقاد هذه الظاهرة بجهل الزعماء المصريين ، وهو يقصد زعماء الوفد على وجه الخصوص ويقارن العقاد بين هذا الجهل وبين ثقافة السياسيين الانجليز ، أمثال انطون ايدن . . . يقول العقاد :

« أفندري الفرق بين الجلبة هنا والوقار هناك . . . أفندري ما الفرق بين تهليل الخاسرين وسكوت الرابحين ؟ هو فرق واحد لا فرق غيره بين جميع الاخلاق وجميع الاعتبارات . . . هو الفرق بين الجهل والثقافة . . . هو الفرق بين الرجل الذي لا ثقافة له غير الصناعة التي يأكل منها العيش ، وليس هو فيها من المبرزين المعدودين ، وبين الرجل الذي هو على مثال أنتوني ايدن يعرف الجندية ويعرف الحياة الفكرية ، ويؤلف رسالة عن المصور « سيزان » ورحلة عن « أماكن تحت الشمس » حين سافر الى القارة الاسترالية ، ويتعلم اللغة الفارسية واللغة العربية ليستوفي حفظه من ادب اللغتين ، غير مترجم الى لغة أخرى ، ويلتقي هو ورئيس وزارة

فرنسا « ليون بلوم » فلا ينقصيان من بحث المسألة السياسية ، حتى يستغرق كلاهما في بحث اسلوب «بروست» والمقارنة بينه وبين سائر الاساليب !

هذا هو الفرق بين الوزراء والزعماء .

وهذا بعينه هو الفرق بين الحواشي والاتباع

وهذا بعينه الفرق بين الزبد وما ينفع الناس

استمر العقاد على هذا الاسلوب ، ينقد معاهدة ١٩٣٦ ويهاجمها اعنف الهجوم ، ويتخذ منها فرصة لشن حملته الحادة ضد الوفد وزعمائه ، ويرى أن المعاهدة كانت تنازلا عن المطالب الوطنية ، وتضحية بها والتماسا للمهادنة والاستسلام ، في سبيل الوصول الى كراسي الحكم دون معارضة أو عقبات من الانجليز او من السراي .

وهكذا اتخذ العقاد موقفا ثوريا متطرفا في تلك الفترة من تاريخه السياسي ، وقد احتمل العقاد وحده مسؤولية موقفه الوطني المتطرف ، بعد ان كان يستند الى حزب كبير قوي هو حزب الوفد ، وفي هذه الفترة ايضا تحمل كثيرا من المتاعب الخاصة ، وضاقته ظروفه الاقتصادية ضيقا شديدا ، نتيجة للحرب التي شنها الوفد ضده ، وأحس العقاد بالحرارة تملأ وجدانه وتلون شعوره كله وقد أصدر العقاد في هذه الفترة جريدة يومية هي جريدة «الضياء» حيث اشترى امتيازها من صاحبها الاستاذ عبد الحميد حمدي ، ليصدرها باسمه ، وكان العقاد يمول الجريدة من تبرعات قدمها اليه أحد أبناء بلدته ، وهو ابراهيم باشا عامر ، كما يقول الاستاذ عامر العقاد في كتابه عن معارك العقاد السياسية ، على أن الجريدة لم تستطع الصمود في وجه المقاطعة الشاملة من جماهير الوفديين ، فانقطعت عن الصدور بعد ايام قليلة .

وفي هذه الفترة اخذ العقاد يستعيد ذكرياته عن السنوات الذهبية للثورة الوطنية ، فأصدر في سنة ١٩٣٦ ، قمة سنوات الازمة بالنسبة للعقاد ، كتابا عن «سعد زغلول» وكان هذا الكتاب أشبه بأغنية بديعة حزينة ، تبكي على الماضي الذي راح ، حيث كان الثوريون لا يترددون ، وحيث كانت الاهداف الوطنية واضحة لا مساومة عليها ، وحيث كان الكاتب الوطني الموهوب عباس العقاد ، يعيش في ظل زعيم يعرف قدره تمام المعرفة لقد كان كتاب سعد زغلول للعقاد هو « الحل الروحي الخاص » الذي استطاع العقاد عن طريقه أن يخرج من الايام العصيبة ، التي كان يعيشها في ١٩٣٥ و ١٩٣٦ الى حيث الذكريات الجميلة للنضال الوطني

في ظل سعد زغلول .

ولا شك أن مما زاد أزمة العقاد في ذلك الحين ، أن الجماهير التي تعودت أن تجد فيه كاتبها الأول ، وتعود هو على استجابتها السريعة لما يكتب ، قد انقضت من حوله على أثر خصومته مع الوفد ، وتعرضت الصحف التي كان يكتب فيها مقالاته السياسية للبوار الشديد ، نتيجة لمقاطعة الجماهير الوفدية الكبيرة . ولعل هذا الموقف من جانب الجماهير كان من الأسباب التي أعادت العقاد إلى فكرته الرئيسية عن «العبقرية الفردية» . فالعبقرية الفردية لا تجد مأمناها الصحيح - من وجهة نظر العقاد - مع الجماهير الكثيرة العادية، وإنما تجد هذا المأمن بالعزلة والانطواء ، أو بالحياة وسط النخبة أو الصفوة الممتازة في المجتمع ، لا شك أن نفس العقاد كانت تحدثه بهذا كله من خلال أزمته الخاصة ، ولم يكن غريبا أن تكون الفترة التي جاءت بعد الأزمة مباشرة ، هي الفترة التي أصدر فيها العقاد كتبه عن العبقريات الإسلامية، والعبقریات العالمية المختلفة ، ولا شك أن لهذا الاتجاه نحو العبقريات مغزاه فقد أصبح العقاد منذ الآن يميل إلى الحياة وسط النخبة أو الصفوة ، بدلا من الحياة بين الجماهير التي لا تقدر العبقرية ، ولا تدرك حقيقتها بما فيه الكفاية . وإذا كان العقاد يميل في حياته الخاصة إلى الابتعاد عن الجماهير التي خذلته في أزمته مع الوفد ، فهو يميل الآن أيضا إلى التفكير في النخبة والصفوة . . . أو في «العباقرة» على حد تعبيره الخاص .

ولم يكن العقاد قد أصدر حتى الآن - سنة ١٩٣٦ - سوى ثلاثة كتب تناول دراسة الشخصيات من بين ما يقرب من خمسة وعشرين كتابا كان العقاد قد أصدرها حتى ذلك الحين ، وهذه الشخصيات الثلاث التي درسها هي : ابن الرومي ، وجيته ، ثم سعد زغلول . أما بعد سنة ١٩٣٦ فقد تركز معظم انتاجه على دراسة العبقريات والشخصيات البارزة في تاريخ الاسلام أو في تاريخ الفكر العالمي .

كانت سنة ١٩٣٧ هي آخر سنوات الأزمة بالنسبة للعقاد ، وفي سبتمبر من هذا العام تعرض العقاد للسجن مرة أخرى ، وكان ذلك في عهد وزارة الوفد ، وبقي في السجن أربعة أيام ، ثم أفرج عنه بفرامة قدرها عشرون جنيها ، وكان المحامون الاساسيون عن العقاد هم : فتحي رضوان ، واحمد حسين ، وكامل البنداري ، وكانت التهمة التي وجهت للعقاد هي « اهانة رفعة مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء ، وصاحب المعالي مكرم عبيد باشا وزير المالية » . ولا شك أن ما كان يكتبه العقاد من مقالات عنيفة

جائحة ضد النحاس وحكومته ، في جريدة البلاغ في ذلك الحين ، وكانت البلاغ قد خرجت على الوفد . . . لا شك ان مثل هذه المقالات القاسية ، كانت كفيلة بأن تدفع العقاد الى السجن مدة طويلة مثلما حدث له سنة ١٩٣٠ . . . ولكن الفضل في جعل عقوبته مجرد غرامة تبلغ عشرين جنيهاً ، يعود الى أن حكومة النحاس الشعبية لم تكن تملك أو ترضى امام سمعتها الشعبية ان تعيث بالقانون على نفس الصورة التي كان يقبلها ويمارسها الآخرون من اعداء الدستور ، واعداء الحرية ، أمثال اسماعيل صدقي ومحمد محمود وعلي ماهر وغيرهم ، حيث كان هؤلاء يفرضون سلطانهم بالارهاب والضغط والعيب بالقانون .

وفي هذه السنة بالذات سنة ١٩٣٧ كانت مجموعة من شباب الوفد اللامعين تتمرد على الحزب . لقد انفجر نوع من الصراع على السلطة في داخل الحزب ، وخاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، فقد تصور الحزب ان بإمكانه ان يبقى في السلطة فترة طويلة بعد توقيع المعاهدة ، وبعد ان سويت المشكلة الى حد بعيد مع الانجليز وبدأت قيادة الوفد التي كانت تقف في طليعة الحركة الثورية سنة ١٩١٩ تستقر وتهدأ ، وتجد لنفسها مكاناً بارزاً في المجتمع ، وأصبح الذين سجنوا أو حكم عليهم بالاعدام خلال ثورة ١٩١٩ وما تلاها من انتفاضات ثورية . . . أصبح هؤلاء الثوار وزراء وموظفين كباراً وأعضاء في البرلمان ، وأعضاء في مجالس ادارات شركات كبرى ، وبدأ الصراع في داخل الوفد يأخذ شكل التنازع على السلطة ، مما أدى الى انفجارات متعددة في صفوفه .

وكان من أبرز الانفجارات في داخل الوفد ، خروج بعض الشبان المثقفين اللامعين ذوي التاريخ النضالي المعروف من صفوف الوفد . . . لقد خرج هؤلاء سنة ١٩٣٧ من الحزب ، وكونوا حزباً جديداً هو الحزب السعدي أو الهيئة السعدية كما كانت تسمى عند نشأتها . وكان على رأس هذا الحزب الجديد من الوفديين السابقين أحمد ماهر ومحمود فهمسي النقراشي . وقد رأس أحمد ماهر هذا الحزب عند انشائه ، وكان من الواضح ان هذا الحزب الجديد قد نشأ بتشجيع القصر وتحريضه .

ومنذ سنة ١٩٣٧ حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كان العقاد مرتبطاً بالحزب السعدي . لقد أصبح العقاد هو كاتب الحزب السعدي الاول ، والمدافع عن مواقفه المختلفة . وخرج العقاد من الفترة الحرجة التي كان فيها وحيداً لا منتمياً في الحياة السياسية المصرية . . . هذه الفترة التي استمرت من ١٩٣٥ الى اواخر ١٩٣٧ ، والتي عانى فيها العقاد كثيراً من المصاعب في حياته الخاصة وحياته العامة على السواء .

ومنذ سنة ١٩٣٧ بدأت فترة النكسة في موقف العقاد السياسي ، فقد بدأ طريقه ككاتب بارز في المعسكر اليميني الرجعي في السياسة المصرية ، بعد ان كان في طليعة كتاب اليسار الوطني . ان كاتب الشعب الاول في ثورة مصر الوطنية سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٧ يبحث لنفسه الان عن سند في الحزب السعدي ، ذلك الحزب الذي سرعان ما أصبح أداة في يد السراي والانجليز ، لقد انفصل العقاد عن حركة الثورة الوطنية في صورها المتطرفة وصورها المعتدلة على السواء ، وأصبح مرتبطا بالحكومات الرجعية المختلفة . . . لم يعد حادا متطرفا في موقفه من السراي ، بل على العكس ، أصبح وجها من الوجوه التي تعتز بها حكومات السراي . فالكاتب الثوري الوطني الذي كان عضوا في مجلس النواب بالانتخاب الحر ، والتأييد الشعبي سنة ١٩٢٦ وما بعدها ، هذا المناضل الذي وقف في البرلمان يتحدى الملك فؤاد سنة ١٩٣٠ يصبح عضوا في مجلس الشيوخ بالتعيين سنة ١٩٤٤ ، وهذا التعيين معناه انه حصل على منصبه النيابي ، بقرار موقع من الملك فاروق ، وفي ظل حكومة من الحكومات التي فرضها الملك وهي حكومة أحمد ماهر .

وقد ظل العقاد مرتبطا بهذا الموقف ، حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ ، وحتى الفيت الاحزاب سنة ١٩٥٤ .

فما سر هذا التحول السياسي في حياة العقاد ؟ ما هو هذا التحول الذي جعل منه قريبا من السراي والانجليز بعد ان كان مناضلا لا يهدأ ضد السراي والانجليز ؟

هناك أكثر من سبب واحد قوي يقف وراء هذا التحول الكبير . وكما هي العادة في حياة العقاد لعب العنصر الشخصي دورا كبيرا في هذا التحول ، فقد كان العقاد على صداقة حميمة مع محمود فهمي النقراشي أحد زعماء الحزب السعدي ، ورئيس الحزب بعد اغتيال أحمد ماهر سنة ١٩٤٥ وقد ظلت هذه الصداقة قائمة بين الاثنين حتى حدث اغتيال النقراشي في ديسمبر سنة ١٩٤٨ . ان العقاد في علاقته بالنقراشي يستعيد مرة أخرى «طعم» علاقته بسعد زغلول ، فلقد كان النقراشي مثل سعد ، يحترم العقاد ويضعه في مكان رفيع بالنسبة له ولحزبه . ولقد كان لهذا العامل الشخصي اثره الكبير في حياة العقاد السياسية ، فالعقاد - كما اشرت من قبل - يتأثر بمثل هذه العوامل الشخصية أشد التأثر . ويكفي ان نقرأ بعض سطور من مقالة كتبها العقاد بعد اغتيال النقراشي بعنوان «المثل الاعلى في عالم الحقيقة» لكي ندرك من خلال هذه الكلمات كم

كان العقاد مرتبطا اشد الارتباط بشخصية النقراشي ... يقول العقاد في هذا المقال من كتابه «بين الكتب والناس ص ٣١٣» :

«ذكرى النقراشي تراث خالد يعلو على أفق السياسة ، ويفيض من نطاق الانسانية الذي يحيط بجميع الحدود . ذكرى النقراشي انفسع الذكريات في هذا الزمن لانها الترياق الذي يعالج داء الزمن ، بل يعالج شر أدوائه ، وليس للزمن الحاضر داء شر من التهالك على المنفعة ، والجنون بالثراء ، والايمان بقيم المادة وحدها دون قيمة للخلق والضمير ... ذكرى النقراشي ترياق من هذا الداء الذي سرى واستشرى في كل مكان ، وفي كل أمة ، فهذه الازمات التي تتخرج في السياسة العالمية ، وهذه الفتن التي تنهش النفوس بأنياب الحسد من جانب ، وأنياب الطمع من جانب ، وهذه التخمة التي يتأذى بها قوم حيث يتأذى بالجوع قوم آخرون ، وهذا الشقاق في غير جدوى بين الأمم والأحاد ، وبين الرعاة والرعايا . وهذه البلايا كلها داء واحد من جرثومة واحدة هي : جرثومة العصر الذي نحن فيه ، جرثومة المنفعة والايمان بالذات ، والكفران بالواجب والفداء ... وذكرى النقراشي رحمه الله هي الترياق من كل هذا الداء» .

«من هذا الشهيد الذي عاش من الفقراء ومات من الفقراء ؟ من هذا الرجل الذي استطاع ما لا يستطيع فهزم الغواية التي لم يهزمها احد من الناس ؟ ... هذا الشهيد الفقيد هو رئيس وزراء مصر وحاكمها العسكري في ابان السيطرة على أموال الدولة وأموال الاعداء . هذا الشهيد الفقير هو وزير الخزانة في ابان التصدير والايراد والاثراء مما تطلبه البلاد او ما يطلب من البلاد ... هذا الشهيد الفقير هو صاحب الوزارة الكبرى التي يباع نفوذها لو شاء بالالوف وعشرات الالوف . هذا الفقيد لو مات وعنده عشرة ملايين لما استكثرها طلاب الكثير - قد مات وليس عنده شيء ... وقد خرج من كل شيء ليفدي بلاده بالراحة والروح والنعمة والثراء» .

هذه هي النعمة التي كان يتحدث بها العقاد عن النقراشي ، وهي نعمة تكشف عن عاطفة صادقة نحو النقراشي . ولعل النقراشي هو السياسي المصري الوحيد الذي سلم من قلم العقاد، فقد هاجم العقاد معظم السياسيين غير الوفديين عندما كان في معسكر الوفد ، وعندما خرج على الوفد هاجم معظم السياسيين البارزين في الوفد بما فيهم أحمد ماهر رئيس الحزب السعدي بعد ذلك ، وصديق النقراشي الحميم ، وعندما خرج العقاد من الوفد كان النقراشي ما زال عضوا بارزا في الوفد ، ولكن العقاد لم يمسه بسوء ، بينما نجده يتناول معظم السياسيين الوفديين في تلك الفترة ،

بالنقد القاسي والهجوم العنيف ... ولقد كتب العقاد سنة ١٩٣٥ عن أحمد ماهر يقول وكان ذلك خلال أزمة العقاد مع الوفد :

«يا دكتور ماهر ... انني رجل أعني ما أقول ، وأعرف الصدق كما يعرفه الناس في كل حرف مما أقول . أما انت يا دكتور ماهر فكاذب منافق : كاذب حين تفتري على الأبرياء الذين لا تعرفهم ولا يعرفونك ، وتسمح لصديقك الدجال « مكرم عبيد » ان يعزو اليك الافتراء وتنشره في صحيفتك بغير حياء »والصحيفة هي كوكب الشرق التي كان أحمد ماهر يرأس تحريرها سنة ١٩٣٥» ومنافق حين تقول في صحيفتك غير ما تقول لصحبك ... الخ» .

يمثل هذا الأسلوب العنيف الجارح كتب العقاد عن أحمد ماهر ، قبل ان يلتقي الاثنان في الحزب السعدي بعد ذلك بسنتين ... اما النقراشي فلم يتعرض له العقاد الا بكل حب وتقدير ، خلال حياة النقراشي السياسية كلها ، حتى وقع حادث اغتياله في ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

هذه الصداقة الشخصية وهذا الود العميق المتبادل بين العقاد والنقراشي ، كان من الأسباب القوية التي دفعت العقاد الى الارتباط بالسعديين بعد انشاء الحزب الجديد ، وكانت من أقوى الأسباب التي حافظت على ارتباط العقاد بهذا الحزب من ١٩٣٧ حتى نهاية الحياة الحزبية في مصر سنة ١٩٥٤ .

على ان هذا العامل الشخصي وحده رغم اهميته لم يكن يكفي في ان يقود العقاد الى هذا التحول الخطير ، فقد كانت هناك عوامل أخرى لها قيمتها الكبيرة ، وعلى رأس هذه العوامل رأس العقاد من حزب الوفد . لقد أحس العقاد ان الوفد فقد الكثير من وحدته وتماسكه ، ولم يعد تلك القوة الشاملة ، التي تظل الحركة الوطنية في شتى انحاء البلاد ، لم يعد الوفد كما كان سنة ١٩١٩ وما بعدها . ولكن العقاد لم يتساءل عن السر في اضطراب الوفد ، وكان السر واضحا وهو قوة التأمر الاستعماري ضد هذا الحزب الشعبي الكبير . ولقد كانت نظرة العقاد الى الوفد والى غيره من الاحزاب تعتمد على رايه في قيادة هذه الاحزاب ، خاصة ان معظم هذه الاحزاب لم تكن ذات برامج فكرية واضحة محددة ، بل كانت برامجها مجموعة من الشعارات العامة البعيدة عن العمق الفكري ، والتحليل السياسي الدقيق . ان الاحزاب المصرية الرسمية قبل ثورة ١٩٥٢ تعتبر من أفقر احزاب العالم في فكرها السياسي . واذا حاولنا ان نعود الى خطب الزعماء السياسيين الذين قادوا هذه الاحزاب ، والى بياناتهم المختلفة

لوجدنا ان كل ما تتضمنه هذه الخطب والبيانات في النهاية ، هو تأييد لموقف او معارضة لموقف آخر . اي ان الاحزاب كانت تحدد سياستها من خلال مواقفها العملية ، لا من خلال منهج فكري محدد واضح ، حيث ان هذه الاحزاب لم تكن بالفكر السياسي عناية كافية . ولذلك كنا نجد بعض الاحزاب تنتمي في شعاراتها لنفس المبادئ ، ومع ذلك فالخلاف بينها واسع وحاد ، فالوفد هو حزب سعد زغلول ، والهيئة السعدية تنتسب حتى في الاسم الى سعد زغلول ، والكتلة الوفدية التي انشأها مكرم عبيد في الاربعينات تنتسب ايضا الى سعد زغلول ، ومع ذلك كان الخلاف حادا بين هذه الاحزاب ، والفرق لم يكن في الشعارات والمبادئ ، بل كان فرقا في المواقف السياسية .

هذا النوع من التقارب في المبادئ والشعارات بين الاحزاب ، كان يجعل عملية الانتقال من حزب الى حزب آخر امرا غير عسير . ومن هنا لم يجد العقاد صعوبة في الانضمام الى السعديين بعد خروجه من الوفد ، بل لقد كان انضمام العقاد الى السعديين في البداية مقبولا ، لان انشقاق النقراشي وماهر عن الوفد سنة ١٩٣٧ اخذ في اللحظة الاولى صورة الاعتراض على انحرافات الوفد والوقوف ضدها ، ولذلك كان الوقوف مع السعديين في البداية امرا يمكن تبريره .

ولكن حركة السعديين تكشفت بعد ذلك ، عن ارتباط كامل بالسراي ومحاولة لتنفيذ خطط القصر ضد الشعب والحركة الوطنية ، في مصر ، واصبح الارتباط بحركة السعديين بعد فترة قصيرة من قيامها ، معناه الوحيد هو خدمة احزاب الاقليات ، التي كانت بدورها تخدم القصر وتخدم الرجعية ، ولا تستطيع ان تجسد المطالب الحقيقية الوطنية امام الانجليز . واذا كان من المقبول ان ينتقل العقاد من معسكر الوفد الى معسكر السعديين المنشقين على الوفد في بداية نشأة السعديين ، فان التجارب السياسية والمواقف المختلفة للسعديين ، قد اثبتت بعد ذلك ان الانتماء الى السعديين معناه انتماء الى الرجعية السياسية في مصر . ومن هنا كان انتماء العقاد الى السعديين نقطة ضعف في حياته السياسية ، وكان انعطافا واضحا منه نحو اليمين الرجعي في السياسة المصرية .

ومن الغريب ان الحركة اليسارية الناشئة في مصر ، قد أحست بالامل الكبير في ان ينتمي العقاد اليها بعد اصطدامه بالوفد سنة ١٩٣٥ ، فكتبت مجلة يسارية كانت تصدر في القاهرة باسم «الطلعة» في ٢٦

أكتوبر سنة ١٩٣٥ ، أي بعد أزمة العقاد مع الوفد بحوالي شهر ... كتبت هذه المجلة تقول تحت عنوان «عباس محمود العقاد يدافع عن العمال» :
«أهم ما يمتاز به الكاتب الكبير اخلاصه لفكره ، اذا تبين الحق في مكان لا يرى غضاضة من ان يلتحق به ، وينكر من اجله كل حياته السابقة ... هذا ما حدث لاناتول فرانس وهو في آخر حياته ولاندرية جيد وهو في الثانية والستين من عمره ، ولعباس محمود العقاد الان . لقد قضى هؤلاء الشطر الاكبر من حياتهم متأثرين بثقافة الوسط الرجعي الذي يعيشون فيه ، مقتنعين بتلك المبادئ الكاذبة ، التي اخترعها ادباء البرجوازية وهي ان الفنان اعلى من المجتمع ، وارفع من ان يهتم بغير الجمال ، ثم انكشف لهم الحق فجأة ، وراوا انهم يخونون رسالة الادب والفن بتعاميهم عن فساد المجتمع وشقاء العدد الاكبر من الناس ، كان هؤلاء الادباء يحسبون انهم طالما يعيشون عيشة نزيهة لا يقتلون ولا يسرقون ، فانهم قد قاموا بواجبهم الاخلاقي نحو الحياة . ولكن وهمهم هذا ما غتم ان تبدد ، وأيقنوا انهم لا يقلون عن السارقين والقتلة اجراما ، اذا هم سكتوا عن ظلم الظالمين وجشع المستغلين » .

ثم تتحدث المجلة اليسارية بعد هذه المقدمة عن العقاد وسوف ننقل هنا حديثها بالكامل ، ذلك لان حديث المجلة يكشف بوضوح ، عن ذلك الامل الذي داعب الشيوعيين سنة ١٩٣٥ ، حيث تصوروا ان بالامكان جذب العقاد الى الحركة الشيوعية بعد خروجه العنيف على الوفد ، وقد خاب هذا الامل بالطبع ، وابتعد العقاد عن الحركة الشيوعية ، بل كان العدو الفكري الاول لها في الاربعينات والخمسينات والستينات ...
تقول المجلة اليسارية عن العقاد :

«كان العقاد في اول عهده منصرفا للادب الصرف ، ثم استيقظت فيه العاطفة الانسانية فأحس بكل ثقل القيود التي ترواح تحتها من جهراء الاستعمار ، فانضم الى الحركة الوطنية ، وكان مجليا سابقا في ميدانها ، ثم تبين له ان تلك الحركة الوطنية ناقصة مشوهة ، تضم مع ذرة من الحق أكداسا من الفساد ، وأيقن ان اكثر القائمين بها تجار ، يستثمرون سداجة الشعب ليصلوا الى الشهرة او الثروة ، متلاعبون يصرخون في المظاهرات في وجه الظلم والاستبداد ، وهم يبنون رفاهيتهم على بؤس الفلاحين والعمال .

ازاء ذلك عرف العقاد ان امامه واقعا اوسع ، وميدانا اشرف وانظف ، يجمع بين غيرته الوطنية ونزعتة الانسانية الشريفة ، فاتجه نحو حركة

العمال ، ينفخ فيها من قوة بيانه وتوقد ايمانه ، وكان اتجاه العقاد هذا جوابا بليفا على الذين يحسبون ان ثمة تماكسا بين النزعة الوطنية والنزعة الانسانية ، وان الثانية تضعف من قوة الاولى في حين انها متفقتان ومكملتان الواحدة للآخري ، فالنزعة الوطنية اذا تحررت من النزعة الانسانية تظل لفظا بلا معنى ، تنقصها روح العدل وقوة الجماهير ، والنزعة الانسانية اذا مشت منعزلة عن الحركة الوطنية تكون مشوشة الخطى ، ضعيفة الحماسة. عسى ان يكون مثل العقاد مشجعا لبعض أدبائنا ووطنيينا كي يقلعوا عن اساليبهم البالية ، فيتمشوا مع روح العصر ومقتضياته ، ويعلموا ان المناداة «بالاماني القومية» و«الحقوق المهضومة» و«الحرية السياسية» مناداة عقيمة ، وتمثال بلا روح ، اذا لم يثبتوا في داخلها برنامجا واقعيا محسوسا لاصلاح الاوضاع الاجتماعية الحاضرة ، والاهتمام بالعدد الاكبر من الشعب ، وفيما يلي بعض أبيات من قصيدة العقاد في حفلة افتتاح دار العمال في القاهرة :

حي دار العمال بالاقبال
وترقب لها بلوغ الكمال
وانتظر رافعي الدعائم حتى
يرفعوا بينهم عزيز المثال
رفعوا أمس ما علا من صروح
ولهم في غد صروح عوالي

وقال مخاطبا العمال :

لكم العدة التي ما استطاعت
أمة قط تركها في نزال
ولكم أذرع شداد ، وأيد
من حديد ، وأظهر من جبال
ولكم صيحة يهاب صداها
سادة من نفوسهم كالموالي

ثم خاطب الاغنياء المصريين :

لا يكن من بني الكنانة باغ
يملا الناس دوره وهو خال
ويكيل النضار وهو دماء
جمعت من مصارع الاجيال

وهنا اخذ يصف حالة العامل :

ينسج الخز والحريز ويمشي
حافيا في الرقاع والاسمال
ويشيد القصور وهو شريد
في زوايا الكهوف والاطلال
ويدر الفني وما في يديه
شعبة الوالدين والاطفال
يهب المترفين عنصر فراغ
وهو باكي الايام باكي الليالي

ثم يبقى هنا ان قضية البلاد هي في آن واحد قضية العمال ، فلا يمكن لاحدهما الاستقلال عن الثانية ، وتحريرهما من الاستغلال والعبودية لا يكون الا باتحادهما المتين :

ايها المنقذون بنيسة مصر
من فتور ومن ضنى وكلال
انتم الكف والذراع وانتم
قوة في يمينها وشمال
كلما نالها نصيب من الخير
فانتم لكم نصيب تبال
اعجب الناس عامل في بلاد
صاح فيها : ما للبلاد ومالي
ان مصرا تنال من غاصبيها
اجر بخس وخدعة ومطال
وهي ارض للواغلين عليها
سطوة اشعبية الايفال
كل من في جوانب النيل عان
مستغل الجهود والامال
واذا ما تفرقوا طبقات
جمعتهم جوامع الاغلال
حققوا الامر ما قضية مصر
بعد إلا قضية العمال «

هذا نص مقال المجلة اليسارية ، ولا شك ان المجلة قد وجدت في قصيدة العقاد عن العمال مناسبة للحديث عن اتجاه العقاد التقدمي ، ولكن

السبب الحقيقي هو صدام العقاد مع الوفد ، ووقوفه على يسار الوفد في هذا الصدام ، حيث كان اكثر من الوفد تطرفا وعنفا في هجومه على الرجعية المحلية في عهد توفيق نسيم سنة ١٩٣٥ . . . ولقد كان هذا الموقف من جانب العقاد يوحي بأنه سوف يبحث عن معسكر اكثر تطرفا من الوفد ، ولم يكن هناك معسكر آخر يقف على يسار الوفد سوى الشيوعيين . ومن هنا كان حلم الحركة الشيوعية بأن تكسب العقاد . . . وتمثل حلم الشيوعيين في كسب العقاد في المقال السابق الذي نقلناه بالنص من مجلة الطليعة اليسارية القديمة بنت الثلاثينات ، وهي بالطبع مجلة اخرى غير مجلة الطليعة الجديدة التي صدرت في الستينات .

لو ان العقاد ترك حزب الوفد ، ورفض الاحزاب المصرية جميعا ، وتخطى هذه الاحزاب . . . لو انه فعل ذلك لكان موقفه مقبولا ، فبعض الاحزاب كانت تعاني من الفساد والازمة الشاملة منذ البداية بحكم تكوينها مثل «الاحرار الدستوريين» الذين كانوا يمثلون تجمعا سياسيا للعائلات الاقطاعية في مصر ، وبعض هذه الاحزاب التي نشأت نشأة وطنية شعبية مثل حزب الوفد كانت معرضة لتسلسل قام به بعض كبار الاقطاعيين والرأسماليين ، ولذلك كان يمكن لاي مفكر تقدمي ان يرفض هذه الاحزاب جميعا رفضا تاما كاملا ، باعتبارها غير قادرة على تجسيد مطالب الشعب بصورة سليمة ونهائية ، ومثل هذا المفكر كان له كل الحق في ان يتطلع خارج نطاق الاحزاب المصرية باحثا عن أمل جديد ، اما اذا كان الاختيار محصورا في نطاق الاحزاب المصرية ، فلقد كان الوفد افضلها واصدقها وطنية واقربها الى المطالب الشعبية .

ولكن هل كان العقاد يستطيع ان يرفض الاحزاب المصرية جميعا ويبحث عن أمل جديد ؟

انه في الحقيقة لم يكن يستطيع ان يرى هذه الرؤية لان الامل الجديد كان يكمن في الطبقات الشعبية ، وفي دراسة مشاكلها العملية والتعرف على مأساتها . ولقد كان هذا كله يحتاج الى ثقافة سياسية مختلفة عن ثقافة العقاد ، فلا شك ان ثقافة العقاد السياسية كان ينقصها الفهم الدقيق للمشاكل الاجتماعية وهو الفهم الذي لا يستطيع ان يصل اليه الا مفكر درس الاشتراكية واستوعبها وادرك تفسيرها للحياة وللتطور الاجتماعي . ولكن العقاد كان يعتمد في ثقافته السياسية على الفكر الذي ولدته الديمقراطية الغربية ، فالديمقراطية عنده هي الانتخابات ، والبرلمانات ، وحرية الصحافة والرأي والتعبير وما الى ذلك ، اما الديمقراطية الاقتصادية فلم يعرفها العقاد ،

واستطيع ان اقول دون ان أخشى الخطأ ان هذه العبارة ... عبارة «الديمقراطية الاقتصادية» لم ترد اطلاقا في كتابات العقاد . صحيح انه كتبت كتابات قليلة متفرقة عن الاشتراكية ولكنه لم يتعمق في دراسة الاشتراكية ولا في الدفاع عنها . ان الديمقراطية الاقتصادية تطالب وتلح على ضرورة توزيع الثروة توزيعا عادلا بين الناس وضرورة هدم الاقتصاد القائم على الامتلاك الاستغلالي ، والذي يتمثل على وجه الخصوص في الاقطاع والراسمالية . لم يدرك العقاد هذا المعنى ، ولم يدع اليه في كتاباته ، ولم يكن الاقطاع والراسمالية وشتى اشكال الامتلاك والاستغلال من أعدائه الواضحين الذين يحاربهم ويقف ضدهم . صحيح انه لم يدع الى الاقطاع او الراسمالية بل لقد هاجم الاقطاع والراسمالية في بعض مقالاته القليلة المتفرقة ، ولكنه كان بوجه عام سلبيا في هذه المعركة من ناحيتها الفكرية ، اما من الناحية العملية فقد كان سندا منذ ١٩٣٧ لحكومات واحزاب تتكون من الاقطاعيين والراسماليين وبعض الخبراء والفنيين المتحالفين مع الاقطاع والراسمالية .

وبالنسبة لجيل العقاد كان هناك ادباء يناضلون بصور مختلفة ودرجات متفاوتة ضد الاقطاع والراسمالية . وعلى رأس هؤلاء الادباء سلامة موسى الذي أدرك الفكرة الاشتراكية واستوعبها منذ بداية هذا القرن ، وظل يدعو اليها حتى توفي سنة ١٩٥٨ ، كذلك نجد اثرا واضحا لهذه الفكرة في كتابات طه حسين . لقد كان طه حسين يتحول تحولا هاما ، في نفس الوقت الذي ارتبط العقاد فيه بالرجعيين سنة ١٩٣٧ . كان طه حسين يترك صفوف الاحرار الدستوريين «حزب الاقطاعيين» في هذا الوقت بالذات ، وقد ظل مرتبطا بهؤلاء الاقطاعيين منذ بداية القرن حتى سنة ١٩٣٠ ، ولكن تحول طه حسين كان تحولا عكسيا تماما ، بالنسبة لاتجاه التحول عند العقاد . ففي الوقت الذي بدأ العقاد فيه يلتقي بالرجعيين ويرتبط بهم ، كان طه حسين يقترب من المطالب الشعبية ويدرسها ويحاول ان يعبر عنها سواء في عمله كأستاذ جامعي ، او في مواقفه السياسية ، او في كتاباته المختلفة ، ولعل السبب الرئيسي في اتجاه طه حسين الجديد ، هو ارتباطه الوثيق بالحياة العامة ، فقد كان معلما صاحب تلاميذ ... كان أستاذا في الجامعة يناقش تلاميذه ويرتبط من خلال احتكاكه معهم بالواقع الخارجي ، وقد دخل طه حسين في الجامعة معارك عديدة ، كانت كلها ضد الرجعيين والفكر الرجعي ، مثل المعركة التي دخلها من اجل السماح للمرأة بالتعليم الجامعي ، ومثل معركته من اجل حرية

البحث والدراسة في الجامعة ... تلك المعركة التي أثارها سنة ١٩٢٦ بكتابه «في الشعر الجاهلي» . ومن خلال هذه المعارك اقترب طه حسين يوما بعد يوم من المطالب الشعبية الصحيحة ، حتى انتهى به الامر الى ان ينفصل عن حزب الاحرار الدستوريين الذي ارتبط به في البداية ، ومنذ ذلك الحين وطه حسين يقف في جانب الدعوات التقدمية المختلفة التي ظهرت في بلادنا ، منذ ١٩٣٦ حتى قيام ثورة ١٩٥٢ وقد أصدر بعض الكتب التي دعا فيها دعوة صريحة واضحة الى العدالة الاجتماعية ، مثل كتابه «المعذبون في الارض» وقد صودر هذا الكتاب قبل الثورة .

اما العقاد فقد ظل يبتعد منذ ١٩٣٧ عن المعركة الاجتماعية التي بدأت تتضح في بلادنا والتي نشبت بين الطبقات الشعبية من جانب وبين الاقطاعيين والراسماليين وحلفائهم من جانب آخر ، بل لقد ابتعد العقاد ايضا عن المعركة الوطنية التي اشترك فيها وعاش معها في عز ايامها واكثرها صعوبة وعنف من ١٩١٩ الى ١٩٣٦ .

هناك عامل آخر على جانب كبير من الاهمية ، غير العوامل السابقة ، كان له تأثيره في تحول العقاد من اليسار الى اليمين في الحركة الوطنية . هذا العامل الجديد هو ظهور المعركة العالمية بين الديمقراطية الغربية من جانب وبين النازية والفاشية من جانب آخر . لقد بدأت هذه المعركة في السنوات التي تلت ١٩٣٦ مباشرة ، وبلغت قممتها باشتعال الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ . لقد كان هذا الصراع عاملا من العوامل التي جعلت العقاد يغير نظره الى الانجليز الذين كانوا يقودون الحلفاء في معركتهم ضد النازية . لقد اصبح العقاد عدو الانجليز بالامس مؤيدا لقضية الانجليز على المستوى العالمي ، وكان في تأييده لهذه القضية مؤيدا في الحقيقة للديمقراطية الغربية ولقيمها السياسية والفكرية . ودخل العقاد المعركة بكل عنفه وقوته ، وألف كتابا عن «هتلر» أصدره سنة ١٩٤٠ ، اي بعد قيام الحرب العالمية بسنة واحدة وفي الوقت الذي كان هتلر يسجل فيه أهم انتصاراته العسكرية ، وكان الكتاب هجوما قاسيا من جانب العقاد ضد هتلر ، وكان في نفس الوقت دفاعا حارا عن الديمقراطية الغربية وقيامها . ولقد كان العقاد أبرز أعداء النازية من رجال الفكر العربي اثناء الحرب العالمية ، حتى انه اضطر للهروب من مصر الى السودان اثناء معركة العلمين ، لان الالمان كانوا على ابواب مصر ، ولو دخلوا مصر في ذلك الحين لكان العقاد - على الاغلب - قد حكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم ، فتلك عادة النازيين مع أعدائهم البارزين في اي بلد يدخلونه . ولقد اعتمدت الدعاية الانجليزية ضد الالمان في

الوطن العربي كله اعتمادا أساسيا على كتاب العقاد ووزعت منه السفارة الانجليزية آلاف النسخ في مختلف البلاد العربية ، وقد قيل الكثير ضد العقاد بسبب هذا الكتاب ، وحاول البعض ان يجد في هذا الكتاب دليلا على ان العقاد كان عميلا للانجليز ، ولكن النظرة المنصفة تؤكد ان العقاد كان في غاية الاخلاص لافكاره وثقافته عندما أصدر هذا الكتاب ، ولم يصدره بدافع الرغبة في الكسب او الرغبة في الاستفادة من الانجليز بقدر ما أصدره تعبيرا عن آرائه الحقيقية ، التي ظل يدافع عنها باستمرار . لقد كان يؤمن حقا بأن الديمقراطية الغربية هي المثل الاعلى للحضارة الصحيحة ، حتى عندما كان يقف في مقدمة الصفوف في الثورة الوطنية ضد الاحتلال الانجليزي فانه كان يدافع بالدرجة الاولى عن الدستور والبرلمان ، والحريات التي تحميها الديمقراطية الغربية ، مثل حرية الرأي والتعبير وما الى ذلك من قيم الديمقراطية الغربية ، اي انه كان يحارب انجلترا من اجل ان يأخذ بأساليبها في حياتنا السياسية ، ولم يكن يحارب انجلترا وفي ذهنه مثلا ان يطالب باعادة تنظيم الاقتصاد المصري ، واعادة توزيع الثروة في مصر . . . لم يكن يحارب انجلترا وفي ذهنه قيم مختلفة غير قيم الديمقراطية الغربية التي تمثلها انجلترا خير تمثيل بكل ما في هذه الديمقراطية من خير وشر ، ولذلك كتب في مقال له في عدد خاص أصدرته مجلة الهلال عن الانكليز اثناء الحرب العالمية الثانية يقول : «ان الانجليز هم الحلفاء الطبيعيون للمصريين» .

ولا شك انه كان يعني بذلك ان القيم التي يجب ان يستند عليها التقدم السياسي في مصر هي قيم المجتمع الانجليزي ، ولذلك كانت انجلترا في نظره ، «حليفة طبيعية لمصر» . وقد قادته المعركة بين الديمقراطية الغربية والنازية الى الوقوف المتحمس المخلص في صف الديمقراطية الغربية . . . وأدى به هذا الموقف الى مهادنة الانجليز الى اقصى حد . ان القيم الجوهرية في الديمقراطية الغربية مهددة الان بأن تقتلعها النازية من جذورها ، ولذلك نسي العقاد معركة الانجليز مع مصر ، ووقف مع انجلترا ، زعيمة الديمقراطية الغربية ، في معركتها ضد النازية . ولا شك ان هذا الموقف رغم انه موقف صائب في جوهره ، حيث كانت النازية خطرا على تقدم جميع الشعوب ، . . . ومع ذلك فان الحرب ضد النازية لم تكن تزيد اهمية عسكرة الحرب ضد الاستعمار الانجليزي ولكن العقاد نسي المعركة ضد الانجليز ، في حرارة صراعه ضد النازية ودفاعه عن الديمقراطية الغربية . ومنذ ذلك الحين خفت صوت العقاد في حملته على الانجليز ، بعد ان خفت صوته

من قبل في حملته على السراي ، منذ ارتبط بالسعديين وحكوماتهم
الرجعية المختلفة .

ولكن من العجب ان تكون فترة «الانتكاسة» في علاقة العقاد بالثورة
الوطنية هي في نفس الوقت فترة من ازهى فترات الانتاج الفكري عند
العقاد ... لقد أصدر في هذه المرحلة النسبة الكبرى من مؤلفاته ، وكان
أبرز هذه المؤلفات سلسلة العبقريات المعروفة ، وسبب ذلك ولا
شك هو أن العقاد قد حصل في هذه الفترة على نوع من الرعاية الكاملة
التي أبعدته عن المشاكل الشخصية والهموم الخاصة ، وأبعدته عن الحياة
السياسية اليومية، فلم يضطر الى ترشيح نفسه ليكون عضوا في البرلمان،
انه الان يدخل مجلس الشيوخ بالتعيين ، وقد أصبح أيضا غير خاضع لرقابة
الحزب الذي ينتسب اليه ، فلقد كان هذا الحزب يفخر بانتساب العقاد
اليه وتأييده له، وكان هذا الحزب لا يطلب من العقاد أكثر من ان يكتب في
صحفه وان يكتب ما يشاء ، فالعقاد عبقرية فكرية تضيف على الحزب قيمة،
وتجعل له وزنا وتأثيرا حتى عند أعدائه ، وقد وفر له الحزب بعض
الامتيازات المادية ، غير تعيينه في مجلس الشيوخ ، فقد قرر عددا كبيرا
من كتبه على تلاميذ المدارس ، فتم بذلك طبع آلاف النسخ من هذه الكتب،
ولا شك ان كتب العقاد - من حيث قيمتها الفكرية - كانت تستحق
الرعاية الى أقصى حد ، وان كان هذا الحزب الذي ساعد في نشر كتب
العقاد وتوزيعها على هذا النطاق الواسع ، لم يكن يفكر الا في ان العقاد
كان ينتسب اليه ويرتبط به أكثر مما كان يفكر في قيمة كتبه وأهميتها.
لقد أتيح للعقاد خلال انتكاسة علاقته بالثورة الوطنية ، ما يشبه التفرغ
للانتاج الفكري والأدبي ، ولذلك عمل هذا الكاتب ذو الإرادة القوية العنيدة
باجتهاد لا حد له ... وأصدر عشرات الكتب الهامة في هذه الفترة ، بل
يمكننا ان نقول ان فترة الانتكاسة في علاقة العقاد بالثورة الوطنية جعلت
منه مفكرا وكاتبا بالدرجة الاولى ، أما السياسة ، فقد أصبح وجوده في
ميدانها وجودا «شرفيا» لا يقتضي ما كان يقتضيه ارتباطه بالوفد والثورة
الوطنية في مرحلتها الاولى من جهود ضخمة أساسية ، حيث كان يشترك
في العمل السياسي اشتراكا فعليا مباشرا ، لذلك لم يفقده ارتباطه
بالرجعية السياسية قيمته كمفكر عميق مستنير واسع الثقافة ، لانه
استفاد من هذا الارتباط في التفرغ لانتاجه وإجادة هذا الانتاج الى ابعد
مدى ، وهكذا كان لفترة الانتكاسة هذه فضيلتها الكبرى في حياة العقاد
الفكرية ، رغم انها أبعدته عن التأثير السياسي المباشر ، وعن الارتباط
العميق بالحركة الوطنية في اتجاهها الشعبي التقدمي الصحيح .

العقاد واليسار

كان من أهم الظواهر في حياة العقاد السياسية في الفترة التي انتكست فيها علاقته بالثورة الوطنية وهي الفترة التي تبدأ منذ سنة ١٩٣٧ وما بعدها . . . كان من أهم الظواهر في هذه الفترة ظاهرة الصراع الدائم بين العقاد والفكر اليساري . . . لقد خاض العقاد هذه المعركة بعنف وقسوة ، حتى آخر لحظة في حياته . ولا بد أن تكون هذه الظاهرة موضع بحث ودراسة وتفسير . فالعقاد لم يكن كاتباً تافه الشأن ، بحيث يمكن أن نكتفي بأن نقول عنه أنه كان رجعيًا وننتهي من الأمر . على العكس ، لقد كان العقاد كاتباً مثقفاً موسوعياً عظيم الخطر ، وقد ظل حتى وفاته في أوائل ١٩٦٤ صاحب نفوذ واسع على جماهير القراء العرب .

لذلك لم يكن اصطدام العقاد بالفكر اليساري مسألة فردية محدودة ، فالعقاد في نهاية الأمر كان ممثلاً لتيار فكري كامل يجب فهمه ومعرفة على حقيقته .

والاختلاف الأساسي بين العقاد وبين الفكر اليساري كله ، ينبع من فهم العقاد لدور الفرد في الحياة ، فالعقاد يرى أن الفرد هو الأساس في تطور التاريخ والمجتمع ، وأن العبقرية الفردية هي القوى التي تدفع الحياة إلى الأمام . وهذه النظرة إلى التطور تقف على النقيض من النظرة اليسارية ، حيث يقيم الفكر اليساري بمختلف مدارس ، وزناً كبيراً للظروف الخارجية المحيطة بالفرد .

ومهما كانت قيمة العبقرية الفردية ، فإن هذه العبقرية لا تستطيع أن تحرك التاريخ إلا إذا كانت هناك ظروف ملائمة لهذه الحركة ، كما أن العبقرية لا تستطيع أن يخلق شيئاً من العدم ، بل تكمن عبقريته في أنه يفهم الظروف الموضوعية ويستغلها الاستغلال الصحيح . هنا يكون ميدان

التجديد والابتكار واسعا امام العبقريّة الفرديّة في نظر الفكر اليساري .
فلا يوجد مفكر يساري يستطيع مثلا ان يقبل تلك الاحكام التاريخيّة الشائعة
مثل القول «بأن أنف كليوباترا قد غير التاريخ» أو ان تاريخ فرنسا في القرن
الماضي كان يمكن ان يتغير تماما لو ان نابليون كان قد مات في إحدى معاركه
قبل ان يصبح امبراطورا على فرنسا . ان مثل هذه المصادفات قد يكون
لها تأثير على شكل الاحداث التاريخيّة اما حركة التاريخ الاساسيّة فلا بد
ان تمضي في طريقها ، سواء كان أنف كليوباترا ساحرا او غير ساحر ،
وسواء مات نابليون قبل ان يصبح امبراطورا او عاش كما حدث بالفعل .
قد تتعدل الاحداث قليلا في حركة التاريخ او تتأجل . . . ولكن الصورة
الجوهريّة تبقى في نهاية الامر كما هي . والعقاد بالطبع ليس من انصار
المدرسة التي تؤمن بتأثير «أنف كليوباترا» في التاريخ . . . فهذه المدرسة
ولا شك مدرسة تبسيطية ، تميل الى النظرة السهلة للامور ، وتقيم
للمصادفات الصغيرة وزنا كبيرا ، ولكن العقاد يشترك مع اصحاب هذه
المدرسة في الايمان بأن العنصر الفردي له اثره الحاسم الاكبر في حركة
التاريخ ، ولكنه يبحث عن هذا العنصر الفردي في ارقى صورة وأعمقها
وأكثرها اصالة وعظمة ، ألا وهي صورة العبقريّة الانسانيّة ، حيث تبلغ
قدرة العبقري في رأي العقاد حدا يمكنه من ان يكون مركزا لحركة التاريخ
في مرحلة من المراحل .

وقبل ان نتحدث عن منابع فكرة العقاد عن الفرد ، نود ان نقف لحظة
عند بعض الأدلة التي تؤكد بوضوح مكان الفرد في فلسفة العقاد .
وأول ما نلاحظه في كتابات العقاد عموما ، وخاصة بعد سنة ١٩٣٧
هو ان معظم هذه الكتابات تدور حول الفرد والعبقريّة الفرديّة ، فهو عندما
اراد ان يكتب عن الاسلام والثورة الاسلاميّة وجد التجسيد الحيّ لهما في
الافراد ، فكتب عن «عبقريّة محمد» ، ولم يكتب عن «عبقريّة الاسلام» ، او
«عبقريّة العرب» ، ثم كتب بعد ذلك عن عبقرية ابي بكر وعمر وعلي وخالد
وغيرهم من رجال الثورة الاسلاميّة . والعقاد في كتاباته عن الاسلام عموما
لم يلتفت كثيرا الى تلك القوى التي انبعثت من الصحراء العربيّة فسي
ظروف قاسية عنيفة ، لتحقيق انتصارات حضاريّة ضخمة ، على مدى
قرون طويلة في أجزاء واسعة من العالم ، واقصد بهذه القوة ، قسوة
الجماهير العربيّة المؤمنة بالدين الجديد ، والتي استجابت لمبادئ الثورة
الاسلاميّة ، ثم انتقلت في موجة هائلة لتحقيق انتصاراتها الكبيرة العظيمة ،
ان هذه العبقريّة في الجماهير لم تلفت نظر العقاد ، فلم يحاول ان يقترب

منها ويفسرها ويعني بها عنايته بالعقريات الفردية في الاسلام .
وفي كتابة العقاد عن الاسلام ، كان كثيرا ما يتجنب الشخصيات التي
التقت في عصر واحد مع ازمان عامة عنيفة . فقد تجنب العقاد ان يكتب
عن عثمان بن عفان لمدة طويلة جدا ، ثم اصدر عنه كتابا صغيرا في المرحلة
الاخيرة من انتاجه ، وعندما نطالع هذا الكتاب نشعر بوضوح انه اقل بكثير
من الكتب الاخرى ، التي كتبها العقاد عن عقريات اسلامية استطاعت
ان تسيطر على أحداث عصرها ، مثل شخصية « عمر » ، او عقريات
كان لها من الاحداث موقف عنيف واضح مثل الحسين ، الذي كان يمثل
نموذجا عاليا من نماذج الاستشهاد في سبيل المبدأ . ولا شك ان سبب
ابتعاد العقاد عن شخصية عثمان بن عفان لفترة طويلة ، هو ان النظرة
الاولى الى هذه الشخصية تؤكد ضرورة البحث في تكوين المجتمعات
الاسلامية في عصر عثمان ، فقد سيطرت الازمة في هذه المجتمعات على كل
شيء ، بحيث يصبح من المستحيل دراسة عثمان بدون دراسة التحولات
التي طرأت على الجماهير المختلفة ، في المجتمعات الاسلامية ، وهنا لم
يجد العقاد فرصة لتطبيق منهجه في دراسة العبقريّة الفردية والتفني بها ،
فظل يؤجل دراسته عن «عثمان» حتى كتبها في آخر الامر كنوع من الحرص
على اكمال سلسلة العقريات الاسلامية ، وجاءت هذه الدراسة اضعف ما
كتبه العقاد في سلسلة العقريات . ونستطرد هنا قليلا فنقول : ان «عثمان
ابن عفان» بالذات كان موضوعا لاحسن الدراسات الاسلامية التي كتبها
الدكتور طه حسين ، وذلك في الجزء الاول من كتابه «الفتنة الكبرى»
والسبب في هذا الاختلاف بين ما كتبه العقاد عن عثمان ، وما كتبه عنه
طه حسين هو اختلاف المنهج بين الكاتبين : فقد استطاع طه حسين ان
يطور منهجه في فهم التاريخ ، وذلك لاهتمامه بادراك العوامل الاجتماعية
في تكوين الاحداث التاريخية ، مما ساعده على فهم الازمة التي نشأت في
المجتمعات الاسلامية في عصر عثمان ، بينما بقي العقاد على منهجه ...
حيث ينظر الى التاريخ من زاوية العبقريّة الفردية اولا وقبل كل شيء .
وعندما اراد العقاد ان يكتب عن ثورة ١٩١٩ ، التي شارك فيها مشاركة
ايجابية وكان كاتبها الاول ، وجد ان هذه الثورة انما تتجسد في شخص
سعد زغلول ، فكتب عنه كتابا رائعا في غاية الشمول والعمق ، وفي هذا
الكتاب كان اللحن الاساسي الذي هز قلب العقاد هو «عبقريّة سعد» اما
الحن الثانوي فهو عبقريّة ثورة ١٩١٩ ، وعبقريّة الجماهير التي قامت
بهذه الثورة .

صحيح ان العقاد بدأ كتابه بفصل هام عن شعب مصر بعنوان «الطبيعة المصرية في أوهام الناس» والفصل الثاني من الكتاب هو «الطبيعة المصرية في حقيقتها» ، ثم انتهى العقاد من هذا الحديث الى القول بأن سعد زغلول كان «نموذجا للمصري القوي بلا استثناء خصلة من الخصال ولا خلة من الخلال ولا عمل من الاعمال . فهو في خلائقه العملية وفكاهته وكراهيته للفيلة ، وإيمانه بالغيب مصري فلاح من طينة المصريين الفلاحين : طبيعته هي طبيعة الفلاح في صورة واسعة وإطار كبير ، وطبيعة الفلاح هي طبيعة سعد في صورة ضيقة وإطار صغير او منحرف بعض الانحراف ، ولكنهما على نموذج واحد في الوضع والصناعة» ...

صحيح ان العقاد قد كتب هذا كله فسي كتابه الكبير عن سعد زغلول ، ولكن الموقف الاساسي مع ذلك - على طول صفحات الكتاب - هو موقف الذي يدرس عبقرية سعد زغلول - اولاً ، وهو اذا عاد الى مصر فانما يعود اليها لتفسير العبقرية «الزغلولية» - اذا صح التعبير - وما الحديث عن مصر الا مجموعة من اللوحات المتفرقة مهما بلغت من ذكائها فانها لا تغير من موقف العقاد الاساسي في شيء ... انه معجب بسعد مفتون به كل الفتنة ينظر من خلاله الى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ . وينظر من خلاله الى نفسية الشعب المصري وطبيعته الخاصة ، وعندما تنتهي من قراءة هذا الكتاب تحس ان العقاد قد بنى في كتابه هرما عظيما هو شخصية سعد ... وكل شيء بعد ذلك يعيش في ظلال هذا الهرم الاعظم وفي حماه ... كل شيء حتى ثورة ١٩١٩ ، وحتى شعب مصر ونضاله الطويل ... ولم يقل العقاد في كتابه .. انه لولا سعد زغلول لما قامت ثورة ١٩١٩ ، ولكنك مع ذلك تحس هذا المعنى كامنا في أعماق هذا الكتاب الهام .

وهذه النغمة في تفسير العقاد لثورة ١٩١٩ ، هي نغمة العقاد الخاصة بين كتابنا وأدبائنا الذين تحدثوا عن هذه الثورة ، فمعظم هؤلاء الادباء كانوا يتحدثون عن الثورة بنغمة أخرى مختلفة ، فتوفيق الحكيم على سبيل المثال عندما تحدث عن ثورة ١٩١٩ في «عودة الروح» كان يعزف على لحسن العبقرية الشعبية ، وكان يؤكد ان هذا الشعب بجماهيره البسيطة ، يستطيع ان يفعل الكثير ، وكان الحكيم يهيء نفوسنا دائما - خلال صفحات روايته - للايمان بمعنى واحد محدد هو ان الشعب ينتظر قائده الذي يخرج من بين صفوفه ، ليقوده الى التجارب العظيمة ، فالقائد بالنسبة لحركة الشعب اشبه بالراية التي يحملها الشعب ، او بالشعار الواحد الذي يلتف حوله

الشعب ، ان القائد لا يخلق الثورة من العدم وانما يخلقها الشعب ثم يقودها الزعيم ، كما يفعل المايسترو مع الفرقة الموسيقية .

نفس هذا الموقف نجده في ثلاثية نجيب محفوظ ، الذي يعتبر ابنا للجيل التالي لجيل العقاد ، فالنغمة الرئيسية في هذه الثلاثية هي ان ثورة ١٩١٩ ، انما كانت من عمل الجميع ، وان الجميع قد اشتركوا بصور مختلفة ودرجات متفاوتة في هذه الثورة ... اي ان العبقريّة الشعبية هي في النهاية صانعة الثورة .

وفي كتابات العقاد نماذج أخرى متعددة لهذا الموقف الفلسفي ، وهو الموقف الذي يؤمن اكبر الايمان بالعبقرية الفردية ، ثم يضع العبقريّة العامة بعد ذلك في الدرجة الثانية من الاهمية .

ففي مقال للعقاد عن الملك «ديموس» يحدثنا العقاد عن رايه فسي الجماهير ، و«ديموس» كلمة يونانية معناها الشعب، ومن هذه الكلمة اشتق اليونان كلمة ديمقراطية التي بقيت الى اليوم ، تدل على معنى اساسي هو: حكم الشعب ، وانقل هنا فقرة لها دلالتها من هذا المقال الذي كتبه العقاد سنة ١٩٣٤ ... يقول العقاد :

«ان الامر يا صاحبي للملك ديموس الاول والاخير ، لا لي ولا لك ، في الآداب والفنون ، وهل تدري ما هو هذا الملك ديموس ؟ ... الملك ديموس هذا ، هو مستبد قاهر ، يدعون اليه كثيرا ، ولكنه بعد كل ما يقال في مدح لسياسته ، وثناء على حكومته عتل أحقق ، مأفون الرأي ، بليد الطبع ، قدر العينين والاظافر ، قد يستحق الصفع أحيانا ، ولكنه لا يجد الكف الغليظة التي تملأ له خده العريض الطويل ، فلذلك لا يصفعه احد ، او هم يصفعونه بكف غير الكف التي تصلح له ، فيعتبر الصفع مزاجا وشيقا ، وتربيتا رقيقا . الملك ديموس لا يحب الوعاظ والانبياء ، ولا يالف الفلاسفة والعلماء ، ولكنه يحب المهرجين والسخفاء ، ويألف المتزلفين والادعياء ، وفي عهد حكمه السعيد ، كثر هؤلاء الندماء الامائل وانتشروا، وظهرت البركة في صفوفهم ، فامتلا بها بلاطه العامر ، وانفسح لهم عقله الضيق ، وما اوسع العقول الضيقة لصفوف الجهالة والحماسة وما احفلها بدروب السماجة والصفافة ... الا فليحيا الملك ديموس اذن ... ولا فليستقط فانه لا يستطيع السقوط » .

هذه هي نظرة العقاد الى الجماهير او الى الشعب ، وهي نظرة منطقية . مع فكر لا يؤمن الا بالعبقرية الفردية ، والجماهير في نظر العقاد لا تصفي بما فيه الكفاية الى العباقرة ، الى الافراد الممتازين البارزين ، بينما يجد

المهرجون والادعياء مكانهم وسط الجماهير .
ان العقاد هنا ثائر من اجل حماية الفرد الممتاز من طغيان الافراد
العاديين .

وكان من الطبيعي ان تنعكس هذه النظرة الى الحياة والتاريخ عند
العقاد على نظراته الى الادب ، فنحن نجده يفسر الشعر الجيد ، بأنه الشعر
الذي يدل على شخصية خاصة متميزة ، لا تختلط بغيرها من الشخصيات
ولا تتساوى معها .

فهو ينقد أحمد شوقي نقدا عنيفا ، ويبرر هذا النقد بقوله في كتابه
« شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » :

« ان شعر شوقي ليس بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس الخاصة
ان اردنا ان نضيّق معنى الامتياز . وليس هو من اجل ذلك بالشعر الذي
هو رسالة حياة ، ونموذج من نماذج الطبيعة ، والفرق بينه وبين شعر
« الشخصية » ان الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هي ، لا كما تثقلها
بالسمع والمجاورة من افواه الآخرين . وهذه هي الطبيعة وعليها زيادة
جديدة ، تطلبها ابدا لان الحياة والفن على حد سواء « موكلان » بطلب الفرد
الجديد او النموذج الحادث ، او « موكلان » بطلب « الخصوص » والامتياز
لتعميمه وتثبيته ، والوصول منه الى خصوصي بعبد خصوصي ، او
امتياز بعد امتياز ، وأقرب ما نمثل به لذلك زارع يستنبت صنوف الثمار ،
لينتقي منها المميز في صفة من الصفات المطلوبة ، فاذا عثر بالثمرة الواحدة
التي وصل فيها الى غرضه قومها وحدها بعشرات الافدنة من الثمرات
الشائعة عند غيره ، لانه بهذه الثمرة الواحدة يستأثر بالطلب والاقبال ويعفي
على ثمرات الشيوخ والعموم ، وهكذا الشخصية الممتازة في عالم الحياة
عامة : هي عندنا وعند الحياة التي أنشأتها اقوم من جميع المتشابهات
الشائعات » .

هذا هو جوهر نظرة العقاد الى الشعر ، وهو الفن الرئيس الذي بذل
العقاد في ميدانه أهم جهوده النقدية . ان نظراته هنا تدل بصورة واضحة
على ان الشعر الجيد - في رأيه - هو الذي يبرز الخصائص الفردية ، دون
اشارة الى اي نوع من الصلة بين العبقرية الفنية والواقع الذي تعيش فيه
هذه العبقرية ، بل تكاد كلمات العقاد تنادي بأن العبقرية الفنية ، تزاد
قيمتها كلما ازدادت « غريبتها » عن الناس ، واختلافها اختلافا كاملا عنهم .
ونحن نجد في هذه الكلمات روحا من ثقافة القرن التاسع عشر في انجلترا ،
وهي الثقافة التي سوف نتحدث عن تأثيرها الخطير على العقاد ، بعد قليل ،

فهذه الكلمات هي ، الى حد كبير ، ترجمة ادبية للتعبيرات التي شاعت عن «داروين» ونظريته في نشأة الحياة وتطورها . فالعقاد يكاد يقول ان البقاء للاقوى في ميدان الشعر ، وان هناك نوعا من الانتخاب الطبيعي ، يبقى اصلح العناصر ، ويقضي على العناصر الضعيفة ... ومثل هذه الافكار تساعد العقاد على تأييد نزعتيه ، نحو الايمان بالعبقريّة الفردية كأساس للتطور في الفن والحياة ، والاعتراض على مثل هذه النظرة كبر ، فاذا سلمنا ان العبقريّة الفردية في ميدان الفن ، هي التي تستطيع ان تبقى وتعيش ، بينما يتلاشى اصحاب المواهب العادية ، فان هناك سؤالا آخر لم يفكر فيه العقاد ، ذلك السؤال هو :

ماذا تمثل العبقريّة الفردية في ميدان الفن ؟ هل تمثل نفسها فقط ، ام انها في الحقيقة تمثل عصرها ومجتمعها من خلال شخصيتها الذاتية ؟ كل عبقريّة فنية انما تجسد بالتأكيد بعض خصائص عصرها ومجتمعها ، حتى لو لم يكن ذلك واضحا امام النظرة الاولى السريعة . ولكن العقاد فيما يبدو لا يعترف بهذا المعنى الكامن في كل عبقريّة فردية . بل ان الذي يلفت نظره هو - بالدرجة الاولى - مدى تميز العبقريّة الفردية عن الآخرين ، وتفوقها عليهم واستقلالها عنهم .

ان من الممكن ان ندين شوقي بأنه لم يستطع ان يفهم روح عصره او يعبر عنها اذا صح لدينا هذا العيب في شعر شوقي ، ولكن العقاد يكاد ان يلوم شوقي على العكس ، فلو تتبعنا رأي العقاد بدقة فاننا نشعر انه يأخذ على شوقي تشابه مشاعره واحساسه بالحياة مع الآخرين من ابناء عصره . كل هذه النماذج المختلفة من آراء العقاد تكفي لاثبات المكانة الاساسية التي يحتلها الفرد في فلسفة العقاد ، سواء كان ذلك في ميدان التاريخ والمجتمع ، او كان في ميدان الادب والفن .

علينا بعد ذلك ان نبحث عن منابع هذا الموقف في شخصية العقاد وثقافته .

كيف نشأ عند العقاد هذا الايمان الذي لا يتزعزع ، بأن حركة الحياة انما تعتمد اساسا على الفرد الممتاز ، وأن التطور في المجتمع انما يتفجر من بين اصابع العباقره ؟

ان اول منبع لهذه الفكرة عند العقاد يبدو بوضوح في تجربة العقاد الشخصية الخاصة في الحياة . لقد نشأ العقاد في أسرة فقيرة ، وتعرض لالوان عديدة من المتاعب والمصاعب ، في سبيل الوصول الى القمة الفكرية التي وصل اليها بالفعل .

لقد كافح الفقر والمرض والتقاليد الاجتماعية ، ونجح في كفاحه ، وكان سلاحه في هذا الكفاح الطويل هو نبوغه وامتيازه . ولم تنح له الظروف الصعبة ان يتم تعليمه ، فوقف عند حدود الشهادة الابتدائية .

ومع ذلك كله فقد وصل في الميدان العلمي الى مستوى يفوق مستوى الكثيرين ممن درسوا في اكبر الجامعات الاجنبية . وقد اكتسب العقاد من تجربته الخاصة اعتزازا لا حد له بنفسه ، واحساسا بأن الحياة لا تدين الا للناخبين ، والعقاد كثيرا ما يؤكد هذا المعنى في احاديثه وكتاباتاته ، وقد دفعه هذا المعنى نفسه - ولا شك - الى ان يسعى دائما للحياة في عالم العباقرة ، حتى لو كان هذا العالم من صنع الوهم والخيال ، حيث يجد العقاد بينه وبين هؤلاء العباقرة عاطفة حقيقية ، وحيث يساعده هؤلاء العباقرة على تأكيد ذاته ، وتبرير فكرته الرئيسية عن دور العبقرية الفردية في حركة التاريخ .

والعقاد في ايمانه بنفسه واعتداده بعبقريته ، لم يستطع ان يكتشف حقيقة هامة كانت سرا رئيسيا من اسرار نجاحه . هذه الحقيقة هي ان نجاحه لم يكن مردودا الى عبقريته الخاصة فقط بل كان مردودا بدرجة كبيرة الى ان هذه العبقرية قد استجابت لحاجات رئيسية في جماهير القراء . فمنا بدايات القرن التاسع عشر ، حتى اوائل هذا القرن حيث بدأ العقاد يكتب ويتصل بالجمهور ، كانت مصر تنهيا يوما بعد يوم للخروج من عزلتها الحضارية ، في احضان سلاطين الممالك ، الى نور العصر الحديث الذي بدأ يسطع في اوربا ، وقد تم بذل جهود ضخمة في سبيل تهيئة المجتمع في مصر لتقبل اساليب الحضارة الاوربية ، في الفكر والحياة ... اشتركت الحملة الفرنسية في بدر بدور هذه العملية الحضارية الكبيرة ، ثم اشترك بعد ذلك في هذا المجال العلماء والزملاء المختلفون خلال القرن التاسع عشر من امثال : رفاعة الطهطاوي الذي فتح مدارس متعددة ، ووضع مناهج علمية على الطريقة الاوربية ، ومن امثال احمد عرابي ، من الذين طالبوا على اوسع نطاق بخلق مجتمع ديمقراطي عصري في مصر ، ثم من امثال جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده من الذين طالبوا بتجديد الفكر الديني ، حتى يتلاءم مع الحضارة العصرية .

كل هذه الجهود انتهت بتهيئة الجو في مصر لظهور كتاب ومفكرين من امثال العقاد : يتمتعون بثقافة غربية واسعة ، ويطبقون مناهج هذه الثقافة على دراساتهم المختلفة ، بما فيها دراساتهم عن الحضارة العربية الاسلامية . لقد كان الجمهور في مصر في اوائل هذا القرن ، يشعر بحنين هائل الى

ان يفكر تفكيرا عصريا ، ويعيش حياة عصرية ، ولذلك استقبل هذا الجمهور جميع الكتاب الذين يستجيبون لهذا الحنين ويعبرون عنه استقبالا رائعا ، وتقبل ادبهم وانتاجهم الفكري ووضعهم بسرعة في مقدمة الصفوف ، ولم تكد ثورة ١٩١٩ تشتعل ، حتى كان العقاد وطه حسين والمازني وغيرهم من ابناء جيلهم في مقدمة الصفوف ، في الفكر العربي المصري ، واستفاد هؤلاء الكتاب - وعلى رأسهم العقاد - من الجمع بين المعرفة بالتراث العربي والاسلامي وبين المعرفة بالمناهج الاوربية الحديثة ، ولذلك كان تأثيرهم على الجمهور والرأي العام أقوى من تأثير كاتب تقدمي ممتاز مثل سلامة موسى ، ذلك لان سلامة موسى انفصل عن التراث العربي في معظم انتاجه ، فبدا صوته غريبا على الناس ، ولم يستطع ان يقتحم أسوار العقل العربي المصري بسهولة ، وعلى نطاق واسع ، بينما استطاع العقاد وأمثاله ان يخاطبوا الجمهور من خلال الموضوعات التي تهمة مثل الموضوعات الدينية ، ولكن بطريقة جديدة ، وأسلوب عصري ، ومنهج يعتمد على الثقافة الغربية . لقد كان سلامة موسى في ذلك الوقت أشبه بمفكر اجنبي يكتب بالعربية ، بينما كان العقاد وأمثاله مفكرين عربا يكتبون على ضوء مناهج اجنبية . وهكذا كان جانب هام من نجاح العقاد ، يرجع الى الواقع الخارجي ، وظروف هذا الواقع ، ولم يكن هذا النجاح راجعا الى مجرد عبقرية العقاد الخاصة . . . لقد لبي العقاد بعض الاحتياجات الفكرية الرئيسية في عصره ، وكانت كتاباته - في نهاية الامر - انعكاسا للظروف الموضوعية في هذا العصر . ولكن العقاد أغفل هذا الجانب ، بينما اهتم بتقدير جانب واحد هو جانب عبقريته الخاصة .

هذا العامل الذاتي في نظرة العقاد الى العبقرية الفردية في التاريخ ، وعدم انتباهه بصورة كافية الى دور الظروف الموضوعية ، ليس هو العامل الوحيد في تكوين نظرة العقاد الخاصة ، فهناك عاملان آخران يضافا الى هذا العامل الذاتي الخاص .

اما العامل الأول فهو نوع ثقافة العقاد الغربية . ان تتبع الدقيسق لكتابات العقاد يوضح لنا انه اعتمد في ثقافته على الفكر الانجليزي فسي القرن التاسع عشر . ونستطيع ان نقول بصورة عامة : ان العقل الانجليزي عموما عقل محافظ ، وان هذا العقل لا يميل كثيرا الى الثورة والتمرد ، بل هو يميل دائما الى المحافظة واحترام التقاليد ، ومعظم المفكرين الانجليز الذين يدعون الى التطور ، انما يدعون عادة الى ذلك النوع من التطور الهاديء الخالي من العنف ، اما المفكرون او الادباء الذين يشيرون على العقل

الانجليزي ، او الواقع الانجليزي فهم عادة يلقون مصيرا من اثنين : امـ الموت ، وإما الهروب من انجلترا ، وعبور المانش الى فرنسا او الى ايطاليا او الى اي مكان آخر في اوربا ، والمثل الذي يقدم لنا نموذجا للمفكر المتحر الذي أعدمته انجلترا هو «توماس مور» صاحب «اليوتوبيا» الشهير .

أما الذين هربوا من انجلترا ورفضوا جوها الهاديء الراكد فهم كثيرو جدا ، ويكفي ان نذكر من بين هؤلاء الشعاعين الكبيرين : بيرون وشيللي لقد كان هذان الشعاعان اللامعان يمثلان الثورة في صورتها الرومانسية خلال القرن الماضي ، ولم يطبقا البقاء في انجلترا ، فخرجا منها وماتـ غريبين عنها . احدهما وهو بيرون مات في اليونان ، اما الثاني وهو شيلم فقد مات في ايطاليا . ومنذ سنوات قليلة هرب الى فرنسا الكاتب المسرح الشاب جون أسبورن ، وكتب رسالته المشهورة بعنوان «عليك اللعنة يا انجلترا» وهاجم في هذه الرسالة المجتمع الانجليزي ، والعقل الانجليزي هجوما عنيفا قاسيا . ويمكن ان نتذكر في هذا الميدان الكاتب الكبير برنارد شو . لقد عاش شو في انجلترا رغم انه كاتب تقدمي اشتراكي يدع الى التغيير والثورة . وظاهرة برنارد شو لا تغير الحقيقة الاساسية ، وهم الطابع المحافظ للفكر الانجليزي والمجتمع ... فبرنارد شو ليس انجليز . ولكنه ايرلندي وقد ظل طيلة حياته لا يشعر ابدا بالانتماء الى المجتمع الانجليزي ، كما انه هاجم انجلترا في كثير من كتبه ومسرحياته ، وكار عاملا من اكبر عوامل الهدم للاستعمار الانجليزي .

وعلى العكس من الطابع المحافظ للفكر الانجليزي ، نجد الفكر الفرنسي فكرا حيا متجددا مليئا بالثورة . ولعلنا نذكر في هذا المجال الفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت الذي كان من كبار الفلاسفة الثائرين المتمردين والذي أصبح مذهبه في «الشك» معروفا للمتخصصين في دراسة الفلسفة بل معروفا لغير المتخصصين . و«الشك» هو بغير جدال عنصر اساسي من عناصر الفكر الثوري ، فالفكر الثوري يهدف الى تغيير الواقع ، ولا يمكن تغيير الواقع بدون الشك فيه ، وهذا كله بالطبع هو نوع من التبسيط الشديد لمنهج ديكارت ، ولكنه رغم ذلك يكشف لنا عما في هذا المنهج - منذ النظرة الاولى - من عناصر ثورية .

وقد امتلأت فرنسا في القرن الثامن عشر بالمفكرين الثوريين العظام . من أمثال : فولتير وروسو وديدرو . وقد عبأ هؤلاء المفكرون جميعا ، جو فرنسا خاصة وجو اوربا عامة بالافكار الثورية ، ومن الواضح انهم كانوا هم الذين مهدوا تمهيدا قويا لاول ثورة كبرى في تاريخ العالم الحديث :

وهي الثورة الفرنسية ، ولقد أصبح معروفا ان هذه الثورة قد قوضت
أركان العالم الاقطاعي القديم في اوربا ، وفتحت الطريق امام الطبقة
الجديدة او الطبقة الوسطى «البورجوازية»، وكانت هذه الثورة علامة من
علامات التحول الجذري في تاريخ الحضارة الانسانية كلها .

وليس هنا بالطبع مجال لتفسير الفروق الدقيقة بين العقل الانجليزي
والعقل الفرنسي ، ولماذا كان الاول عقلا محافظا في الغالب ، وكان الثاني
في الغالب ايضا عقلا ثوريا متحررا . فهناك عوامل كثيرة جدا أدت الى هذه
الظاهرة وهي عوامل تحتاج الى دراسة خاصة مستقلة .

ولكن المهم بالنسبة لموضوعنا هو ان العقاد ، قد استقى ثقافته
الاساسية من الفكر الانجليزي ، وخاصة فكر القرن التاسع عشر ، ولقد
أثر هذا الفكر على العقاد تأثيرا كبيرا . وظل حتى أواخر ايامه أسيرا لهذا
الفكر . وبإمكاننا في هذا الميدان ان نلاحظ تأثير «كارلايل» المفكر الانجليزي
الكبير على العقاد ، فكارلايل هو صاحب كتاب «الابطال» الشهير ، وتكاد
تكون فكرته عن التطور التاريخي قريبة جدا من فكرة العقاد . فكارلايل
يهتم اعظم الاهتمام بالعقريّة الفردية في تفسيره لحركة التاريخ ، بدلا من
اهتمامه بالعوامل الموضوعية التي تخرج على نطاق العقريّة الفردية ، وتؤثر
فيها ، ولا شك ان العقاد تأثر بهذا المنهج تأثيرا كبيرا ، انه لم يقلد كارلايل
تماما فللعقاد عبقريته الخاصة وأصالته واستقلاله ، ولكنه مع ذلك كان
يتحرك في نفس الدائرة الاساسية التي رسمها كارلايل في كتابه «الابطال» ،
ويمكننا ان نجمع عبقریات العقاد تحت عنوان واحد هو
«الابطال» ايضا دون ان يكون في ذلك اي خروج على طبيعة كتابات العقاد
بحال من الاحوال .

كذلك تأثر العقاد بالعلماء الانجليز ، وبخاصة دارون ، وفكرة
دارون عن الطبيعة تشبه الى حد كبير فكرة «العقريّة الفردية وتأثيرها في
التاريخ» فالكائنات الحية عند دارون تعيش وتتطور عن طريق أفضل
عناصرها وأرقاها ، بينما تنقرض العناصر الضعيفة وتزول ، اي ان الطبيعة
تستمر عن طريق «القوى العقريّة» التي تتصل بالتفوق والتميز على غيرها
من القوى الاخرى في الطبيعة . ولناخذ مثلا صغيرا ضربه العقاد نفسه ،
حيث يفسر لنا هذا المثال مذهب دارون ، فدارون - كما يقول العقاد -
«يفسر طول عنق الزرافة بالتفاوت بين الزرافات في طول العنق ، فما كان
منها طويل العنق أدرك الاوراق الطرية في ذؤابات الشجر فعاش وبقيت
ذريته ، وما كان منها قصير العنق فاته الطعام فانقرض ولم تبق له ذرية» .

هذا هو تقريبا المذهب الذي اخذ به العقاد في تفسير التاريخ عن طريق
العبقري المتفرد الممتاز .

ومذهب دارون ولا شك يصلح تماما لتفسير الكثير من الظواهر الطبيعية،
ولكن تطبيقه بصورة حرفية على المجتمع الانساني يؤدي الى اخطار كثيرة..
انه سيؤدي مثلا الى الاقتناع بأن الاقوياء سوف يبتلعون الضعفاء ، وان
تنافس البقاء هو القانون المطلق للمجتمع الانساني ، والصحيح ان تنافس
البقاء هو قانون المجتمع الرأسمالي فقط، اما المجتمع الاشتراكي فيقوم على
اساس آخر هو تعاون البقاء .

هكذا اكتسب العقاد من فكر القرن التاسع عشر في انجلترا، ما ساعده
على تأكيد ايمانه بالعبقرية الفردية . وما دعم ايضا نزعته الفكرية المحافظة،
ونستطيع ان نتذكر هنا زميلا للعقاد هو طه حسين . لقد استمد طه حسين
ثقافته الاساسية من الفكر الفرنسي . ولذلك كانت النزعات التحررية في
فكر طه حسين اكثر منها في فكر العقاد . ولقد اثار طه حسين في بداية
حياته الفكرية زوبعة واسعة في المجتمع العربي ، وذلك لانه حاول ان
يطبق مذهب ديكارت الفرنسي في «الشك» على تاريخ الادب العربي ،
وبذلك تخلص طه حسين من بعض الآثار الرئيسية للنزعة الفكرية المحافظة،
التي نجدها عند العقاد ، ولقد أدى هذا كله الى ان يشارك طه حسين في
كثير من المواقف التحررية التي وقف العقاد موقفا سلبيا من بعضها، ووقف
موقفا معاديا من بعضها الآخر ، فالعقاد لم يدع مثلا الى قضية مثل قضية
مجانبة التعليم التي دعا اليها وتبناها وكتب عنها طه حسين كثيرا ،
والعقاد لم يدع الى تحرير المرأة تحريرا حقيقيا عميقا ، بل كان يبرر
— بمنطقه الحاد القوي وثقافته الغزيرة — تدهور وضع المرأة في المجتمع ،
ويؤكد ان هذا التدهور ، الذي كان يسميه اختلافا بين الرجل والمرأة ،
انما هو من صنع الطبيعة نفسها وانه امر لا غبار عليه .

وهكذا كان موقف العقاد من المرأة موقفا قريبا جدا من
المواقف الرجعية . بينما كان طه حسين يحارب على الدوام ،
في سبيل تحرير المرأة بأوسع معنى من معاني التحرير .

بقي العامل الاخير في تكوين موقف العقاد من العبقرية الفردية
وتأثيرها في التاريخ ، هذا العامل هو ارتباط العقاد ارتباطا كبيرا
بالبورجوازية ، او الطبقة الوسطى المصرية في مرحلة نموها منذ بداية هذا
القرن . لقد بدأ العقاد الكتابة حوالي سنة ١٩٠٧ تقريبا ، وفي ذلك
الوقت كانت الطبقة الوسطى المصرية تحاول ان تنهض بنفسها ، وبالشعب

كله ، من مأساة الاحتلال البريطاني التي وقعت سنة ١٨٨٢ ، وأخذت الطبقة الوسطى المصرية تسترد أنفاسها ، بعد اليأس الشامل الذي أصاب المجتمع كله ، في أواخر القرن الماضي نتيجة لكارثة الاحتلال .

ومع الاقتراب من سنة ١٩١٩ كانت الطبقة الوسطى المصرية تزداد ثورية كل يوم ، حتى استطاعت هذه الطبقة ان تجمع نفسها ، وتقود الثورة المصرية ، التي اشترك فيها الشعب كله ، ولكن قيم الثورة الرئيسية ظلت هي قيم الطبقة الوسطى . . . لم تتبن الثورة مثلاً مشاكل الفلاحين والعمال ، وانما جعلت أهدافها الرئيسية هي التوسع في التعليم ، وتمصير الوظائف في مصر ، ومحاولة بناء اقتصاد مصري رأسمالي ، له بعض الاستقلال عن الاقتصاد الانجليزي . اي ان الطبقة الوسطى المصرية استفادت من ثورة ١٩١٩ في افساح المجال لنفسها حتى تعمل ، وتحتل بعض مراكز النفوذ الرئيسية في الدولة .

والطبقة الوسطى عادة - وفي كل المجتمعات - تميل الى مثل هذه الفكرة الرئيسية التي جسدها العقاد في كتابته ، وهي فكرة سيطرة العبقريّة الفردية على حركة التاريخ . ان الفرد بالنسبة للفكر الشائع بين الطبقة الوسطى ، هو اهم عنصر في تكوين المجتمع ، وهو اهم هدف بالنسبة للفكر الفلسفي الصادر من هذه الطبقة . وقد ارتبط العقاد بهذه الطبقة ارتباطاً كبيراً في مذهبها وثورتها ، ثم في جزرها وبداية انحسارها عن قيادة المجتمع ، وساعد هذا الارتباط بين العقاد وبين هذه الطبقة مع بقية العوامل الاخرى التي ساهمت في تكوين شخصية العقاد ، على ان يركز العقاد جهوده الفكرية في النظر الى التاريخ وتطوره من زاوية الفرد العبقري الممتاز .

ولقد وقفت الموجه الثورية سنة ١٩١٩ منذ البداية ضد البسود اليسارية التي اراد البعض ان يبلرها في المجتمع المصري . فقد ألف بعض الشبان بعد ثورة ١٩١٩ حزباً هو الحزب «الاشتراكي المصري» وكان من هؤلاء الشبان : سلامة موسى ومحمد عبد الله حنان وحسني العرابي وغيرهم . ولكن هذا الحزب حارب بشدة ولم ينجح ، لان الظروف لم تكن مهيأة على الاطلاق لنجاحه ، ولنسمع رأي شاهد من اهل العصر ، ومن الذين شاركوا في هذه التجربة الاشتراكية ، وهو سلامة موسى حيث يقول في كتابه «تربية سلامة موسى» عن هذا الحزب الاشتراكي الذي انشيء بعد ثورة ١٩١٩ :

«كان من المحال ان نفرض نجاح الدعوة الاشتراكية ، التي كان الانجليز والباشوات والاقطاعيون يتحدون لمقاومتها . . . ومنع ذلك انشأنا حزباً

اشتراكيا قتله سعد زغلول ، مع انه لو كان قد تركه لكان وسيلة الى الدراسات الاقتصادية التي تنحاز في اتجاهها نحو الطبقات الفقيرة فسي بلادنا ... ولكن سعد زغلول كان «باشا» وكان هذا التفكير أبعد ما يكون عن ذهنه » .

ورغم ما في كلام سلامة موسى من المبالغة ، وعدم الدقة في تحميل سعد زغلول وحده مسئولية فشل ذلك الحزب الاشتراكي المصري القديم ، فان كلام سلامة موسى يعطينا فكرة واضحة عن الواقع الفكري لثورة ١٩١٩ . فقد كان واقعا مستمدا بالدرجة الاولى من افكار الطبقة الوسطى ومصالحها ، ومن الاهداف الوطنية العامة مثل الاستقلال والجلء ، ولم يكن فكر ثورة ١٩١٩ مستمدا من مصالح الطبقات الشعبية من فلاحين وعمال .

في هذه البيئة الفكرية نشأ العقاد ، وساهم في صياغة افكار هذه المرحلة ، كما استمد منها الكثير من افكاره في نفس الوقت . ومن هنا كان العقاد مناصرا للثورة الوطنية ، ضد الاحتلال الاجنبي ... هذه الثورة التي قادتها الطبقة الوسطى المصرية ، ولكن عندما بدأت المطالب الاجتماعية لجماهير الشعب تظهر فبي ميدان الحركات السياسية المختلفة ، كان العقاد ما زال مقيما في مواقعه الفكرية الرئيسية ، كمفكر كبير من مفكري الطبقة الوسطى ، ومن هنا ظل متمسكا حتى النهاية بفكرته عن الدور الحاسم العظيم للعبقريية الفردية في التاريخ ، دون التفات الى الظروف الموضوعية التي تعيش فيها هذه العبقريات الفردية ، ودون التفات الى حركة الجماهير والشعوب التي تؤثر ولا شك تأثيرا هاما وقويا على حركة التاريخ .

ومن هنا كان الصدام الكبير بين العقاد واليسار ، فقد شن العقاد حملة عنيفة على شتى مدارس الفكر الاشتراكي في السياسة الدولية ، وشن حملة عنيفة أخرى على الدعوة الواقعية في الادب . ولسوف نكتشف كثيرا من مظاهر الصدام بين العقاد وبين الفكر اليساري ، خلال الفصول المختلفة لهذا الكتاب ، وقد ظل هذا الصدام بين العقاد واليسار مستمرا حتى وفاة العقاد سنة ١٩٦٤ . لقد كان العقاد محاميا عنيدا صلبا من اجل فكرته الجوهرية عن دور العبقريية الفردية في التاريخ . وقد التزم بهذه الفكرة دائما حتى في اللحظات التي كان عليه ان يمتد بنظرته الى حركة الجماهير الفقيرة ، والتي تسعى الى تحقيق آمالها في المساواة والعدل . ويمكن في النهاية ان تلخص الصدام بين العقاد واليسار في هذه

المواقف الرئيسية :

اولا - انه لم يتبن منذ ١٩٣٧ تقريبا حتى وفاته اي دعوة اجتماعية مثل مجانية التعليم ، او تحرير الاقتصاد الوطني ، او تحديد الملكية الزراعية ، او الاهتمام بقضايا الطبقات الشعبية المختلفة ، كما فعل طه حسين عندما نادى بمجانية التعليم ، وعندما دافع عن الطبقات الشعبية في عدد من كتبه واهمها «المعذبون في الارض» ، وكما فعل سلامة موسى عندما دعي الى تحرير الاقتصاد الوطني من سيطرة الرأسمالية المحلية ، والرأسمالية الاجنبية ، او مثلما فعل محمد مندور عندما نادى بالكثير من المبادئ الاشتراكية ، وخاصة في كتاباته في الاربعينات ومعظمها منشور في كتابه «كتابات لم تنشر» .

ثانيا - ارتبط العقاد بعد ١٩٣٧ بالحكومات الرجعية التي كان يساندها القصر او الاستعمار الانجليزي ارتباطا كاملا ، وكانت هذه الحكومات جميعا معادية لكل المطالب الشعبية ، في السياسة والمجتمع . وكانت موضعاً للنقد والاعتراض من جانب القوى الوطنية والتقدمية في مصر .
ثالثا - اصطدم العقاد بالدعوات التي نادت بالادب الواقعي ، وحاربها بعنف ، ووجه اليها اتهامات حادة قاسية ، ولم يكتف بشن حرب فكرية على اصحاب هذه الدعوات ، بل تجاوز الخلاف الفكري الى اتهام اصحاب هذه الدعوة في وطنيتهم ، والادعاء بأنهم عملاء لقوى اجنبية .
رابعا - وقف العقاد بعنف ضد حركات التجديد الادبية البارزة ، وعلى رأسها حركة الشعر الجديد .

خامسا - حارب العقاد الفكر الاشتراكي، تحت دعوى انه يحارب الفكر الماركسي . وكان باستطاعة العقاد ان يختلف مع الماركسية ، دون ان يدفعه ذلك الى رفض كافة مدارس الفكر الاشتراكي .
هذه هي المظاهر الرئيسية لمعركة العقاد ضد اليسار ، وهي المعركة التي خاضها بعد ان اصطدم بالوفد ، وابتعد عن موقعه القديم في ثورة ١٩١٩ ككاتب كان في مقدمة كتاب الثورة ، بل لقد كان أبرز كاتب شعبي ثائر منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٦ . . . على ان هذا الموقع الجديد للعقاد في حوض الرجعية السياسية ، لم يفقده مكانته العالية ككاتب مثقف مستنير ، وكواحد من أبرز الذين قدموا التراث العربي في الفكر والادب والدين في ضوء عصري ساطع وجديد ، ولولا هذه المساهمة الثقافية من جانب العقاد، في فترة انتمائه الى الرجعية السياسية ، لانتهى تاريخه منذ سنة ١٩٣٦ وأسدلت عليه الستائر وغاب في ظلام كثيف .

العقاد والماركسية

بعد ان درسنا في الفصل السابق موقف العقاد من اليسار بصورة عامة ، نجد من الضروري ان ندرس بالتفصيل موقف العقاد من المذاهب السياسية الرئيسية المعروفة في عصر العقاد ، والتي كان له منها موقف واضح محدد ، وهذه المذاهب الرئيسية هي بالتحديد اربعة مذاهب عارضها العقاد اشد المعارضة ، ومذهب واحد وافق عليه وتبناه وانتمى اليه ، اما المذاهب التي عارضها العقاد بشدة وعنف فهي : الماركسية ، والنازية ، والاخوان المسلمون ، والصهيونية كمذهب وحركة سياسية معا ، اما المذهب الذي انتمى اليه ودافع عنه فهو الديمقراطية الغربية او الليبرالية .

وسوف نتعرض لموقف العقاد من هذه المذاهب المختلفة التي عارضها ، اما موقفه من الديمقراطية فهو واضح في شتى فصول الكتاب . واذا درسنا موقف العقاد من هذه المذاهب السياسية ، فاننا نجد في هذا الموقف بعض الظواهر الرئيسية المشتركة .

فالعقاد بصورة عامة يرفض المذاهب «الشمولية»

اي انه يرفض كل مذهب يحدد موقفا شاملا متكاملا من كل نواحي النشاط الانساني ، فالماركسية تقدم نظرية شاملة في الحياة والمجتمع ، والنازية تقدم نظرية أخرى في الحياة والمجتمع ، والاخوان المسلمون يتحركون ايضا حسب نظرية متكاملة تشمل كل وجوه النشاط الانساني ، وهذه النظريات الثلاث تتناقض مع بعضها البعض اشد التناقض ، ولكنها من ناحية أخرى تتفق في انها تحاول ان تمد نفوذها الى شتى جوانب النشاط الانساني ، من بناء الدولة الى الامور الشخصية التي تتصل بحياة الفرد ، كالزواج والاسرة والاخلاق والسلوك . والعقاد من ناحية أخرى يرفض كل

النظريات التي تؤدي الى قيام حكم مطلق على يد فرد واحد ، او على يد حزب واحد ، او على يد طبقة واحدة ، فالماركسية تنادي بقيام حكم الحزب الواحد ، والطبقة الواحدة ، وهي الطبقة العاملة ، والنازية تنادي بحكم الزعيم ، او القائد الذي يتحقق الخلاص على يديه ، وهي تنادي بنظرية عنصرية تضع الجنس الآري الجرمانسي فوق غيره من الشعوب ، وتعتبره سيد الاجناس البشرية جميعها ، والاخوان المسلمون كانوا في تنظيمهم السياسي ينادون بسيادة «الزعيم» او «المرشد العام» ويعتبرون مخالفته نوعا من الخروج على قواعد الدين ، وقواعد التنظيم في نفس الوقت .

ويرفض العقاد من ناحية ثالثة اي نظرية سياسية تستخدم العنف عند التطبيق او تعتمد عليه او تبرره . والنظريات الثلاث التي عارضها قد استخدمت العنف بشكل من الاشكال ، واعتمدت عليه بصورة من الصور، رغم اختلاف النتائج واختلاف الغايات والاهداف ، فالماركسيون استخدموا العنف الثوري ، واستطاعوا ان يقيموا بناء جديدا فيه الكثير من مظاهر التقدم ، رغم ما تعرض له عنف الماركسيين من نقد شديد ، حتى من بعض انصار النظرية الماركسية نفسها . اما النازية فقد استخدمت العنف من اجل تصفية الاعداء في الداخل ، ومن اجل السيطرة العالمية في الخارج ، وقد انتهى الامر بالنازية الى الهزيمة والخراب ، اما الاخوان المسلمون فقد استخدموا العنف في سبيل الوصول الى السلطة السياسية ، ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق هدفهم ، ولم ينجحوا في الوصول الى غايتهم المنشودة . تلك هي الظواهر الرئيسية التي كانت تدفع العقاد الى معارضة المذاهب السياسية الثلاث ، ولكن هناك نقطة اخرى رئيسية كانت دائما تساهم في تعميق معارضة العقاد لهذه المذاهب الرئيسية . . . هذه النقطة هي معارضة تلك المذاهب للدين من وجهة نظر العقاد ، فالدين عند الماركسيين هو نوع من الفكر المثالي الذي لا يحل مشاكل الانسان ، ولا يفسرها تفسيراً صحيحاً ، والدين عند النازية لون من الضعف وميل الى الرقة ، وهو احيانا وهم من اوهام العقلية الشرقية السامية ، وهذا كله يتناقض مع ما تدعو اليه النازية من اخلاق القوة والسيادة الجرمانية وعدم المساواة بين الاجناس البشرية ، اما الاخوان المسلمون فقد انحرفوا بمعنى الدين انحرافاً كاملاً - في رأي العقاد - وابتعدوا تماماً عن المعنى الصحيح للدين . تلك هي اذن الظواهر المشتركة بين المذاهب السياسية التي رفضها العقاد ، ومصدر رفضه لها هو في كلمات : ايمانه بالدين ورفضه للعنف،

وايمانه بالحرية الفردية والحرية الفكرية التي هي أئمن ما في حرية الفرد،
وضرورة الحوار وتنوع الآراء في المجتمع الواحد ، بدلا من ان يكون المجتمع
كله خاضعا لفكرة واحدة تسيطر عليه وتقوده وتمنع التعدد والتنوع في
داخله . وكل هذه المبادئ والافكار التي يؤمن بها العقاد ، متوفرة من
وجهة نظره في الديمقراطية الغربية «الليبرالية» ومن هنا كانت الديمقراطية
هي مذهبه المختار الذي آمن به ودعا اليه على الدوام .

بعد هذه النظرة العامة الى موقف العقاد من المذاهب السياسية تقف
أمام كل مذهب على حدة ، لنرى كيف نظر اليه العقاد وماذا كان موقفه
منه . . . ونبدأ بمناقشة موقف العقاد من الماركسية .

كانت الماركسية هي المذهب الفلسفي السياسي الذي لقي من العقاد
أعنف ألوان الهجوم والاعتراض ، وقد أصدر العقاد عددا كبيرا من الكتب
والمقالات في الهجوم على الماركسية ، وكان العقاد كعادته دائما ، يخرج
من مجال المناقشات الموضوعية النظرية الى المناقشة التي تشبه الى حد
كبير تلك المناقشات الحزبية الحادة ، فكان هجومه على الماركسية من أعنف
ما عرفه تاريخ الفكر السياسي العربي المعاصر ، وكان العقاد في هذا الهجوم
كان يعبر عن وجهة نظر حزب في حزب آخر معارض ومنافس له في
ميدان العمل السياسي . ولذلك لم يكتف العقاد برفض الماركسية
ومعارضتها عن طريق المناقشة الفكرية ، وإنما لجأ الى التحريض على
الماركسيين والتشهير بهم ، واستخدام جميع الاسلحة في سبيل الوصول
الى هزيمتهم الفكرية والسياسية أمام الرأي العام العربي .

واذا حاولنا ان نبحث عن دراسة للماركسية قريبة من الهدوء
والموضوعية في كتابات العقاد ، فاننا سنجد أمامنا صعوبة كبيرة ، ولا شك
ان ما كتبه العقاد في كتابه الصغير «في بيتي» والذي أصدره سنة ١٩٤٥
يعتبر أقرب كتاباته عن الماركسية الى الروح الموضوعية ، رغم انه لم يخل
من العنف والحدة . وقد بدأ العقاد حديثه عن الماركسية في كتابه بمناسبة
محددة هي تفضيله للشعر على القصة ، وهو رأي مشهور له سوف نتعرض
له بالمناقشة في دراسة أخرى عن نقد العقاد ، وفي تفسير العقاد لشيوع
القصة وانتشارها رغم انها تحتل مكانة أدبية أقل في نظره من مكانة الشعر،
توصل العقاد الى ان الماركسية والشيوعية كان لهما في هذا الامر دخل
كبير .

يقول العقاد «صفحة ٢٨ من كتابه في بيتي - الطبعة الثانية» :
«... وجاء بعد شيوع القراءة وشيوع الصور المتحركة شيوع آخر ،

هو شيوع الدعوة الشيوعية بين طائفة من طلاب الهدم والانقلاب ، فعند هؤلاء ان القصة اشرف ابواب الادب ، لانها تكتب للجهلاء وتصلح لبث الدعاية الشيوعية وعندهم انها لا ينبغي ان تدار على موضوع غير موضوع القضايا الاجتماعية . كأنهم يضربون الجهل على الفقير ضربة لازب، او كأنما هذا الفقير لا يكفيه الضنك الذي يضمنه في ساعات العمل ، او في طلاب العيش، فلا يزال في ضنكه حين يفتح الكتاب، وحين يقرأ الصحيفة، وحين يحلم ، وحين يناجي ضميره ، وحين يجب ان يعرف له من خصائص الانسانية شيئا غير المعدة والزاد»

ويواصل العقاد هجومه على الماركسية في نفس الكتاب ، حيث يرى ان الماركسية في نظريتها وتطبيقها انما تقف ضد الحرية الفردية والكرامة الانسانية فيقول :

« . . . ليس من البر بالفقير ان يسلب الكرامة الانسانية ، او يسلب الحرية الفردية ، كأنها حلية يزدان بها الغني وحده، ولا يحفل بها الفقير ، وليس بالصحيح على كل فرض من الفروض ، وكل ظن من الظنون ان الشيوعية تدبر الزاد للفقير ، بفضل ما تقوم عليه من الاسس وما تشتمل عليه من الآراء . فكل مذهب يدعو اليه الدعاة الاجتماعيون ، يستطيع ان يدبر الزاد للعاملين في سنوات معدودات ، اذا صرف النظر عن الغايات البعيدة وانحصر همه فيما بين يديه . لقد دبرته النازية حين حصرت همها في صنع السلاح وأدارت المصانع على العدد الحربية والمطالب العسكرية . وقد دبرته الفاشية في ايطاليا على قلة مواردها حين حصرت همها في هذا المطلب العاجل وهذه السياسة الوبيلة .

فلم يبق في ايطاليا ولا في المانيا عامل بغير عمل موقوف ، ولم تبق فيها مشكلة للمتعطلين ، وكان ثرائرة الاجتماع ينظرون الى ذلك ، فينعونه على الديمقراطية ، ويؤكدون به ما يعيبونه عليها من بطء الوسائل ، وتردد العزائم ، وطول المطال، ولكن الديمقراطية ايضا قد سبقت النازية والفاشية معا في المضمار ، فخلقت الاعمال لعشرات الملايين في بلادها وغير بلادها، حين ادارت مصانعها على الذخيرة والسلاح ، وظهر انها حيلة لا تعيي احدا يقبلها على علاقتها ، ويأخذها بتبعاتها ، وما تبعاتها الا الخراب والفساد ، وغشيان الارض كلها بطائف من الفرع والحسرة ، تهون معه مشكلة البطالة، وكل مشكلة مثلها من مشكلات الاجتماع . ويخطيء كل الخطأ من يحسب وعود الشيوعية في هذا المطلب بشارة جديدة من داع جديد ، فليس اقدم من هذه البشارة ولا اسبق من هذا الداعي في تاريخ الدعايات» .

ويواصل العقاد في نفس الكتاب هجومه العنيف على الماركسية ، وهو الهجوم الذي كرره وتوسع فيه بعد ذلك في كتب ومقالات عديدة ، وقد ركز العقاد نقده على الماركسية في عدة نقاط ، جمعها كلها في كتابه «في بيتي» ويمكننا تلخيص انتقادات العقاد على الماركسية فيما يلي :

اولا - انها فلسفة ضد الحرية الفردية للانسان ... بل لقد جمع العقاد في هذه التهمة بين الماركسية والنازية فيقول «من كتابه في بيتي - الطبعة الثانية صفحة ١٤ حيث يتحدث عن الجوار بين الكتب الماركسية والكتب النازية في مكتبته» :

«... أما الجوار بين الشيوعية والنازية، فإيا له من جوار ، لو انتقل الى عالم المحسوس لانبعث من هذه الرفوف القليلة فرقة لا تسمعها من ألف طريق ، ولا من ألف غيمة تومض بالبروق والرعود .

ولكنها لو انتقلت الى عالم المعنى ، لكان الجوار بينها أقرب جوار وأرقق جوار ... لان الفرق بين المذاهب الاجتماعية او المذاهب السياسية ان شئت ان تسميها بالسياسة - هو فارق واحد ، يهديك بينها جميعا ولو بلغت المئات والالوف : أهو الفارق في الحرية الفردية ؟ او هو الفارق في التبعة التي يحملها الفرد في علاقته بأمته وبالعالم الانسان على اتساعه؟ . فأحسبها مائة مذهب ، او ألف مذهب ، او ما فوق هذا او ما دون ذلك ، فانما هي في النهاية مذهبان اثنان : مذهب يقدر الحرية الفردية ، ومذهب يستخف بها ، تقديسا لسلطان الدولة او سيادة الزعيم ، ولا عبرة باختلاف الاسماء والعناوين» .

ثانيا - يتهم العقاد الماركسية بأنها فلسفة آلية ، بمعنى انها تنظر الى الانسان كما تنظر الى الآلة او كما تنظر الى الحيوان . يقول العقاد «في بيتي - الطبعة الثانية ص ٣١» :

«ان صاحبهم كارل ماركس ليزعم انه يتنبأ من مصير الاحياء الانسانية، وهو لم يحيي في زمانه قط حياة انسان ، ولم يشعر الا بشعور الجداول والارقام ، حيثما كان يجمعها في المتحف البريطاني صباح مساء ، ولهذا حسب الآدميين آلات تقاس حركتها بالارقام ، كما تقاس حركات السكك الحديدية والسيارات» .

ثم يقول العقاد في نفس الكتاب عن الماركسية ص ٤٧ : «ان آفة هذا المذهب البغيض انه لا يرى اكرم العلتين للحادث الواحد إلا حاد عنها الى أحقر العلتين ، وأنه لو وضع لعالم من الحيوان ، لما احتاج الى تضيق ولا تقصير ، ولا اعادة تفصيل او تحرير ، لانه لم يفهم من الانسان إلا جانب

الحيوان .

ثالثا - يتهم العقاد الماركسية بأنها فلسفة مادية بمعنى خاص من معاني المادية ، نفهمه من قول العقاد في كتابه «في بيتي ص ٣٤» وهو يقارن بين موقفه من الرأسمالية وموقف الماركسيين منها :

«... ان الماركسيين لا يستطيعون ان يمقتوا تلك العيوب «اي عيوب الرأسمالية» كما أمقتها ، لانهم يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بغيرها ، ومن آمن بالمادة هذا الايمان لم يستطع ان يلوم عشاقها كل اللوم ، او يعذرهم في عشقها بعض المصلحة» .

رابعا - يتهم العقاد الماركسية انها هدم للاخلاق ، فيقول في كتابه «في بيتي» ص ٣٤ : «... ان جشع المستغلين شر ، ولكن الشيوعية ليست بخير ، وان رأس المال محنة للاخلاق ولكن الشيوعية محو للاخلاق لا تقوم لها فيه قائمة» .

خامسا - يتهم العقاد الماركسية بأنها دعوة تبشيرية ، تحاول ان تحل محل الدعوات الدينية ، مع تغيير الاهداف والدوافع ، يقول العقاد في كتابه «في بيتي» ص ٣٠ : «... وهذه الدعوة التي يزعمونها «علمية» هي تبشير لا يعوزه شبح الشيطان ، ولا الفردوس ولا العقيدة العمياء ، وغاية الفرق بينها وبين سابقتها ، ان الشيطان هنا هو «الرأسمالية» التي ترجع اليها جميع الشرور والخبائث ، وان الفردوس هو العصر الموعود الذي يسود فيه الصعاليك ، وأن حماسة العقيدة هنا هي حماسة المبادئ والاحقاد . وليس أكذب ممن يخاطب المعدة ويخاطب الحسد والحفيظة ، فلا اقناع هنا ولا اقناع في غير هذا من ضروب الحماسة والبغضاء ، وليس الاقناع بالمعدة بعد الاقناع بالروح تقدما نغبط عليه» وأخيرا فان العقاد يتهم الماركسية بأنها «أنكرت بعض المبادئ الرئيسية في حياة المجتمعات ، ثم اضطر أنصارها الى الاعتراف بهذه المبادئ ، تحت ضغط الواقع الذي كشف لهم أخطاءهم ...» يقول العقاد «في بيتي ص ٣٣ :

«... ان كان للنبوءات الماركسية فضل بعد هذا ، في ثورة الروس فهو الفضل المعكوس ، لان المؤمنين بها حاولوا تطبيقها كما آمنسوا بها فصيعوا عشرين سنة في هذه التجارب المخيبة وضاعت معها ملايين الارواح التي فنيت بالسلاح ، او فنيت بالقحط والوباء ، ثم آل بهم الامر الى اقرار ما أنكروه وحاربوه ، وقتلوا الملايين من اجله ، وهو اقتناء الملك ، وإيداع المال في المصارف ، وتوريث الابناء ، وإباحة الفروق في المعاش ، وعلان العصبية الوطنية ، ولو لم يؤمنوا ذلك الايمان بالنبوءات الماركسية ، لبلغوا

هذا المطلب في سنة واحدة ، وعافوا أنفسهم وعافوا الناس من شرور تلك التجارب وخطوب تلك المحاولات .

هذه هي جملة انتقادات العقاد على الماركسية بأسلوبه العنيف الحاد ، حيث يعتبر العقاد نفسه مع الماركسية في معركة حزبية ، تبيح استخدام جميع الاسلحة - من المناقشة العلمية الى التشهير والسخرية .

وقد رد الماركسيون على العقاد ردودا مختلفة ، وقبل ان نعرض هذه الردود نود ان نقف قليلا مع رأي العقاد في الماركسية لنسجل بعض الملاحظات .

ان الماركسية نظرية عالمية واسعة الانتشار ، كما ان هناك مجتمعات كبيرة ، وعلى رأسها روسيا والصين ، قد اقامت تجاربها الجديدة في التقدم والتطور على اساس هذه النظرية ، وقد لقيت الماركسية انصارا كثيرين ، كما واجهت عديدا من المعارضين ، حتى من بين صفوف الماركسيين انفسهم ، فظاهرة نقد الفكر الماركسي ، ظاهرة واضحة عند بعض المفكرين المعاصرين ، الذين كانوا في الاصل ملتزمين بالفكر الماركسي ، مثل المفكرين الفرنسيين المعروفين : لوفافر و جارودي .

ولا شك ان من حق العقاد كمفكر عربي كبير ان يتصدى بالرأي والمناقشة لنظرية بحجم «الماركسية» لها تأثيرها الفكري وتأثيرها العملي بصورة ملموسة واضحة بالنسبة لعدد كبير من المجتمعات الانسانية ، وبالنسبة لعدد كبير من المفكرين المعاصرين حتى في امريكا وأوروبا الغربية .

ولكن خطأ العقاد الاساسي هو انه وضع نفسه لا في صف المعارضين للماركسية والناقدين لاسسها النظرية والتطبيقية فقط ، بل تجاوز ذلك الى التشهير بهذه النظرية ، وبالمجتمعات التي اخذت بها وآمنت بمبادئها المختلفة ، و«التشهير» عادة يؤدي بالكاتب الى عدم التزام الدقة العملية ، والى اصطياد الاخطاء وتضخيمها ، والبعد التام عن الموضوعية المطلوبة في ميدان المناقشة الفكرية ... ان «الماركسية» ليست نظرية مقدسة ، وقد تعرضت هذه النظرية - كما قلت - للنقد العلمي ، حتى في صفوف بعض انصارها المعروفين . ولكن النقد شيء والتشهير شيء آخر .

وقد أدى تشهير العقاد بالماركسية ، الى ان ينزلق في بعض الاخطاء الواضحة ، ومن هذه الاخطاء ربطه بين الماركسية والنازية ، بنحجة انهما تصدران عن ضعف في الاخلاق ، فالماركسية مبنية على الحسد والنازية مبنية على الفرور ... وهذا بالطبع تبسيط بالغ الخطأ والسطحية ، فالماركسية والنازية تقيضان في كل شيء ، ويكفي ان نشير الى فارق

رئيسي واحد : فالماركسية تقوم على ازالة الفوارق بين القوميات او ما يسمى بالنزعة الاممية التي تسعى الى توحيد البشر ، وتحقيق المساواة بينهم ، بينما تقوم النازية على القومية العنصرية ، وتنادي بسيادة جنس واحد ، هو الجنس الآري ، على غيره من الاجناس البشرية ، وهو ما ترفضه الماركسية تمام الرفض ، وتكره اشد الانكار . وهناك بعد ذلك فوارق جوهرية اخرى بين النازية والماركسية ، وهذه الفوارق يعترف بها اعداء الماركسية انفسهم قبل ان يشير اليها انصارها المتحمسون .

ومن اخطاء العقاد ايضا في هجومه على الماركسية انه لا يدقق ابدا في تحديد المعنى العلمي الصحيح للكلمات التي يستخدمها ، فكلمة «المادية» مثلا هي عند العقاد : الطعام والشراب والملذات وكل ما يتناقض مع التفكير والشعور والاحساس . وهذا الفهم لكلمة «المادية» هو فهم عامي كان ينبغي على العقاد ان يتجنبه تماما ، لان المادية عند بعض النظريات الحديثة ومن بينها الماركسية معناها الاعتراف بالعالم الواقعي ، وبقوانينه المستقلة ، وبقدرة هذا العالم الواقعي على التأثير في الانسان والحياة تأثيرا عميقا واساسيا .

وليس في هذا المعنى ابدا ما يتصل بالمعنى العامي الشائع لكلمة المادية . ان «المادية» هنا كلمة تقابل «المثالية» في الفكر . . . فالمادية تفسر ظواهر الحياة والمجتمع بالظروف المحيطة بهذه الظواهر ، اما المثالية فتفسر هذه الظواهر بالافكار والنوايا القائمة في العقول والرؤوس .

وقد وقع العقاد في اخطاء اخرى مثل قوله : ان الفردوس الذي تبشر به الماركسية هو «العصر الذي يسود فيه الصعاليك» . . . والصعاليك في لغة العقاد هم الطبقة العاملة في لغة الماركسية ، والعقاد هنا يغالط الحقيقة عندما يصف «العمال» بأنهم «صعاليك» . . . فالصعلوك شخص يمثل عبثا انتاجيا وأخلاقيا على المجتمع ، اما العامل فهو قوة انسانية وانتاجية داخل المجتمع ، وسيادة العمال شيء وسيادة الصعاليك شيء آخر ، ويكفاد الانسان يشعر ان العقاد انما يعبر عن نظرتة الخاصة الى العمال ، عندما يصفهم بأنهم صعاليك . . . وهي نظرة خاطئة وظالمة فضلا عن انها نظرة غير علمية .

ومع ذلك فهناك جانب ايجابي صحيح ولكنه محدود ، في نقد العقاد للماركسية ، هذا الجانب هو اعتراضه على رفض الماركسية للقومية ، فتلك نقطة صحيحة من الناحية العلمية ، وهي نقطة ضعف اخذها الكثيرون من النقاد على الماركسية ، وقد اتضح هذا الجانب الخاطيء والضعيف فسي

الماركسية ، في الوطن العربي على وجه الخصوص ، وفي الفترة التي ظهرت فيها حركة الوحدة العربية ، في ظل الدعوة الى «القومية العربية» التي تجمع شعوب المنطقة الممتدة من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، وقد عارض بعض الماركسيين - افرادا واحزابا - الوحدة العربية في بعض من الاحيان ، انطلاقا من رفض الفكرة القومية ، ولكن حركة الوحدة العربية والفكرة القومية العربية، ثبتت لهذا النقد الماركسي وانتصرت عليه. وهناك نقاط أخرى في نقد العقاد للماركسية تعتبر من النقد الايجابي وسوف نعود لهذا النقد في آخر هذا الفصل . ومجال مناقشة الماركسية ونقدها قائم وموجود ... بشرط ان تتوفر للمناقشة والنقد روح علمية موضوعية سليمة ، ومعرفة دقيقة بهذه النظرية نفسها ، ومن الواضح ان العقاد لم تتوفر له الموضوعية الكافية، ولا المعرفة العلمية الكافية في نقده للماركسية .

نعود بعد ذلك الى ردود الماركسيين على العقاد ، ونقدم نموذجين من هذه الردود ، اما الرد الاول فقد كتبه ابراهيم عامر في مجلة الرسالة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٤٥ حيث يقول في مقال قصير له :

«يقول الاستاذ العقاد : ان الحرية الفردية ، والتبعة الشخصية هي مقياس التقدم التاريخي ، وان الماركسية تقضي على هذه الحرية كما تقضي على التبعة الشخصية ، وهو اتهام قديم طالما وجه الى الماركسية ، فالماركسية لا تنفي الفردية، وانما تنفي الانفرادية، وهي لا تهدم الشخصية ولكنها تهدم الانعزال . والانفرادية معناها تجريد الفرد من المجتمع ، وعزلته من الجماعة التي يعيش بين ظهرانيها ، ومعناها انكار المحيطات والظروف الاجتماعية في حياة الفرد ، ومعناها ان الدوافع الحقيقية التي تسيطر على الانسان تظل مجهولة له ، فيتخيل دوافع زائفة او ظاهرية ، ليست فسي الحقائق والمعقولات ، ولكنها في المثاليات التي نحفظ بها لا بلا شعور ، ولكن بشعور زائف ، وعندما تقول الماركسية بأثر التطور في وسائل الانتاج في التطور التاريخي ، وفي الروابط القائمة بين الافراد ، وبين الطبقات وبعض ، او على الاصح بين الطبقتين اللتين يتكون منهما المجتمع ، فانها تبني هذا القول لا على تضارب الترهات وانما تبنيه على ان الطبيعة ليست أحداثا فجائية ، لا رابطة تقوم فيها بين الشيء والظاهرة ، ولكنها كل مرتبط ببعضه ، فيه الاشياء والظواهر مرتبطة حيويا ارتباطا يجعل كلا منها اساسا للآخر ، ويعتمدا عليه ومكيفا له ، وعلى هذا لا يمكن تجريد أي شيء في الطبيعة وأخذه في ذاته ، وعلى هذا فالانفرادية شيء يتعارض مع قوانين

الطبيعة . والماركسية تؤكد الشخصية والفردية كما تؤكد الحرية حين تقول انها تقدير الضرورة ، وحين تقول ان الضرورة عمياء ، ما دامت غير مفهومة ، وحين تبني التحول في فهم ماهية الاشياء من كونها ذات قيمة ذاتية ، الى كونها ذات قيمة لنا ، وحين تقول ان الحرية الفردية اذا لم يدعمها استقلال مالي ، ومستوى معيشة مرتفع ، والغاء للملكية الفردية لوسائل الانتاج ، والاستغلال الاقتصادي ، تصبح لا قيمة لها ، وحين تعمل على دعم الحرية بعناصرها الحققة ، فان تكافؤ الفرص وتساويها هي عنصر الحرية الاول . اما الانفرادية البرجوازية ، انفرادية الابراج العاجية والارستقراطية الفكرية والجهل المطبق بروح الجماعات وميزات الشعوب ، واما الاستقلالية البرجوازية ، استقلالية الاستغلال والرجعية ، واما الحرية البرجوازية حرية الاقلية في سلب الاغلبية ثمار عملها ...

هذه الانفرادية ، وهذا الاستقلال ، وهذه الحرية ، هي التي تنادي الماركسية بهدمها ، وتكافح لالفائها لانها تتعارض مع اجتماعية الانسان . هذا هو رد ابراهيم عامر القصير الموجز على العقاد ، وهو - رغم دقته وروحه العلمية - يقتصر على العموميات ولا يناقش التفاصيل ، ولا يدخل في الجزئيات ... ولكننا نلتقي بعد صدور كتاب العقاد «في بيتي» سنة ١٩٤٥ بقليل . وبعد شهور من رد ابراهيم عامر على العقاد، برد تفصيلي واسع على آراء العقاد في الماركسية، فقد أصدر «أبو سيف يوسف» احد اعلام الفكر الماركسي في مصر كتيباً صغيراً في ٥٧ صفحة بعنوان «حول الفلسفة الماركسية - رد على العقاد» وقد صدر هذا الكتيب في مارس سنة ١٩٤٦ ، ويعتبر هذا الرد وثيقة هامة لانه - في معظمه - رد علمي تفصيلي على كل ما أثاره العقاد ضد الماركسية . صحيح ان «أبو سيف يوسف» لم يكن يملك قوة التعبير التي يملكها العقاد ، ولكنه كان يملك في هذه الرسالة الصغيرة معرفة علمية واسعة بالماركسية ، بالإضافة الى ما كان يملكه في هذه الرسالة من الايمان العميق بهذه النظرية ، وقد أتاح له ايمانه بالماركسية ، ومعرفته الواسعة بها ان يقدم افضل رد ماركسي فكري ونظري على العقاد ، خلال المعركة الطويلة بين العقاد والماركسيين .

ولاهمية الرسالة التي كتبها أبو سيف يوسف فسوف نعرض لها هنا بشيء من التفصيل .

يبدأ أبو سيف يوسف في الصفحات الاولى من رسالته متأثراً بأسلوب التشهير الذي لجأ العقاد اليه في الهجوم على الماركسية، فلا ينجو أبو سيف يوسف من هذا الاسلوب التشهيري نفسه فيقول في صفحة ٤ من رسالته:

«كان المفهوم ان يوقف كاتب مثل العقاد جهوده على الكفاح من اجل شعبنا المصري ضد المستعمر الذي اذله واستغله سنين طويلة ، ولكن العقاد - ويا للأسف - تنكب عن طريق الحرية ، فلم نعد نسمع له صوتا يرتفع ضد مؤامرات الاستعمار البريطاني ، وريث الفاشية وحليفها السابق قبل الحرب . نهض الشعب يطالب بحقوقه وانضم العقاد الى معسكر الوزارة النقراشية ، يسبح لها صباح مساء ، في الوقت الذي كانت فيه الوزارة تقمع الحريات ، وتنكل بالاحرار ، وتساوم المستعمر الانجليزي سرا وعلنا وتنفذ سياسة المستعمر في تخدير الشعب وقمعه وصرفه عن كفاحه السليم » .

«وفي كل يوم تطالعنا شواهد وبيانات عما يفعله المستعمر الانجليزي بحريات الشعوب . يقتل الاندونيسيين والاحرار اليونانيين ، ويميت الملايين من الهنود جوعا ، وكأن الاستاذ العقاد لا يعنيه في الامر شيء ، ولا يرى ان قضية الحرية واحدة لا تتجزأ ، بل ينصرف الى تنفيذ سياسة استعمارية مفضوحة . هذه السياسة الاستعمارية تتمثل في انصرافه الكلي عن قضيتنا وكفاحنا الشعبي ، الى ترديد آراء الاستعماريين الانجليز في مذاهب وفلسفات معينة ، فتراه يهاجم الماركسية ، ويقحم هذا الهجوم اقحاما في كل وقت وفي غير مناسبة ..»

«وليته يفعل هذا بدافع علمي، وليت نقده للماركسية يسير وفق تقاليد النقد العلمي المنزه ، ولكنه للأسف يطيح بنزاهة وشرف القلم المصري ، عندما يلجأ الى الاختلاق والادعاء والى تشويه الفلسفة الماركسية والتقول على مؤسسيها وواضعيها ، بأقوال لم تصدر عنهم ، ولم توجد قط في كتاباتهم » ثم ترتفع لها لهجة الكاتب بعد ذلك وتحتد ، حيث يتهم العقاد بالخيانة الوطنية فيقول : « والعقاد بخيائته لقضيتنا الوطنية ، وقضية الحرية في العالم بتشويهه للحقائق ، انما يضرب المثل السيء للكاتب الذي خرج من صفوف الشعب ، وانضم الى أعدائه فأصبح بوقا للمستعمر وأعوانه ، وأصبح من الواجب أن تكشف عن مغالطاته وترهاته عن هذا الكاتب الذي خانت نهايته بدايته وتنكر حاضره لماضيه » .

واتهام الكاتب للعقاد بالخيانة الوطنية ، هو نوع من التشهير لا يختلف عن اسلوب العقاد في التشهير بدلا من المناقشة العلمية الموضوعية . ولكن « أبو سيف يوسف » يناقش العقاد بعد هذه المقدمة التشهيرية في بقية رسالته مناقشة علمية هادئة عميقة يتصدى فيها لآراء العقاد المختلفة حول الماركسية .

ففي موضوع الحرية الفردية التي يرى العقاد ان الماركسية تعارضها وتقف ضدها ، يرد « أبو سيف يوسف » على ذلك بقوله : « لقد اجتمعت الهيئة السياسية في عهد الوزارة النقراشية ، لتنظر في المطالب القومية ، واجتمعت عندما أرادت وتصرفت بأرائها حسبما أرادت ، وهذه الهيئة — كما لا يخفى مكونة من كبار الماليين ، ومديري البنوك وأعضاء الشركات ... الخ. وأراد العمال ان يجتمعوا ليبداوا رأيهم الصريح في مطالب وطنهم ، وأحبوا ان يستغلوا ويفيدوا من الحريات المكفولة لهم ، غير أن هذا الاجتماع لم يتم ، ولم تشعر الطبقة المسيطرة بأنها قد اعتدت على الحرية ، ولم تر في منع العمال من ابداء رأيهم والتعبير عن شعورهم القومي ، ما يتنافى مع الحرية التي ينادون بها — ولم ير العقاد في هذا التصرف — وهو الكاتب الذي نصب نفسه للدفاع عن الحرية الفردية ... لم ير ما يشين الحرية ويهددها ، حدث كل هذا وصمت العقاد وكان صمته عميقا ... » .

ويستنتج الكاتب من هذا النموذج ان الحرية في مجتمع طبقي هي «اذن حرية طبقية ، ومن الخطأ الخداع ، أن نتحدث عن الحرية بكيفية عامة ومبهمة » .

ثم يقول الكاتب بعد ذلك : « اذا كان العقاد يرى أن المتعلم أكثر حرية من الجاهل ، فالتعلم اذن شرط لازم لقيام الحرية ، وهو اذن حق طبيعي لكل انسان سوي . ولكن هذا الحق تتمتع به في المجتمع الطبقي طبقة دون أخرى . فقد ذكر سدني وبياترس ويب أن تسعة أعشار الآباء في انجلترا ليس لهم حرية أو خيار ، في ارسال أبنائهم الى المدرسة أو المعهد الذي يفضلونه . ولكنهم بحكم احوالهم الاقتصادية والاجتماعية مجبرون على ارسال أولادهم الى أقرب معهد أيما كان مستواه أو اتجاهه . والاقليسة الضئيلة هي التي تستطيع أن تختار المعاهد الخاصة والجامعات ، لأنها تستطيع أن تتحمل نفقات الدراسة الباهظة ، وتكاليف السفر والانتقال : الامر الذي يعجز عن اتيانه جميع العاملين بأجر ، والغالبية العظمى من أفراد الطبقة المتوسطة ايضا » والنتيجة الاساسية التي يؤكد عليها «أبو سيف يوسف» هي «ان التاريخ يعلمنا انه لا وجود للحريات الفردية، طالما انقسم المجتمع الى طبقة تستغل ، وغالبية تخضع وتشقى ، وأن هذه الحريات ان كان قد اكتسب بعضها ، فلم يكن ذلك الا عن طريق الشعوب وكفاحها ضد مستغليها ، وأن نهوض الافراد بالتبعة الاخلاقية ، قد حدث بفضل توسيع حقوق الانسان والدفاع عنها دفاعا مستمرا » .

ويرد أبو سيف يوسف على اتهام العقاد للماركسية بأنها تنظر إلى الإنسان نظرتها إلى الآلة فيقول : « ما دام العقاد قد كتب لآلاف القراء يقنعهم بفساد الماركسية ، فإن القاريء السوي لا يتم اقتناعه بما يقول إلا إذا تحققت أمور ثلاثة »

١ - أن يورد العقاد نصوصا من ماركس تثبت أنه يحسب الأدميين آلات ، وهذا ما لم يفعله العقاد .

٢ - أن يثبت العقاد خطأ شراح الفلسفة الماركسية ، ثم الشراح الذين نفوا عنها الطابع الآلي . ولكن العقاد أيضا لم يفعل شيئا من هذا القبيل .

٣ - أن يدلل العقاد بأدلة قاطعة وبراهين مقنعة ، على أن ماركس كان يعامل الأدميين بحسبانهم آلات . وقد قام الاستاذ بمحاولة في هذا السبيل ، ولكن أدلته - للأسف - لم تكن ملزمة ، بل كانت تافهة سطحية ، فأورد في ذلك قضيتين أو مقدمتين ، أحدهما خاطئة فاسدة وهي أن ماركس « لم يحي في زمانه قط حياة إنسان » ، وأما الثانية فهي مقدمة ضيقة جدا ، رتب عليها الاستاذ العقاد - بمنطقة العبقرى - أوسع النتائج ، حين قال : أن ماركس لم « يشعر قط إلا بشعور الجداول والأرقام ، حيثما كان يجمعها في المتحف البريطاني صباح مساء » واستنتج من ذلك أنه « لهذا حسب الأدميين آلات ... الخ » والاستدلال في نظرنا تافه للأسباب الثلاثة الآتية :

الاول - أنه إذا كان ماركس قد جمع الأرقام والجداول ، فما ذلك إلا لأنه كان معنيا بدراسة الظواهر الاقتصادية بوجه عام ، والنظام الرأسمالي بوجه خاص . وأظن أن الاستاذ العقاد يتفق معنا على أن استخدام الجداول والأرقام في البحوث والدراسات الاقتصادية أمر لازم ، تقتضيه طبيعة هذه الدراسات ، من حيث أنه أسلوب في البحث يحقق مطلبا من مطالب الدقة العلمية . وأظن أن اصطناع علماء الاقتصاد لهذا الأسلوب ، لا يعني مطلقا بل ولا يستنتج منه أنهم يعاملون الأدميين معاملة الآلات .

الثاني - إذا كان المقصود بالجداول والأرقام استخدام الإحصاء ، فإن مؤاخذة العقاد لماركس إنما تكشف عن جهل غير لائق بقيمة الإحصاء ووظيفته ، كطريقة من طرائق البحث في العلوم الاجتماعية . فالواقع أن للإحصاء قيمة كبرى في الكشف عن الصلة بين الوقائع المدروسة، والتغيرات المتلازمة . ويكون المنهج الإحصائي مخطئا على وجه الخصوص ، عندما ينصب على ملاحظة فترات الانتقال والتحول السريع - أعني فترات الإزمات . ففي هذه الحالة يمكن أن يرى الإنسان علل هذه الظواهر مكبرة ،

وفي شيء كثير من الوضوح والجلاء .

ولقد كان ماركس - كما نعلم - يعيش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان النظام الرأسمالي قد بلغ في تطوره يومها حدا أخذ يعاني فيه تناقضا حادا بين الانتاج الحشدي الهائل ، وبين امتلاك وسائل الانتاج . وكان هذا التناقض يسبب أزمات دورية درسها ماركس دراسة وافية ، ووضع في ذلك نظريته المعروفة عن الازمات ... كان من الضروري أن يستعين ماركس في دراسته الاقتصادية بالجداول والارقام .

ولكن هذا لا يعني أن ماركس بعمله هذا ، كان ينظر الى الناس نظرتهم الى السيارات وقطر السكة الحديدية ، فالواقع ان الاحصاء يعد مرحلة من مراحل المنهج الاجتماعي ، ولا يمثل المنهج الاجتماعي كله .

ونحن نعلم ان الاحصاء يصطنع في دراسة الظواهر الصحية والتعليمية، وظواهر الزواج والطلاق والمواليد والوفيات ، ولكن استخدامه لهذا الغرض لا يعني أن القائمين على شؤون الصحة والتعليم ... الخ لا ينظرون الى الادميين نظرتهم الى القطارات والسيارات .

الثالث - اذا كان الاحصاء يمثل جانبا أو مرحلة واحدة من مراحل البحث الاجتماعي ، فمن الخطأ كل الخطأ أن ننظر الى الجداول والارقام او الاحصاءات كتعبير نهائي مطلق عن الظاهرة الاجتماعية المدروسة .

وقد تنبه ماركس الى هذه الحقيقة فاستخدم الاحصاء ، ولكنه - كما يلاحظ كفيليه - استخدمه بطريقة دياكتية ، أعني بطريقة نسبية وليست مطلقة : هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن الاحصاء الاسلوب الوحيد الذي اصطنعه ماركس ، فقد قرنه وربطه بمنهج له قيمة عظيمة ، في دراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، ونعني به المنهج التاريخي المقارن .

وهكذا حاول العقاد أن يدل على أن ماركس ينظر الى الادميين نظرتهم الى الآلات . فجاءت أدلته غثة سطحية ، تقوم على محض السفسطة ومحاولة استغلال ثقة قارئة به .

ثم ينتقل أبو سيف يوسف بعد هذه المناقشة الدقيقة الى الرد على العقاد في اتهامه للماركسية بأنها فلسفة مادية ، بالمعنى الخاص الذي فهمه العقاد من كلمة المادية ... فيقول الكاتب ..

«انتهد العقاد كل فرصة للتقول على الماركسية ، واستخدم في ذلك كل أساليب المغالطة التي تجافي التفكير النزيه . ولذلك نراه يتهم

الماركسيين بالمادية القدرة فيقول : « ان الماركسيين لا يستطيعون أن يمقتوا تلك العيوب - عيوب الرأسمالية - كما أمقتها ، لانهم يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بغيرها ، ومن آمن بالمادة هذا الايمان لم يستطع أن يلوم عشاقها كل اللوم ... »

« وأول ما يلاحظ على كلام العقاد، هذه المغالطة التي تتمثل في استعماله لكلمة مادة استعمالا غامضا غير دقيق . صحيح أن الماركسيين يؤمنون بالمادة ولكنها ليست على كل حال «المادة» التي يؤمن بها الرأسماليون ولذلك ينبغي أن توضح هذه الفكرة التي كثيرا ما يتعثر فيها السطحيون . يقول انجلز : يفهم ذو العقل الضيق من المادية الطعام والشراب ولذة النظر والافراط في الشهوات الجنسية . انه يعني بها حياة مليئة بالبهرج ، والشهوة والبخل ، والشر ، واقتناص المنافع والدس في سوق الاوراق المالية ، وباختصار كل الرذائل القدرة التي يلقي بنفسه في حماتها سرا ويعني ذو العقل الضيق « بالمثالية » الايمان بالفضيلة وحب الجار ... الى آخر هذه الصفات التي يباهي بها امام الآخرين ، ولا يؤمن بها في قرارة نفسه ، الا في الوقت الذي يمر فيه بفترة الضيق او الازمة التي تستتبع بالضرورة استغراقه المادي فيردد لنفسه هذا القرار المفضل : ما هو الانسان ؟ انه نصف حيوان ، نصف ملاك ! »

ويواصل « أبو سيف يوسف » تخطيئه لفهم العقاد لمعنى « المادية عند الماركسيين » فيقول :

« اذا كانت المادية في نظر انجلز لا تعني الانانية والجشع وسرقة جهد الكادحين ، والاستغراق في شهوات الحس ، فالعقاد اذن يفتري ويغالط عندما يتعمد الجمع بين الماركسيين والرأسماليين في حب المادة » .

« على ان لينين قد عرف المادية الماركسية تعريفا لا يدع مجالا للتخبط عندما قال : ان الخاصية الوحيدة للمادة وهي الخاصية التي ترتبط بالفلسفة المادية بمعرفتها ارتباطا وثيقا - انما تتمثل في أن المادة حقيقة موضوعية موجودة خارج عقولنا ومعنى ذلك انه عندما تقول الفلسفة الماركسية بأنها فلسفة مادية فانها ترمي من وراء ذلك :

أولا - الى الاعتراف بوجود العالم الخارجي ، او الطبيعة الخارجية وجودا مستقلا عن عقولنا .

وثانيا - الى دراسة هذا العالم كما هو ، أي دراسة موضوعية بمعزل عن الخرافات والالوهام والتصورات السابقة .

وثالثا - الى فهم العالم على حقيقته حتى يتسنى اخضاعه وتغييره ،

وهذه هي وجهة النظر العلمية، والماركسية والعلم في هذا الصدد صنوان». وبعد ذلك يرد أبو سيف يوسف على قول العقاد «... ان الرأسمالية محنة للاخلاق، ولكن الشيوعية محو للاخلاق، لا تقوم لها فيه قائمة»... يقول الكاتب في رده على العقاد «... الاخلاق وظيفة من وظائف المجتمع، ومعنى ذلك ان المجتمع هو مصدر الاخلاق، وعندما نقول الاخلاق فنحن نعني بذلك مجموعة من التصورات والامور والنواهي، تحدد الخير والشر، وتعين سلوك الانسان بازاء اشباهه. واذا كانت الاخلاق وظيفة من وظائف المجتمع، وكانت المجتمعات متطورة ومتغيرة، كان مضمون هذه النواهي والامور الاخلاقية متغيرا متطورا بالمثل، من عصر الى عصر، ومن مجتمع الى آخر. ربما اعترض معترض بقوله: ان المبادئ والنواهي والامور الاخلاقية تكاد تكون واحدة في كل المجتمعات، وانها ثابتة على ممر الاجيال، بدليل اننا ما نزال نستشهد بامثال الاقدمين وحكمهم، وبدليل ان قدماء المصريين تكلموا عن الخير والحق والعدالة كما تكلم العرب، وان اليونان والرومان تنسبهم اقوالهم وتصوراتهم الاخلاقية مع اقوال العرب والمصريين وتصوراتهم، على ان مثل هذا الاعتراض خطأ أو وهم كشفت عنه وبينته الدراسة العلمية المقارنة للاخلاق، وهي الدراسة التي ساهم في وضع أسسها - كما نعلم - المدرسة الاجتماعية الفرنسية، وكان من المبرزين في ذلك المجال « ليفي بريل » الذي أكد حقيقة بالغة الأهمية... وهي ان التصورات الاخلاقية اذا كانت تتشابه، فمصدر التشابه هو اللغة وحدها، وليس مضمون هذه التصورات ومحتوياتها، فاللغة لها قدرة على التجريد، ولكن مضمون الكلمات المجردة يختلف، وقد ضرب « ليفي بريل » مثلاً لذلك الحكمة اللاتينية التي تقول: « لا تؤذ أحدا وأعط لكل ما له ». فقد عرفها كل مجتمع من المجتمعات القديمة، ولكن كل مجتمع ايضا طبقها تطبيقاً يلائم تنظيمه وتكوينه الخاص، ولذلك فان « أحدا » هذه لم تكن تشمل الغريب أو الاجنبي، بدليل ان العواصف عندما كانت تلقي بسفينة على شاطئ من الشواطئ، لم يكن يسلم راكبوها من القتل أو الاسترقاق. وفكرة العدالة التي تشير اليها الشطرة الثانية من الحكمة « أعط لكل ما له » قد وجدت بالمثل في كل مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة على السواء. ففسي المجتمعات القديمة لم تر الطبقات الغنية المسيطرة ان فكرة العدالة تتنافى مع المستوى الذي تعيش فيه الطبقة الاخرى، وهي طبقة العبيد والارقاء، بل ان أرسطو نفسه كان يرى ان نظام الرق طبيعي وضروري لسلامة المجتمع ».

«ووجدت فكرة العدالة أيضا في منتصف القرن التاسع عشر ، ولم يجد رأسماليو إنجلترا أنها تتنافى مع الستة أو الثمانية عشرة ساعة التي كان يعملها الأطفال والنساء بحجة أن هؤلاء كانوا يتقاضون أجورا عن عملهم ، وكان بعض أصحاب المصانع لا يتردد في اقفال مصنعه ، وتشريد العمال ، اذا رأى أن هذا أربح له . ولم يكن يتألم ، ولم يكن يجد في عمله ما ينافي العدالة ، بحجة أنه كان ينقد العمال أجورهم يوما بعد يوم . »

« المبادئ والتصورات اذن : تعبر في مضمونها عن النظم الاجتماعية والاقتصادية القائمة في مجتمع معين ، وفي عصر معين أيضا ، وهي تفسر دائما تفسيرا يلائم هذه النظم . . . وفي كل مجتمع طبقي تغلب أخلاق الطبقة المسيطرة . »

ويقول أبو سيف يوسف بعد ذلك: «نستخلص من هذا أن حل المشكلات الاخلاقية مرتبط اوثق ارتباط بحل المشكلات الاجتماعية والسياسية . فان تنظيم الحياة الواقعية تنظيما يقوم على العقل والعلم ، هو الشرط لكل تجديد روحي وأخلاقي . وان ما يحدث تغيرا عميقا في سلوك الناس ، هو في الغالب تغير اقتصادي واجتماعي ، ولا يتم هذا على نطاق واسع الا في مجتمع اشتراكي ، تنظم فيه الحياة الاقتصادية وتوجه توجيهها في صالح الجميع . »

ثم يقول أبو سيف يوسف بعد الردود العلمية المحددة : « . . وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع ان نسفه آراء الاستاذ العقاد في غير ما مشقة . .

ا - يقول العقاد اننا نسلب كرامة الناس حين نوفر لهم الخبز ، وهذا قلب للحقائق ، لان توفير الخبز والعمل والتعليم للناس انما يتيح لهم التحرر من تفكير البطون ، ويصرفهم الى مستوى أعلى من النشاط الانساني ، واذا كان توفير الخبز للناس يسلبهم الكرامة ، فهل من الكرامة ان يكون هناك جوع ومتخمون ؟ واذا قال العقاد ان الناس يفضلون الجوع عن سلب الحرية ، فاننا نحب أن نتساءل وهل هناك حرية مع الحرمان ؟ .

ب - يرى العقاد أنه اذا تعفف الناس عن الشرور في المجتمع الاشتراكي ، فان هذه العفة اضطرارية وهي أشبه بفضيلة المسجون ، لانه اذا امتنع الناس عن السرقة مثلا فذلك لانهم « لا ينتفعون بالمال اذا سرقوه . . . وتلك فضيلة المضطر الى العفاف ، وليست هي بخير من محنة الاخلاق التي تمحصها التجارب ، ويتعفف عنها الناس وهم قادرون » ثم يقول ولذلك يحسب الماركسيون ان الشر قد زال لانه محبوس وراء الاقفاص والسدود» « واذا صرفنا النظر عن تصوره السقيم ، لشروط الفعل الاخلاقي الخير ،

فإننا نلاحظ أنه ما دام قد ثبت لدينا أن البنية الاجتماعية هي التي تصدر عنها الأخلاق فليس هناك محل للقول بأن ثمة أقفاصا تحبس فيها الفضائل، وأخرى تحبس فيها الرذائل، فإذا قلت الشرور وانخفضت في المجتمع الاشتراكي، فما ذلك إلا لأن العلاقات الاجتماعية الناتجة عن تنظيم الفوضى الاقتصادية، لا تسمح بوجود الشرور الرئيسية الكبرى المشاهدة في النظام الرأسمالي، والتي تتمثل في الفقر والبطالة والجهل والجفاء والنفاق، الذي يمثلها بعض الكتاب ورجال العلم، الذين يؤجرون أقلامهم وعلمهم ضد الشعب وفي صالح مستغليه» .

وأخيرا يرد أبو سيف يوسف على العقاد في اتهامه للماركسية بأنها ضد الملكية الخاصة وضد الوطنية أو القومية .

يقول أبو سيف يوسف : « أن القارئ يستنتج من كلام العقاد أن الماركسية تنكر حق الملكية الخاصة، وأنها ترمي إلى محق كل شكل من أشكالها، والواقع أن هذا غير صحيح بالمرة، فقد كان انجلز يعترف منذ البدء بأن الملكية الخاصة هي الدافع إلى الابتكار والإجادة، ولكنه في الوقت نفسه ينكر أن يكون هذا الحق الطبيعي في التملك وسيلة لأن يستغل إنسان إنسانا آخر، وقد لاحظ انجلز أيضا أن تسعة أعشار أعضاء المجتمع الذي يعيش فيه محرومون من الملكية الخاصة وبالتالي كان العشر الباقي يمارس هذا الحق ممارسة سيئة، تحول بين التسعة أعشار وبين الارتفاع إلى مستوى لائق ببشريتهم . وقد طبق هذا المبدأ الماركسي بكيفية تتفق مع ظروف المجتمع الداخلية والخارجية هناك «أي في روسيا»، وبحسب شكل هذا المجتمع وتكوينه، وطبقا للأوضاع التي قضت بها الثورة الاشتراكية في تطورها، فنرى أن ثمة نوعين من التملك في المجتمع السوفييتي :

١ - الملكية الاشتراكية وهذه تتناول وسائل وأدوات الإنتاج، أي أن هذه الوسائل والأدوات بعبارة أخرى ملك للدولة، أي لكل فرد من أفراد المجتمع .

٢ - الملكية الخاصة وهذه تشمل أدوات ووسائل الاستهلاك، وحق المواطنين في ملكية هذه الأدوات يكفله لهم القانون : فالدخل الشخصي، والاقتصاد الخاص، وأدوات استعمال الشخصي، كل هذه من حق مالكيها، كما أن توريث هذه الملكيات الخاصة من الحقوق التي يكفلها القانون للمواطنين .

وفي الاتحاد السوفييتي يتقاضى العامل أجره بحسب عظم المسؤولية الملقاة عليه، وتبعا لكيف وكم العمل الذي يؤديه، ومن ثم هناك تصاعد في

الاجور . ولذلك يستطيع العمال المهرة ، وكبار الموظفين ، والفنانين ، أن يقتصدوا من دخولهم وأن ينفقوا المبالغ المقتصدة في شراء ما يريدون من الكماليات : كالسيارات والراديو والحلى . . . الخ ولكن مهما ارتفع رصيد الفرد وتضخم ، فانه لا يستطيع أن يجني من ثروته ربعا عن طريق استغلال جهود مواطنين مثله . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان ثمة مبدأ يطبق بكل دقة وهو ان كل من لا يعمل لا يأكل» .

أما بالنسبة للماركسية وموقفها من القومية أو الوطنية فان « ابو سيف يوسف يرد على العقاد بقوله :

« كتب ماركس يقول : ان الشيوعيين يتميزون عن أجزاء الطبقة العاملة الأخرى ، بأنهم في النزاع الوطني لعمال البلدان المختلفة ، يشيرون الى مصالح البروليتاريا المشتركة ويقدمونها ، وذلك بمعزل عن كل قومية - ثم يقول « ماركس » في موضع آخر : ليس للطبقة العاملة وطن ، انما لا نستطيع أن نأخذ منهم ما لم يحصلوا عليه » .

« هذه الافكار التي نراها في كتب ماركس ، لا ينبغي ان تؤخذ على حرفيتها ، ومن المغالطة كل المغالطة ان نجردها عن ملابسها التاريخية التي قيلت فيها ، فقد كتب ماركس هذا في الوقت الذي كانت فيه الطبقات الحاكمة تنزع الى تحقيق مطامعها الاستعمارية تحت ستار براق من الوطنية الخادعة ، وهذا ما اظهرته لنا بجلاء حرب سنة ١٩١٤ وهي الحرب التي اکتوت بنارها الطبقات العاملة وكانت وقودا لها ، فكانت الدعوة التي وجهت الى العمال بعدم الاشتراك فيها دموة سليمة الاساس ، ولكن عندما تعلن أمة من الامم الحرب لقضية عادلة ، قضية ترتبط أوثق ارتباط بتقدم البشرية كما حدث في الحرب الأخيرة ضد الفاشية ، التي تمثل أبشع انواع الاستعمار ، فانه يتحتم على الطبقات العاملة أن تشترك في النضال وأن تكون في طليعته » .

« صحيح ان ماركس وانجلز قد حملا على وطنية البرجوازيين المتبدلة ، ولكنهما كانا أبعد من ان يعاديا الوطنية او يحقرا من شأنها . ومبدأ اللاوطنية مبدأ لا تسلم به الماركسية . وقد أشار ماركس وانجلز الى ان الطبقة العاملة عندما تكون في الحكم ، فانها تكون بنفسها الامة باعتبارها الطبقة القائدة ، ومن ثم تكون وطنية ، وان كانت وطنيتها مجردة عن الطابع العدواني ، الذي تتميز به وطنية البورجوازية المستغلة . وهذا ما اظهرته الحرب الأخيرة ، فقد كان الماركسيون قادة الكفاح ضد النازية والفاشية ، في فرنسا واليونان ويوغسلافيا ، وقد حققوا انتصارات باهرة ، في الوقت

الذي كان فيه رأسماليو جميع البلاد المحتلة ، يتعاونون علنا مع المستعمر النازي ، ولا ينبغي في هذا المقام أن يغيب عنا مثال بيتان نصير النازيين ، وممثل الوطنية المتطرفة قبل الحرب» .

« الماركسية اذن لم تنكر ولا تنكر الوطنية والشعور الوطني ، ولذلك يخطيء العقاد حين يدعي أن « الروس قضوا عشرين سنة يناهضون مبادئ الوطنية ، ثم عادوا فاعترفوا بالعصبية القومية » فالواقع ان الاتحاد السوفييتي قد عمل منذ نشأته على حل مشاكل القوميات المتعددة ، التي كانت تشيع في أرجاء روسيا القيصرية ، فقد كانت هذه القوميات تلاقى اضطهادا وظلما ، ولم يكن يعترف بلغتها الاصلية ، بل ان بعض القبائل لم تكن لها لغات مكتوبة، ولكن الثورة الاشتراكية تعهدت هذه الاقليات القومية، واجازت لها استخدام لغتها الاصلية كلفة رسمية ، تستعمل في محاكمها ومدارسها ومعاهدها ، والمعاملات الحكومية ، فاستطاعت كل اقلية أن تقيم المسارح وتنشر الكتب والجرائد بلغتها القومية » .

هذه هي خلاصة اراء العقاد في الماركسية وخلاصته رد الماركسيين عليها. ورد «أبو سيف يوسف» بالذات على العقاد يتسم بالعمق والشمول، والروح العلمية والموضوعية الدقيقة ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن هناك جوانب أساسية في نقد العقاد للماركسية لم تجد ردا مقنعا عليه ، فاذا كانت الماركسية - في النظرية والتطبيق - قد اهتمت اهتماما واسعا بمفهوم الحرية الاجتماعية ، وبالمؤثرات الاقتصادية التي تحدد مفهوم الحرية وتؤثر فيها هذا التأثير البالغ . . . اذا كانت الماركسية قد اهتمت بهذا المعنى الخاص الصحيح او العميق للحرية، وقدمت اضافات ملموسة وبارزة في هذا المجال الى الفكر الانساني ، الا أن الماركسية لم تقدم حلا - لا في النظرية ولا في التطبيق لمشكلة حرية التعبير ، فالمجتمع القائم على اساس الفكر الماركسي ، لا يبيح لغير الماركسيين أن يعبروا عن آرائهم ، أو وجهات نظرهم المختلفة ، وهذا الجانب بالذات هو مصدر اعتراض على الماركسية ومصدر نقسدها ، صحيح أن بعض المجتمعات الرأسمالية تحارب الفكر الماركسي بقسوة وعنف ، ولكن الخطأ لا يبرر الخطأ كما أننا نلاحظ من ناحية أخرى حرية الفكر الماركسي في التعبير ، داخل بعض مجتمعات أوروبا الغربية ، التي تأخذ سياسيا بالنظام الديموقراطي الليبرالي ، مثل فرنسا وإيطاليا وإنجلترا .

ومن ناحية ثانية فإن المسألة القومية - التي أشار اليها العقاد تبدو غامضة في الفكر الماركسي الى أبعد الحدود ، فهناك نصوص تقبرر أن

الماركسية لا تعترف بالقوميات ، وترى ان الرابط الاساسي بين البشر هو «الاممية» في ظل مبدأ وحدة الطبقة العاملة ، ونجد نصوصا أخرى لدى بعض المفكرين الماركسيين يؤيدون فيها القوميات الضعيفة ويناصرونها ، وقد أورد « أبو سيف يوسف » في رده على العقاد نصا لماركس ضد الوطنية هو قوله « ليس للطبقة العاملة وطن ، اننا لا نستطيع أن نأخذ منهم ما لم يحصلوا عليه » ونجد نصا ماركسيا آخر يورده « أبو سيف يوسف » في رده على العقاد ، وهذا النص هو كلمة قالها لينين في سنة ١٩١٧ يناصر فيها القوميات ... يقول لينين في هذه الكلمة :

« يا مسلمي روسيا ، وتارتار الفولجا والقرم ، يا قرغيز وسارتييس سيبيريا والتركستان ، يا أتراك وتارتار عبر القوقاز ، ان معتقداتكم ومؤسساتكم ، وثقافتكم القومية ، ستكون منذ الآن حرة لا يعتدى عليها» ... واذا كانت كلمة لينين في روحها لا في نصها المباشر - مؤيدة للقوميات ، حيث لم يتحدث صراحة عن القوميات ، وانما تحدث عن المعتقدات والمؤسسات والثقافة القومية! ... اذا كانت صحيحة لينين تؤيد القوميات ، فان كلمة ماركس تسجل رفضا صريحا للقوميات ، وهذا ما نلاحظه عموما في الفكر الماركسي

ان موقف الماركسية من قضية «القومية» يشوبه الغموض والتناقض احيانا ، ولقد فرضت القضية القومية نفسها في تجارب تاريخية واقعية هامة ، من بينها التجربة التاريخية للامة العربية ، حيث تتجه هذه الامة الى الوحدة في ظل مبدأ القومية العربية ، ولقد كان الوطن العربي وما زال يخوض في سبيل الوحدة نضالا أصيلا في سبيل التقدم ، ولا يمكن وصفه بأنه نزعة عنصرية ، كما لا يمكن التقليل من شأنه كنضال قومي تاريخي ضد الاستعمار والتخلف . كذلك ظهرت أيضا القضية القومية في ميدان الصراع بين روسيا والصين ، رغم أنهما معا يؤمنان بنظرية واحدة هي الماركسية ، وكانت مشاكل الحدود بين روسيا والصين - وما زالت - مظهرا من مظاهر الصراع بين القوميات .

فالقضية القومية اذن ومكانتها الحقيقية في الفكر الماركسي ما تزال قضية غامضة وهي مصدر آخر من مصادر النقد الموجه الى الماركسية ، وهي نقطة أثارها العقاد بأسلوبه التشهيري غير العلمي ، ولكنها مع ذلك نقطة صحيحة ، ولم يكن رد « أبو سيف يوسف » على العقاد ردا وافيا او مقنعا في هذا المجال بالذات ، رغم انه كان قويا ومقنعا في القضايا الأخرى التي ناقشها وأشار اليها . بقي ما اشار اليه العقاد من استخدام

العنف في الثورات التي فجرتها الماركسية ، وهي نقطة صحيحة .
فالعنف الذي ارتبط بميلاد الثورات الشيوعية ، وارتبط أيضا بتكوين المجتمعات الشيوعية ، سيظل مصدرا للنقد حتى لدى الذين يحترمون النظرية الماركسية ، ويعترفون لها بالعمق والقيمة . صحيح أن عددا من الثورات الكبرى في التاريخ ، قد اتسمت بالعنف ، حتى قبل ظهور الفكر الماركسي ، مثل الثورة الفرنسية ، ولكن الثورة الفرنسية أيضا تعرضت للنقد بسبب هذا الاتجاه الى العنف رغم ما للثورة الفرنسية من فضل على التاريخ الانساني ، وستظل نقطة استخدام العنف في المجتمعات الشيوعية ، بوحى من نظرية « الصراع الطبقي » في الماركسية ، مصدرا من مصادر النقد للماركسية وهذا النقد ليس موجها من أعداء الماركسية مثل العقاد فقط ، ولكنه - كما أشرت - نقد موجه أيضا من الذين يحترمون الماركسية ويعترفون بقيمتها وأهميتها .

هذه بعض القضايا الرئيسية التي تمثل مصادر لنقد الماركسية ، والتي ما تزال حتى الآن في حاجة الى رد مقنع عليها من جانب الفكر الماركسي . .
فالماركسية - رغم اضافاتها الهامة والعميقة الى الفكر الانساني - لم تقدم ردا مقنعا على بعض القضايا وفي مقدمتها : حرية التعبير في المجتمع الشيوعي ، وموقف الماركسية من القضية القومية ، واستخدام العنف في بناء المجتمعات الشيوعية الجديدة .

على أن العقاد من ناحية أخرى رغم أنه قد مس هذه القضايا التي تمثل مصدرا من مصادر نقد الماركسية ، إلا أنه وقع في اخطاء واضحة وأساسية أشار الى كثير منها أبو سيف يوسف وسجلها عليه .

ومن هذه الاخطاء التي يمكن أن يأخذها أي باحث محايد على العقاد في نقده للماركسية ، أن العقاد كما هو واضح لم يهضم الفكر الماركسي ولم يدرسه بدرجة تسمح له بنقده على هذه الصورة الشاملة العنيفة ، فاستخدام العقاد كلمة « المادية » يكشف تماما أن العقاد يفهم المادية بمفهوم شديد القصور ، وهو مفهوم عامي وليس مفهوما علميا ، كما أن العقاد يكشف من ناحية أخرى عن عدم النام بأبسط المعلومات عن الاقتصاد، وعن دوره في تكوين المجتمعات الانسانية ، ومثل هذه الدرجة من الجهل بالاقتصاد ، لا تتيح لصاحبها فرصة سليمة لمناقشة نظرية مثل الماركسية ، تقييم وزنا كبيرا للفكر الاقتصادي ، كما أن ربط العقاد - وقد أشرنا الى ذلك من قبل في بداية هذا الفصل - بين النازية والماركسية مرة وبسبين الرأسمالية والماركسية مرة أخرى ، يدل على أنه تعرف على الماركسية من

بعيد ، فأصيب بضعف في الرؤية الفكرية ، ولم يتمكن من التمييز بين الماركسية ونقائضها ، حيث ان النازية والرأسمالية يقفان تماما في الموقف المناقض للماركسية، من الجانب النظري والجانب التطبيقي على السواء ، كذلك كان أسلوب العقاد التشهيري في نقد الماركسية هو احد العناصر التي أضعفت موقفه ، لان اللجوء للسب والشتم والحط من آدمية المفكرين الماركسيين على غير اساس ليس أسلوبا علميا، انما هو أسلوب حزبي مكروه، وهو في بعض الاحيان أسلوب تستخدمه القوى السياسية المختلفة ، كوسيلة من وسائل الدعاية او الحرب النفسية... . احيانا يستخدمه الرأسماليون ضد الشيوعيين ، وأحيانا يستخدمه الشيوعيون ضد أعدائهم... . وهو في الحالين نوع من الحرب السياسية ، وليس نوعا من الفكر العلمي الموضوعي .

وقد وقع العقاد في هذا الخطأ ، ووصل فيه الى أبعد مداه ، عندما استخدمته السفارة الأمريكية في تقديم بعض الكتب المعادية للشيوعيين... . ولا شك عندي أن العقاد لم يكن عميلا لاحد ، ولكنه - في رأيي - وقع في هذا الخطأ من فرط حماسه وكراهيته العاطفية للشيوعيين ، وهي الكراهية التي لم تمكنه من ان يضبط تفكيره ومواقفه . على اساس من القواعد العلمية والقواعد الاخلاقية السليمة .

وأخيرا فقد كان خطأ العقاد الرئيسي هو أنه لم ينطلق في اعتراضه على الماركسية من موقف فكري متكامل ، فلم يكن صاحب نظرية محددة ينقد الماركسية من خلالها ، ولم يقدم بديلا للماركسية ، بل قدم أفكارا متناثرة لا يتكون منها في مجموعها اي موقف متكامل... . فهو ينادي في كتابه « في بيتي » بالتعاون كحل للمشاكل الاجتماعية ، وعندما نحاول ان نتببع فكرة « التعاون » هذه عند العقاد ، فاننا نجد فكرة غامضة ، أقرب الى أن تكون فكرة اخلاقية تتصل بتنمية الضمير الفردي ، وتعتمد عليه في تنظيم المجتمع وتحقيق العدالة... . وفكرة التعاون على هذه الصورة لا تحل مشكلة فردية ولا مشكلة اجتماعية... . ولو أن العقاد تعمق في الفكر السياسي الغربي المعاصر بصورة ناضجة ، لوجد على سبيل المثال أن المفكرين الانجليز المعاصرين له من أمثال برناردشو ولاسكي وسيدنسي وبياترس وييب قد فهموا الماركسية حق الفهم ، واستفادوا منها أعظم الفائدة ، ثم اختلفوا معها في نقاط معينة ، وشقوا لانفسهم طريقا خاصا في الفكر السياسي ، وأصبحوا من اعلام الاشتراكية « غير الماركسية »... . فاستفادوا من الماركسية بقوة وعمق ، دون ان يدوبوا فيها ، او ينقادوا

وراءها في كل تفاصيلها ، ولكن العقاد عارض الماركسية دون ان يدرسها دراسة عميقة ، ودون أن يقدم بديلا واضحا لها ، ودون أن يتمكن من وضعها في حجمها الصحيح بالنسبة للفكر الانساني ، والعداء للماركسية على طريقة العقاد لا يمكن ان يقبله اي مفكر تقدمي بحال من الاحوال .

وقد تحول موقف العقاد من الماركسية في نهاية الامر الى حالة نفسية قريبة من المرض ، وهذه الحالة هي التي « يصورها لنا أحمد بهاء الدين خير تصوير في كتابه «مبادئ وأشخاص» حيث يقول «ص ١٠٣ ، ١٠٤» . . . وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٥٦ أي قبل وفاة العقاد بحوالي ثمانين سنوات :

« أصبح الخلاف مع الاستاذ العقاد شيئا رهيبا مخيفا حقا ! . . . فقد أعلن في حديث له مع مجلة « الرسالة الجديدة » ان كل الذين يتصدون له بالنقد أو الخلاف . . . شيوعيون ! . . . وطالب بأن يعاملهم الناس بوصفهم جواسيس رسميين ! الامر الذي لم يصل اليه «مكارثي» نفسه في حملته على حرية الفكر ، واحرقه للكتب في امريكا . ورأى العقاد في الشيوعية من شأن الشيوعيين وحدهم ، فليس يعني اني ان تعرض له . ولكن الذي يعني مثلي هنا . . . هو تلك الهستيريا التي استولت على العقاد فأصبح يرى أن كل من يخالفه في الرأي أو كل من يقذف محرابه بحصاه ، شيوعي . . . وأن كل فكرة يرفضها أو يعجز عن الايمان بها شيوعية ! هذه الهستيريا تذكرني احيانا بوزير حربى امريكا السابق ، جيمس فورستال ، الذي فقد عقله ونقل الى مستشفى المجاذيب ، فكان كلما رأى مخلوقا أسرع يختبئ تحت السرير وهو يصيح : الجيش الاحمر !

فالعقاد لا يكاد يتعرض له أحد ، حتى يسرع بالاختباء خلف ستار من السباب ويصيح : الشيوعيون ! » .

هذه هي الصورة التي رسمها أحمد بهاء الدين للعقاد ، في عدائه للشيوعية والفكر الماركسي عموما ، وخاصة في السنوات الاخيرة من حياته ، وهي للأسف صورة صحيحة . . . وقد أصبح موقف العقاد من الماركسية أشبه بحالة نفسية مرضية ، منه بموقف فكري يعارض وينتقد ويرفض .

ولا بد أن نشير هنا الى ما اندفع اليه العقاد من اتهامات تشهيرية بالفكر الماركسي ورجاله ، وعلى رأسهم كارل ماركس ، تحت تأثير تلك الحالة النفسية التي أصيب بها ، فخرج بذلك من مجال نقد الماركسية ، الى مجال

التجريح العنيف لمفكرها وزعمائها. وقد سبق ان نقلنا عبارة العقاد عن وصف
ماركس بأنه « لم يحي حياة انسانية قط » وعلى هذا الاساس فقد اتهم
العقاد ماركس بأنه لا يعرف العواطف الانسانية الصحيحة ، وانما هو رجل
جامد العاطفة ، جامد الاحساس ، ومن هنا فلا يمكن أن تخرج على يديه
نظرية انسانية صحيحة ، وحول هذا الجانب الشخصي الذي طالما رده
العقاد كاتهام ضد كارل ماركس ، ردت مجلة « الفجر الجديد » الماركسية
التي كانت تصدر بالقاهرة في الاربعينات ، بترجمة فقرات من كتاب
« الماركسية والفرد » من تأليف « اسقف كنترييري » الانجليزي المعروف ،
والذي كان يطلق عليه اسم « الاسقف الاحمر » .
وتبدأ مجلة « الفجر الجديد » ترجمة هذه الفقرات بمقدمة عن موقف
العقاد من ماركس تقول فيها : « مجلة الفجر الجديد عدد ٩ - ١٦ ، سبتمبر
سنة ١٩٤٥ :

« يتهم العقاد الماركسية بالباطل في كل شيء ، ولقد زعم ان
ماركس لم يحي حياة انسان ، وحقا أن ماركس لم يكن يتصف بالصفات
الاساسية التي تجعله انسانا في نظر العقاد وأشباهه ، فهو لم يكن أنانيا ،
ولا بوقا للرأسماليين والمستغلين ، ولا داعيا يفسد كل القيم ليعيش في لين
ويسر ، بينما الملايين من البشر مستعبدون مضطهدون لقد كانت حياة كارل
ماركس وحدة كاملة من العواطف والآراء ، وكانت حياته الشعورية فياضة
زاخرة لان مادتها المجتمع الانساني كله ، وكانت اغنية دافقة ، لان معينها
العقل ، وكانت في أرقى ما تكون الحياة الانسانية لانها جمعت الى فيض
الشعور ، سيطرة الفكر وجهاد الحر الكامل لتتحرر الانسانية » . وبعد
هذه المقدمة التي كتبتها الفجر الجديد « تعليقا على رأي العقاد في ماركس »
نقلت فقرات من كتاب « اسقف كنترييري » وفي هذه الفقرات يقول الاسقف
الانجليزي :

« جاءت الماركسية خلافا للآراء الشائعة من روح رقيق عطوف
هو روح كارل ماركس » ثم يقول الاسقف الانجليزي :
« كان نشاط ماركس انعكاسا لعاطفة لا تهدأ ، أثارها ما خلفته الرأسمالية وراءها
من مخاز ، ونفخ فيها رغبة ماركس وزميله أنجلز في تخفيف آلام الانسانية ، والعمل
على تحسين حالها ، لقد وقفوا حياتهما على أئمن ما يقف انسان حياته
عليه على تحرير الجنس البشري والسير به الى حياة كلها غناء
وضحك » .

ثم يتحدث الاسقف الانجليزي عن علاقة ماركس بزوجته فيقول :

« لقد قيل عن ماركس انه يعبد قديسين ثلاثة : « أباه وأمه وزوجته »
- فأما حبه لزوجته فقد كان يضطرم في الكبر بنفس العنف الذي اضطرم
به في سن الشباب ، وتروي ابنته ما حدث بين أبويها حينما دخل الأب
على أمها وهي تعاني آلام السرطان ، وكان هو قد شفي منذ وقت قريب من
داء ذات الجنب فتقول: لن أنسى هذه اللحظة ما حييت، لقد ارتدا صغيرين
مرة أخرى ... عادت هي شابة محبة ، وانقلب هو الفتى المحب يعبدها ،
وكأنما كانا يبدآن الحياة معا ، وليس رجلا شيخا هذه المرض ، وعجوزا
تموت يودع احدهما الآخر !! » ... ثم يتحدث الاسقف الانجليزي عن
الحياة القاسية التي عاشها ماركس في لندن فيقول :

« جاء في خطاب أرسلته جين ماركس - زوجته - الى صديقتها مسز
« ويد يميز » وصف ليوم في حياتها قالت فيه : كان استخدام مربية تقوم
على أطفالي شيئا خارجا عن الطوق ، وعلى هذا قررت أن أتولى الطفل
بنفسي ولكن الملاك الصغير المسكين كان يرضع الهم مني مع اللبن .
فمرض أول يوم في حياته ولزم الفراش ليله ونهاره ولم تكن نستطيع
أن ندفع الإيجار مرة واحدة ، فدخل علينا رجلان من رجال البوليس جمعا
أشياء كلها : من سرر وفرش وملابس ، ولم يتركا حتى مهد طفلي المسكين
ودميات الفتاتين الصغيرتين اللتين وقفنا ننظران وتبكيان بكاء مرا . وهددنا
الرجلان بأن يأخذا كل شيء لدينا في ساعتين أما أنا فكنت أرقد
على الأرض العالية ، وحولي أطفال تجمدوا من البرد ، وقد ورم منسي
الثديان » .

« ثم يتحدث الاسقف الانجليزي عن علاقة ماركس بالأطفال
فيقول :

« ثم انتقل ماركس الى غرفتين صغيرتين في شارع دين ، وكانت
العائلة بأكملها تنام في احدهما ، وكأنت الثانية تستعمل مطبخا وغرفة
للجلوس ومكتبا في وقت واحد وفيها كتب ماركس معظم « رأس
المال » والأطفال من حوله يلعبون . ومن حسن الحظ أن ماركس كان يحب
الأطفال ويحدثنا « ليبكينيكث » وغيره عن حبه العميق لأطفاله وأطفال
غيره ، مما هون عليه أمر الغرفتين المزدحمتين وكان أطفال تلك
الجيرة الفقيرة من شارع دين يسمونه « بابا ماركس » ، ولطالما كان يتنزه
معهم في البقعة المسماة « هامبستيد هيث » وكثيرا ما قال لأصدقائه : ان
أكثر ما يؤثر فيه من أمر المسيح حبه العظيم وحده على الصغار » .
بهذه الفقرات التي نقلتها مجلة (الفجر الجديد) الماركسية عن « أسقف

كنتربيري» ردت المجلة على اتهام العقاد لماركس بالنقص والقصور فسي مواطنه ومشاعره الانسانية . ولا شك أن العقاد تجاوز في نقده للماركسية الميدان الموضوعي الى التشهير والتجريح لمفكرها وزعمائها دون أن يستند في هذا التشهير والتجريح على معلومات دقيقة وكان باستطاعة العقاد أن يقتصر في نقده للماركسية على نقد افكارها المختلفة ، ويحصر معركته مع الماركسية - كما يفرض الموقف العلمي - في ميدان النقد الموضوعي وحده . . . ولكنه تجاوز هذه الحدود ، حتى أصبحت كراهيته للماركسية كما أشار أحمد بهاء الدين بحق نوعا من المرض النفسي ، ولم يقتصر الامر على مجرد النقد العلمي الموضوعي للماركسية . . . وهو الموقف الذي يحق للعقاد ولغيره من الكتاب ان يأخذوه من الماركسية ومن غيرها من الافكار والمذاهب ، خاصة وأن الماركسية بالذات قد تعرضت لموجة من النقد حتى بين صفوف انصارها ومؤيديها في الغرب .

بقيت نقطة أخيرة حول علاقة العقاد بالماركسية ، تلك النقطة هي ان العقاد لم يهاجم الماركسية من موقع فكري فحسب ، وإنما هاجمها من موقع آخر كمفكر ديني يرى في الماركسية رفضا للاديان وانكارا لها ، وهاجمها من ناحية أخرى ككاتب « حزبي » ارتبط في حياته السياسية بمجموعة من الاحزاب المعارضة للحركة الشيوعية معارضة كاملة .

وموقف العقاد كمفكر ديني لا يحتاج الى ايضاح ، فمن الطبيعي أن يرفض مفكر ديني محافظ مثله فكرا « لا دينيا » مثل الفكر الماركسي . أما الذي يحتاج الى ايضاح فهو موقف العقاد ككاتب حزبي .

لقد مر العقاد كما سبقت الاشارة - بمرحلتين في حياته السياسية ، المرحلة الاولى هي مرحلة ارتباطه بالوفد المصري من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥ ، والمرحلة الثانية هي مرحلة ارتباطه بأحزاب الاقلية الرجعية من سنة ١٩٣٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ . وفي الجزء الثاني من حياة العقاد الحزبية ، حيث ارتبط بأحزاب الاقلية الرجعية يبدو من الطبيعي أن يكون العقاد معارضا للفكر الماركسي ، فقد كانت أحزاب الاقلية تعتمد على الاقطاعيين والرأسماليين ، وهم بحكم مصالحهم معارضون للفكر الاشتراكي بشتى مدارس واتجاهاته .

أما بالنسبة للجزء الاول من حياة العقاد الحزبية ، وهو الجزء الذي ارتبط فيه بالوفد فهو الجزء الذي يحتاج الى وقفة قصيرة .

لقد اصطدم الوفد سنة ١٩٢٤ تحت قيادة سعد زغلول ، وفي ظل

رئاسته للوزارة ، بالشيوخيين اصطداما عنيفا ، وكانت الحركة الشيوعية الناشئة آنذاك تأمل أن تجد لنفسها مكانا في الحياة السياسية بعد اعلان دستور ١٩٢٣ وقيام الحكم الديمقراطي البرلماني في مصر ، وحاولت الحركة الشيوعية أن تستغل الظروف السياسية التي نشأت بعد ثورة ١٩١٩ للظهور بقوة في الحياة السياسية المصرية . وقد قام العمال تحت تأثير الشيوعيين وتحريضهم وقيادتهم بحركة استيلاء على بعض المصانع في اوائل ١٩٢٤ ، ويحدثنا الدكتور عبد العظيم رمضان في كتابه عن «تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦» عن رد فعل سعد زغلول وحكومته ازاء موقف الشيوعيين فيقول في صفحة ٥٤٣ :

«اعتبرت حكومة سعد باشا انفجار هذه الحركة بمثابة اشارة البدء في تنفيذ الفكرة الشيوعية بالاستيلاء على المصانع . فقد اعتبرت احتلال المصانع عملية اغتصاب ، ويفهم هذا من نداء سعد باشا الذي وجهه الى العمال حيث قال : «انكم ان احترمتم ملكية الغير وخرجتم من مكان الشركة طوعا ، فانكم تعاملون معاملة المخلصين للقانون والوطن ، وان ابستم الا احتلال ملك الغير اغتصابا فانكم تعاملون معاملة الخارجين على القانون» . ثم يقول الدكتور عبد العظيم رمضان بعد ذلك :

«هبت وزارة سعد باشا لمقاومة الحركة بكل قواها ، واتخذت الاستعدادات اللازمة لقمعها بالقوة المسلحة اذا اقتضت الحال ، وفي ذلك اوفدت الى الاسكندرية علي جمال الدين باشا وكيل وزارة الداخلية ، ووضعت تحت تصرفه قوة من الجند اُرسلت خصيصا من القاهرة ، كما اوفدت المستر «كين بويد» رئيس القسم الاوروبي في ادارة الامن العام للمساعدة وتركزت جهودها في ضرب الحزب الشيوعي ، واتحاد النقابات التابع له . فقد بدأت بمنع المؤتمر الشيوعي من الانعقاد في المدينة ، واناطت بالبوليس هذه المهمة ، ثم اشارت على النيابة العمومية الاهلية بتفتيش نادي الحزب في الاسكندرية ، ومنازل اعضائه والمنتسبين اليه في سائر بلدان القطر . وبناء على هذا تم كبس منازل اعضاء اللجنة المركزية ، ونابادي الحزب واتحاد النقابات . وكان البحث يدور على ما يثبت اشتراك الحزب في حركة العمال او تحريضه عليها . وفي ٥ مارس اصدر النائب العمومي امرا باعتقال كل من حسني العرابي ، وانطون مارون ، والشيخ صفوان ابي الفتح ، والشحات ابراهيم ، من زعماء الحزب الشيوعي المصري . ثم اصدر سعد زغلول نداءه السالف الذكر الى العمال الذي هددهم فيه بمعاملتهم معاملة الخارجين على القانون والمغتصبين ، وقد فهم العمال هذا

التحذير فخرج عمال معمل الخواجات ابي شنب من المعمل في هدوء ، وانتدبوا بعض رؤسائهم للمطالبة بحقوقهم ، أما عمال الغزل وعمال شركة الزيت ، فقد خرجوا من المصنع بناء على تدخل علي جمال الدين باشا . وانتهى الصدام بين حكومة سعد زغلول وبين الشيوعيين باعتقال زعماء الحزب الشيوعي ، والحكم عليهم بالسجن ، وكان أشهرهم حسني العرابي وقد حكم عليه بثلاث سنوات .

وهكذا نجد ان الوفد قد اصطدم منذ بدايته بالحركة الشيوعية اصطداما عنيفا ، وكانت اول قضية شيوعية في مصر يحاكم فيها الشيوعيون ، هي القضية التي اقامتها حكومة الوفد الاولى سنة ١٩٢٤ ، ضد الحزب الشيوعي وزعمائه .

وكان من الطبيعي ان يصطدم الوفد بالشيوعيين فالوفد حزب وطني «بورجوازي» ديمقراطي ، يعتمد بالدرجة الاولى على الطبقة الوسطى ، التي كانت قد بدأت تقوى وتشتد ، في الربع الاول من هذا القرن ، والتي كانت تحمل الكثير من الملامح الثورية الوطنية في مواجهة الاحتلال والاقطاعيين . ولكن حزب الوفد لم يستطع ان يمتد بجذوره الى العمال والفلاحين على نطاق واسع ، فالظروف لم تكن تمكن الحزب من هذا الامتداد ، كما ان المعركة الوطنية الاساسية كانت قائمة ضد الاستعمار واعوانه من الرجعيين المحليين ، ولم يكن بالامكان ان تكون طبقة العمال الناشئة الضعيفة هي قائدة ثورة ١٩١٩ ، وكان لا بد ان تكون القيادة للطبقة الوسطى التي وجدت زعيمها في شخص سعد زغلول ، فالطبقة الوسطى هي التي نالت قدرا من التعليم ووصلت الى مستوى من الوعي ، مكنها من ان تحتل مكان القيادة في الثورة الوطنية التي قامت اساسا لمحاربة الاحتلال الانجليزي .

في هذه البيئة الوفدية المعادية للشيوعيين ، تفتح وعي العقاد السياسي ، وعن هذه البيئة اخذ بدور معارضته للشيوعيين ، وقد ظلت معارضة العقاد للحركة الشيوعية هادئة وغير حادة عندما كان في صفوف الوفد ، ذلك لان المعركة بين الوفد والشيوعيين ، باستثناء الاصطدام الاول العنيف في عهد سعد زغلول ، كانت معركة هادئة ، بل لقد كان الشيوعيون والوفديون يتحالفون احيانا في بعض المواقف ، كما ظهر في حزب الوفد نفسه جناح يساري متطرف ، كان يمثل ما سمي في الاربعينات باسم « الطليعية الوفدية » . . . فلقد كان الوفد بحكم تكوينه التاريخي حزبا شعبيا ، لا يستطيع ان يدخل في صدام نهائي مع الحركات اليسارية التي تحاول ان تعبر عن مصالح الطبقات الشعبية المختلفة .

على ان عداء العقاد للشيوعيين قد اشتد واحتد وازداد عنفا ، بعد انضمامه لاحزاب الاقليات الرجعية ، وكل كتابات العقاد العنيفة ضد الماركسية وضد الشيوعيين ، ظهرت بعد انضمامه للسعديين سنة ١٩٣٧ ، فالسعديون وغيرهم من الاحزاب الرجعية كانوا يعتمدون على مصالح طبقية ، هي مصالح الاقطاعيين والراسماليين ، وهذه المصالح متناقضة اشد التناقض مع فكر الشيوعيين وسائر الافكار اليسارية والتقدمية ... ومن قلب هذا المعسكر الرجعي شق العقاد هجومه على الماركسية .

العقاد والنازية

في كتاب «عصر ورجال» يقول الاستاذ فتحي رضوان في الفصل الذي كتبه عن العقاد :

«لقد بزغ نجم هتلر سنة ١٩٣٣ ، وشاعت الدعوة النازية في كثير من بلاد العالم ، حتى وصلت الى بريطانيا معقل الديمقراطية ، عدوة الانظمة الكلية والدكتاتورية ، وقد كانت مهاجمة هذا المذهب وهو في البداية اولى ، لان الناس في حاجة الى من يبصرهم بخطر المذهب الضار اول سماعهم به ، لكي لا يقعوا فريسة له ، ولكن العقاد لم يقل في حق هتلر شيئا ، او شيئا ذا قيمة ، حتى اذا قامت الحرب ، وانعقدت الخصومة بين المانيا بلد هتلر وبريطانيا ، سارع العقاد بتأليف كتابه «هتلر في الميزان» وراح يعدد عيوبه ، وعيوب مذهبه فأقام على نفسه الحجة ، بأن الكتاب كان خدمة لجهـاز الدعاية البريطانية ، فبعد اندلاع الحرب بين المانيا وبريطانيا ، لم يعد كتاب العقاد مطلوبا ، الا لتجميع الناس حول بريطانيا وحلفائها ، بعد ان بات الامر للمدفع والطيارة ، ولقد عزز العقاد كتابه بأحاديث في الاذاعة التي كان يشرف عليها بدورها الانجليز ، خلال فترة الحرب وما بعدها ، وقد فهم بعض شباب العرب موقف العقاد هذا الفهم ، فلما زار فلسطين في سني الحرب حاولوا اغتياله باطلاق الرصاص عليه ، ولما خيل اليه ان الالمـان سيقترحون مصر بعد ان وصل جيشهم الى العلمين ، هاجر الى السودان» «ص ٢٣٩ و ٢٤٠ من كتاب عصر ورجال» .

هذه الكلمات التي كتبها الاستاذ فتحي رضوان عن موقف العقاد من النازية ، هي الفكرة الشائعة عن العقاد ، والتي رددتها الكثيرون ، وخاصة من نقاد العقاد وأعدائه ، حيث يعتبر هؤلاء ان العقاد كان معارضا

للنازية لحساب الانجليز ، وأن كتابه عن هتلر كان جزءا من الدعاية الانجليزية ضد المانيا والنازية .

فهل كان هذا الاتهام حقيقيا ام ان العقاد قد وقف ضد النازية عن عقيدة واقتناع ؟. ان الدليل الاساسي ضد العقاد هو انه لم يهاجم «هتلر والنازية» الا بعد قيام الحرب . ولكن هذا الدليل نفسه غير صحيح من الناحية التاريخية . فالعقاد كان من اسبق الكتاب في الشرق كله الى مهاجمة النازية ، حتى قبل ان تظهر في المانيا ، فالجدور الاولى للنازية هي الفاشية الايطالية ، وقد ظهرت الفاشية وظهر زعيمها موسوليني فسي العشرينات ، وكان ظهور الفاشية تمهيدا لظهور النازية بعد ذلك . والفاشية والنازية هما وجهان لعملة واحدة ، ومظهران مختلفان لاتجاه سياسي واحد ، وقد تحالفا في الحرب العالمية الثانية حتى النهاية .

وفي سنة ١٩٢٨ نجد ان العقاد يصدر كتابا هو «الحكم المطلق في القرن العشرين» وفي هذا الكتاب الذي ألفه العقاد وهو كاتب الوفد الاول آنذاك ، وبعد وفاة سعد زغلول بعام واحد ، وأهداه الى «مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول وعنوان ثقة الامة المصرية» . . . في هذا الكتاب يهاجم العقاد الفاشية هجوما عنيفا ، وكانت الفاشية في أوج ازدهارها ونجاحها ، بل ان العقاد في هذا الكتاب يكشف - في وقت مبكر جدا - عن العلاقة بين الفاشية في بدايتها وبين النظم الرأسمالية الغربية . وهي العلاقة التي تكررت بعد ذلك بين النازية والنظم الرأسمالية الغربية في بداية ظهور النازية .

يقول العقاد في هذا الكتاب كاشفا عن العلاقة بين الرأسمالية الغربية ، والرأسمالية الانجليزية على وجه الخصوص ، وبين الفاشية «ص ٤٥ وما بعدها من كتاب الحكم المطلق في القرن العشرين» : «كتبت عن الفاشزم في أوروبا وأمريكا عشرات من الكتب ، ومئات من الرسائل والمقالات ، اكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التي يقوم بها الفاشيون في كل مكان ، وكثرة الاغراض التي تدور حول الدفاع عن هذا المذهب ، بين اصحاب اموال يحبون ان تشيع القوانين الصارمة في معاملة الصناع ، او محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية ، او خصوم سياسيين لخصوم موسوليني ، يساعدونه للنكابة بأبناء وطنه الآخرين . ويجب الحذر على الاخص مما يكتب عن الفاشية في بلاد الانجليز ، لان السياسة البريطانية تماليء موسوليني ، لاسباب متنوعة ، تتعلق بعضها بالتفاهم السري على الشرق وأوروبا الشرقية ، ويرجع بعضها

الى ما يأتي وهو :

«اولا - ان موسوليني داعية الحرب في صفوف الحلفاء حين وقف السياسة الايطاليون موقف الحياد ، او المحاباة السلمية لدولتي أوربا الوسطى عملا بالاتفاق القديم ، فمن مصلحة السياسة البريطانية ان تؤيده في ايطاليا ، وتخلد خصومه بكل ما تستطيع .

ثانيا - ان موسوليني انشق عن الاشتراكيين ، وأفرط في محاربة الشيوعية ، وهي عدو لدول السياسة البريطانية ، يهمها ان تؤلب عليه الانصار .

ثالثا - انه ينافس فرنسا في البحر الابيض ، فهو قرين موافسق للسياسة البريطانية .

رابعا - ان السياسة البريطانية احتاجت بعد الحرب العظمى - الحرب الاولى - الى رد فعل للمبادئ الولسنية ، والافكار العامة التي أطلقت آمال الشعوب ، ودفعت بها في وجهة الحرية والديمقراطية ، فهي تجد في الفاشيين حاجتها لكبح تلك الآمال ، ومحاربة تلك الافكار .

خامسا - ان في إنجلترا حزبا من المحافظين الجامدين وبعض رجال الدين - لسان حاله صحيفة المورنينج ستار - يكره الديمقراطية كراهة شديدة ، ويدعو الى سياسة الدم والحديد ، لانها خير سياسة للأمم المستعبدة منها على وجه الخصوص ، وأشياء هذا الحزب هم الذين اكتتبوا بمبلغ من المال ، اشتروا به سيفا في قراب ذهبي أهدوه الى القائد «داير» صاحب مذبح «امرتيسار» في الهند» .

هذا هو ما كتبه العقاد عن الفاشية في سنة ١٩٢٨ ، في الوقت الذي كان فيه بعض كتابنا يمجدون الفاشية ، ويرون فيها حركة ثورية ، ويطالبون - وهم مخدوعون - بأن نجعل منها نموذجا لمجتمعنا الجديد . وقد أصدر فتحي رضوان نفسه في الثلاثينات كتابا عن موسوليني ، تمتلئ صفحاته بالتمجيد له وان لم تخل من النقد والهجوم ، وهكذا فاننا نجد ان العقاد يهاجم الفاشية على طول الخط ، في الوقت الذي كان فيه فتحي رضوان وعدد آخر من كتابنا ، يرون في الفاشية بعض الخير او كل الخير ، بينما كانت الرؤية امام العقاد في هذا المجال واضحة حتى النهاية، فلم يتردد في مهاجمة الفاشية : حركة وفكرا منذ البداية .

وقد كان من الطبيعي ان يقف العقاد ضد الفاشية ، فقد كان العقاد متشبعا بالفكرة الديمقراطية البرلمانية ، منذ ارتباطه بثورة ١٩١٩ واشتراكه في التعبير عن هذه الثورة . كما ارتبط ايمانه بالديمقراطية

بايمانه بالحرية الفردية وحرية التعبير ، وكل هذه المبادئ كانت مرفوضة بالنسبة للفاشية ، وبالنسبة للنازية بعد ذلك ، ومن هنا كان رفض العقاد للفاشية ، بل كان فهمه الصحيح العميق لذلك الارتباط بين الفاشية وبين الرأسمالية الغربية التي ارادت بمساندتها للفاشية في البداية ان تمكن الفاشية من ضرب الاشتراكيين والشيوعيين والحركات الثورية المختلفة بين صفوف الطبقات الشعبية ، بل لقد اكتشف العقاد ذلك الرباط الوثيق بين الفاشية وبين المحافظين والرأسماليين الانجليز الذين يريدون من وراء مساندتهم للفاشية ان يستخدموها سلاحا في ضرب حركات التحرر التي بدأت تظهر لدى الشعوب الخاضعة للاستعمار في آسيا وافريقيا . ومن هنا يبدو من الخطأ قول فتحي رضوان ان العقاد لم يهاجم النازية الا بعد ان دخلت في حرب ضد الانجليز وانه كان يحارب النازية لحساب جهاز الدعاية الانجليزي ، فالذي لا شك فيه ان الافكار السياسية الاساسية عند العقاد تتناقض مع المبادئ الفاشية والنازية على السواء، وقد يكون من الطبيعي ان تحاول اجهزة الدعاية الانجليزية استخدام ما يكتبه العقاد ضد النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، خاصة وان النازية والفاشية معا كانتا تدقان باب الوطن العربي ، وتحاولان التسلل اليه ، والسيطرة عليه، باعتباره منطقة نفوذ لفرنسا وانجلترا ، وباعتباره مصدرا من اغنى مصادر الثروة في العالم ، وكان الالمان منذ اوائل هذا القرن بل منذ اواخر القرن الماضي ، قد أدركوا بجهودهم العلمية الدقيقة ان الوطن العربي غني بالبتروول .

ولا يمكننا ان نتهم العقاد بأنه كان عميلا للانجليز ، لمجرد انه وقف موقفا عدائيا ضد النازية والفاشية ، وان هذا الموقف كان في مصلحة الانجليز، فقد كان العداء للنازية والفاشية هو موقف جميع القوى الديمقراطية والتقدمية في العالم كله ، وقد التقت هذه القوى الديمقراطية والتقدمية في مختلف انحاء الارض مع الامريكان في العداء للنازية ، ولم يكن وقوف القوى الديمقراطية والتقدمية في العالم مع الانجليز والامريكان في عدائهم للنازية مصدرا للنقد او الاعتراض من جانب احد ، ولم يقل احد للروس مثلا : انكم قد حاربتم جنبا الى جنب مع الانكليز والامريكان ، ووقفتم صفا واحدا معهم في العداء ضد النازية . ومن هنا ليس من الانصاف على الاطلاق وصف العقاد بأنه كان عميلا انجليزيا في حربه للنازية ، بل لقد كان في هذا الموقف المعادي للنازية احد المدافعين عن الحرية الانسانية ، واحد المعارضين بقوة لذلك النوع الجديد من انواع الاستعمار، والذي كانت

النازية تمثله وتدعو اليه ، ولقد بدأ هجوم العقاد على الفاشية كما أشرنا منذ سنة ١٩٢٨ .

أما الهجوم على النازية فقد بدأه العقاد منذ بدايات الحرب الثانية ، وقد أصدر مجموعة من الأحاديث الإذاعية في كتيب صغير بعنوان «النازية والاديان» سنة ١٩٤٠ ، يكشف فيه عن اتجاه الدعوة النازية إلى معارضة الأديان الثلاثة الكبرى ، فالنازية تعتبر نفسها ديناً جديداً بديلاً للأديان التي سبقتها وظهرت قبلها ، أو كما يقول أحد المفكرين النازيين وهو «بوشنابل» الذي كان استاذاً في إحدى الجامعات في عهد هتلر : «أن النازية ضرب من الدين ، لأنها لا تنتظر من أتباعها أن يقتنعوا بها ، بل تطلب منهم أن يعتقدوها» ، أو كما قال نازي آخر وهو الدكتور فرائك أحد وزراء العدل النازيين : «أن هتلر متفرد . كذلك الله . فهتلر والله شبيهان» ، وكما قال أحد زعماء النازية وهو ألواز سبانييل : «أن هتلر مسيح جديد أعظم وأقدر من عيسى بن مريم» .

والنازية عموماً تنظر إلى الأديان الثلاثة وهي اليهودية والمسيحية والإسلام على أنها من مصدر واحد هو العنصر السامي ، والعنصر السامي في نظر النازية عنصر متخلف ، فإن العنصر السامي هو عنصر هادم للحضارة ، بينما العنصر الآري الذي ينتسب إليه الألمان هو العنصر الخالق للحضارة ، أو كما يقول هتلر في كتابه «كفاحي» : «الآري هو وحده صاحب المرتبة الأولى من بني الإنسان إذا قسمناهم إلى ثلاث مراتب : مرتبة الدين يبنون الحضارة ، ومرتبة الدين ينقلونها ، ومرتبة الدين يهدمونها» . . . وحسب هذا التقسيم الذي يقدمه هتلر ، يحتل الساميون المرتبة الأخيرة . . . أي مرتبة تدمير الحضارة والقضاء عليها ، وكل ما يصدر من الساميين يخضع لهذا المقياس النازي . . . والأديان السامية الثلاثة هي مظهر من مظاهر الشخصية السامية ، وما فيها من تخلف وضعف ، وبعد عن روح الحضارة الحقيقية .

ويصدر العقاد سنة ١٩٤٠ أيضاً كتابه «هتلر في الميزان» وفي هذا الكتاب يهاجم العقاد هتلر والنازية هجوماً عنيفاً ، ويتنبأ لهما بالفشل ، ولقد كان هتلر والنازية سنة ١٩٤٠ في أوج الانتصار والنجاح الساحق ، ولو كان العقاد مجرد باحث عن الجانب المنتصر لانحاز إلى هتلر والنازية ، حيث كان الإنجليز والحلفاء عموماً في ذلك العام في موقف ضعيف لا يبشر بالأمل ، ولكن العقاد اتخذ موقفه ولا شك بناءً على اعتقاد حقيقي بالمعارضة والرفض للنازية والإيمان بالديمقراطية والدفاع عن مبادئها المختلفة . ولم يتأثر

العقاد بالموجة التي امتدت الى الوطن العربي كله ، وكانت هذه الموجة تقوم على تأييد النازية والتعاطف معها آنذاك ، فقد قام في العراق سنة ١٩٤١ انقلاب يعتمد على تأييد النازية ، وكان هذا الانقلاب تحت زعامة رشيد عالي الكيلاني. وضمت وزارة الانقلاب العراقي وزيرا معروفا باعجابه بهتلر وحماسه له، وهو «علي محمود الشيخعلي» كما ضمت وزيرا آخر هو «يونس السبعراوي» كان قد ترجم الى العربية كتاب «كفاحي» لهتلر ، قبل قيام الانقلاب وقبل اشتراكه في وزارة الكيلاني . وقد انتشر التعاطف مع النازية في اوساط بعض الشبان والسياسيين العرب ، تحت تأثير عداة النازيين للانجليز والفرنسيين الذين كانوا يستعمرون معظم الدول العربية، وتحت تأثير بعض الوعود النازية بتأييد القضايا العربية ، كما جاء - على سبيل المثال - في رسالة بعث بها «ريبنتروب» وزير خارجية هتلر ، الى المؤتمر الذي عقده الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين ، في برلين في ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، في ذكرى وعد بلفور ، حيث كان المفتي يقيم في المانيا آنذاك ، ويلمس منها العون على مساعدة العرب ، فقد جاء في رسالة ريبنتروب الى هذا المؤتمر :

«ان المانيا حليف للعرب الان اكثر منها في اي وقت» وأن «ازالة الوطن القومي لليهود من على وجه الارض ، وتحرير الامم العربية من الطغيان والاستغلال الاجنبيين ، من المبادئ الاساسية للسياسة الالمانية» (١) . ووصلت موجة التعاطف مع النازية لدى البعض في الوطن العربي ، الى الحد الذي دفع بشاب مصري هو محمود العيسوي الى قتل أحمد ماهر رئيس الوزراء المصري ، لانه اعلن الحرب على الالمان في سنة ١٩٤٥ . بل لقد وصل الامر الى ان العقاد نفسه الذي اعلن معارضته العنيفة للنازية قد تعرض للاغتيال في القدس سنة ١٩٤٢ ، من احد الشبان العرب المناصرين للنازية .

وقد كانت هذه العوامل والظروف كلها كفيلا بأن تجعل العقاد يتحفظ او يتردد في معارضته الواضحة والحادة للنازية ، ولكنه لم يتردد في موقفه ، بل واصل هجومه العنيف ضد النازية حتى سقطت ، ولا شك ان هذا الموقف كان من المواقف الفكرية الممتازة للعقاد ، كما كان ايضا من مواقفه السياسية التي تستحق التقدير ، وتجعل منه احد الذين ساهموا بقوة في الوقوف دون تردد او حذر في وجه النازية دفاعا عن حريسة

١- المانيا الهتلرية والشرق العربي - تأليف لوكاهير لويز - ترجمة د. أحمد عبد الرحيم

مصطفى ، ص ٤٠٦ .

الإنسان وكرامة الشعوب وتأييدا للقوى الديمقراطية والتقدمية في مصر والعالم كله .

وإذا كان هناك من نقد يمكن توجيهه للعقاد في موقفه من النازية ، فإن هذا النقد يتركز في نقطتين ... النقطة الاولى هي ان العقاد في هجومه على النازية وهتلر لم يفرق بينهما وبين الشعب الالماني ، فكأن النازية هي طبيعة مرتبطة بالشعب الالماني كله ، وكأن هتلر هو الشعب الالماني كله ايضا . وهذه الفكرة خاطئة تماما ، لان النازية واجهت معارضة واسعة من الشعب الالماني منذ البداية ، ولم تتمكن من القضاء على المعارضة بالاقتناع ولكنها قضت عليها بالارهاب .

يقول العقاد في كتابه «هتلر في الميزان» في فصل عنوانه «خطة الماتية» : «ذكرنا طرفا من الاسباب التي هيات النجاح لهتلر وجماعة النازيين في الامة الالمانية ، فنضيف الان ان هذه الاسباب على كثرتها وقوتها لا تكفي لبلوغ النجاح الذي بلغه لولا السبب الاكبر الشامل المحيط بها جميعا ، ونعني بها خلة راسخة في الامة الالمانية ، تفتح آذانها واذعانها لقبول الدعوات التي من قبيل الدعوة الهتلرية . ففي اعتقادنا ان هتلر لم يكن لينجح ذلك النجاح في تطويع امته ، لو كانت هذه الامة غير الالمانيين لان الامة الالمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الادباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والمخترعين ليست بالامة العظيمة في كل شيء ، بل لعلها مصابة بقصور شديد ، سلمت منه أمم دونها في عدد النوابغ الافذاذ ، وهو قصورها في التربية السياسية وضعف ايمانها بالحرية» .

ثم يبرهن العقاد على وجهة نظره في طبيعة الشعب الالماني بالعودة الى الاصول التاريخية لتكوين الالمان : «ففي العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لا تعرف الاستقرار وآداب العمار ، واذا لجأت الى الاستقرار فانما تستقر بالتناوب سنة للقتال ، وسنة للرمي والزراعة . فيقاتل في هذه السنة من كانوا يزرعون ويرعون في السنة السابقة ، ثم يذهب الزارعون والرعاة الى القتال ولم يطل عهدهم بالسلم بضعة شهور ، وقد وصفهم يوليوس قيصر في حالتهم تلك فقال : «انهم قلما يبالون الزراعة لانهم يعيشون اكثر ما يعيشون على اللبن والجبن واللحوم ، وليس لرجل منهم ارض يملكها ، ولا حدود تفصل ما بينه وبين غيره ...» وقال : «انهم يحسبون من شرف الدولة ان تقفر الديار من حولها ، دليلا عندهم على الشجاعة التي تقصي جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم» ... «وان اللصوصية لا عيب فيها اذا قورفت بعيدا عن ديارهم ، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب

الناشئة ، ومنع الاخلاص الى الكسل والراحة» .
ثم يستشهد العقاد بعد ذلك في اتهامه للأمة الالمانية بنصوص أخرى
فيقول :

«ووصفهم - اي الالمان - المؤرخ تاسيتوس فقال : «انهم اذا هداوا
واستراحوا ، تطوع كثير من نبلائهم للقتال في صفوف القبائل التي تشن
غارة من الغارات ، وانهم لا يقدرّون بغير العدوان والحرب ان يمونسوا
اتباعهم وحاشيتهم الكثيرة ، ويعتمد هؤلاء الاتباع على الكرم من رؤسائهم
فيما يركبون من خيل او يشهرون من رماح ، ولا ينالون اجرا غير مادب
الطعام الغليظ وان لم يكن بالقليل . فالحرب والفنيمة فخر أولئك الرؤساء ،
وليس من السهل ان تقنعهم بالحرب وانتظار الفلة ، كما تقنعهم بالهجوم
والمبارزة ، بل من دلائل الوهن عندهم ان تطلب بعرق الجبين ما انت قادر
على اخذه بالدم المراق . . .» ووصفهم المؤرخ «فرواسار» في أواخر القرن
الرابع عشر فقال «انهم شعب يجنح ابدا الى العنف والتهديد والاعتداء ، لا
رحمة عندهم اذا غلبوا ، ومعاملاتهم لاسراهم سيئة قاسية» .

ومن الواضح ان العقاد في كتابه عن هتلر يأخذ بهذه الآراء التي نقلها
على لسان بعض المؤرخين او السياسيين . . . وبذلك فان العقاد لا يدين
هتلر والنازية وحدهما ، انما يدين الشعب الالمانى نفسه ، ويعتبر ان النازية
وهتلر هما بمعنى من المعاني تعبيرا عن الشخصية الالمانية .

ولا شك ان في هذه النظرة الى الالمان قدرا كبيرا وأساسيا من الخطأ
الفكري ، فلا يمكن ان نحكم على شعب بأكمله بأنه «شعب شرير» وعلى شعب
آخر بأنه «شعب محب للخير بطبيعته وقادر عليه» ، ذلك لان التحليل الفكري
والسياسي السليم يكشف ان في كل شعب من الشعوب قوى اجتماعية
تميل الى الشر والاستغلال ، وقوى أخرى تميل الى الخير والعدالة ، ولا
مصلحة لها في الظلم والسيطرة على الآخرين ، وهذه الحقيقة لا تنفي ان كل
شعب من الشعوب له طبائع خاصة تميزه عن غيره من الشعوب ، نتيجة
لظروفه وتاريخه ، بل اننا نجد اكثر من ذلك ان رأي العقاد في الالمان قريب
من رأي نيتشه الذي يهاجم الالمان في بعض كتاباته فيقول «ان الالمان لا
يعرفون مدى ما فيهم من رذيلة» ويقول «حيثما سيطرت المانيا فانها ستهدم
الثقافة» . وقريب من هذا الرأي رأي آخر للفنان العالمي الالمانى «جيت»
حيث يقول «لقد شعرت دائما بالالم المرير عندما أفكر في الشعب الالمانى
الجدير بالاحترام في أفرادة ، والسييء في مجموعه ، وتعتبر المقارنة بين
الشعب الالمانى والشعوب الاخرى شعورا مؤلما أحاول التغلب عليه بكل

وسيلة » .

ومثل هذه الكلمات التي يقولها مفكرون ألمان مثل نيتشه وجيته هي ولا شك نوع من نقد هؤلاء المفكرين لشعوبهم ، ومحاولة هؤلاء المفكرين أن يحثوا شعوبهم على التخلص مما فيهم من عيوب وتقائص .

ولذلك فإن مثل هذه الكلمات التي قصد بها أصحابها إيقاظ شعوبهم ، لا تبرر من جانب العقاد اتهام الشعب الألماني كله بأنه مسئول عن الحركة النازية ، وبأن النازية كانت تعبيرا عن هذا الشعب ، فالشعوب ولا شك من الممكن توجيهها والتأثير عليها للاتجاه في النهاية إلى الطريق السليم للحضارة ، ومن الممكن من ناحية أخرى إرهابها والضغط عليها ، ومحاصرتها فكريا حتى تنحرف عن هذا الطريق السليم . وإذا حكمنا على الشعوب بمقياس الحكومات الظالمة ، والانظمة الإرهابية التي تعرضت لها ، فإننا سوف ندين كل شعوب الأرض ، لأنه لا يوجد شعب استطاع أن ينجو في تاريخه كله من حكم ظالم أو نظام إرهابي ، فمثل هذه الحكومات والانظمة تمر على كل شعوب العالم ، في بعض الفترات وبعض المراحل ، دون أن يكون ذلك مبررا لاتهام هذه الشعوب بأنها أصلا شعوب محبة للطغيان وراغبة فيه .

ومما يؤكد بطلان اتهام الشعب الألماني بأنه نازي بطبيعته أو أن تكوينه عموما يحمل استعدادا لخلق حركة مثل النازية ، ومساندتها والاندفاع وراءها ... مما يؤكد أن هذه التهمة ليست صحيحة بالنسبة للشعب الألماني ولا لغيره من الشعوب ، أن الشعب الألماني قد قاوم النازية مقاومة عنيفة ، ووقفت الطبقات الألمانية الشعبية بالذات في وجه النازية ، فقد قام هتلر بالتصفية الدموية للشيوعيين وللديمقراطيين الاشتراكيين وكانوا يمثلون قوى كبيرة في المجتمع الألماني ، وقد عارضوا هتلر بعنف ، ولكن هتلر استباح كل القوانين والمبادئ ، واستخدم جميع أساليب الإرهاب من قتل وحرق ، ولم يتورع عن أي شيء في سبيل تصفية أعدائه ، ولا شك أنه وصل إلى قمة السلطة في المجتمع الألماني ضد إرادة نسبة كبيرة جدا من الشعب الألماني ، ولم يكن يساعده إلا الرأسماليون وأصحاب المصالح المعادية لمصالح الشعب الألماني ، ولقد كان هناك ولا شك نسبة كبيرة من أبناء الشعب الألماني مخدوعة في هتلر والنازية ، ولكن هذه الخديعة قد تكشفت يوما بعد يوم ، فأصبحت النازية حركة إرهابية لا تعبر عن كل الشعب الألماني ، وإنما تعبر عن قسم من أبناء هذا الشعب ، لهم مصلحة في الحرب والسيطرة الألمانية على شعوب أخرى .

هذا الخطأ عند العقاد فسي هجومه على الشعب الالماني كله ، واعتباره شعبا يميل بطبيعته الى العدوان هو خطأ بالنسبة للامان وبالنسبة لاي شعب آخر . . . فليس هناك شعوب بأكملها رديئة او شريرة وشعوب اخرى - بأكملها - طيبة ، وانما هناك قوى اجتماعية تميل الى الاستغلال ، وقوى اخرى تميل الى العدل ، ولا مصلحة لها في الحروب والصراعات الدموية العنيفة ، مثل الطبقات الشعبية المختلفة من عمال وفلاحين وجنود .

الخطأ الثاني الذي يمكن ان نأخذه على العقاد في موقفه من النازية ، ليس متصلا بالنازية نفسها وانما هو خطأ متصل بموقف العقاد من حكومات الاقلية في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . . . فالعقاد الذي يرفض الاساليب النازية في الحكم والتفكير والعمل السياسي كان يقف منذ سنة ١٩٣٧ مع حكومات الاقلية في مصر مثل حكومات محمد محمود «١٩٣٨» واسماعيل صدقي «١٩٤٦» وأحمد ماهر «١٩٤٥» والنقراشي «١٩٤٥» و «١٩٤٨» و ابراهيم عبد الهادي «١٩٤٩» . ولقد كانت هذه الحكومات تفرض على الشعب الوانا من الضغط والارهاب ، تشبه في ملامحها العامة موقف النازية من الحريات السياسية في بلادها ، وفي البلاد الخاضعة لسلطانها . . . ولقد كان جديرا بالعقاد الذي يهاجم النازية ويؤيد الديمقراطية والحرية ان يقف ايضا ضد الحكام الارهابيين الذين يعارضون الديمقراطية ، ويقضون على الحريات ، والذين يعتبرون مجموعة مبين التلاميذ الصغار في المدرسة النازية .

على ان موقف العقاد من النازية بصورة عامة كان موقفا سليما وكان موقفا شجاعا ، ولم يكن موقفه من النازية مرتبطا بهزيمتها بل لقد سارع الى الهجوم على الفاشية الايطالية كما اشرنا في اول هذا الفصل - منذ سنة ١٩٢٨ ، وسارع الى معارضة النازية والهجوم عليها منذ سنوات الحرب الاولى ، حيث كانت المانيا النازية تسجل الانتصارات المختلفة على جميع القوى المعارضة لها . . . وكانت محاولة اغتيال العقاد في فندق الملك داود بالقدس ، عندما كان العقاد يزور القدس مع صديقه المازني سنة ١٩٤٢ . . . كانت هذه المحاولة لاغتيال العقاد ولا شك موجهة اليه من بعض انصار الحاج امين الحسيني الذي كان وثيق الصلة بهتلر والنظام الالماني . ومهما كانت اخطاء العقاد الفكرية او السياسية في نقده للنازية فان موقف العقاد من النازية - في جملته - كان موقفا سليما وشجاعا . . . وهو احد مواقف التي تستحق التقدير ، وينبغي ان نسنجلها في صفحة مواقفه الايجابية الممتازة ، في دفاعه عن الديمقراطية والحرية والكرامة الانسانية .

محامي العقادة

أود ان اتوقف هنا للحديث عن سلسلة العبقريات التي أصدرها العقاد، وذلك قبل مواصلة الحديث عن موقف العقاد من المذاهب السياسية الأخرى، فقد كانت العبقريات هي «الوطن الروحي» الذي استقر فيه العقاد بعد صدامه مع الحركة الشعبية واليسارية في مصر ، كما ان هذه العبقريات كانت تقترب بالعقاد من فكرة «الإنسان المختار المتفوق» التي كانت متبعا من منابع النازية .

بعد سنة ١٩٣٦ تعرض العقاد لازمة واضحة في علاقته بالجمهير التي كانت تقبل على قراءته ، وتعتبره كاتبها الأول . وقد وقفنا بالتفصيل أمام هذه الازمة وأسبابها ، وما أدت اليه من نتائج في الفصول السابقة من هذا الكتاب . واذا اردنا ان نعرف حدود الازمة التي تعرض لها العقاد في صورتها الواقعية ، فيكفي ان نقرأ هذه الكلمات التي كتبها الاستاذ فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» عن جريدة روز اليوسف وكاتبها الأول عباس العقاد ، بعد ان خرجت الجريدة ومعها العقاد على الوفد سنة ١٩٣٥ ، يقول الاستاذ فتحي رضوان في كتابه ص ٢١٩ :

«... غير ان الوفد نجح آخر الامر في اسقاط جريدة روز اليوسف ثم في اغلاقها ، ومرت على العقاد أسوأ فترات حياته ، فقد كانت الجرائد اما وفدية ، واما غير حزبية لا تستطيع ان تستكتب كاتباً حزبياً له كل الخصومات والعداوات التي كانت للعقاد ، فرأى العقاد نفسه بلا عمل وبلا أمل في عمل ، ومرت عليه الايام بطيئة ثقيلة ، والازمة لا تريد ان تنفرج ، والخوف من هذه الفضيحة ومن التشرذم يزداد يوماً بعد يوم على أعصاب العقاد . في هذه الايام زدت معرفة بالعقاد ، فقد كان يكثر من ترده على مكتبي ، وفي مكتبي حررت له عقد بيع جميع النسخ التي كانت باقية عنده من كتابه «سعد زغلول» وكانت تعد بالآلاف اشتراها دفعة

واحدة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكائنة في اول شارع محمد علي ، ودفع له مائة جنيهه أبعدت عنه شبح اليأس قليلا ، ومنحته فترة يتنفس فيها فوق سطح الماء .

هذه هي الصورة التي يرسمها فتحي رضوان للعقاد في اثناء ازمته ، وهي صورة لقيت نقدا واعتراضا من بعض تلاميذ العقاد وأصدقائه ، مثل الاستاذ العوضي الوكيل الذي قال في كتابه «العقاد وخصومه» ان العقاد لم يتعرض لمثل هذه الازمة حيث كان له حساب جار في بنك مصر يسحب منه على المكشوف - اي بدون رصيد - في حدود مبلغ كبير حدده منذ انشاء بنك مصر المرحوم طلعت حرب باشا «وأن ثريا من مواطني العقاد بأسوان كان يسارع في كل مازق فيعرض على العقاد ما ينقذه من التردى في الهاوية» .

ليس هنا مجال المناقشة لتحقيق الازمة التي تعرض لها العقاد ، ومدى هذه الازمة ، وهل وجدت هذه الازمة حولا او لم تجد . . . المهم ان العقاد تعرض لازمة حقيقية واسعة بعد انفصاله عن الوفد ، الى الحد الذي اصبح فيه مهددا في حياته المادية . . . والذي يهمنى هنا من هذه الازمة العنيفة ، ان العقاد فقد فيها جماهيره الوفدية الواسعة العريضة ، الى جانب ما فقدته في الازمة من خسائر أخرى .

وبالنسبة لكاتب جماهيري ناجح واسع التأثير والنفوذ مثل العقاد ، تبدو هذه الازمة خطيرة وأساسية ، وكان على العقاد ان يجد حلا لهذه الازمة .

ولم تكن طبيعة العقاد «العنيدة» الصلبة تسمح له بأن ينشئ جسورا جديدة للعودة الى معسكر الوفد ، لقد وصل مع الوفد الى نقطة «اللاعودة» كما يقولون . ولم يكن ارتباط العقاد بأحزاب الاقلية بعد ذلك يتيح له فرصة استعادة جماهيره ، فهذه الاحزاب المسنودة بالانجليز والقصر ، لا شعبية لها ولا جماهير . . . وليس في امكان هذه الاحزاب ان تعيد للعقاد جماهيره ، وليس في امكان العقاد ان يكسب لهذه الاحزاب الموصومة جماهير من اي نوع .

وقد ظل العقاد يعاني من هذه المشكلة عدة سنوات ، وكانت كتاباته حتى ذلك الحين تدور حول الادب والسياسة المصرية ، وكانت شعبيته السياسية عاملا رئيسيا من عوامل نجاحه كأديب ومفكر . وقد انتهى هذا العامل السياسي . . . فماذا يفعل العقاد وكيف يواجه هذه الازمة ؟ ان الكتابة الادبية لم تكن تكفي وحدها لخلق شعبية لاي كاتب من الكتاب في

تلك الفترة ، وفي مجتمع ترتفع فيه نسبة الامية الى درجة عالية ، وتقل فيه نسبة الثقافة العامة بين الجماهير الى حد بعيد .

في تلك الفترة بالتحديد أصدر الدكتور محمد حسين هيكل كتابه الشهير «حياة محمد» ، ونجح الكتاب نجاحا كبيرا ، وأصبح واحدا من الكتب التي دخلت معظم البيوت المصرية والعربية التسي تعرف القراءة والكتابة ، واستطاع هذا الكتاب بتجاحه الساحق ان يخلق مكانة معنوية مرموقة لمؤلفه بين جماهير القراء ، رغم ان الدكتور هيكل هو واحد من زعماء الاحرار الدستوريين... احد احزاب الاقلية التي ترفضها الجماهير . وقد كان نجاح كتاب «حياة محمد» سببا قويا لالتفات كل الكتاب الكبار في جيل «هيكل» الى الكتابة في قضايا الدين ، ولم يكن العقد قد كتب حتى ذلك الحين - ١٩٣٦ - وبعد حوالي ثلاثين سنة تقريبا من ممارسته للكتابة اي دراسة في الدين على الاطلاق... وكان عمره آنذاك سبعا وأربعين سنة . لقد دفع كتاب هيكل عن «محمد» طه حسين الى تأليف كتابه «على هامش السيرة» حيث قدم فيه فصولا متعددة من حياة الرسول ، وكتب توفيق الحكيم كتابا عن «محمد» على شكل مشاهد تقوم على الحوار ، وبدأ العقد في تأليف كتابه «عبقريه محمد» .

وهكذا وجد العقد بديلا للسياسة في قلب الجماهير ، وكان هذا البديل هو الدين... بل لقد كان الدين اقوى تأثيرا من السياسة على الجماهير في مصر والوطن العربي كله .

ومن يومها بدأ العقد يقدم «عبقرياته» الاسلامية المختلفة ، ومن خلال هذه العبقريات وجد الحل المثالي لأزمته مع الجماهير التي تخلصت عنه بعد خروجه من الوفد ، وارتدت اليه بصورة مضاعفة عندما دخل حقل حظيرة «الاسلام» والكتابات الدينية بشكل عام . لقد حققت له العبقريات الاسلامية، والكتابات الدينية مكانة لدى الجماهير فاقت مكانته الاولى ايام كان كاتب الشعب الاول في مرحلة ثورة ١٩١٩ الوطنية .

ويسجل الناقد الكبير محمد مندور في أوائل الاربعينات ، اي بعد عودته من بعثته الطويلة الى فرنسا ، ظاهرة اهتمام جيل هيكل والعقاد بالكتابة الدينية ، في ملاحظة دقيقة ذكية في كتابه المعروف «في الميزان الجديد» ... يقول مندور :

«... الناظر في أدبنا الحديث يلحظ ان الجيل السابق قد نجح في شيء وأخفق في أشياء . واكبر ظواهر الاخفاق فيما يبدو هو خضوع ذلك الجيل لضغط الهيئة الاجتماعية . نعم اني لا أجهل ان امتداد الزمن بالحياة

كثيرا ما ينتهي بنا الى الصلح معها ، فالشيوخ عادة اكثر رضا وتفاؤلا من الشبان الساخطين المتشائمين . كما أعلم ان طول التجارب كثيرا ما يبصرنا بحدود للممكنات لم تكن نفطن لضيقها ايام حداثتنا ، بل ان كل تجربة عبء يثقل خطانا ، وأضيف الى ذلك انه قد يكون من الخير لحياتنا الاجتماعية ان تترد هجماتنا عن بعض المقومات التي في نهوضها ضرورة لاستقامة الامور واطرادها على نحو يشفع فيه الثبات لما عداه . وبالنفس من اليقظة ما يبصرنا بأن للحياة المادية قسوة كثيرا ما تلين اصلب العزم . ولكني رغم كل هذا أتساءل : ما بال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة عن «محمد» ؟ أهو ايمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر ؟ ذلك ما نرجوه . ولكن ثمة امرا لا شك فيه ، هو اننا قد وصلنا الى درجة التزمت .

ولكم هالني يوما ان ارى احد كتابنا المعروفين باتساع الافق ، يدعوني الى ان أسقط من حديث لي بالراديو كلمة «حوريات» ترجمة لعرائس الغابات المعروفة في الاساطير اليونانية ، خوفا من ان يتهمني احد بالمروق من الدين ، لاستعمال لفظة وردت في القرآن ، وأنا بصدد الحديث عن خرافات الوثنية اليونانية !!

هذه هي ملاحظة مندور - بذكائه وحساسيته وسلامة وجدانه - بعد عودته من فرنسا ، وقد كتب ملاحظته هذه في أوائل الاربعينات . وهو يفسر اهتمام كبار الكتاب في تلك الفترة بالكتابة عن «محمد» بأنها نوع من الاستجابة لضغط «المجتمع» . . ذلك انهم لم يكونوا في البداية من رجال الفكر الديني ، بل لقد اتجهوا الى هذا الفكر في الجزء الاخير من حياتهم . ولا شك ان العقاد ، وغيره من ابناء جيله ، قد اتجهوا الى ميدان الفكر الديني تحت تأثير عوامل كثيرة من بينها محاولة اكتساب الجماهير القارئة وإثارة اهتمامها .

وقد كانت العبقریات الاسلامية بالذات هي «الحل» الذي خرج به العقاد من أزمتة مع الجماهير . على ان العقاد استطاع ان يحافظ على مستواه الفكري في «عبقرياته الاسلامية» ، فلم يجعل من هذه العبقریات محاولة سريعة للكسب المادي والنجاح الادبي ، بل جعل منها عملا فكريا له قيمته وتأثيره .

وكان تركيزه في هذه العبقریات على ان يستفيد من المناهج العلمية الاوروبية الحديثة في فهم العبقریات الاسلامية وتفسيرها . وقد أثار العقاد منذ البداية اعتراضا عند المفكرين الاسلاميين المحافظين ، عندما استخدم لفظ العبقرية لوصف «محمد» ، فالعبقرية صفة للنبوغ الانساني

العادي ، ولا يجوز ان تكون صفة للنبي الذي يتلقى الوحي من السماء ، ومن هنا فان فكر محمد وتصرفاته كلها ليست مظهرا من مظاهر العبقرية الانسانية العادية ، وانما هي وحي الهي تجسد في فكر محمد وسلوكه . وكان هناك اعتراض آخر من المفكرين الدينيين على «عبقرية محمد» ... فعندما يكتب العقاد عن عبقرية محمد ، ثم يكتب عن عبقرية الصديق ، وعبقرية عمر ، وعبقرية علي ، فكأنه بذلك يخلق نوعان من «المساواة» بين محمد وخلفائه ... وهذا خطأ من وجهة نظر الفكر الديني الخالص .

والحقيقة ان العقاد في عبقرياته كان يهدف الى الاهتمام بالجانب الانساني في الشخصية الدينية التي يدرسها ويناقشها ، ولم يكن يهدف الى الاهتمام بالجانب الإلهي ... فالجانب الانساني يخضع للعقل والمنطق، ويمكن تحليله وتفسيره ، اما الجانب الإلهي فيعتمد على المعجزات والقوى الخارقة التي تفوق العقل والمنطق ، وتحتاج في الاقتناع بها الى الايمان الوجداني البعيد عن اي مناقشة او تحليل . والعقاد في هذا الموقف الذي يعتمد على العقل في تفسير العبقريات الاسلامية ، وعلى رأسها عبقرية محمد ، متأثر بثقافته الغربية الحديثة ، ومثائر بالتيار الكبير الذي خلقه الشيخ محمد عبده في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، حيث دعا محمد عبده بقوة الى ان «الاسلام دين يعتمد على العقل قبل كل شيء» وأن الاسلام يدعو الى نهضة العقل البشري «وتوجيهه الى النظر في الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقب الاسباب والمسببات ، ليصل بذلك الى ان للكون صانعا واجب الوجود ، عالما حكيما قادرا على كل شيء» وقد لخص العقاد هذا الاتجاه العقلي في فهم الاسلام في عنوان كتابه المعروف باسم «التفكير فريضة اسلامية» .

والطابع الانساني الذي يخضع للتحليل والتفسير العقلي ، هو أبرز ما أضافه العقاد الى الفكر الاسلامي الحديث ، فقد استبعد في دراسته كل ما لا يقبله العقل ، وكل ما يتناقض معه او يتعارض مع مناهجه المختلفة ، واستطاع العقاد بذلك ان يصوغ تاريخ الشخصيات الاسلامية صياغة عصرية جديدة ، مع رفض ما يمكن ان يدخل في باب الخرافات او الاحداث التي لا تتفق مع المنطق والتفكير والفهم الصحيح للشخصية الاسلامية او لعصرها وظروفها المختلفة .

ومن النماذج التي تكشف لنا اهتمام العقاد بالتفسير العقلي لبعض الظواهر ، واخضاعها للعلم والمنطق ، ما كتبه في عبقرية عمر عن القصة

التي تشبه «الخرافة» والتي نسبت الى عمر ويلخصها لنا العقاد فيقول :
«كان عمر رضي الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من
الخطبة ونادى : يا سارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ... ! وممن
استرعى الذئب ظلم .

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته ، فسأله علي رضي الله
عنه : ما هذا الذي ناديت به ؟ قال : أوسمعته ؟ قال : نعم . انا وكل من
في المسجد .

فقال : وقع في خلدي ان المشركين هزموا اخواننا وركبوا اكتافهم ،
وانهم يمرون بجبل ، فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا وان جاوزه
هلكوا ، فخرج مني هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر ، فذكر انهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة ،
حين جاوزا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن
الجبل ... الجبل . فعدلنا اليه ففتح الله علينا .

هذه هي القصة كما رواها العقاد ، وهي تشبه الخرافات والمعجزات ،
وموقف العقل منها هو موقف النقد والرفض والاعتراض ، ولكن العقاد
لم يسارع بنفيها وانما بدل محاولة للتوفيق بينها وبين ما توصل اليه العلم
الحديث من نظريات واكتشافات . . يقول العقاد تعليقا على هذه القصة :

«ولا داعي للجزم بنفي هذه القصة استنادا الى العقل او الى العلم او الى
التجربة الشائعة . فان العقل لا يمنعها ، والعلماء النفسيون في عصرنا لا
يتفنون على نفيها ونفي أمثالها . بل منهم من مارسوا «التلبائي» ، وسجلوا
مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين .

الا ان المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد ان عمر كان مشهورا
بين معاصريه بالكاشفة الغيبية ، اما بالفراسة او الظن الصادق ، او
الرؤية او النظر البعيد ، وهي الهبات التي يلحقها بالعبقريه علماء العصر
الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة ، وراقبوها وأكثروا من المقارنات
فيها والتعقيبات عليها» .

وهكذا يفسر العقاد هذه القصة التي تشبه الخرافة تفسيراً علمياً ،
ويرفض قبولها قبل ان يجد لها تفسيراً من تفسيرات العلم الحديث ،
والتفسير الذي اهتدي اليه هنا هو التلبائي ، ومعناه ان تشابه خواطر
اثنين من البشر - على البعد - حول موضوع واحد وفكرة واحدة في لحظة
واحدة . . . وهذا ما حدث بين عمر وسارية ، اذا اردنا ان نقبله ونفسره
تفسيراً يجعله خاضعاً للعقل والمنطق ، وهو ما فعله العقاد ، حيث انه في

عبقرياته كلها يرفض الخرافات والخوارق ، ما لم يجد لهذه الظواهر ما يفسرها ويبررها من العلم والعقل .

وبهذا المنهج يعتبر العقاد واحدا من رواد التيار العقلي في الفكر الاسلامي المعاصر ، ولكن العقاد اضاف الى المنهج العقلي اضافة أخرى ، هي انه استفاد من مواهبه الادبية في تقديم العبقريات الاسلامية ، فجاءت العبقريات لونا من ألوان الادب الى جانب قيمتها الفكرية والتاريخية . فالعقاد كان يرسم صورة انسانية للعبقرية التي يتناولها بالتحليل والدراسة ، وهذه الصورة الانسانية الحية هي التي تملك القدرة في آخر الامر على اثارة وجدان القارئ ومشاعره المختلفة ، وبذلك لا يقف العقاد ابدا عند حد تقديم المعلومات والحقائق ، ثم دراستها وتحليلها ، بل يضيف اليها من رؤيته الشعرية ما يضمن لها التأثير العميق على نفس القارئ .

ويكفي ان نقف عند نموذج واحد من هذه النماذج الكثيرة ، التي تملأ صفحات العبقريات ، حيث يقول عن الإمام علي بعد مقتله : «... وذلك هو النسيج الانساني النابض الذي يتخلل حياة علي في لحمته وسداها ، وفي تفصيل اجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهي معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس واشواقهم وظواهرهم وخفاياهم ، ذلك الاشتباك الذي يخلقه الشعراء خلقا في القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض احكام الواقع الملموس في سيرة الإمام . وقد أسلفنا في صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية في شتى نواحيها . تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناية الولاء ، فاذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فاي خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التي تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده في هذه الخاتمة الفاجعة ؟ اي باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا في كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدنا ؟ ياس الكريم المغلوب وجراة المحتال الغالب وغرام المتهوس المجنون (١) . وأريحية القاتل الموصي بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة ، وخداع

١ - اشارة الى «ابن ملجم» الذي قتل الإمام عليا ، وكان من بين دوافع القاتل انه كان يحب فتاة طلبت منه ان يقتل الإمام ، لان اباها واخاها وبعض اقربائها قتلوا في معركة الخوارج ضد الإمام علي .

الجمال ، وزينغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموأر واللهفة الدائمة في خاتمة حياة تسعة ألف حياة . تلك حياة حي ، وذلك مصرع شهيد .

ذلك نموذج واحد من النماذج العديدة للتصوير الانساني والوجداني للعبقریات في كتابات العقاد ، وهو نموذج يتكرر كثيرا في صفحات العبقریات .

ولعل سر هذا التصوير الوجداني للعبقریات عند العقاد ، ان نقطة البدء عنده دائما هي اعجابه بالشخصية التي يتناولها بالبحث والدراسة ، وهذا الاعجاب يعطي للعبقریات ذلك الطابع الوجداني الرقيق ، الذي يضفي عليها لمسة من لمسات الفن ، الى جانب ما فيها من بحث ودراسة .

ومن الصعب ان نجد في عبقریات العقاد شخصية لم يكن معجبا بها او متحمسا لها بشكل من الاشكال . كل ما هنالك ان اعجابه بشخصية قد يفوق اعجابه بشخصية أخرى ، فهو معجب بالإمام علي أشد الاعجاب ، ولكنه في نفس الوقت معجب بمعاوية... وكل ما هنالك ان اعجابه بمعاوية اقل من اعجابه بالإمام «علي» درجة او درجات .

والفرق بينهما عند العقاد هو الفرق بين كلمتي «العظيم» و«القدير» فالإمام علي شخصية عظيمة - أما معاوية فهو شخصية قديرة . وهذا هو الفرق بينهما اي انه فرق في الدرجة لا فرق في النوع . ولم يستطع العقاد ان يقدم دراسة لشخصية يكرها في التاريخ الاسلامي او في غيره، باستثناء دراسته لهتلر ، لان البحث والدراسة عند العقاد يمتزجان دائما بمشامره الخاصة ، ولا بد للشخصية التي يدرسها ان تكون موضع اعجابه وتقديره بدرجة من الدرجات . اننا نذكر مثلا أن الكاتب النمساوي المعروف ستيفان زفايج قد كتب دراسة عميقة وممتازة عن شخصية فوشيه وزير داخلية نابليون ، وهو شخصية متقلبة كريمة ، كان المؤلف نفسه يشعر نحوها بالرفض والاستنكار ، ولكن هذه المشاعر المبنية على الكراهية والنفور لم تمنع المؤلف من البحث في شخصية فوشيه وتقديمها وتفسيرها وكشف ما فيها من عيوب وأخطاء وامكانيات .

ولعل هذا الموقف في عبقریات العقاد ... موقف الاعجاب من جانب العقاد بمن يكتب عنهم ، يضع يدنا على الخطأ الرئيسي في هذه العبقریات، فالعقاد صاحب نظرة «مثالية»، والعبقریات الاسلامية التي كتب عنها كانت في نظره دائما تمثل نوعا من «البطولة» المطلقة ... ليس في حياتها خطأ او عيب من العيوب ، وكل ما فيها صواب يستحق الاعجاب والحب ،

ويستطيع العقاد ان يجد دائما من المبررات والتفسيرات ما يبعد اي شبهة من شبهات الخطأ عن عبقرياته ، ولو كان العقاد قد التزم بهذا المنهج «المثالي» في شخصية «محمد» فقط ، لما استطاع احد ان يعترض عليه ، فشخصية محمد كنبي لها من القداسة ما يفرض هذه النظرة المثالية في النظر الى حياته وتاريخه ، ولكن الشخصيات الاسلامية الاخرى بعد النبي تحتل - حتى من وجهة النظر الاسلامية نفسها - ان يناقشها المؤلف من حيث الصواب والخطأ ، لانه لا يوجد احد في التاريخ الاسلامي بعد النبي يملك عصمة الانبياء ، ولا يوجد في القرآن الكريم او في الحديث الشريف ما يمكن ان يشير الى ان هذه الشخصيات الاسلامية مقدسة او معصومة من الخطأ بصورة مطلقة .

هذه النظرة المثالية التي لا تعترف بالعيوب ، ولا بالضعف البشري في الشخصيات التي يدرسها العقاد ، تعتبر عيبا واضحا في دراسة العقاد لشخصياته المختلفة ، وتقدم الينا في النهاية صورة تنقصها المرونة والواقعية التي تتسم بها الحياة الانسانية نفسها .

وقد لاحظ بعض المفكرين المعاصرين للعقاد على عبقرياته هذا الموقف المثالي في تناول الشخصيات ، فكتب أحمد أمين في تعليق له على «عبقرية عمر» للعقاد و«حياة محمد» لهيكل يقول :

«... بقيت مسألة هامة كثيرا ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي ان العظيم مهما عظم له خطاات ، وإلا ما كان إنسانا ، والعصمة لله وحده ، فهل واجب المترجم له ان يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ما له ويشيد بذكره ، ويذكر خطااته وينقدها ، ويعلم في ذلك درسا في نواحي مجده ، ودرسا آخر في مواضع خطئه ، او واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ ؟ انا ارى ان الراي الاول اوجب ، متأسيا بأبي بكر وعمر نفسيهما ، والمؤلفان الفاضلان - العقاد وهيكل - الى الراي الثاني أميل» .

ويعقب العقاد على رأي أحمد أمين فيقول :

«والواقع اننا الى الراي الثاني أميل» . ويدافع العقاد عن هذا الراي

فيقول في مقدمة «عبقرية الصديق» :

«مذهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الانسان ان نوفيهم حقهم من التوقير ، وأن نرفع صورهم الى مكان التجلة ، وان لم يمنعنا هذا ان نصدقهم الوصف والتصوير . ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا اوجب مما كان في الازمان الغابرة ، لان الاسباب

التي تفض من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر الى الان وهي مما يحدث عفوا في بعض الاحيان، ومما يأتي قصدا في احيان اخرى». ثم يعدد العقاد بعد ذلك اسباب «الفض» من العظمة ويركزها في ثلاثة اسباب :

السبب الاول - هو «الفهم السيء للمنازعات التي شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة ، فوقر في بعض الازهان ان العلم الحديث قد ألقى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والدينية ، وخلط أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في الإصلاح وبين رجال الأديان الذين استغلوا العقائد ، وتعمدوا انكار الحقائق ، ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة في طريق التقدم والتهذيب . فالمصلحون من عظماء الأديان اهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم انهم سبقوا العلم الحديث ، بل يزكيهم ذلك ويضاعف حقهم في الشناء وعرفان الجميل» ثم يجيء السبب الثاني للفض من العبقرية في نظر العقاد حيث يقول :

«ثم جاءت الديمقراطية ، وأساء بعض الناس فهمها ، كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا ان حرية الصغير تجعله في صف الكبير ، وان المساواة القانونية تلغي الفوارق الطبيعية ، وان الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، وهو وهم ظاهر البطلان ، ولكنه قد سرى مسراه الى الازهان ، فكثرت التطاول على كل عظمة انسانية ، وفشت بدعة الاستخفاف والزراية ، حتى أوشك التوفير لمن يستحق التوقير ان يعاب» .

ويأتي السبب الثالث بعد ذلك للفض من العبقرية في نظر العقاد :
«... ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على ان الابطال هم صنائع المجتمع ، وليسوا اصحاب الفضل عليه، وان تعظيم الابطال الغابرين يصرف الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التي أنشأت أولئك الابطال ، فخدموها قاصدين مدبرين ، او على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون في تلويث كل عظمة يؤدي توقيرها الى نقد مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم في هذا أنهم غيروا أبطال الروايات في مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا «هاملت» على المسرح لثيما ماكرا سيء النية على خلاف ما صورته الشاعر ، لان تصوير امير من أمراء القرون الوسطى في صورة حسنة يخل بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية في تلك القرون» .
وينتهي العقاد من ذلك الى تحديد موقفه من العبقرية بقوله :

«... وتكاثرت على هذا النحو اسباب الغضب من العظماء ، حتى صبح عندنا ان العظمة في حاجة الى ما يسمى «برد الاعتبار» في لغة القانون ، فان الانسانية لا تعرف حقا من الحقوق ان لم تعرف حق عظمائها ، وان الانسانية ليست بشيء ان كانت العظمة الانسانية في قديمها او حديثها ليست بشيء » .

هذه هي وجهة نظر العقاد في دفاعه عن العبقريّة، وفي دفاعه عن موقفه المثالي من الشخصيات التي يدرسها، بحيث لا يعترف بما لهذه الشخصيات من اخطاء وجوانب ضعف ، وهو اذا اعترف بها فمن باب تفسيرها والدفاع عنها .

والواقع ان العلم الحديث والديمقراطية والشيوعية لم يقض اي منها على دور الفرد في التاريخ ، وان اختلفت النظريات المعاصرة في تحديد هذا الدور وحجمه ، ولعل ما اشار اليه العقاد من افكار خاطئة عن البطولة والابطال تكون ثمرة التحريف وضيق الافق والفهم الخاطئ للنظريات المختلفة ، مما خلق اضطرابا في التقدير للابطال والعباقرة ، وافسد النظرة اليهم لدى البعض .

ولكن مع ذلك يبقى السؤال الاساسي :

هل الكشف عن اخطاء الابطال وعيوبهم يعتبر نوعا من الاساءة اليهم او الى نظرة الناس لهم ؟...

ان موقف العقاد هنا ولا شك موقف خاطيء ، ذلك لانه يخالف الموقف العقلي والعلمي الذي يرفض انكار حقيقة معروفة ، وتسجيل واقعة صريحة في اي امر من الامور، وهو موقف خاطيء من ناحية اخرى ... لان الانسان لا تتحدد قيمته في ميدان البطولة او العبقريّة بأنه كامل لا يعرف الخطأ ، او بأنه خال من اي عيب من العيوب الانسانية المعروفة... ذلك اخراج للبطل او العبقري من نطاق الانسانية الصحيحة السليمة ، وهو امر يجعل من البطل نموذجا مستحيلا لا يستطيع البشر ان يجدوا فيه قدوة من أي نوع . والحقيقة ان البطل ليس هو الكائن الذي يعتمد على قوى غير انسانية ، بل هو انسان ارتقت قدراته وارتفعت ، واستطاع ان يستغل هذه القدرات اعظم استغلال في تحقيق اهداف كبيرة عالية .

ان النظرة المثالية للبطولة والعبقريّة انما هي تعنيط للانسان، وتجميد لحركة حياته ، وللعناصر التي تتكون منها هذه الحياة . ولناخذ نموذجا واحدا يكشف لنا خطأ النظرة المثالية عند العقاد ، وذلك النموذج هو «سعد زغلول» ... فسعد زغلول زعيم وطني ، وهو بطل من الابطال الذين

تحمس لهم العقاد ، فكتب عنه كتابا هاما وشاملا ، وقد التزم العقاد في هذا الكتاب بالمنهج المثالي الذي لا يكاد يجد في الزعيم الوطني نقطة ضعف من اي نوع . ولكننا نعود اليوم الى مذكرات سعد زغلول التي كتبها بنفسه عن نفسه لنجد فيها ان الزعيم الوطني الكبير يكشف فيها بأمانة وصدق عن بعض عيوبه الشخصية التي لم يتعرض لها العقاد على الاطلاق ، ولم يمسه من قريب او بعيد ، في دراسة تزيد على ستمائة صفحة .

يقول سعد زغلول في مذكراته الخاصة عن تمكن داء «القمار» منه في وقت من الاوقات وقد كتب هذا الجزء من مذكراته في ابريل سنة ١٩١٣ . . . يقول سعد زغلول عن نفسه (١) :

«كنت قبل ١٢ سنة أكره القمار ، واحتقر المقامرین ، وأرى ان اللهو من سفه الاحلام واللاعبين من المجانين ، ثم رأيت نفسي لعبت وتهورت في اللعب ، وأتى عليّ زمان لم أشتغل الا به ، ولم أفكر الا فيه ، ولم أعمل الا له ، ولم أعاشر الا أهله حتى خسرت فيه صحة وقوة ومالا» . ثم يقول سعد زغلول بعد ذلك :

«أريد ان أعرف ما أريد حتى أتمكن من معالجة نفسي من هذا الداء . هل أريد بسطه في الرزق ؟ انه يقبضه في الكثير الغالب . هل أريد سعة في الجاه ؟ انه يضيقه بما يحط من القدر في نفوس الناس . هل أريد تناسي الآلام تترد على النفس عند خلوها من الشغل وهو كثير ؟ لا أشعر بهذه الآلام . ألا يكون هذا الخلو مؤلما وطلب الخروج منه هو الذي يحجب اللعب للنفس ؟ ربما كان ذلك هو السبب . ان كان الامر كذلك فلا يتعذر معالجته بمباشرة عمل من الاعمال» .

تلك هي اعترافات سعد زغلول بهذا العيب في شخصيته وبهذا النقص الذي يعاني منه . وسعد زغلول ليس شخصية دينية . ومع ذلك فقد تفاضى العقاد عن هذا الجانب في شخصية سعد وأهمله ولم يلتفت اليه ، وكان دافعه الى ذلك هو خوفه من أن يחדش هذا العيب الصورة الجميلة المثالية التي رسمها للبطل السياسي ممثلا في سعد زغلول .

والعقاد يخطيء هنا عدة أخطاء ، فهو يخطيء في تصوير الحقيقة والواقع التاريخي ، لان البحث التاريخي لا يمكن ان يخضع لنوايا الباحثين ورغباتهم ، ولا يجوز ان تكون هذه النوايا والرغبات سببا لحجب الحقائق

١- صفحة ٢٢٩ من كتاب سعد زغلول - دوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ تأليف

عبد الخالق محمد لاشين .

الثابتة ... لان حجب الحقائق - مهما كانت النية حسنة - هو نوع من التزوير لا تقبله الروح العلمية السليمة .

ومن ناحية ثانية فان تصور العقاد للبطل على انه لا يعرف «الضعف» ولا يجوز ان يعرفه هو امر خاطيء ، لان هذا الموقف يخرج بالبطل عن دائرة «الانسان» الى دائرة اخرى وهمية ... ان نفي «الضعف» بصورة نهائية عن شخصية البطل معناه نفي «الانسانية» عن هذه الشخصية . فالانسان الذي لا يتألم ولا يبكي ولا يخطيء ولا يحزن ليس انسانا حقيقيا وانما هو انسان آلي ... وهو في النهاية غير موجود الا في خيال بعض الباحثين الذين لا يعترفون بالواقع الانساني ، بل يتجاوزونه ويرفضونه . ان الصراع هو اساس الشخصية الانسانية السليمة ... الصراع بين الخير والشر ... بين الضعف والقوة ... وعلى ضوء نتيجة هذا الصراع تتحدد قيمة الشخصية الانسانية ، وعندما ينشأ الصراع بين الضعف والقوة في نفس الانسان فان علينا ان ندرس النتيجة ، اذا انتصر الخطأ والضعف انهارت الشخصية وان كان النصر للصواب والقوة استطاع الانسان ان يرتفع ، ويحقق لحياته معنى عميقا وعظيما ، وهذا ما حدث في حياة سعد زغلول فقد انتصر على أخطائه وأمراضه النفسية ، واستطاع ان يرتفع فوق هذه الاخطاء والامراض الى مستوى الزعامة السياسية والبطولة الوطنية .

ونحن نجد خطأ العقاد من ناحية ثالثة انه يحرم شخصية سعد من تلك الميزة التي ظهرت في مذكراته ، وهي ميزة مراجعته لنفسه ، ومحاولته ان يتخلص من مرضه النفسي وينتصر عليه ويعرف أسبابه . ذلك نموذج من أخطاء المنهج المثالي في كتابة العقاد عن الأبطال والعباقرة ، حيث لم يكن للأبطال والعباقرة في نظر العقاد عيوب ولا أخطاء، فالعبقري عنده هو الانسان القوي الكامل الذي لا يعرف الخطأ ولا الضعف . والعقاد هنا يبدو متأثرا - عن قصد ووعي او عن غير قصد ولا واعي - ببعض مدارس الفكر الالماني ، وخاصة فكرة نيتشه عن «الانسان الاعلى» او «السوبرمان» ، ان العقاد لا ينقل فكرة نيتشه ولا يطبقها بحذافيرها على الأبطال والعباقرة ، ولكنه يقترب من هذه الفكرة ويستفيد منها ويؤمن بها، حيث يحمل البطل والعبقري عند العقاد كثيرا من الصفات والخصائص في «سوبرمان» نيتشه ، وسوبرمان نيتشه فكرة لم تتحقق في الواقع الحي ، فهي امل يدعو نيتشه الانسان الى تحقيقه ، فالتطور في نظر نيتشه يتحرك من القرد الى الانسان ، ثم من الانسان الى السوبرمان ، «ما القرد

بالنسبة الى الانسان ؟ أضحوكة وعار مؤلم . وهكذا يجب ان يكون الانسان بالنسبة الى الانسان الاعلى أضحوكة وعارا مؤلما . . . الحق ان الانسان نهر نجس ، ولا بد للمرء ان يكون محيطا ، كي يستطيع ان يضم في جوفه نهرا نجسا بدون ان يتدنس . . . فانا ادعوك بدعوة الانسان الاعلى : فانه هذا المحيط » (١) .

ولكي تتضح لنا علاقة «أبطال» العقاد و«عباقرته» بفكرة «السوبرمان» عند نيتشه ، أود ان اقف قليلا عند هذه الفكرة كما يشرحها لنا الدكتور عبد الرحمن بدوي ، أحد المفكرين المتحمسين لنيتشه في الثقافة العربية الحديثة . . . يقول الدكتور بدوي في كتابه عن «نيتشه» صفحة ٢٥٤ : «بين الكيف والكم خصومة عنيفة شيقة ، تكون جزءا هاما من تاريخ الانسانية الروحي . وبينهما على مر العصور نضال شاق يحاول به الواحد ان يسود على الآخر ، وان يذهب به من الوجود ان استطاع . فالكيف ينادي بالتفرقة ، وينكر المساواة ، ويؤمن بالفرد ، ولا يعنيه شيء من المجموع ، باعتباره مجموع وحدات متساوية متشابهة متقاربة . . . والخلاصة انه يقول بالارستقراطية ويؤمن بالامتياز . اما الكم فكل شيء عنده سواء ، حتى لو حاولت احدى الوحدات ان تشد قليلا ، تغافل عن هذا الشذوذ ، ولم يقم له اي وزن ، ولم يعمل له اي حساب . . . فانتاجه اذا أنتج بالجملة ، وعلى مثال واحد . وشارته التي يضم أنصاره تحت لوائها هي «المساواة ! المساواة !» وصيحة أنصاره في كل مكان هي «نحن جميعا متساوون ، وليس هناك أناس أعلى من أناس» . . . والخلاصة انه «اي الكم» يقول بالديمقراطية ويؤمن بالمساواة . ثم يقدم الدكتور عبد الرحمن بدوي بعد ذلك نموذجا للصراع بين الكم والكيف فيختار الثورة الفرنسية ويقول عنها :

«ان الثورة الفرنسية ليست في الواقع الا معركة خاض غمارها فريقان: احدهما فريق الكم ، والآخر فريق الكيف ، وكانت الهزيمة فيها لهذا الفريق الاخير ، فقام فريق الكم يفرض ارادته وقيمه على الناس ، ويصيح ملء شذقيه «المساواة . المساواة» ويعلن إلغاء الفوارق بين الناس ، ويجعل من الافراد جميعا حبات رمل في كومة ضخمة ، سماها «الشعب» لا يعنيه ارتفاع مستوى الانسانية كإنسانية ام لا ، ولا يحفل بالافراد الممتازين

١ - من كلمات نيتشه عن الانسان الاعلى ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه نيتشه صفحة ٢٦٣ .

الارستقراطيين ، الذين هم خلاصة الانسانية وهدايتها ، بل وخالقوها وواضعو قيمها العليا ، قيم السادة ، لا قيم العبيد ، وكل ما يعنيه هو «المتوسط» فخطته تتلخص كلها في ان يأخذ «المتوسط» من كل شيء ، وليتم بعد ذلك ملء جفنيه ، وقد سادت هذه القيم الجديدة الحياة السياسية والاجتماعية ، بل والفكرية ايضا .

وبعد هذا التحليل الذي يقدمه الدكتور عبد الرحمن بدوي للثورة الفرنسية كنموذج للصراع بين الكم والكيف في الحضارة - وهو تحليل مليء بالاطغايا والمغالطات الفكرية التي يمكن للقارئ ان يكتشفها بسهولة - ينتقل بنا الدكتور بدوي الى نيتشه فيقول :

«... رأى نيتشه هذه الاحوال وما تؤدي اليه من هبوط بمستوى الانسانية ، وانتصار لقيم المتوسطين ، وقضاء على الفردية والذاتية . فهب من جديد يحمل لواء قيم الكيف كي يعيد للارستقراطية ما لها من مكانة ، ثم يطالب بخلق ارستقراطية جديدة اعلى بكثير من الارستقراطية القديمة ، ويدعو الانسانية الى العلاء بنفسها شيئا فشيئا حتى تخلق طابعا جديدا من الانسانية ، استغفر الله ، بل فوق الانسانية واعلى منها وان كان قد قام على اكتافها وارتفع فوق هامتها . وهذا الطابع الجديد هو الانسان الاعلى . ثم مهد لهذا بالاشادة بالفردية ، لانها شرط لخلق هذه الارستقراطية ، واراد من هذا كله ان يعيد نظام التصاعد ؛ اي جعل الناس في طبقات ، يرتفع بعضها فوق بعض طبقات : «ارابي مدفوعا في عصر التصويت العام ، اي العصر الذي يخول لكل انسان ان يقف موقف القاضي من كل واحد ومن كل شيء ، اقول اراي مدفوعا في عصر التصويت العام ، اي العصر الذي يخول لكل انسان ان يقف موقف القاضي من كل واحد ومن كل شيء ، اقول اراي مدفوعا الى اعادة نظام التصاعد الى عرشه من جديد» . . بعد ان قضى على هذا النظام بفعل انصار الكم ، وكانت النتيجة لهذه المساواة المخيفة التي نادوا بها ان اصبح كل امرئ يعتقد ان له الحق في الحكم على كل مسألة ، والفصل في كل مشكلة فإزاء هذا كله «كان لا بد للناس الممتازين ان يعلنوا الحرب على العامة والمجموع . ففي كل مكان يضم المتوسطون بعضهم على بعض ، ويجمعون شملهم كي يجعلوا من انفسهم سادة ! وكل ما يخنث ويلين ويرفع من شأن ما هو «شعبي» او «نسوي» يعمل لصالح «التصويت العام» اي سيطرة المنحطين من الناس وسيادتهم ، ولكننا نريد ان ننتقم وأن نفصح هذه التجارة ونقاضيها» .

هذا هو الاطار العام لفكرة «نيتشه» كما يشرحها الدكتور عبد الرحمن بدوي مستندا الى نصوص من نيتشه نفسه . . . والحقيقة ان

العقائد لم يصل الى النتائج السيئة المنحرفة التي وصل اليها نيتشه في دعوته الى «السوبرمان» ولكنه يقترب «من نيتشه» فسي نقاط عديدة ، وخاصة في تصوره للعبقريّة على انها كمال مطلق او شبه مطلق وانها تقوم على الخلاص من كل جوانب الضعف والعيب والخطأ . ومن ناحية اخرى فالعقاد يرى تقدم الحياة متمثلا في «الفرد الممتاز» اكثر مما يراد في حركة الجماعات والافراد والشعوب ، تماما كما يتصور نيتشه ، وقد كانت هذه الفكرة الاخيرة احد الاسباب القوية لعداء العقاد للفلسفات التي تنطلق من الافكار الجماعية ، مثل تيار الفكر التقدمي بشتى مدارسه واتجاهاته ، كما شرحنا ذلك في الفصلين السابقين .

والى جانب هذا العيب في عبقریات العقاد ، وهو عيب النظرة المثالية التي لا ترى اي جانب من جوانب الخطأ في هذه الشخصيات ، وهو مما يتناقض مع الواقع والطبيعة الانسانية للبشر ، ويقترب بالعبقريّة من فكرة «السوبرمان» . . الى جانب هذا العيب نجد عيبا آخر في هذه العبقریات، فالعقاد يعتمد على تفسير الشخصيات التي يدرسها بتحديد صفة رئيسية فيها يسميها مفتاح الشخصية ، وغالبا ما يكتشف العقاد بذكائه وعمق نظراته صفة رئيسية في الشخصية التي يتناولها بالدرس والتحليل ، فمفتاح الشخصية في عبقرية عمر مثلا هو «طبيعة الجندي» ، حيث يتجسد في عمر . . . «أهم الخصائص التي تتجمع لطبيعة الجندي في صفتها المثلى : الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة والشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز في حدود التبعات او المسئوليات» . ويلتزم العقاد بهذا التفسير في حياة عمر كلها، ولكن هل تستطيع «طبيعة الجندي» ان تفسر لنا بعض ما يناقضها من ظواهر ومواقف في حياة عمر ؟ كلا ، فليس من «طبيعة الجندي» مثلا اعفاء «عمر» لخالد بن الوليد من قيادة الجيش الاسلامي وهو في قمة مجده وبطولته . . . ان المسألة هنا لا يمكن ان تعود الى طبيعة الجندي التي كانت تفرض - على الاغلب - استمرار قائد عسكري بارز مثل «خالد» في ادائه لدوره ورسالته ، وتدعيمه في هذا المجال دون اعفائه ، ولكن هذا الموقف بالتأكيد تحكمه مقاييس اخرى غير «طبيعة الجندي» عند عمر، مثل احساس عمر بالعدالة او احساسه بضرورة إشعار جماهير المسلمين المحاربين بأن دورها يفوق دور الافراد مهما كانت قيمتهم وقدرتهم . . . او ما الى ذلك من الاسباب الاخرى التي تخضع للدراسة والمناقشة في موقف عمر من خالد .

ان المقياس الواحد ، او الصفة الرئيسية الواحدة لا تكفي لتفسير كل مواقف الانسان في كل الاحوال ، و«طبيعة الجندي» لا تكفي ابدا لتفسير شخصية عمر في كل جوانبها العديدة المتنوعة ، وان كانت طبيعة الجندي يمكن ان تكون بلا شك صفة من الصفات الرئيسية العديدة في تكوين عبقرية عمر . ومن ناحية اخرى فان الصفة الرئيسية في اي شخصية من الشخصيات لا يمكن ان تكون ثابتة ، لان الانسان يتعرض للتطور والتحول من مرحلة في حياته الى مرحلة اخرى ، و«عمر» على سبيل المثال ايضا لا شك انه قد تحول عدة تحولات اساسية في شخصيته وحياته ، فهو قبل الاسلام واثناء معارضته للحركة الاسلامية غيره بعد ان اسلم ، وهو في حياة النبي يختلف عنه بعد ان تولى السلطة بنفسه واصبح خليفة لابي بكر .

ان الظروف والتجارب المختلفة تساهم في تطوير الشخصية وتحويلها من مرحلة الى مرحلة ، ولا يمكن ان تظل الشخصية ثابتة على ما هي عليه منذ البداية حتى النهاية ، ولا يمكن للشخصية ان تظل حبيسة لصفة رئيسية واحدة ، خاصة اذا كانت هذه الشخصية واحدة من الشخصيات اللامعة المؤثرة التي نطلق عليها اسم الشخصية العبقرية ، فالعبقري يؤثر في الحياة ويتأثر بها ، وليس كائنا جامدا ثابتا يعتمد على صفات واحدة لا تتغير منذ بداية حياته حتى نهايتها . . . مثل هذا الجمود والثبات في الشخصية الانسانية العادية غير مقبول ، وهو في اشخاص العباقرة والناخبين اقل منطقاً منه في الشخصية الانسانية العادية ، لان نسبة تأثير العبقري بالظروف التي يلتقي بها اقوى بكثير من نسبة تأثير الانسان العادي الذي يميل دائما الى مسايرة الظروف والاستسلام لها ، لا الى الاصطدام بها والتأثير عليها .

وفي عبقریات العقاد نلتقي بظاهرة رئيسية أخرى هي ان العقاد لم يخرج عن نطاق «الدين» و«القومية» في اختيار عبقرياته التي يقوم بدراستها وتحليلها . . . فعبقرياته اما «دينية» واما «قومية» . . . والعبقریات الدينية هي الاساس في كتاباته ، وهي التي تكون النسبة الكبرى من كتاباته عن الابطال ، وهذا ما نجده في عبقریات العقاد الاسلامية وما تبعها من دراسات عن المسيح وابراهيم . . . اما العبقریات القومية فتشمل عددا كبيرا آخر من الدراسات ، مثل كتابه عن سعد زغلول الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالحركة القومية في مصر ، و«صن بات صن» الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالحركة القومية في الصين ، و«غاندي» الذي يرتبط بالحركة القومية في

الهند ، و«محمد علي جناح» الذي يرتبط بزعامة المسلمين الهنود ، وحركة انشاء دولة باكستان .

وهذا الارتباط الوثيق بين العبقريات من جانب والدين والقومية من جانب آخر ، يكشف عن الدور الكبير الذي قام به فكر العقاد في تدعيم النظام الاجتماعي الذي أقامته الطبقة الوسطى في مصر والوطن العربي كله ، فقد أقامت الطبقة الوسطى نظامها الاجتماعي على عمودين رئيسيين هما الدين والقومية . ولذلك كان العقاد في القسم الاخير من حياته «١٩٣٥ - ١٩٦٤» كاتبا شرعيا مقبولا ومعترفا به على نطاق واسع فسي المجتمع ، ولم يكن احد ينظر اليه على انه كاتب متمرد ثائر يهز قواعد النظام الاجتماعي او يشكك فيه ، بل كان على العكس عاملا مساعدا على تدعيم هذا النظام وتأكيدده ، والابتعاد به عن مناطق الخطر والاضطراب .

وساعد على ذلك ان العقاد لم يقدم «تفسيرا ثوريا للدين» ، بحيث يبدو الدين من خلال هذا التفسير دعوة الى التغيير الاجتماعي الواسع ، مثلما فعل طه حسين في بعض كتبه مثل «الفتنة الكبرى» عندما ربط بين الدين والدعوة الى العدل والتغيير الاجتماعي ، والثورة على الظلم الاقتصادي ، بل وقف العقاد عند الحدود العامة للدين وما فيها من تثبيت عميق للقيم الاخلاقية الفردية عند الانسان ، فكان تفسيره للدين عموما من خلال العبقريات الاسلامية تفسيرا «اخلاقيا» وليس تفسيرا اجتماعيا او سياسيا . وقد حرص العقاد كذلك على الا يدخل في الخلافات العقائدية للفرق الاسلامية المختلفة ، بل بقي في كل كتاباته مسلما سنيا يحرص على ابراز ما يتفق عليه عامة المسلمين ، اي انه كان مفكرا اسلاميا لكل المسلمين من كل الاجناس وكل الطبقات في كل العصور . وهنا يختلف العقاد عن مفكر اسلامي مثل محمد عبده ، التقى معه العقاد في اتجاهه العقلي ، ولكنه اختلف عنه بعد ذلك ، فمحمد عبده كان يدعو الى دخول الاسلام ميدان التغيير الاجتماعي والسياسي ، ولذلك دخل محمد عبده بفكره الاسلامي معارك عنيفة حادة ، بينما بقي العقاد بفكره الاسلامي مرضيا عنه مسن الجميع ، ومعترفا به من الجميع ، لان اسلامه هو اسلام الجميع ، ولكن في صورة اذكى وأعمق . ولكنه لم يحاول من خلال الاسلام ان يزلزل اي نظام اجتماعي او يدعو الى نظام جديد . بل لقد حاول البعض ان يستغل فكر العقاد الاسلامي في الوقوف العنيد الحاد ضد شتى الافكار التقدمية المعاصرة التي تهدف الى تغيير المجتمع ، سواء ما كان الاسلام يرفضه من هذه الافكار فعلا ، او ما كان يلتقي معه دون اي افتعال او تعسف .

وكان موقف العقاد من القومية شبيها بموقفه من الدين ، فهو لم يقدم في عبقرياته عن الزعماء القوميين: سعد ، وصن يات صن، وغاندي، ومحمد علي جناح وغيرهم ما يمكن ان تستخلص منه فكرة تدعو الى الثورة والتغيير، وبناء عالم جديد ، بل كان يؤيد القوميات بمعناها القائم المتفق عليه ، والذي لا يشير خلافاً او اعتراضات او اتقسامات . والخلاصة ان العقاد من خلال عبقرياته قد قدم خدمة فكرية عميقة في تدعيم مجتمع الطبقة الوسطى في مصر والوطن العربي ، وفي تنوير هذا المجتمع وجعله مجتمعا عصريا ... ذلك ان العقاد لم يجعل من عبقرياته دعوة لتغيير النظام الاجتماعي او تعديله ، بل جعل من هذه العبقريات بكل ما فيها من عمق وثقافة ونظرات نافذة عالما من القيم الاخلاقية العليا التي ينتفع بها الانسان الفرد في تكوينه الشخصي ، دون ان يأخذ منها سلاحا لتغيير المجتمع او الثورة عليه فسي سبيل فكرة اجتماعية جديدة .

ولكن العبقريات رغم هذا كله ، تعتبر من الاعمال الكبيرة البارزة التي قدمها العقاد للعقل العربي والوجدان العربي ... ولقد أجملت ما في عبقريات العقاد من ايجابيات في مقال كتبه بعد وفاته سنة ١٩٦٤ أنقل منه هذه الفقرات واعتذر عما قد يبدو في هذه الفقرات من تكرار لبعض الافكار المعروضة في الصفحات السابقة من هذا الكتاب :

ان ايمان العقاد بموهبته الخاصة وامتيازه ، جعله محبا للعباقرة عاشقا لهم ، يدافع عنهم بحرارة وحماس وعقل نفاذ ، حيث يبدو العقاد في هذه العبقريات أقرب الى الفنان منه الى المؤرخ ، واذا استطعنا مثلا ان نضع كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل في باب التاريخ ، فاننا يجب ان نضع «عبقرية محمد» في باب الادب ، فالموقف الاساسي الذي يأخذه العقاد من «محمد» هو موقف «الاعجاب» ، ولكنه ليس اعجابا ابله، انه اعجاب ذكي حساس ، وهو اعجاب رجل واسع الثقافة، متنوع المعرفة، لذلك جاء أشبه بقصيدة جميلة عن عبقرية محمد ... انني أتصور هذا الكتاب قصيدة «ملحمية» طويلة عن النبي ، وهي قصيدة تتكون من مقاطع متعددة هي فصول الكتاب .

انه يتغنى بعبقرية النبي ، لكنه ليس غناء المتصوفين مثلما فعل البوصيري مثلا في قصيدته «البردة» ، ولكنه غناء فنان عصري ، ممتاز العقل ، ملم بأطراف واسعة من الثقافة الانسانية ، وهذه الثقافة تخدم موقفه الوجداني ، ولكن هذا الموقف الوجداني هو الاساس في نظرة العقاد الى العبقرية . وهذا هو موقفه في النظر الى مختلف العباقرة الذين صرف

معظم جهوده في الكتابة عنهم .

ومما يدل على هذا الموقف الوجداني ويؤكدده أن العباقرة الذين يتحدث عنهم العقاد لا يعرفون الضعف من وجهة نظره ، ولا يقعون في الخطأ ، وليس هذا موقفاً يمكن أن يقفه المؤرخ بحال من الأحوال ، فالمؤرخ يدرس الوقائع ويمحصها ، ويرفض ما لا يقبله العقل منها ، والمؤرخ يمكن أن يدين الأشخاص الذين يستحقون الادانة حتى ولو كانوا عباقرة . ولكن العقاد لا يدين عباقرته أبداً . . . أنه معجب بهم وشديد الفتنة . . . حتى في المواقف التي تلوح للآخرين خطأ . . . او على الأقل تبدو مواقف فيها شبهات . وهذا الموقف هو موقف الفنان العاشق وليس موقف المؤرخ الفاحص . والعقاد يذكرنا في عبقرياته بالشاعر الشعبي الذي يروي ملاحم الأبطال ، فيطرب له الناس ويسعدون . ان العقاد ايضا يقول : تعالوا اسمعكم قصة رجل عبقرى . . . قصة انسان عظيم .

وللعقاد في عبقرياته نظرات شديدة النفاذ والعمق والتأثير على النفس . . . وأذكر على سبيل المثال كتابه «ابو الشهداء» ، فقد كتب في هذا الكتاب عن الحسين بن علي ، فخرج الكتاب اغنية رائعة عن الاستشهاد والتضحية . . . انه كتاب مؤثر الى حد بعيد ، وهو لا يقف ابداً عند حدود شخصية الحسين ، بل يتعداها الى تصوير نفسية الشهيد في كل زمان ومكان ، والى تصوير أزمته ومحنته في هذا الوجود .

وهكذا نجد العقاد يهتز بكل وجدانه أمام العبقرية الفردية . . . انه يؤمن بالانسان العبقري ، ويؤمن بأن الحضارة من صنع العباقرة اولا وأخيرا . . . فالعباقرة في نظره هم الذين يصنعون التاريخ .

وهو عندما يفكر في العبقري او يكتب عنه ، إنما يبحث عن مفتاح شخصيته ، عن النقطة الأساسية التي يدور حولها وجوده كله ، وشخصية أبي بكر مثلا تدور كلها حول مفتاح واحد هو «الاعجاب بالبطولة» . وكل فضائل أبي بكر تنبع من هذه الفكرة الرئيسية ، وكل جوانب سلوكه تظهر في ضوء هذا المصباح الكبير ، ولذلك فان عبقریات العقاد تحمل ما يمكن ان نسميه في الاصطلاح الحديث باسم «المادة الدرامية» ، فلو اراد كاتب ان يكتب مسرحية حول حياة أبي بكر لوجد في كتاب العقاد عنه هذه المادة الدرامية الاصيلية ، لانه يقيم بناء الكتاب على تفسير خاص محدد لشخصية البطل ، ويتتبع هذا التفسير حتى أبعد أعماقه وزواياه . . . وعلى ضوء هذا التفسير الاساسي يمكن لأي كاتب مسرحي ان يبني عملا فنيا من الطراز الاول ، فالعبقریات لا تقدم مجموعة من المعلومات المنسقة المتتالية،

بل تقدم بناء متكاملًا للشخصية الانسانية . . يقوم على تصور خاص من جانب العقاد ، وهو يتعهد هذا التصور حتى يبرزه آخر الامر في صورة جميلة .

والعبقرية عند العقاد هي في اساسها موهبة وإلهام ، ولذلك فهي اذن صادرة عن قوة علوية ، ولعل هذا كان سببا من الاسباب القوية التي دفعت العقاد الى الاتجاه «للميتافيزيقا» او الى ما وراء الطبيعة ، بدلا من الاتجاه الى الطبيعة والمجتمع . ولقد كانت تجربة العقاد الخاصة عاملا من العوامل التي ساعدته على الابتعاد عن التفسير الاجتماعي والطبيعي للحياة . فقد ظهرت عبقريته الخاصة رغم الظروف الاجتماعية السيئة التي كانت تحيط به ، اذ كان فقيرا ولم ينل من الشهادات الا ما يناله اي موظف صغير متواضع ، ومع ذلك فقد قفز الى الصفوف الاولى في الحياة والمجتمع ، ولم يكن معه سوى شهادة واحدة هي موهبته الإلهية . . . هي عبقريته ونبوغته ، وفي المرة الوحيدة التي التفت فيها بالعقاد اخذ يتحدث في بساطة أقرب الى السداجية عن موضوع رئيسي ، هو انه وصل الى اعلى المراكز الادبية والاجتماعية بدون ثروة او شهادات . . . لقد وصل عن طريق عبقريته ونبوغته . عن طريق الموهبة الإلهية التي استطاع ان ينميها ويستغلها احسن استغلال ، بمجهوده وإرادته الصلبة العنيدة .

وتجربة العقاد الخاصة كانت خيطا سحريا يربط بينه وبين سائر العباقرة بعاطفة قوية ، شديدة الحرارة والاخلاص . ولو استخدمنا اسلوب العقاد في عبقريته فاننا نستطيع ان نقول : ان «حبه للعبقرية» صفة تصلح مفتاحا لشخصيته ، فهو يطرب للعبقرية كما يطرب النحل بين الزهور ، وكما تطرب العصافير في الربيع ، وحتى في مواقفه السياسية كان حبه للعبقرية دافعا اساسيا من دوافع العمل والتصرف في حياته ، فقد كان مرتبطا بسعد زغلول اكثر من ارتباطه بالوفد ، ثم ترك الوفد بعد وفاة سعد بسبع سنوات لاسباب عديدة من بينها انه لم يجد في الوفد شخصا آخر يقوم مقام سعد في نظره . . . لم يجد شخصا يهزه ، ويشير فيه اعجابه الكامن بالبطولة والعبقرية . . . فسعد زغلول كان بطلا وكان عبقريا ، فهو بليغ وذكي وهو ايضا ممتاز في تركيبه وبنيته ، فمنظره يوحي اليك بكل ما في الفلاح المصري من قوة وصبر واحتمال ومقدرة على مجابهة المصاعب والمشاكل . . . وقوة البنية من الظواهر التي كثيرا ما كانت تعتبر من دلائل النبوغ عند

العقائد .

والعقائد معجب ، كما قلت - بالانسان الفرد والعبقرية الفردية ولذلك لم يكتب عن عصر من العصور او عن شعب من الشعوب او عن ثورة من الثورات .

وهو اذا كتب عن عصر او شعب او ثورة فهو انما يكتب عن ذلك - في الاغلب - من خلال شخص من الاشخاص ، فقد كتب عن شعب مصر فصلين رائعين ، ولكن هذا الحديث عن المصريين كان من خلال حديثه عن سعد زغلول . وكذلك فقد تحدث عن ثورة ١٩١٩ من خلال سعد زغلول ايضا ، وكتب عن الثورة الوطنية للصين من خلال زعيمها «سن يات صن» وعن الهند من خلال زعيمها غاندي ولا تكاد نستثني من هذه القاعدة الا كتابة العقائد عن العقيدة الاسلامية ، فقد كتب عنها اكثر من كتاب واحد ولكن انتاجه الرئيسي ظل في نطاق العبقريات الفردية لا عبقريات العصور او الشعوب او الثورات .

العقاد والصهيونية

كتب العقاد كثيرا عن الصهيونية وقضية فلسطين ، ولكنه لم يلتفت الى هذه القضية في وقت مبكر ، كما فعل بعض ابناء جيل العقاد من كبار الكتاب مثل المازني والزيات ، وبداية اهتمام العقاد بالقضية الفلسطينية كان في سنة ١٩٤٧ ، وذلك عندما اصبحت قضية فلسطين عربية وعالمية في نفس الوقت ، وعندما اثير اقتراح التقسيم ثم اخذت به هيئة الامم ، وانتهى الامر باقامة دولة اسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، بينما رفض العرب قرار التقسيم ، فلم تقم دولة فلسطين العربية ، ثم اشتعلت الحرب الاولى بين العرب واليهود سنة ١٩٤٨ ، وهي الحرب التي انتهت بانتصار اليهود وهزيمة العرب .

ولكن قضية فلسطين كانت مثارة بالنسبة للأمة العربية منذ وقت مبكر ، فقد اثارها وعد بلفور سنة ١٩١٧ على نطاق واسع ، ثم اثيرت بعد ذلك على المستوى العربي العام ، نتيجة للانتفاضات الثورية المختلفة لابناء شعب فلسطين ، وخاصة في الثلاثينات ، ومع ذلك فاننا لا نجد العقاد يلتفت الى الحركة الصهيونية الا في سنة ١٩٤٧ عندما اصبحت قضية يومية ساخنة ، بالنسبة للوطن العربي وبالنسبة للعالم كله .

ولكي يتضح الفارق بين موقف العقاد وبين بعض ابناء جيله من كبار الكتاب والادباء ، يكفي ان نقرأ ما كتبه زميل العقاد وصديق عمره ابراهيم عبد القادر المازني عن فلسطين سنة ١٩٣٨ ، اي قبل اهتمام العقاد بالقضية الفلسطينية بتسع سنوات تقريبا . يقول المازني في مقال عنوانه « فلسطين لا تقهر » نشره في مجلة « الرسالة » في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٨ ، تعليقا على الانتفاضة الثورية لشعب فلسطين العربية في تلك الايام ، وهي الاحداث

التي لم تلفت نظر العقاد ولم يعلق عليها بشيء... في هذا المقال يكتب المازني بحرارة عن شعب فلسطين فيقول :

«كنا في حديث فلسطين يوما ، فأخذ بعضنا يصف ما يبدي الثوار من الجرأة والذكاء وسعة الحيلة وحسن التدبير والحكمة ، وروى في هذا المعرض قصصا عجيبة ، فهم بالقليل الموجود من السلاح القديم ، يقاومون أمضى الأسلحة الحديثة ، من طائرات ودبابات ، ومدافع جبلية ، ومدافع رشاشة ، وليس لهم سيارة واحدة ينتقلون بها ، ولكنهم في كل مكان ، ويصنعون القنابل بأيديهم ، ويتخذون من أنابيب الماء فوهات مدافع ، ويتخذون خطة الهجوم في كل حال ، ويتولون الحكم بين الناس ، ويقضون بالعدل ، ويفضون المنازعات ، ويطوون صفحات الخلافات والعداوات القديمة ، ويدخلون المحاكم ، وينحون قضاة الحكومة ويقضون هم فيما هناك فينفذ أمرهم ، ولا ينفذ أمر الحكومة ، ويشيرون باتخاذ العقال بدلا من الطربوش أو غيره من البسة الرأس ، فاذا هو على رأس كل عربي من أبناء البلاد ، ولو كان يصطاف في مصر أو سوريا ، وقد زالت هيبة الحكومة ، وكفت محاكم الصلح عن العمل إلا في مدن أربع ليس إلا ، وصارت الحكومة الحقيقية هي حكومة الثوار» .

«وقال أحد الذين كانوا في المجلس : ان هذا لعجيب ! ولا شك ان بين الثوار كثيرين من المثقفين والمتعلمين ، ولكن السواد الأعظم أقرب إلى السذاجة والفطرة فكيف تيسر كل هذا لهم ؟»

«فلم يسعني إلا أن أقول : انهم يعملون بوحى الفطرة المستقيمة، وليس عجبا ان يحسنوا التدبير ويحكموا الخطط ويضبطوا الامر ، ويظهروا ذكاء واقتدارا ، وهل كان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، وصمرو بن العاص، ومعاوية وأضرابهم من خريجي كمبردج وسان سير أو من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه ؟ أريد ان نقول اننا لا نتعجب لما ظهر من مواهب العرب بعد ظهور الاسلام ، وما كان من تغلبهم على دولتين كبيرين في ذلك العهد ، وفي آن معا ، فلا محل اذن للتعجب لما قدرت عليه ثورة العرب في فلسطين ، حيال دولة كبرى شاكية مستعدة» .

ثم يقول المازني بعد ذلك :

«والواقع ان فلسطين لم يعد في الامكان قهرها وإرغامها على قبول ما لا تقبل ، ولقد استفزها الى هذه الثورة المجيدة ظلم أريد بها ، ولا مثيل له في التاريخ ، على الأقل فيما أعرف انا . ويجب ان نذكر ان العرب كانوا حلفاء لبريطانيا وزميلاتها في الحرب العظمى ، وقد خرجوا على دولة

الخلافة يومئذ ، وهي دولتهم ، واكثرهم مسلمون ، بل كان الشائرون على السلطة العثمانية الملتحقون بجيش الثورة العربية من المسلمين» .
«فعلوا ذلك لانهم طلبوا الحرية ، ونزعوا الى الاستقلال ، وقد عرفت بريطانيا هذا ، ورضيت به ، وشجعتهم عليه ، ووعدتهم بتحقيقه، ولو كانوا يعلمون انهم سيصيبهم ما اصابهم لما ثاروا ، اذ لا خير ولا معنى لاستبدال نير بنير» .

«وهذا الجيش العربي هو الذي اعان على فتح فلسطين وسوريا ، وسلب البلاد العربية كلها من السلطة العثمانية ، وكان جيش بريطانيا يدخل بلدا بعد بلد ، فيجد الامور ممهدة ، ويقابل بالترحيب والحفاوة لانه حليف العرب» .

«فماذا كان جزاء العرب ؟ مزقت بلادهم كل ممزق ، وأخلفت الوعود كلها ، فلم ينجز الحلفاء للعرب منها واحدا» .
هذه فقرات مما كتبه المازني سنة ١٩٣٨ ، وقد تعمدت ان اقدم مقاطع طويلة من هذا المقال ، لانه يكشف عن مدى اهتمام المازني بمتابعة قضية فلسطين وسائر القضايا العربية ، والكتابة عن هذه القضايا بالكثير من الوعي الذي كانت تسمح به ظروف تلك المرحلة .

هذا الاهتمام بقضية فلسطين من جانب المازني ، رفيق العقاد وصديقه، لا نجد له شبيها في كتابات العقاد . وهناك عدة اسباب وراء عدم اهتمام العقاد بقضية فلسطين قبل سنة ١٩٤٧ .

فالعقاد ككاتب سياسي كان غارقا على الدوام في تيارات السياسة المصرية المحلية ، فهو كاتب حزبي ، يعبر عن الحزب الذي ينتمي اليه ، ويشتبك في الصراعات اليومية المختلفة التي يخوضها هذا الحزب مع غيره من الاحزاب ، ولم تكن قضية فلسطين جزءا من الصراعات السياسية المحلية في مصر الا منذ سنة ١٩٤٧ ، حيث اصبحت هذه القضية جزءا اساسيا يدور حوله الصراع السياسي بين الاحزاب المصرية ، وخاصة بعد دخول الجيش المصري الى ميدان القتال في فلسطين .

ومن ناحية ثانية فان العقاد في معظم كتاباته السياسية كان اشبه بالمعلق السياسي منه بالمفكر السياسي ، رغم ان جانبا رئيسيا من كتاباته السياسية كان يتميز بالثقافة الواسعة والعمق ، ولم يكن مجموعة من الكتابات السريعة التي تعبر عن عواطف مؤقتة وعابرة . والفرق بين المعلق السياسي والمفكر السياسي هو ان المعلق السياسي يناقش الاحداث بعد ان تقع ، ويحاول تفسيرها وتقديم رأي فيها ، بينما ينطلق المفكر السياسي

من مبادئ معينة يؤمن بها ، ويدعو اليها ، ولذلك فهو يسبق الاحداث ويتنبأ بها ، ويحاول ان يشارك في صنعها وتوجيهها ... فلقد كان هارولد لاسكي مثلاً مفكراً من مفكري حزب العمال البريطاني ، ولكن هذا المفكر السياسي لم يكن مجرد معبر عن رأي حزبه ، بل كان احد الذين خلقوا فيه تياراً فكرياً واسعاً ، واحد الذين أسهموا في تغيير اتجاهات الحزب .

ولكن العقاد لم يكن معروفاً عنه - ككاتب سياسي - انه استطاع ان يغير بعض اتجاهات الاحزاب التي كان ينتمي اليها ، بل لم يكن يحاول الاضافة الى مبادئ هذه الاحزاب بشكل من الاشكال .

ولكي تكون هذه القضية اكثر وضوحاً ، فاننا نستطيع ان نقارن بين العقاد وبين الدكتور محمد مندور ، الذي ورث مكان العقاد القديم في حزب الوفد ، فلقد كان العقاد في العشرينات وأوائل الثلاثينات هو كاتب الوفد الاول ، وكان مندور في الاربعينات هو كاتب الوفد الاول ، وقد استطاع مندور - مع بعض الشباب الآخرين - ان يخلق داخل حزب الوفد تياراً كاملاً هو تيار الفكر الاشتراكي ، والذي كان يتمثل فيما سمي باسم «الطليعة الوفدية» ، بينما لا نستطيع ان نجد للعقاد - رغم اهمية دوره في حزب الوفد ، وفي حزب السعديين بعد ذلك - ما يمكن ان يكشف عن تيار خاص به استطاع ان يخلقه بحيث ينتسب هذا التيار اليه .

لقد كان العقاد يتخذ في كتاباته السياسية موقف التعليق ، لا الكشف والمبادرة والابتكار والاضافة ، وكان من ناحية أخرى يتجلى بدكائه وثقافته وقوة تعبيره ومواهبه كلها في المعارك السياسية اليومية التي كان يشتبك فيها مع كتاب الاحزاب المعارضة وزعمائهم .

ولقد استطاع المازني ان يخرج من دائرة السياسة المصرية المحلية قليلاً ، وان يكون لنفسه بعض الاتجاهات والمبادئ التي لا ترتبط بظرف محلي او أحداث سياسية يومية ، ومن هذه الاتجاهات والمبادئ كان اهتمام المازني المبكر بالقضايا العربية ومن بينها قضية فلسطين ، ولذلك فقد كان معروفاً من المازني انه يميل الى فكرة الوحدة العربية ويؤمن بها ، ويرى ان قضايا العرب هي قضايا شديدة المساس بمصر ومصريها .

ولكن العقاد لم يكشف عن شيء من هذا الميل العربي بشكل واضح مباشر الا عندما فرضت القضايا العربية نفسها على مصر ، وكانت قضية فلسطين منذ سنة ١٩٤٧ قضية مصرية بقدر ما هي قضية عربية .

هذه العوامل التي أدت الى تأخر اهتمام العقاد بالقضية الفلسطينية

كان لها تأثيرها على طريقة تناوله لهذه القضية وأسلوب تفكيره فيها
وتعبيره عنها .

فالعقاد لم يستطع ان يجرد قضية فلسطين عن القضايا المصرية
اليومية ، ولم يستطع ان ينظر الى هذه القضية نظرة عامة ، تبتعد بها عن
السياسة المصرية اليومية .

فقد كان في كثير من كتاباته عن فلسطين منطلقا من الدفاع عن السياسة
التي اتخذها النقراشي والحزب السعدي ازاء فلسطين ، كما ان العقاد
من ناحية أخرى قد ادخل قضية فلسطين في مجال الصراع العنيف الذي
نشأ بينه وبين الشيوعيين خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، اي قبل
سنوات قليلة من اهتمامه بقضية فلسطين .

ولنقف بعد ذلك بشيء من التفصيل مع رأي العقاد في الصهيونية
وقضية فلسطين .

عبر العقاد عن آرائه في الصهيونية وقضية فلسطين في مجموعة كبيرة
من المقالات ، نشر معظمها في جريدة «الاساس» منذ ١٩٤٧ ، وقد ظهرت
هذه المقالات في كتاب بعنوان « الصهيونية وقضية فلسطين » وهو
الكتاب الذي نشر بعد وفاة العقاد . وأصدر العقاد كتابا عن «الصهيونية
العالمية» سنة ١٩٥٥ وفي هذين الكتابين أهم ما كتبه العقاد عن هذه
القضية .

ويتناول العقاد في كتابته عن الصهيونية عدة جوانب ، ويتعرض لها
من زوايا متعددة .

الجانب الاول الذي اهتم به العقاد ونجح فيه الى حد بعيد هو حديثه
عن الاصول الدينية والتاريخية للصهيونية . ففلسطين هي ارض عربية
تاريخيا حتى قبل ان يهاجر اليها العبرانيون بوقت طويل . . . ويقول العقاد:
« يغلب على ظن الكثيرين ان الصهيونية حركة دينية قديمة وانها مرتبطة بما
ورد من الوعود للخليل ابراهيم عليه السلام . والواقع انها ليست بالحركة
الدينية ، وليست بالحركة القديمة في بني اسرائيل أنفسهم ، ولكنها حركة
سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها في بيت داود . فغاية ما بلغه
ابراهيم عليه السلام تحت قمة صهيون انه اشترى قبرا هناك بالمال ، كما
جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين في العهد القديم » .
ثم يتحدث العقاد بعد ذلك عن هيكل سليمان السدي بناه في بيت
المقدس فيقول :

« لم يتفق اليهود انفسهم على قداسة المدينة بعد قيام الهيكل بها ، فان

الملك «يهوآش» ملك اسرائيل أغار عليها واستباح هيكلها ، وغنم ما فيه من التحف والآنية ، ثم قفل الى السامرة ، وجاء في العهد القديم خبر وفاته على الصبغة المرضية فقليل عنه انه اضطجع مع آبائه اي قضى على الاقل غير مفضوب عليه .

ثم يقول العقاد عن الاصل العربي لفلسطين :

«واذا رجعنا الى كلمة «صهيونية» نفسها لم نجد لها اصلا متفقا عليه في اللغة العبرية ، واكثر الشراح يرجحون انها عربية الاصل ، لها نظير في اللغة الحبشية ، وانها من مادة الصون والتحسين ، وكانت فعلا مسن حصون الروابي العالية ، والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من ابناء الجزيرة ، الذين سكنوا ارض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين ، وهم الذين اطلقوا على الارض اسم ارض كنعان بمعنى الارض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وقنع وخنع بهذا المعنى في لغتنا العربية الحاضرة .»

ويقول العقاد مؤكدا على عروبة فلسطين منذ قديم الزمان وذلك في كتاب «الصهيونية وقضية فلسطين» ص ٨ :

«ان العرب لا يحتاجون الى بحث طويل لاثبات حقهم القديم في فلسطين ، واقامة هذا الحق على انهم ابناء البلاد الأصلاء من قبل عهد ابراهيم عليه السلام ، فان كتب الصهيونيين نفسها تروي عهد «يهوآ» لابراهيم وتروي معه ان البلاد كانت يومئذ في أيدي الكنعانيين . وقد جاء في الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين ان ابراهيم اجتاز الارض الى مكان شكيم . . . وكان الكنعانيون حينئذ في الارض . وظهر الرب لإبرام وقال : «لنسلك اعطي هذه الارض . . .»

« وكنعان اسم عربي لا شك فيه ، وهو يدل على سكان البلاد الواطئة في ساحل فلسطين . وعلماء الاجناس الثقافات متفقون على ان الكنعانيين والاراميين مهاجرون من جزيرة العرب ، نزلوا في وادي الاردن ودخلوا منه الى فلسطين ، واطلقوا عليها اسم ارض كنعان ، ثم تجاء اليونان فاطلقوا على الارض اسم فلسطين .»

ويؤكد العقاد على المعنى الرئيسي في فكرته عن الصهيونية ، وهو ان الصهيونية ليست في حقيقتها دعوة دينية ، بل هي دعوة سياسية تهدف اساسا لمصلحة اليهود ، وتهدف بعد ذلك لخدمة مصالح أخرى ، مثل قوة الاستعمار الحديث ، وذلك عندما تلتقي مصلحة الصهيونية بمصلحة الاستعمار . ويضيف العقاد عنصرا آخر الى مصادر قوة الصهيونية هو

التعصب الغربي ضد الاسلام .

والحقيقة ان العقاد يبرهن بقوة على زيف الاصل الديني للصهيونية ، ويعتمد في ذلك على ثقافة واسعة ، وإحاطة بالقضية ، وقدرة دقيقة على الاستنتاج والبرهان .

يقول في كتاب «الصهيونية وقضية فلسطين» ص ٨ :

«اما قضية الوعد الذي من اجله سميت فلسطين بأرض الميعاد ، فخلاصتها ان ابراهيم عليه السلام كان في العراق ، فضاقت به وبقومه ، واضطر الى الرحلة في البادية كما ترحل القبائل البدوية الى اليوم . فلما اشرف على ارض كنعان أعجبت به ، وودّ لو اتسعت له فيها سبل السقي والمرعى . ولكنه لم يستطع ان يتحول من تخومها الى داخلها فانحدر منها الى مصر ، ثم عاد اليها فجعل يطوف حولها زمنا ولا يتمكن من دخولها . وكان عزاءه فيما حفظته كتب العهد القديم بعد ذلك ان «يهوا» ظهر له فناداه : ان ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، لان جميع الارض التي تراها اعطيكها لك ولنسلك الى الابد . واجعل نسلك كتراب الارض حتى اذا استطاع احد ان يعد تراب الارض فقد يستطيع ان يعد نسلك » .

«وكتب اليهود ليست بحجة على غيرهم ولا بحجة على أعدائهم فسي انتزاع ارضهم . ولكن خصومهم يناقشونهم فيقولون : لو كان هذا العهد ميثاقا نافذا لملك ابراهيم الارض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا في حياته ، ولكنه لم يملكها كما هو معلوم» . ثم يقول العقاد بعد ذلك :

«على كل تقدير يصح ان يقال ان ابناء ابراهيم قد ملكوا فلسطين لان قبائل قريش هم ابناء اسماعيل بن ابراهيم ، ويصح ان يقال ان بنى اسرائيل قد اخلفوا وعده كما قال موسى عليه السلام فعوقبوا بالحرمان والتشريد » .

ويقول العقاد في كتابه «الصهيونية العالمية» ص ٢٢ :

«ومما يؤيد تليفق الدعوة الدينية في مسألة الصهيونية الحديثة ان إمام هذه الصهيونية الاكبر تيودور هرتزل لم يفكر فيها الا بعد سنوات من صيحته الاولى في سبيل «خلاص اليهود» وانما كانت فكرته الاولى تحويل اليهود الى المسيحية وانشاء مدرسة في فيينا لابتداء هذه المحاولة ، واقناع الجاليات اليهودية بين الامم الاخرى بمحاكاتها ، ثم نظر اليهود فوجدوا لهم «لزوما» في دسائس الاستعمار ، ومسايعه الخفية والظاهرة ، ووجدوا لهم «لزوما» في عصر الصناعة والطرق التجارية خلال بلاد الدولة

العثمانية ، ووجدوا لهم «لزوما» في عصر المسألة الشرقية وتفاهم الدول المستعمرة على تقسيم تركية الرجل المريض ومنهسا فلسطين ، فجاءت الصهيونية بعد ذلك كله «وليدة السياسة» كما كانت وليدة لها في أقدم عهودها .

ولا شك ان مناقشة العقاد للاصل الديني هي مناقشة سليمة وعميقة وبراهينه فيها قوية ودقيقة ، وهي قريبة جدا من البراهين التي اعتمد عليها وتوسع فيها وتبناها بعد ذلك المؤرخ البريطاني الكبير ارنولد توينبي . فالدراسة الدقيقة للصهيونية تكشف بكل وضوح ان الدين في هذه الحركة هو أداة من أدوات الاستغلال والاثارة والتبرير ، وليس أصلا من أصول هذه الحركة ولا مصدرا من مصادرها الصحيحة .

وبعد ان يجرد العقاد الصهيونية بذكاء وثقافة وعمق — من استنادها الى الدين ، يقف أمام العنصر الثاني الذي استغلته الحركة الصهيونية على نطاق واسع في الدعوة الى اقامة اسرائيل ، وهذا العنصر هو الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في المجتمعات المختلفة .

ويرى العقاد ان هذا الاضطهاد حقيقة تاريخية مؤكدة ، ولكنه يضع هذه الحقيقة في اطار ثلاثة اعتبارات . . . يقول العقاد في كتابه «الصهيونية العالمية» ص ٤٣ :

«نريد ان نقول — أولا — ان الصهيونية هي المسئولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى ابناء دينها .

وان نقول — ثانيا — ان الصهيونيين أشد الناس اضطهادا لغيرهم اذا ملكوا القدرة الظاهرة او الخفية .

وأن نقول — ثالثا — ان الصهيونيين يستغلون دموع الاضطهاد ويتخذونها وسيلة لتخدير الامم باسم الانسانية والغيرة على الحرية» «الصهيونية مسئولة عن كل فاصل تقيمه بينها وبين أمم العالم ، لانها من قديم الزمن تقسم العالم الى قسمين متقابلين : قسم اسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله لغير سبب الا انهم ابناء اسرائيل ، وقسم آخر يسمونه قسم الامم او «الجوييم» ويشملون به جميع الناس من جميع الاقوام والاجناس» .

ويستعين العقاد بنصوص من التوراة ليثبت بها وجهة نظره من ان اليهود مسئولون عما يلقون من اضطهاد فيقول : «... في التوراة من سفر الخروج» قال الرب لوسى رأيت هذا الشعب واذا هو شعب صلب الرقبة» ، وفي السفر نفسه بلسان الإله : «أني لا أصعد في وسطك ، لانك شعب

صلب الرقبة لثلاث أفنيك في الطريق» ، وفي سفر التثنية يقول لهم موسى عليه السلام : «اني عارف تمردكم ورقباك الصلبة» ، وفي سفر التثنية ايضا يقول لهم : «ليس لاجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الارض الجيدة لتمتلكها ، لانك شعب غليظ الرقبة» ، وليس في العهد القديم سفر واحد خلا من وصف كهذا الوصف بمعناه او بما هو أشد من معناه ، ولم تتغير طبائعهم بمضي الزمن الى ايام السيد المسيح ، فان السيد المسيح هو الذي يخاطب اورشليم قائلا : «يا اورشليم ، يا اورشليم ، يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة اردت ان اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدي» . ولا شك ان وجهة نظر العقاد في قضية اضطهاد اليهود صحيحة في اساسها ، فاليهود في معظم المراحل التاريخية هم المسئولون عما أصابهم بسبب عزلتهم ، ورفضهم الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وبسبب سلوكهم الاقتصادي الذي يقوم على الاستغلال والاستفادة من المصاعب التي يمر بها الآخرون ، وقد صورهم شكسبير في مسرحيته المشهورة «تاجر البندقية» تصويرا صادقا عميقا ، فالتاجر اليهودي «شيلوك» يتاجر بمصائب الناس ، ويرفض ان تزوج ابنته من مسيحي ، ويحاصرها حتى لا تختلط بأحد ، ويحاول ان ينتقم من الآخرين ويتشفى فيهم ، وينتهي به الامر بأن يصبح مكروها من الجميع ومرفوضا لدى الجميع .

والعقاد لم يشر في حديثه عن «اضطهاد اليهود» الى ان المجتمعات العربية والاسلامية بوجه عام — في العصور القديمة والحديثة على السواء — لم تعرف ظاهرة اضطهاد اليهود ، بل لقد برز عدد كبير منهم في الحضارة الاسلامية مثل موسى بن ميمون وغيره من العلماء والمفكرين . وفي المجتمعات العربية الحديثة عاش اليهود بأعداد كبيرة في صفوف العرب دون ان يمسه احد بسوء ، بل كانوا يعيشون في العراق والمغرب ومصر دون ان تظهر ضدهم اي مظاهر للرفض الاجتماعي او السياسي او الاقتصادي ، بل لقد كانوا في مصر على سبيل المثال يسيطرون على جانب بارز من اقتصاديات البلاد، دون ان يعترض احد عليهم او يستنكر تغلغلهم في الحياة الاقتصادية المصرية ، ولقد كان الاستنكار دائما ينصب على الاستغلال الاقتصادي وعلى الاستغلال الرأسمالي . . . ولم تظهر اي اتجاهات تنادي بالاعتراض على اليهود لانهم يهود ، بل لقد وصل بعض اليهود المصريين الى اعلى مناصب الدولة في مصر ، فقد كان يوسف قطاوي «باشا» اليهودي وزيرا للمواصلات ، ثم وزيرا للمالية في وزارة سعد زغلول في سنة ١٩٢٤ .

لقد كانت الحضارة الاسلامية والمجتمعات العربية عموما هي ارحم الحضارات والمجتمعات في معاملتها لليهود، وكان الاضطهاد الذي تعرض له اليهود هو اضطهاد المجتمعات الغربية ، ومع ذلك فان العرب الان هم الذين يتعرضون لاقصى انواع الانتقام من الحركة الصهيونية .

على ان العقاد في تفسيره الصحيح لاسباب الاضطهاد الذي تعرض له اليهود ، ورد هذه الاسباب الى اليهود انفسهم يتعرض احيانا لبعض المبالغات التي تقوده الى الخطأ ، والخطأ الذي وقع فيه هنا هو محاولته نفي اضطهاد النازية لليهود الى الحد الذي دفعه الى ان يقول في كتابه «الصهيونية العالمية» ص ٤٧ :

«والاعجوبة الكبرى في دعوى الاضطهاد ان الصهيونيين يستخدمونها لاقتناع الناس بمطالبهم ، ولا يتورعون عن اكلوبة قط في سبيل مطلب مقصود » .

«هل يخطر على بال احد ان هجرة اليهود من المانيا كانت باتفاق مع هتلر ؟ وان حركة الاضطهاد كانت تنظم على علم من الرعاة الصهيونيين في القارة الاوربية ؟»

«هل يخطر على بال احد ان الصهيونية كان لها مكتب معترف به في برلين ، وانها كانت على اتصال دائم «بالجستابو» عن طريق هذا المكتب وفروعه في البلاد الالمانية» .

«نعم . كان لها مكتب معلوم في العمارة رقم (١٠) من شارع «ميين كستراس» يديره اثنان احدهما يدعى «بينو» والثاني يدعى «بارجلعاد» ، وكلاهما من زعماء الحركة الظاهرين في انحاء القارة الاوربية . . . وكان هذا المكتب ينظم الهجرة الصهيونية سرا الى فلسطين ، في الوقت الذي تثار فيه الثائرة على الجستابو وفظائعه المسلطة على اليهود . ولما أعلن الجنرال مورجان ، بعد هزيمة المانيا ، انه لم ير احدا من المهاجرين في حالة سيئة ، وانهم جميعا يهاجرون ووجوههم مشرقة ، وجيوبهم منتفخة بالاموال هبت عليه الاقلام المأجورة من انحاء العالم تتهمة بالنازية والتواطؤ مع الاعداء ، وتلح على حكومته بوجوب تجريده من لقبه ومن كسوته العسكرية ، جراء له على كشف القناع عما وراء الستار » .

بهذا المنطق يندفع العقاد الى « الخطأ » من وجهة النظر العلمية والتاريخية ، لان في محاولته اثبات فكرته عن ان اليهود هم السبب الاصلي في اضطهاد الناس لهم ، فانه يبرئ النازية الالمانية من خطيئة ثابتة ضدها ، وهي اضطهاد اليهود وقتلهم بالآلاف ، وليس معنى اضطهاد النازية لليهود ،

ان النازية لم تسمح لعدد من اليهود بالهجرة وجيوبهم مملوءة بالمال ، وليس معناه ان النازية لم تتفق احيانا مع اليهود ، ولكن الخطأ العام للنازية ولا شك هو اضطهاد اليهود .

على ان قضية اضطهاد اليهود على يد النازية قد ضخمتها الدعاية الصهيونية حقا واستفادت منها فائدة كبيرة ، فالنازية اذا كانت قد اضطهدت اليهود، فانها اضطهدت الاشتراكيين والشيوعيين والديمقراطيين المسيحيين في داخل المانيا نفسها، فاذا كانت النازية قد اضطهدت اليهود، فقد فعلت ذلك كجزء من اضطهادها لسائر ابناء الشعب الالماني باستثناء من ينتمي منهم للنازية ، بل لقد اضطهدت النازية قسما من النازيين انفسهم أشد الاضطهاد وقام هتلر باغتيال صديقه الزعيم النازي «روهم» قائد جيش العاصفة النازي عندما اختلف معه حول حل جيش العاصفة وضمه الى الجيش الالماني الرسمي .

فالنازية كانت حركة ارهابية دموية ، لم يسلم احد منها في المانيا ولا في العالم ، واليهود قد تعرضوا مثل غيرهم لاضطهاد النازية ، ولكنهم بالغوا اشد المبالغة في الحديث عن مظاهر هذا الاضطهاد ، واستغلوه أسوأ استغلال في الدعوة لاقامة وطن قومي لهم في فلسطين . وكان اضطهاد النازية لليهود كان هو الاضطهاد الوحيد الذي وقسح من النازيين على غيرهم . . . وكان اضطهاد النازيين لليهود من ناحية أخرى يبرر سرقة الوطن العربي في فلسطين من ابنائه العرب . وبدلا من ان يشر العقاد في كتابه عن الصهيونية هذه الحجج الرئيسية حول اضطهاد النازية لليهود ، آثر ان ينفي هذا الاضطهاد اصلا ، معتمدا على بعض الوقائع التي تثبت ان هناك نوعا من التعاون بين النازية والصهيونية ، رغم ان هذا التعاون بين النازية والصهيونية في لحظات معينة وفي ظروف محدودة لا ينفي ابدا ان اليهود قد تعرضوا لاضطهاد عنيف على يد النازية ، ونفي هذا الاضطهاد النازي لليهود لا يفيد القضية العربية بحال من الاحوال فنحن العرب لا ننكر على اليهود حقهم في الحياة ، ولا ننكر ظروفهم الصعبة التي تعرضوا لها في البلدان الاوربية ومن بينها المانيا النازية ، لكن العرب هم آخر من يصح ان يطالبهم احد بدفع ثمن ما اصاب اليهود ، فقد عاش اليهود في البلدان العربية في امان ورخاء دون ان يتعرض لهم احد بسوء ، كما عاشوا في ظل الحضارة الاسلامية على مر العصور دون ان يتعرضوا لاي نوع من انواع الاضطهاد او الخطر .

ان موقف العقاد من «اضطهاد اليهود» يبدو سليما عندما يفسر هذا

الاضطهاد في اسبابه الرئيسية بسلوك اليهود أنفسهم ، ولكن العقاد يخطئ
اشد الخطأ عندما ينفي بعض الوقائع التاريخية الثابتة عن اضطهاد اليهود ،
وليس هناك اي مبرر علمي او وطني لهذا الانكار والنفي .

يتعرض العقاد بعد ذلك لقضية أخرى كانت موضوعا للدعاية الصهيونية
في شتى انحاء العالم ، وهي قضية النبوغ اليهودي ، وهذا النبوغ كان
في نظر اليهود سببا من اسباب اضطهادهم فهم يرون في انفسهم كما
يقول العقاد «انهم قوم محسودون لانهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ،
وانهم اصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الامم ... فهم ناجحون في
ميادين الاعمال ، ناجحون في ميادين العلوم والفنون ، وخلق بهذه الكفايات
النادرة خلق بهذا النجاح الملحوظ ان يجلب عليهم الحسد والكراهية لغير
ذنب جنوه » .

ويبرهن العقاد بالدليل القاطع المستمد من تاريخ الحضارة على ان هذه
الدعاية كاذبة ولا تعتمد على اي برهان من براهين العلم ... فهو يرد على
هذا الادعاء ببرهان واقعي فيقول «الصهيونية العالمية» ص ٥٠ :

«في مصر كثير من الجاليات التي تعمل في ميادين الحياة العامة غير
الصهيونيين . فيها جاليات من اليونان ، ومن الارمن ومن اخواننا ابناء الامم
العربية الشرقية . ونظرة سريعة الى الناجحين من كل جالية ، ترينا
بالحساب والارقام انهم لا يقلون عن الناجحين من الصهيونيين . ويبقى بعد
ذلك فارقان عظيمان : الفارق الاول ان الناجحين من هذه الامم ينجحون
في التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وأن الصهيونيين على
خلاف ذلك قلما ينجحون في عمل غير النمسة والتجارة ، والفارق الآخر
ان الجاليات الاخرى تعمل وحدها ولا تستند الى عصبة عالمية من ابناء
قومها منتشرة في أرجاء العالم ، وليس منها طواير خامسة مبثوثة في كل
بقعة تعاونها سرا وجهرا ، وتحارب من ينافسونها ويذاحمونها كما يفعل
الصهيونيون » .

ثم يعود العقاد بعد هذا البرهان الواقعي الى تقديم براهين اخرى
مستمدة من تاريخ الحضارة فيقول «ص ٥١» :

«ونعود الى دعوى النبوغ في العلوم والفنون فلا نرى ان الصهيونية
انشأت لها ثقافة مستقلة قط في زمن من الازمان ، وانما يستفيد الصهيوني
الالماني من ثقافة المانيا ، ويستفيد الصهيوني الامريكي من ثقافة امريكا ،
ويقال مثل ذلك عن الصهيونيين في ايطاليا وسويسرا وهولندا والبلجيك .
فهم يستفيدون من ثقافات هذه الامم ، وينبغي لذلك ان يكون الناجحون

منهم أضعاف الناجحين من جميع الأمم أقل من غيرهم في عدد النابغين بكثير .

ثم يقدم بعد ذلك برهانا حضاريا آخر يكشف دعوى تميز اليهود بالنبوغ على غيرهم من شعوب العالم فيقول :
«ان المقياس الصحيح لنبوغ الصهيونيين في العلوم والفنون هو تاريخهم القديم .»

«وقد كانت في الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات في الطب والفلك والجغرافيا والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التي احترقت في بعض الحروب عنوانا لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت فيها محفوظات من تواليف هذه الأمم ومقتبساتها، فكم كتابا كانت فيها من تواليف الصهيونيين الاقدمين ؟ كم أثرا من آثارهم في علوم الفلك او الجغرافيا او الهندسة او الطب او الفلسفة او غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟ لا كتاب ، ولا اثر، ولا ثمرة . . . وهذا هو المقياس الصحيح لتلك العقول وتلك الكفايات .»

«ولقد كان أذكىاء اليهود يخجلون من هذه السبة ، وكان أذكىاء الأمم يعايرونهم بها ويسألونهم عنها . كما فعل «إييان» حيث وجه السؤال بصددته الى المؤرخ اليهودي يوسفوس ، فبماذا اجاب يوسفوس ؟»

«انه لم ينكر السبة لانه لا سبيل للانكار وانما اعترف بها واعتذر منها كما قال بحروفه : اننا نسكن بلدا بعيدا من البحر ، ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات ، فهل من العجب ان أمة كهذه الامة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة - تظل مجهولة بين غيرها ؟»
ثم يورد العقاد بعد ذلك تعليقا لفولتير على عبارة «يوسفوس» يقول فولتير :

«على فرض ان كتب العهد القديم تعتبر من كتب الصهيونية لا بد ان نلاحظ ان اثنين وعشرين كتابا صغيرا ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا الى آكام الكتب التي كانت محفوظة في مكتبة الاسكندرية . . . ولا شك ان اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا قليلا ، وأنهم كانوا على جهل مطبق في علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعات وأنهم لم يفقهوا شيئا من تواريخ الأمم الاخرى ولم يبدأوا بالتعلم الا في الاسكندرية ، حيث اخلدوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف وما كانت لغتهم الا خليطا بربريا من الفينيقيّة والكلدانية المحرفة ، ناقصة في تصرفات الافعال ، فقيرة في ادوات التعبير وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها . . .»

بهذه الحجج الدقيقة العميقة المستمدة من الواقع ومن تاريخ الحضارة يناقش العقاد دعوى النبوغ اليهودي ، وهي الدعوى التي تتردد الان بصورة اخرى عندما تقول الصهيونية «ان اليهود شعب متحضر ، والعرب شعب متخلف ، والحضارة تهزم التخلف دائما» . . . وقد يكون الواقع الراهن دليلا ان اسرائيل قد تفوقت على العرب في الاخس باساليب الحضارة العصرية ، نتيجة للمساعدات الاستثنائية التي نالتها اسرائيل ، ونتيجة للضغوط العنيفة التي تعرض لها العرب . . . ولكن هل معنى هذا ان اليهود اكثر نبوغا واستعدادا للحضارة من الشعوب الاخرى ؟ . . . ذلك ما نفاه العقاد ورد عليه افضل الرد واعمقه .

وينتبه العقاد الى الارتباط الواضح بين الصهيونية من جانب والاستعمار العالمي من جانب آخر ، ويؤكد دائما ان هناك ارتباطا بين اسرائيل وبريطانيا ثم بين اسرائيل وأمريكا . وبذلك يكون العقاد قد أدرك جوهر الحركة الصهيونية ، وتناول بالتحليل والنقد تلك الافكار الرئيسية التي تقوم عليها هذه الحركة ، سواء كانت هذه الافكار دينية او كانت افكارا سياسية وحضارية . ولا شك ان كتاب العقاد عن «الصهيونية العالمية» يعتبر من اكثر الكتب العربية تركيزا ودقة ووضوحا وفهما للحركة الصهيونية ، ويستحق هذا الكتاب في معظم فصوله اهتماما واسعا من جانب القارئ العربي لانه يرسم صورة متكاملة للصهيونية في بساطة وايجاز واقناع ، على ان هذه الدقة لا تشمل كل فصول هذا الكتاب ، فهناك فصول تقوم على افكار خاطئة مضطربة ، كما ان الكتاب الثاني الذي صدر للعقاد عن «الصهيونية وقضية فلسطين» ويضم مقالاته المتفرقة التي كتبها عن هذه القضية في اواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات . . . هذا الكتاب يكشف عن بعض الاخطاء الاساسية في نظرة العقاد الى الصهيونية .

والاخطاء الرئيسية التي وقع فيها العقاد في كتابيه تتركز في ثلاثة اخطاء :

الخطأ الاول للعقاد - في حديثه عن الصهيونية ثم ربطه الدائم «بين الصهيونية والشيوعية» ، فهو يقول في مقال بعنوان «الشقيقتان في فلسطين» ص ٨ من كتاب «الصهيونية وقضية فلسطين . . .» :

«والشقيقتان المقصودتان - بل التوأمان - هما الصهيونية والشيوعية، فهما كما قلنا منذ سنوات شيء واحد على الاقل في تسعة أعشار الطريق، لان الشيوعية تلغي الاوطان والاديان وقواعد الاخلاق وفضائل الحماسة الانسانية على الاطلاق . ومتى بطل كل هذا فليس بين الصهيونية والسيادة

على العالم حائل واحد مما يحول بينها وبين السيادة عليه ففي الوقت الحاضر ، ولهذا يؤيد الشيوعيون قضية الصهيونية في كل مكان ، مع ان هذه القضية في ظاهرها هي قضية الوطن الديني لليهود ، وليس ففي الشيوعية وطن ودين ، فلماذا يؤيد الشيوعيون وطنا دينيا لليهود ان لم تتفق الغاية بينهما في نهاية المطاف ؟»

بهذا المنطق تقتزن الصهيونية عند العقاد بالشيوعية . والعقاد في هذا الموقف يعتمد على رايه في الشيوعية ، وهو الرأي الذي عرضناه في فصل سابق من هذا الكتاب وناقشناه بالتفصيل ، وهو يعتمد بعد ذلك على موقف روسيا والكتلة الشيوعية من قرار التقسيم ، فقد كان موقف الشيوعيين هو تأييد قرار التقسيم الذي أصدرته هيئة الامم في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، ورغم كل التبريرات التي حاولت الحركة الشيوعية ان تقدمها لتفسير موقفها من تأييد التقسيم ، الا ان هذا الموقف كان صدمة حقيقية للنضال العربي كله ، وهو موقف يبرر هجوم العقاد او اي مفكر عربي آخر عليه ، ولكن الفرق كبير بين مهاجمة موقف سياسي للدول الشيوعية ، وبين الربط التام بين «الصهيونية والشيوعية» على اعتبارهما وجهين لعملة واحدة ، ويحيث يبدو كما يقول العقاد - ان الشيوعية تمهد لسيادة الحركة الصهيونية على العالم كله - .

لقد حاولت صحيفة الحزب الشيوعي البريطاني «ديلي ووركر» ان تبرر موقف الكتلة الشيوعية من تأييد قرار التقسيم فقالت في مارس ١٩٤٨ : «ان الاستعمار الامريكي البريطاني يجمع قواه ويوحد صفوفه لمحاولة القضاء على التقسيم بينما ترجو الكتلة اليسارية السوفييتية المناصرة للتقسيم ان تمضي روح التقدم في الدولتين الجديدتين في فلسطين قدما ، في طريقها الى الامام وان تأييد الاتحاد السوفييتي للتقسيم كان ضمانا لقيام «جارتين متحابتين» وذلك سعيا لتحقيق الهدف الاخير ، وهو «قيام دولة عربية يهودية مشتركة» . وقالت الصحيفة «ان الروح التقدمية غمرت فلسطين وان اليهود احسوا في نهاية الانتداب بداية السلام» (١) . ومثل هذا الموقف كان «خطأ سياسيا» فادحا من وجهة النظر العربية ، ولقد كان من الواضح ان هذا الموقف مبني على سوء الفهم للقضية الفلسطينية من ناحية ، ومبني من ناحية اخرى - كما يقول طارق البشري في كتابه عن

١ - طارق البشري - الحركات السياسية في مصر ص ٢٦٤ و ٢٦٥ .

الحركات السياسية في مصر ص ٢٦٥ - «على ان السياسة الشيوعية كانت تستهدف من تأييد الدولة اليهودية ان تحاول جديها بعيدا عن الاستعمار الصانع الحقيقي لها والمصدر الحقيقي لضمان بقائها» .
ويبدو ايضا ان السياسة الشيوعية قد تأثرت بمعاملة الدول العربية لها ، فقد كان معظم الدول العربية يحارب الشيوعية بعنف ويرفض حتى الاعتراف الدبلوماسي بالدول الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي .
وقد كان هذا الموقف خطأ من الدول الشيوعية ، لان الرد على سوء معاملة «الحكومات» العربية الرجعية لم يكن يجوز ان يتم على حساب شعوب الوطن العربي .

وقد ساعد على اظهار موقف الشيوعية من القضية العربية بصورة سيئة ان جانبا كبيرا من الشيوعيين العرب قد ايدوا قيام دولة اسرائيل ، ورفضوا فكرة دخول الجيوش العربية في حرب ضد اليهود ، فالحزب الشيوعي المصري المعروف باسم «حدثو» او «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» «ايد قرار التقسيم ، وعارض بشدة دخول مصر حرب فلسطين» (١) وكان هذا الحزب يرى «ان اثاره حرب فلسطين اثاره لحرب دينية» لا يفيد منها سوى المستعمر وأن الكفاح المسلح مطلوب ضد الاستعمار وتعبئة الجيوش العربية مطلوبة ضد بريطانيا لا من اجل الحرب في فلسطين (٢) وقال هذا الحزب تأييدا لمشروع التقسيم «اننا لا نريد ان ننزع فلسطين من العرب ، ونعطيها لليهود ، بل ننزعها من الاستعمار ونعطيها للعرب واليهود ، ولا نوافق على التقسيم الا مضطرين كأساس لاستقلال فلسطين ، ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر في الدولتين العربية واليهودية (٣) وجاهدت الحركة مجاهدة كبيرة في ان تتصدى لموجة النضال في فلسطين ضد التقسيم ، وللاتجاه العام الذي يطالب بالسلاح وتكوين الكتائب ، ونادت الحركة الشيوعية المصرية بتوجيه هذين المطلبين ضد الاستعمار «لنوجه السلاح الى الاستعمار في فايد وقنال السويس والسودان ولن يمكن تحرير فلسطين وظهورها مكشوفة للعدو ، لنحرر وادي النيل لنتمكن من تحرير الشرق كله» (٤) .
وكان هذا الموقف من جانب الحركة الشيوعية العالمية والحركة

١ و ٢ و ٣ و ٤ - طارق البشري - الحركات السياسية في مصر ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .

الشيوعية المحلية موقفا خاطئا ، وكان معارضا لاتجاه الجماهير العربية والراي العام العربي ، ولقد كان المنتظر من الحركة العربية الشيوعية المحلية ان يكون لها رأي مخالف لرأي الكتلة الشيوعية في قضية فلسطين، بل كان المفروض ان تلعب دورا رئيسيا في تغيير موقف الكتلة الشيوعية نفسها على اعتبار ان الشيوعيين العرب يعيشون في قلب القضية ويرون ابعادها الحقيقية ، وكان عليهم - ويدهم في النار - ان يكونوا عامل ضغط على الكتلة الشيوعية لكي تغير موقفها من القضية الفلسطينية ، ولكنهم على العكس ساروا وراء الكتلة الشيوعية فأيدوا التقسيم وتعارضوا تماما مع المشاعر العربية العامة .

كل هذه الاخطاء تبرر ولا شك اي هجوم على موقف الكتلة الشيوعية وعلى موقف الشيوعيين المحليين... ولكن الخطأ السياسي شيء والارتباط الكامل بين الشيوعية والصهيونية عن قصد وتدبير كما قال العقاد شيء آخر. فالصهيونية تتناقض في أسسها الفكرية تناقضا تاما مع الشيوعية ، لان الصهيونية حركة قومية متعصبة او كما يقول الشيوعيون حركسة «شوفينية» والشيوعية ترفض الأساس القومي لقيام الدول والانظمة السياسية، كما ترفض القوميات المتعصبة على وجه الخصوص . والحركة الصهيونية تثير نوعا حادا من الصراع بين الشعوب ، والشيوعية لا تؤمن الا بالصراع الطبقي ، وتدعو الى ضرورة حله بالانتصار للطبقة العاملة ، والصهيونية متحالفة كل التحالف مع الاستعمار والراسمالية «امريكا وانجلترا» وأصحاب الملايين بين اليهود في العالم كله والشيوعية ترفض الاستعمار والراسمالية وأصحاب الملايين .

فلا مجال من وجهة النظر العلمية الصحيحة والنزيهة للربط بين الشيوعية والصهيونية ، وقد انفض التحالف المؤقت بين دولة اسرائيل وبين الكتلة الشيوعية بعد سنوات قليلة من قيام دولة اسرائيل ، وأدرك الشيوعيون مدى ما ارتكبوه من خطأ فادح بتأييد التقسيم وقيام اسرائيل، وهناك دولة شيوعية كبرى ظهرت على المسرح الدولي سنة ١٩٤٩ وهي الصين وقد رفضت هذه الدولة اسرائيل منذ البداية وحتى الان رفضا كاملا ونهائيا ، ولم تعترف الصين باسرائيل اي نوع من الاعتراف .

وخطأ العقاد في الربط بين الشيوعية والصهيونية ، وخطؤه في عدم التفرقة بين المواقف السياسية والمواقف الفكرية يذكرنا بخطأ آخر شهير له هو ربطه بين «النازية والشيوعية» واعتبارهما مذهباً واحداً او مذهبين متشابهين في احسن الفروض .

ان هذا الموقف الفكري من جانب العقاد يدل على الخطأ المتعمد حيث لا يمكن ان نعتبره مجرد نوع من الخطأ العابر وغير المقصود ، لان العقاد كان قادرا لو تسليح بقدر كاف من الحياد والنزاهة العلمية في هذه القضية ان يعرف الحقيقة ، ولكن العقاد يتجاوز كافة القيود العلمية عندما يدخل في خصومة سياسية ضد حزب ، او فكرة ولقد كانت خصومته للشيوعية معروفة وقد رضي ان يندفع في هذه الخصومة الى حد تجاوز الحقائق العلمية ... وهذا التجاوز لم يكن في صالح العلم ولا في صالح القضية العربية ، لان الجهد الذي بذلته القوى الوطنية التقدمية العربية بعد ١٩٤٧ استطاع ان ينبه الكتلة الشيوعية الى خطئها الفادح - عقائديا وسياسيا - في موقفها من قضية فلسطين ، واستطاع هذا الجهد ان يغير من موقف الكتلة الشيوعية يوما بعد يوم ، حتى اصبح موقف الكتلة الشيوعية وخاصة الاتحاد السوفييتي مختلفا تمام الاختلاف عما كان عليه في البداية .

هذا هو الخطأ الاول في موقف العقاد من الصهيونية ، اما الخطأ الثاني فهو تفسيره غير العلمي لبعض الحركات الفكرية في العالم ، على اساس ان اصحاب هذه الحركات الفكرية هم من اليهود . فالعقاد يرد حركات الفكر المعروفة في العصر الحديث الى مؤامرة صهيونية تهدف الى تدمير العالم ، فالماركسية مؤامرة على العالم لان منشئها هو كارل ماركس اليهودي الاصل ، والتحليل النفسي مؤامرة على العالم لان منشئه هو سيجموند فرويد اليهودي الاصل ، والوجودية مؤامرة لان منشئها سارتر وهو من اصل يهودي عن طريق امه .

يقول العقاد في كتابه «الصهيونية العالمية» ص ٩١ :

«لن تفهم المدارس الحديثة في اوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي ان اصبعاً من الاصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية ، وترمي الى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الازمان ، فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الاخلاق والاديان ، واليهودي دركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الاسرة بالاضاع المصطنعة ويحاول ان يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب ، واليهودي او نصف اليهودي - سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد فجئح بها الى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات السقوط والانحلال » .

ويقول العقاد بعد ذلك في نفس الكتاب عن فرويد ص ٩٢ :

«من ذلك فرويد صاحب المذهب المشهور في الطب النفسي وان كان

ليقال فيه ما قلنا عن ماركس ودوركيم وسارتر ، انه كان من وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والاسرية الى الفريزة الجنسية ويحاول ان ينسخ قداستها ويخجل الانسان منها ، ويسلبه الايمان بسموها وسمو مصدرها حين يردّها الى أدنى ما يرى في نفسه وبهذا تتمزق صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وما وراءه» .
ويهاجم العقاد بعد ذلك اينشتين فيقول في نفس الكتاب «الصهيونية العالمية» ص ٩٤ :

«ومثل آخر هو البرت اينشتين صاحب نظرية النسبية ، وأكبر ما في يهوديته ان الكثيرين يحسبون «مستقلا» منقطع الصلة بها لانه يعيش أيامه كلها على اتصال بمعاهد العلم والعلماء ولكنه كان ينادي بالعصبية الصهيونية حين لا يضطره احد الى هذا النداء . وقد نشرت بعد وفاته مجموعة من الرسائل والخطب في طبعة جديدة ، وقيل انه أقر اختيارها وتنسيقها في هذا الكتاب . ويجهر اينشتين في جملة من هذه الرسائل « بعصبية الصهيونية» ويؤمن باسرائيل كأنها عالم البعث للحياة اليهودية وليست مجرد وطن ومأوى للمضطهدين من المهاجرين» .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك في كتابه «الصهيونية العالمية» ايضا عن كاتب اوروبي معروف من اصل مجري هو ماكس نوردو . ويهاجم العقاد ماكس نوردو ، ويعتبره نموذجا للكاتب الصهيوني الذي يعمل في معظم كتبه مثل كتاب «الانحطاط» وكتاب «أكاذيب الحضارة الحديثة» على تحقيق اهداف الصهيونية العالمية .

والعقاد في حديثه عن المفكرين اليهود يقع في خطأ واضح له عدة مظاهر . فاتهم العقاد لكل المفكرين اليهود بلا استثناء بأنهم يمثلون مؤامرة عالمية على الحضارة ، ينفي ان يكون بين اليهود في اي وقت من الاوقات افراد ممتازون يرفضون ما في الصهيونية من أخطاء ، او يتعدون بطريقة سلبية عن أخطاء الحركة الصهيونية . وهذا موقف غير سليم ، فلا شك ان الصهيونية شيء واليهودية شيء حتى ولو كانت كل الدلائل الراهنة تقطع بأن معظم اليهود متعاطفون مع الصهيونية .

والعقاد يرفض الاعتراف بأي تحول قد يطرا على اليهود ، فعندما يتحول ماركس الى المسيحية فهو يعتبر ذلك نوعا من التآمر على الفكرة الدينية لمصلحة الصهيونية . . ولكن العقاد في سبيل تأكيد فكرته يتجاهل بعض الحقائق العلمية التي تنفي فكرته وتتعارض معها ، فكارل ماركس مثلا له دراسة معروفة عن «المسألة اليهودية» يهاجم فيها اليهود هجوما

هنيئاً وصريحاً ومباشراً . فكيف نفسر ان ماركس يهاجم اليهود ويدينهم خدمة للصهيونية؟! . ان ماركس في هذه الدراسة يقدم دليلاً على ان هناك بعض اليهود يمكن ان يتحولوا فكرياً ويعارضوا الصهيونية ، كما يمكن لهم ان يعارضوا اليهودية نفسها معارضة شديدة .

يقول ماركس في رسالته عن «المسألة اليهودية» :
«المال هو إله إسرائيل - ويعتقد اليهود أنه لا ينبغي معه لاي إله ان يعيش . ان المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعا» (١) .
ثم يقول ماركس في نفس الدراسة : «نحن نتميز في اليهودية عنصراً مناهضاً للمجتمع ، وهذا العنصر توصل الى نقطة الأوج في الزمن الحاضر ، وهي نقطة لا يستطيع معها الانحلال» (٢) وينادي ماركس في دراسته عن المسألة اليهودية «بأن التحرر الاجتماعي لليهود هو تحرير المجتمع من اليهودية» (٣) وذلك بناء على تفسيره الاساسي بأن «المال هو إله اليهود» فتحرير المجتمع الانساني من «الوهية المال» هو تحرير له من اليهودية التي تعني اساساً خدمة «الوهية المال» .

ان منهج العقاد هنا ، وهو المنهج الذي يعتبر مجرد انتماء بعض المفكرين الى اليهود مبرراً نهائياً لادانتهم والشك فيهم هو منهج خاطيء ، لانه يخالف الحقيقة العلمية احياناً ، ولانه يضيف لليهود قوة ليست لهم . . . فماركس على سبيل المثال معارض للصهيونية بل معارض لليهودية نفسها ويمكن ان تكون حججه المختلفة - وهو من اصل يهودي - دليلاً صادقاً على ادانة اليهود وإدانة الصهيونية ، فهو مفكر عرف اليهودية وتربى في أحضانها ، ثم استنكرها وثار عليها . . . ويجيء العقاد رغم ذلك ليصر على ان ماركس متآمر باسم اليهودية ومن اجلها .

ومن ناحية أخرى نجد ان هجوم العقاد على هذا العدد الكبير من المفكرين المعروفين في تاريخ الفكر الانساني يبدو وكأنه دعوة الى الجهل ، لانه يرد كثيراً من النظريات العلمية الكبرى الى سبب واحد هو «التآمر الصهيوني» . . فمدرسة التحليل النفسي مؤامرة صهيونية تحت قناع علم النفس لان فرويد اليهودي هو مؤسس هذه المدرسة ، واينشتاين صاحب نظرية النسبية متآمر صهيوني تحت ستار علم الرياضة ،

١ و ٢ - كارل ماركس - المسألة اليهودية - ترجمة محمد عيتاني ص ٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٦٤ .

وماركس متأمر يهودي تحت ستار علوم السياسة والاقتصاد . الخ .
ان مثل هذا الموقف لا يمكن ان يؤدي الا الى نتيجة واحدة هي «الدعوة الى الجهل» والانعزال التام عن حركة الفكر الانساني ، ولا شك ان مثل هذه الدعوة يمكن ان تكون كارثة على المجتمع العربي والفكر العربي على السواء ، والصواب هو ان ندرس شتى نظريات الفكر العالمي ، وأن نناقشها على اساس علمي ، وأن نكتشف من خلال المناهج العلمية المختلفة ما فيها من خطأ وصواب . . . هكذا يجب ان نعامل التحليل النفسي ، ونظرية النسبية ، والنظرية الماركسية . . . واذا قبلنا شيئاً من هذه النظريات او رفضنا شيئاً فليكن القبول والرفض على اساس واحد هو الاساس العلمي ، اما ان نعتمد على مجموعة من المشاعر الخاصة والاوهام فنحن بذلك نضر انفسنا ونضر الفكر العربي ، ولا نضر اليهودية ولا الصهيونية عندما نرفض — منذ البداية وعلى اساس غير علمي — كل النظريات الكبرى في الفكر الانساني اذا كان اصحابها من اليهود ، او نرفض كل مفكر كبير اذا كان من اصل يهودي حتى لو كان هذا المفكر معاديا للصهيونية ومعارضاً لليهود .

على ان العقاد في هذا الهجوم الذي شنّه على عدد من المفكرين اليهود قد وقع في خطأ آخر هو اقرب الى ان يكون «سقطة فكرية» فقد هاجم العقاد في كتابه «الصهيونية العالمية» الذي صدر سنة ١٩٥٥ مفكراً يهودياً معروفاً هو ماكس نوردو ، وكان معظم الجزء الذي نشره العقاد في كتاب «الصهيونية العالمية» منقولاً من كتاب قديم للعقاد هو «مطالعات في الكتب والحياة» ، فقد كتب العقاد في هذا الكتاب القديم ثلاث مقالات عن ماكس نوردو نقل بعض فقراتها في كتابه عن الصهيونية العالمية . وكانت مقالات العقاد عن نوردو منشورة من قبل في جريدة البلاغ سنة ١٩٢٣ . وعندما نقل العقاد فقرات من هذه المقالات القديمة بعد ثلاثين سنة لنشرها في كتاب الصهيونية العالمية ، اكتفى بنقل النقد الذي وجهه لماكس نوردو ولم ينقل اي عبارة من عبارات المدح التي وجهها لهذا الكاتب الصهيوني .

فالعقاد سنة ١٩٥٥ يهاجم ماكس نوردو ويدينه ادانة كاملة ويعتبره نموذجاً من نماذج المؤامرة العالمية الصهيونية من خلال الفكر . ولكنه سنة ١٩٢٣ يدافع عن نوردو ويبرر كثيراً من تصرفاته وافكاره ومواقفه ، رغم انه كان يعرف نزعاته الصهيونية بوضوح ، ومعنى ذلك ان العقاد لم يكن معارضاً للصهيونية سنة ١٩٢٣ فهل نرد ذلك الى عدم الفهم ؟ ام نرده الى عدم التقدير ؟

في رأيي ان موقف العقاد من نوردو يمثل سقطة فكرية محسوبة على

العقاد ولا مجال للدفاع عنها .

يقول العقاد فيما كتبه عن نوردو سنة ١٩٢٣ وكان ذلك بمناسبة وفاة نوردو «مطالعات في الكتب والحياة» الطبعة الثانية ص ٣٩ ، ٤٠ :
«لما ظهرت الحركة الصهيونية كان نوردو من أعوانها الكبار وقادتها المعدودين ، وشن الفارة على الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يتهيب ان يتهمها بالتحريض على ذبح اليهود في فرنسا وصرح مرة لاحدى الصحف الامريكية بأن قضية دريفوس انما كانت مقدمة مدبرة لاستئصال اليهود وتقتيلهم كما يقتلون جهارا نهارا في روسيا . وظل الى آخر ايامه غيورا على نشر الدعوة الصهيونية لا يني كتابا او خاطبا في تأييدها وشد أزرها ، الى ان صرح لورد بلفور تصريحه المعروف فشخص الرجل الى لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية في تفاصيل انشاء الوطن اليهودي في فلسطين وقال هناك قولة تروى عنه وهي ان انجلترا لا تساعد اليهود حبا لسواد عيونهم ولكن طمعا في الدفاع عن قناة السويس» .

فنوردو صهيوني متعصب كما يقول العقاد بوضوح سنة ١٩٢٣ ومع ذلك فالعقاد لم يعترض على صهيونية الكاتب في تلك الفترة ، ولم يهاجمه بسببها بل التمس لهذه النزعة الصهيونية التفسيرات والمبررات حيث يقول في نفس الكتاب - «مطالعات في الكتب والحياة» ص ٤٠ :
«وقد يستغرب من العلماء الماديين ان يلقوا بأنفسهم في غمار الحركات الدينية ويتشيعوا لها أشد التشيع كما كان يفعل نوردو ، ولكن هذا الذي يستغرب من سائر العلماء لا يجوز ان يستغرب من عالم اسرائيلي لما هو معلوم من ان اليهودية وطن للاسرائيليين وجامعة نفعية لا دين ولا نحلة فحسب . ونذكر ان بعض الاسرائيليين الانجليز كتبوا بعد الحرب يطلبون ان تعتبر لهم في انجلترا جنسيتان احدهما دينية قومية والاخرى وطنية مدنية ، وهذا مع انهم يرتقون في تلك البلاد الى مراتب النبلاء ويتبواون مناصب الوزارة ورئاسة القضاء ، وما جعلهم كذلك الا تشيبتهم وضعفهم وانهم حرموا الوطن السياسي فسار لهم من الدين وطن معنوي ينوب عن معالم الارض وتخومها . واستهدفوا من اجل هذه العصبية وقلة عددهم في بلاد الناس لاخطار واحدة وظنون متقاربة فأصبح نضال الرجل منهم من نحلة صورة اخرى من نضاله عن نفسه ومصالحته وكرامة شخصه ، ولهذا لا نرى غرابة ما في تصدي طائفة من العلماء كلهم ملحدون لقيادة الدعوة الصهيونية» .

وقبل ذلك بصفحات قليلة من نفس الكتاب - «مطالعات في الادب

والحياة» ص ٣٧ يقول العقاد :

«وليس ماكس نوردو بمجهول في مصر ، فقد ترجمنا له بعض آرائه في احدى المجلات قبل عشر سنوات وشاعت كتبه بين الادباء من ناشئتنا فتداولوها وتناقلوا آراءها واستفادوا منها . واني لاشعر للرجل بمثل الصداقة الحميمة لطول عهدي بعشرته الادبية وسلوكه مفع ما سلك من فجاج الفكر ومنافذه ووقوفه على اخباره وحوادثه حيناً بعد حين ، حتى لقد فوجئت بنعيه كما يفاجأ صاحب يموت صاحبه الذي كان يحادثه ثم لم يلبث ان نعي اليه» .

هذا هو رأي العقاد القديم في ماكس نوردو . وهو رأي يقوم على الاعجاب به والتبشير بآرائه ، رغم معرفة العقاد بالطابع الصهيوني فسي شخصية نوردو ورغم معرفته بأنه احد الذين يعملون جهاراً نهاراً على سرقة الوطن العربي الفلسطيني من اهله الاصلاء . بل ان العقاد لا يندهش ولا يجد سبباً للغرابة في اشتراك نوردو في الحركة الصهيونية ، بل لا يرى غرابة في الدعوى الصهيونية نفسها فقد أصبح نضال اليهودي عن صهيونيته او يهوديته صورة «أخرى من نضاله عن نفسه ومصالحه وكرامة شخصه» . . . والعقاد بعد ذلك يؤكد تقديره ومحبته وصداقته الوثيقة لنوردو ولفكره .

ان خطأ العقاد هنا وهو الخطأ الذي يكاد - كما أشرت - يكون سقطة فكرية كاملة هو انه يتحمس لكاتب صهيوني مثل نوردو ، ويعمل على نشر افكاره ، ولا يرى فيها غرابة ولا ماساً بضميره الوطني . لقد كان واجب العقاد ان ينبذ منذ البداية الى خطورة نوردو وان يرفض منه دعوته الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وان يعترض على هذه الدعوة اشد الاعتراض ، وان تكون هذه الدعوة مبرراً كافياً لكي يكشف للناس هذا الفكر الصهيوني بدلاً من ان يعمل على نشر آرائه والحماس لها او لبعضها ، وبدلاً من ان يلتمس لصهيونيته المعاذير . ولكن العقاد مر بالحقائق التي ذكرها هو نفسه عن تأييد نوردو للصهيونية ومساهمته في العمل على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين من الكرام .

ثم يأتي العقاد بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة - اي في سنة ١٩٥٥ في كتاب الصهيونية العالمية - ليتهم نوردو بأنه متآمر صهيوني وقد كان هذا التآمر واضحاً أمام العقاد سنة ١٩٢٣ ولكنه لم يلتفت اليه ، بل ان هذا التآمر الصهيوني الصريح في شخصية نوردو لم يمنع العقاد من ان يؤكد اعجابه به وحماسه له . وينقل العقاد من مقالته القديمة عن نوردو فقرات ويقفـل

فقرات ، حتى يخفي على القارئ المعاصر حماسه القديم البالغ لنوردو .
ذلك خطأ واضح لا تبرير له في موقف العقاد من هذا المفكر الصهيوني
الصريح نوردو . . . ولا يغفر للعقاد هذا الخطأ انه غيّر رأيه في نوردو
سنة ١٩٥٥ بعد ان روج له والآرائه سنة ١٩٢٣ ، ولم يعارض فيه النزعة
الصهيونية والعمل على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .
هل كان العقاد في سنة ١٩٢٣ بعيدا الى هذا الحد عن الوعي بساي
شيء يتصل بالمصلحة العربية ؟

. . . لقد كان العقاد في سنة ١٩٢٣ كاتباً مرموقاً أبرزته ثورة ١٩١٩ ،
وكان عليه ان يلتفت الى المأساة الفلسطينية ويعتبرها مقياساً لتقييم كاتب
صهيوني صريح مثل نوردو ، خاصة بعد وعد بلفور سنة ١٩١٧ وكان هذا
الوعد مشهوراً ومعروفاً للجميع .

والخطأ الاخير في موقف العقاد من الصهيونية هو اقحام العقاد
لخصوماته الحزبية في حديثه عن الصهيونية ، واتهامه لمعارضيه
السياسيين من العرب بانهم انصار للصهيونية وسوف يمر بنا في الفصل
التالي من هذا الكتاب حديثه من الشيخ حسن البنا ، ومحاولته لان يثبت
بطريقة متعسفة انه يهودي يتخفى في ثوب داعية للاسلام .

وهناك نموذج آخر نجده في كتاب «الصهيونية وقضية فلسطين» . . .
ففي هذا الكتاب مقال بعنوان «الوفد الصهيوني» يصب فيه العقاد اتهامه
على حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس .
يقول العقاد في هذا المقال صفحة ٤٠ من كتاب «الصهيونية وقضية
فلسطين» :

«اذا كانت العصاة النحاسية (١) لم تستحق لقب الوفد الصهيوني بما
صنعتة حتى الان في قضية فلسطين ، فوالله لقد استحقته كاملاً شاملاً
بهذا البيان الملفق الذي طلعت به على المصريين والعرب اجمعين .
ثم يقول في هذا المقال ايضا : «ان العصاة النحاسية لا تستطيع في
الواقع ان تنصر الصهيونيين وتخلد مصر والعرب بأكثر مما فعلت حين
اذاعة بيانها الاخير ، وفيه تقول : لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان العمل الجدي
الذي يتوقف عليه ازالة خطر الصهيونية عن شقيقتنا الشهييدة منوط
بالحكومات العربية قبل الشعوب والافراد . . . واذا نحن طالبنا الحكومات
العربية باتخاذ الوسائل العملية الناجزة لانقاذ فلسطين من شر الصهيونية

١ - نسبة الى النحاس باشا زعيم الوفد .

فإننا نطالب حكومة مصر في طليعتها أن تخرج عن جمودها وتراخيها وبطئها وترددتها وصمتها ، فتنقل من حيز الجمود الى حيز الحركة والعمل دون أن تهاب من تهاب ، أو تحسب لأحد أي حساب» .

ثم ينقل العقاد بعد ذلك من بيان الوفد المصري فقرة أخرى يقول فيها:
البيان مخاطبا أبناء فلسطين :

«لکم وددت الشعوب العربية وفي طليعتها مصر ، ان تقدم لكم ما يلائم حركتكم ، وما يتفق مع الخطر الذي يتهددكم ، ولكن الواقع ان لى الحكومات من النظم والوسائل ما لا يتوفر لدى الافراد والهيئات ، فلم يكن بد من ان نتوجه في عزيمة وقوة مطالبين حكومة مصر والحكومات العربية ان تتخذ اجراءات ووسائل عملية» .

ويستنتج العقاد من هذه الفقرات التي نقلها من بيان الوفد المصري :
«ان الناس لو صدقوا هذا البيان لكان من نتائجه ما يلي :

اولا : ان يستخف الناس بحركة التطوع والتبرع وتنظيم المتطوعين والمتبرعين ، وأن يلقوا بالعبء على كواهل الحكومات لينحصر في الحدود الرسمية التي تتقيد بها كل حكومة في علاقاتها الدولية . وكان من نتائجه ثانيا ، ان ينقلب العرب من الثورة على الصهيونية الى الثورة على حكومات بلادهم ، لانها لا تتولى وحدها مهمة الجهاد الظاهر والباطن ، وهو فسي الحقيقة جهاد تعمل فيه الحكومة عمل الحكومات ويعمل فيه الشعب عمل الشعوب» .

ثم يواصل العقاد تعليقه على بيان الوفد المصري فيقول :
«فاذا تراخى المتطوعون والمتبرعون وانحصر عمل الحكومات في نطاقه المحدود بالامور الدولية ، وثار العرب على حكوماتهم ليحملوها على الاصطدام بالحكومات الكبرى علانية وجهارا ، فهذا ولا شك هو نتيجة الدعوة النحاسية التي تضمنها هذا البيان المشؤم . ولكن من المستفيد بهذه النتيجة ؟

أيستفيد منها العرب ام يستفيد منها الصهونيون ؟
ان الجواب عند حايم وايزمن ، او عند مصطفى النحاس ، فهما والله في هذا الموقف المريب سواء» .

هذا هو تعليق العقاد على بيان الوفد ، وهو يبدو بوضوح منذ اللحظة الاولى معتمدا في جانب كبير منه على التشهير السياسي الذي تعود العقاد ان يندفع اليه - بلا حساب ولا مراجعة لنفسه - في معاركه الحزبية ، فما أسهل عنده ان يكون زعيم الصهيونية وزعيم الوفد المصري متشابهين وأن يكونا متآمرين معا على مصر والامة العربية ، وما أسهل عنده ان يثبت

الأصل اليهودي للشيخ حسن البنا ، لينتهي من ذلك الى ان دعوته هي دعوة صهيونية ... والجناية الاساسية عند مصطفى النحاس او حسن البنا هي ان كلا منهما يمثل معسكرا حزبيا معاديا لحزب العقاد . ومن هنا استحق كل منهما اقصى درجات اللعنة وأخطر ألوان الاتهام .

ذلك جانب من منهج العقاد الخاطئ في خصوماته السياسية ، فما أسهل عنده الاتهام بالخيانة والعمالة وما الى ذلك من التهم التي لا يجوز ان يوجهها مفكر مسئول الى احد مواطنيه الا اذا كان بين يديه من الأدلة القاطعة ما يثبت ذلك الاتهام ويجعل منه يقينا واضحا امام الجميع .

ولعل الشيء الوحيد الذي يمكن ان يخفف قليلا من خطأ العقاد في هذا المنهج الذي كان يعتمد عليه في جدله السياسي هو ان هذا النوع من التهم كان شائعا في الخصومات الحزبية في تلك الفترة في مصر ، وقد تعرض العقاد لنوع من الاتهامات المشابهة من المعسكرات السياسية المعارضة لحزبه . ولكن مسئولية العقاد تبدو اكبر من غيره لانه كاتب كبير ، ومفكر مسئول ، وكان عليه ان يرتفع فوق هذا المستوى من الجدل الخالي من الامانة والمسئولية ، وكان عليه ان يعمل على رفع مستوى المناقشات السياسية والأدبية في عصره بادئا بنفسه . ولكنه اختار في معظم الاحوال الطريق الأسهل ، فسقط في دوامة المناقشات الحزبية الرخيصة ، واستخدم أساليبها غير الكريمة وغير العلمية .

على ان خطأ العقاد في مناقشته لبيان الوفد ليس مجرد خطأ أخلاقي يتمثل في انه يلقي بالاتهامات الحزبية ، بقصد التشهير ضد خصومه السياسيين ، بل يتمثل خطأ العقاد اكثر من ذلك في انه لم يقدر ببيان الوفد حق قدره ولم يعرضه بأمانة علمية كافية .

واذا عدنا الى النص الأصلي لبيان الوفد ، وهو النص الذي نشرته جريدة «المصري» في ٢١ ديسمبر ١٩٤٧ ، اي قبل نشر تعليق العقاد على البيان بيوم واحد ... اذا عدنا الى هذا البيان وجدنا انه بيان متماسك يعتمد على حجج قوية سليمة ، وان لم يسلم البيان بعد ذلك من الأساليب الانشائية التي كانت تسيطر على البيانات السياسية في ذلك الحين ، وتدفع بها الى نوع من التعميمات التي لا تتناسب مع الدقة الكاملة المطلوبة في مثل هذه القضايا الحاسمة .

لقد حذف العقاد من الفقرة التي نقلها من البيان كل ما يشير الى التأييد الشعبي الكامل لقضية فلسطين ، ونص الفقرة التي نقلها العقاد مع اثبات الحذف الذي أجراه فيها هو :

«أبناء فلسطين المجاهدين : لكم ودت الشعوب العربية وفي طليعتها مصر . وأنتم أعلم الناس بشعورها بحكمكم ، واخلاصها لكم ان تقدم لكم ما يلائم حركتكم ، وما يتفق مع الخطر الذي يتهددكم في أمنكم وأهلكم وقوت ابنائكم ، ولكن الواقع ان لدى الحكومات من النظم والوسائل ما لا يتوافر لدى الافراد والهيئات ، فلم يكن بد من ان نتوجه في عزيمة وقوة مطالبين حكومة مصر والحكومات العربية ان تتخذ اجراءات ووسائل عملية» .
ثم يقدم البيان بعد ذلك نموذجا من هذه الوسائل العملية تتمثل في اربع خطوات :

« ١ - ان تسارع الحكومات الى فتح خزائنها لمد فلسطين بالمال الكافي معاونة لاهلها ، وشدا لأزرها في حركتها الخالدة ودأبها على حـرب الصهيونيين حربا لا هوادة فيها ، دون انتظار تبرعات من الافراد او الهيئات ، فان هذه التبرعات بالغة ما بلغت لن تسد فراغا في محنة فلسطين ، ولن تفي بما يتطلبه الجهاد من طائل الاموال .

ب - مد فلسطين بالمواد الغذائية الفائضة عن حاجة الاستهلاك المحلي ووجوب ايثارها بما تحتاج اليه من هذا الفائض الذي يبلغ مئات الآلاف من الاطنان .

ج - مد فلسطين في جهادها المقدس بحاجتها من الفنيين عسكريين واطباء ومن اليهم » .

هذه هي بعض الوسائل التي يقترحها بيان الوفد ، وخلاصة البيان عموما انه يشكك في موقف حكومة النقراشي التي كانت قائمة في مصر آنذاك ، والتي كان العقاد يدافع عنها وينتمي الى حزبها السياسي ، كما ان البيان كان يؤكد على ان القضية الفلسطينية ليست قضية تبرعات فردية او مظاهرات في الشوارع تهتف بسقوط الصهيونية والاستعمار ، ولكن القضية اكبر من ذلك وهي تحتاج الى دور واضح وحاسم من الحكومات والدول . ولعل العقاد لم يكن مخطئا عندما قال ان بيان الوفد يحض على الثورة ضد الحكومات العربية التي كانت قائمة آنذاك .

واليوم ونحن نلقي نظرة على أحداث تلك الفترة وقد مضى عليها ما يزيد على ربع قرن فاننا نجد ان بيان الوفد كان على صواب في عناصره الرئيسية جميعا ، وان ما نادى به هذا البيان هو ما أثبتت السنوات التالية صحته تماما .

فقد كان من حق الوفد ، ومن حق جميع القوى الوطنية ، ان تشك في وزارة النقراشي ، وفي موقفها من قضية فلسطين ، لان الوزارة كانت

ضعيفة في سائر مواقفها من القضايا الوطنية الاخرى ، مثل قضية الاحتلال البريطاني لمصر ، وكانت الوزارة أداة في يد الملك ، يحركها كما يشاء . ولا تستطيع وزارة على هذا القدر من الضعف أن تتصرف بالصورة السليمة في مواجهة قضية غاية في الاهمية والخطورة مثل قضية فلسطين . ونحن لا ندين وزارة النقراشي من خلال اتهام الوفد لها فقط ، فالوفد خصم سياسي ، وقد يكون في اتهامه للنقراشي وسياسته هدف من اهداف الخصومة السياسية . ولكننا نستمد وثائق اتهام النقراشي من مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل الذي كان شريكا للنقراشي في الحكم ، لانه كان رئيسا لحزب الاحرار الدستوريين الذي كان يقتسم الوزارة مع النقراشي ، وكان الدكتور هيكل في نفس الوقت رئيسا لمجلس الشيوخ الذي كان يؤيد النقراشي ووزارته ، وبالإضافة الى ذلك فقد كان هيكل أحد رجال الفكر المعروفين في مصر ، وكل هذه العوامل تجعل لشهادته قيمة خاصة ، وتنفي عن هذه الشهادة شبهة التعصب ضد النقراشي .

يكشف الدكتور هيكل في الجزء الثاني من مذكراته ص ٣٢٥ ما يقطع بأن النقراشي لم يكن يفكر في دخول حرب فلسطين وإن كان هيكل نفسه يحاول تبرير هذا الموقف . . . يقول الدكتور هيكل :

« أعلنت انجلترا أنها قررت انهاء انتدابها على فلسطين ، وسحب قواتها منها في موعد نهايته ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . وتركت لليهود والعرب مواجهة الموقف الذي ينشأ عن تنفيذ قرارها . وكان اليهود بعد قرار الامم المتحدة « بالتقسيم سنة ١٩٤٧ » يعدون العدة لانشاء دولتهم ، وكان وزراء خارجية الدول العربية يجتمعون يفكرون ما عساهم يصنعون للحيلولة دون انشاء هذه الدولة . وكان النقراشي باشا مصرا ازاء هذا الموقف على ألا يلجأ الى القوة العسكرية حتى لا يدفع الجيش المصري الى حيث تكون القوات البريطانية المراقبة في قناة السويس وراء ظهره » .

ويقول الدكتور هيكل بعد ذلك مشيرا الى أن النقراشي لم يكن صاحب الكلمة النهائية في الحكم ، وانما كان الملك هو صاحب هذه الكلمة :
« ولو أن الامر في مصر كان للنقراشي باشا وحده ، لبقى على اصراره ذلك . لكن الامر في الواقع لم يكن كذلك » .

هذا هو موقف النقراشي كما يعرضه الدكتور هيكل شريكه في الحكم والسلطة السياسية ، وهو موقف متخاذل يرفض أن يعطي اهتماما لقضية فلسطين أبعد من الكلام والتأييد اللفظي ، ويا ليت النقراشي حرص على موقفه آنذاك وهو الاصرار على عدم دخول الجيش المصري حرب فلسطين . .

اذن قلنا انه صاحب اجتهاد سياسي خاطيء ، ولكنه مع ذلك مؤمن بهذا الاجتهاد حريص عليه . . . خوفا من أن يكون الجيش المصري فريسة للعدو الصهيوني والاحتلال الانجليزي في وقت واحد .

ولكن النقراشي - كما تدل كافة البراهين - لم يكن حريصا على شيء بقدر ما كان حريصا على أن يستمر في الحكم ، ذلك لان الملك فاروق ، رأى ان يدفع بالجيش المصري الى حرب فلسطين ، فدخل الجيش هذه الحرب على غير علم النقراشي من ناحية وعلى غير رأيه من ناحية أخرى ، ولم يجد النقراشي أمامه الا أن يؤيد هذه الخطوة ، ويضفي عليها كل أنواع الشرعية السياسية ، رغم ما في هذه الخطوة من جانب الملك من تجاوز لسلطات النقراشي الدستورية كرئيس للوزراء ، ورغم أنها خطوة معارضة تماما لما كان النقراشي يراه في هذه القضية .

يقول الدكتور هيكل في الجزء الثاني من مذكراته ص ٣٣ :
« كان موقف الملك من وزارته بعد قرار الامم المتحدة انشاء دولة اسرائيل وتمهيد اليهود لهذا الانشاء أشد ايضاحا لاستثناؤه بتوجيه سياسة البلاد من كل ما يمكن أن يرد بالخاطر » .
« ذكرت أن النقراشي باشا كان يأبى أن يلجأ الى القوة المسلحة للحيلولة دون تنفيذ هذا القرار » .

وكان يقول : انه لن يدفع بالجيش المصري الى حيث تكون القوات البريطانية المرابطة في قناة السويس وراء ظهره . وظل ذلك موقفه الى يوم ١١ مايو سنة ١٩٤٨ . وبين عشية وضحاها تغير هذا الرأي فجأة . ففي يوم ١٢ مايو طلب النقراشي مني عقد البرلمان في جلسة سرية ليطلب دخول القوات المصرية المسلحة ارض فلسطين ، وعلم الناس بعد قليل أن وزير الدفاع الفريق محمد حيدر ، رجل الملك وياوره الخاص ، تلقى أمرا من الملك مباشرة فأمر فرق الجيش المصري باجتياز الحدود الى ارض فلسطين دون أن يعلم رئيس الوزراء ومن غير أن ينتظر قرار البرلمان أو قرار مجلس الوزراء . ذلك أن حيدر كان جنديا وكان يفهم أن نص الدستور بأن الملك هو القائد الاعلى للقوات المسلحة لا يتقيد بأن الملك يستعمل سلطته بواسطة وزرائه ومن ثم كان يفرض على نفسه ، وهو وزير للحربية ، أن ينفذ أوامر القائد الاعلى من غير انتظار لرأي رئيس الوزارة أو لرأي مجلس الوزراء » .
ثم يقول الدكتور هيكل بعد ذلك « الجزء الثاني من مذكراته ص ١٣١ » :
« كان اجتياز القوات المصرية الحدود الى فلسطين على هذا النحو عملا مخالفا للدستور ، أقل ما يجزى به أن يستقيل وزير الحربية ، وأن ترتد

القوات المصرية الى ارض مصر حتى ينظر البرلمان الامر ويصدر قراره بشأنه . فان لم يحدث ذلك فقد كان واجبا أن تستقيل الوزارة ، وأن تعلن الى الشعب من فوق منبر البرلمان أنها قدمت استقالتها حتى لا تحمل وزر هذا الاعتداء على الدستور . لكن النقراشي باشا نظر الى الامر غير هذه النظرة فتجاهل ما حدث ، وتقدم الى البرلمان وكأن الامور تجري في مجراها الدستوري ، وعرض عليه معلومات غير دقيقة أدت الى موافقة كل من المجلسين على اعلان الحرب على اسرائيل ، ولعله اراد بذلك تغطية الملك ، ولعل اعتبارات أخرى جاوزت في نظره احترام الدستور هي التي جعلته يغضي عن هذا الاحترام» .

ثم يقول الدكتور هيكل بعد ذلك :

« أقول اعتبارات أخرى واقصد الوضع الداخلي في البلاد . فقد كانت الامور فيها تتطور في اتجاه يدعو الى كثير من القلق ومن الحذر ومن التفكير . وقد بلغ من هذا التطور أن اضرب رجال البوليس - حفظة الامن في البلاد - عن القيام بواجبهم واضطر حيدر باشا الى انزال قوات الجيش لحفظ الامن في القاهرة والاسكندرية، ثم اضطر الى تسوية مشكلة البوليس بأمر الملك على نحو يختلف مع اتجاه رئيس الوزراء . والالتجاء الى الحرب لصرف الانظار عن المشاكل الداخلية سياسة لجأت اليها الدول الديكتاتورية مرارا في التاريخ القديم والحديث » .

وهكذا يكشف الدكتور هيكل موقف وزارة النقراشي التي يدافع عنها العقاد ، ويدافع عن سياستها في قضية فلسطين ، وهي السياسة التي كان الوفد يدينها ويشكك فيها ، والتي أثبتت الاحداث أن شكوك الوفد جميعا كانت في موضعها . فالوزارة النقراشية لا تريد أن تتحمل أي مسؤولية جدية في قضية فلسطين ، ثم هي تندفع بعد ذلك الى دخول حرب فلسطين دون ارادتها ودون أي نوع من الدراسة والاستعداد ، وهي بعد ذلك كله تجد أن الحرب كانت وسيلة لتغطية مشاكلها الداخلية الحادة بحيث أصبحت قضية فلسطين وسيلة لحل مشاكل النقراشي وحكومته وحزبه مع شعب مصر .

وقد أثبتت الحوادث بعد ذلك مدى ما كان في سياسة وزارة النقراشي من الفساد ، عندما تم اكتشاف صفقات الأسلحة الفاسدة التي كانت تقدم للجيش المصري ليحارب بها ، وهي غير صالحة للحرب على الاطلاق ، مما أدى الى خسائر كثيرة في صفوف الجيش . وقضية الأسلحة الفاسدة هي دليل قاطع آخر على صحة رأي الوفد المصري التشكيك في موقف النقراشي

من قضية فلسطين وما تضمنه بيان الوفد من تحذير وتنبيه لما يمكن أن ينتج من أضرار وأخطار على القضية الفلسطينية نتيجة لموقف النقراشي وحكومته .

ويحدثنا الدكتور هيكل مرة أخرى عن الأخطاء التي وقعت في حرب فلسطين بما يكاد يؤيد وجهة نظر الوفد ويرد على وجهة نظر العقاد المؤيدة للنقراشي وسياسته . . . يقول الدكتور هيكل في الجزء الثاني من مذكراته ص ٣٣٨ : « منذ الأشهر الأولى لنشوب الحرب بدأ المصريون يتساءلون : كيف أقدمت حكومتهم عليها من غير أن تكون مستعدة لها ، وبدأوا يتهامسون بما يجري في عواصم أوروبا حيث ذهب ضباط مصريون ومدنيون مصريون يحاولون أن يعقدوا صفقات من مصانع الأسلحة والمعدات الحربية لحساب الجيش ، ثم كان كثيرون منهم مثال الطيش والخفة وكان بعضهم أكثر تفكيراً في منفعتهم الخاصة منه في سلامة دولته أو وطنه . وبدأ الساسة المصريون يتحدثون عن موقف الملك من هذه الحرب وما كان بينه وبين ملك شرق الأردن ، الملك عبدالله بن الحسين الهاشمي ، من تنافس أيهما يسبق إلى صلاة الجمعة في المسجد الأقصى بيت المقدس وكان من أثر هذه الحرب كذلك أن بدأت طائفة من ضباط الجيش الشبان الذين اشتركوا في القتال يفكرون في أوضاع الحكم في مصر ، وفي مبلغ احترام الحكام لأحكام الدستور» . . . ثم يتحدث الدكتور هيكل بعد ذلك صراحة عن الأسلحة الفاسدة فيقول أن المتطوعين المصريين كان بينهم « عدد من الشبان المتعلمين رأوا ما كان من عبث في ميادين القتال ، وكيف كانت الأسلحة فاسدة والمدد غير منتظم ، وكيف أدى ذلك إلى إخفاق الجهود المصري وإلى عقد الهدنة المؤقتة ثم إلى عقد الهدنة الدائمة ، فعادوا إلى وطنهم ساخطين على طريقة حكمه ، مؤمنين بأن أطراد الأمور على هذه الوتيرة يجر على الوطن أبلغ الضرر » .

هذه هي شهادة الدكتور هيكل ، وكان يقف في قلب المعسكر الذي يقف فيه النقراشي ، ويقف فيه العقاد أيضاً . وهي شهادة واضحة تثبت صحة شكوك بيان الوفد المصري ، وتثبت خطأ رؤية العقاد التي قادت إلى الدفاع عن النقراشي وحكومته ، وقادته إلى اتهام الوفد بأنه صهيوني ، واتهام النحاس بأنه رقيق لحايم وايزمن في التآمر على فلسطين . والحقيقة أن العقاد كان مخطئاً في هذا الموقف وأنه كان يناصر الجانب المخطيء في السياسة المصرية سنة ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، هذا الجانب الذي نظر إلى قضية فلسطين نظرة غير سليمة ، وقاد الجيش المصري فيها إلى أن يتعرض

لغامرات مجموعة من الذين تاجروا بأسلحته وتاجروا بطعامه .



وخلصه موقف العقاد من الصهيونية وقضية فلسطين أنه لم يتنبه الى هذه القضية منذ وقت مبكر ، رغم أنها قضية ظاهرة في ميدان السياسة العربية على الاقل منذ وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، ورغم أن العقاد يعمل في السياسة منذ ذلك الوقت نفسه أو قبله بسنوات ، كما أن العقاد بشر بكاتب صهيوني معروف هو ماكس نوردو سنة ١٩٢٣ ، رغم أن ماكس نوردو كان عريقاً في نزعتيه الصهيونية ، باعتراف العقاد نفسه ، ومع ذلك لم يرفضه العقاد ، ولم يعتبره من المفكرين الخطرين المعادين للامة العربية ، الا في سنة ١٩٥٥ ، رغم معرفة العقاد المبكرة بهذا الكاتب وباتجاهاته وميوله ومواقفه .

على أن العقاد ولا شك قد اهتم بالصهيونية وقضية فلسطين منذ سنة ١٩٤٧ اهتماماً واسعاً ، وذلك على طريقته في الاهتمام بالقضايا المثارة ، فهو لا يتنبأ في فكره السياسي بشيء ، ولا يسبق الاحداث ، وإنما يعلق عليها ، ويتحدث عما هو واقع أمامه ، وقد كانت القضية الفلسطينية منذ ١٩٤٧ مثارة على أوسع نطاق أمام الرأي العام العربي ، والرأي العام العالمي ، ومن يومها والعقاد يتابع هذه القضية ويكتب عنها ويعلق عليها . وقد قدم العقاد فصلاً عميقة ممتازة في رده على دعوى الصهيونية في احقيتها في فلسطين ، أو أرض الميعاد بالنسبة لها ، واستفاد العقاد من ثقافته الواسعة العميقة في مناقشة هذه الدعوى ، واثبات ما فيها من خطأ وتزوير ، كما برهن العقاد بقوة على أن أسباب الاضطهاد الرئيسية إنما تنبع من اليهود أنفسهم ، ومن سلوكهم التاريخي ، وأثبت هذه القضية من واقع الوثائق اليهودية ، كما رد على دعوى نبوغ اليهود وتفوقهم على سائر الاجناس البشرية أفضل الرد وأقواه ، واستطاع العقاد أن يربط بين الصهيونية والاستعمار العالمي ، وأن يرى العلاقة الوثيقة بينهما .

ولكن العقاد أخطأ في دعوته الى النظر الى كثير من مدارس الفكر العالمي على أساس أنها مؤامرة صهيونية ، بمجرد أن أصحاب هذه المدارس كانوا من اليهود ، مثل فرويد ومدرسة التحليل النفسي ، ومباركس والماركسية ، وسارتر والوجودية ، واينشتاين والنسبية ، فان مثل هذه النظرة تتنافى مع كثير من الحقائق العلمية والتاريخية، وهي تبدو في آخر

الامر نوعا من الدعوة الى الجهل والشك في كل انجازات العقل البشري .
وتؤدي الى اعتبار اليهود جنسا بشريا لا علاج له الا ابادته والقضاء
عليه تماما .

بينما تدعونا النظرة العلمية الى اعتبار الصهيونية لا اليهودية هي عدونا
الاول ، حتى لو كانت الصهيونية الآن تستوعب كل اليهود أو معظم اليهود ،
والصواب هو أننا نريد أن نقضي على الصهيونية لدى اليهود وأنصارهم ،
وليست مهمتنا ولا رسالتنا هي القضاء على اليهودية والعمل على ابادتها .
كما أنه ليس من السليم أن ندين أي مفكر في أي مجال من مجالات
العلم لمجرد أنه يهودي ، ما لم تقم على صهيونيته أدلة قاطعة ، كما قامت
الأدلة على صهيونية «ماكس نوردو» وهي الأدلة التي تجاهلها العقاد - رغم
معرفته بها - سنة ١٩٢٣ ثم عاد فأخذ بها سنة ١٩٥٥ ، والسبب على
الأغلب هو ضعف وعي العقاد سنة ١٩٢٣ بالقضية الفلسطينية ، رغم أنه
كان في الرابعة والثلاثين من عمره ، وأنه كان كاتباً بارزاً من كتاب مصر في
ذلك الحين ، وأن القضية الفلسطينية كانت تمر بفترة حاسمة من فترات
تاريخها آنذاك ، وخاصة بعد صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ .

وكان من أخطاء العقاد أيضاً في نظريته للصهيونية أنه ربط بين
الصهيونية والشيوعية ، رغم ما بين النظريتين من تناقض كامل ، ورغم أن
عدداً من الدول الشيوعية قد أيدت إسرائيل في بدايتها إلا أن ذلك لا يعني
أبداً من وجهة النظر العلمية توافقاً فكرياً كاملاً بين الصهيونية والشيوعية
كما يقول العقاد ، ورغم أن نسبة كبيرة من الشيوعيين العرب قد أخطأوا
خطأ فادحاً في سنوات ١٩٤٧ و ١٩٤٨ في النظر إلى قضية فلسطين بتأييد
قرار التقسيم وإقامة دولة إسرائيل ورفض الكفاح المسلح العربي ضد
الصهيونية ... رغم هذا فإن التوافق النظري والعلمي بين الصهيونية
والشيوعية لا سند له من الحقيقة ولا من المبادئ الفكرية السليمة ، وإنما
هي عادة العقاد في خصوماته الفكرية والسياسية ... فقد وجد دائماً أن
من السهل عليه أن يطعن خصومه بأعنف الطعنات ، ومن هذه الطعنات
القاسية أن يربط بينهم على الدوام وبين الحركات الفكرية والحركات
السياسية التي ثبت للراي العام ما فيها من ضعف وخطأ وانحراف مثل
الصهيونية والنازية .

وأخيراً فقد أخطأ العقاد عندما اتهم خصومه في السياسة المحلية
المصرية بأنهم صهيونيون وعملاء للصهيونية ، مثلما فعل مع الشيخ حسن
البنا ، ومع الوفد المصري وزعيمه مصطفى النحاس ، وفي نفس الوقت

اندفع العقاد الى تأييد موقف النقراشي وحزبه وسياسته ، رغم ما كان في هذا الموقف من خطأ واضح ينبىء بنتائج شديدة الخطر ، وقد وقعت هذه النتائج بالفعل كما تحدثنا عن ذلك بالتفصيل خلال هذا الفصل من الكتاب.

العقاد والاكوان المسلمون

كتب العقاد في اواخر سنة ١٩٤٨ مجموعة من المقالات العنيفة ضد «الاكوان المسلمين» نشرها في جريدة «الانساس» التي كانت تصدر عن الحزب السعدي ، وهو الحزب الذي كان حاكما في ذلك الحين تحت زعامة محمود فهمي النقراشي صديق العقاد القديم ، والشخصية السياسية التي ظلت على صلة وثيقة بالعقاد حتى آخر لحظة في حياتها .

وعندما نراجع تاريخ «الاكوان المسلمين» نجد أن الجماعة قد أنشئت في مدينة الاسماعيلية سنة ١٩٢٧ ، حيث كان مؤسسها الشيخ حسن البنا يعمل مدرسا في احدى مدارس المدينة ، وقد بدأت الجماعة عملها على أنها جمعية دينية ، لا علاقة لها بالسياسة ، وأساس عملها هو الوعظ والارشاد والدعوة الى انشاء الجوامع ، وايقاظ الروح الاسلامية لدى الافراد ، وفي سنة ١٩٣٢ انتقل نشاط الجماعة الى القاهرة بانتقال الشيخ حسن البنا نفسه للعمل في العاصمة ، وبدأ نشاط الجماعة يتسع حتى أصدرت مجلة اسبوعية هي «مجلة النذير» ، وتحول نشاط الجماعة أيضا فبدأت تتجه الى السياسة بدلا من الاقتصار على النشاط الديني فقط . على أن الجماعة اختارت - كما يقول طارق البشري في كتابه عن «الحركات السياسية في مصر» ان تمارس نشاطها السياسي بصورة سافرة سنة ١٩٣٨ «اذ كانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت وهزت شعبية الوفد الذي شارك في ابرامها ، وكان الصراع محتدما بين الوفد وبين الملك وأحزاب الرجعية للقضاء على هذا الحزب ، وأرادت الرجعية المحلية أن يخلو لها وجه الحياة السياسية من دونه ، وظهر للسراي من تجربتي حزبي الاتحاد ١٩٢٥ والشعب ١٩٣١ فشل محاولاتها انشاء حزب لها . فأصبح عليها أن تعتمد في صراعها مع الوفد على العواطف الجماهيرية الفجة تجاه فاروق الذي تولى الملك صبيا ،

وعلى حزب السعديين الذي انشق على الوفد ببعض قياداته الشعبية القديمة .

كما رأت السراي الاقتراب من أي تنظيم جماهيري « جاهز » تمكن له من القوة لقاء استخدامها اياه» (١) . . . وكان هذا التنظيم آنذاك هو تنظيم الاخوان المسلمين .

ومما يؤكد أن الاخوان في هذه الفترة « سنة ١٩٣٨ » قد ارتبطت بالسراي وارتبطت بأحزاب الاقلية المناصرة للملك ما رواه أحمد حسين « زعيم مصر الفتاة في مرافعته القضائية عن أحد المتهمين في قضية مقتل النقراشي سنة ١٩٤٩ ، أنه لما قامت الحرب أودع أحمد حسين وزملاؤه معتقل الزيتون ، وأوقف كل نشاط لهم ، وأن حسن البنا وقادة الاخوان اعتقلوا في مستهل الحرب كغيرهم فما راع المعتقلين الا أن حضر الى المعتقل حامد جودة « الوزير السعدي في وزارة حسين سري ١٩٤١ » واجتمع يحسن البنا عدة ساعات ثم أفرج عنه بعد أيام . ويفسر أحمد حسين هذا الافراج الغريب بأنه كان رغبة في أن يستغل حزب السعديين حركة الاخوان في دعم نفوذ الحرب، وأن الشيخ البنا خرج من المعتقل وازداد جاهها ونفوذاً، ومضى في دعوته حراً طليقاً يجوب البلاد يؤلف الشعب ، وينظم الجماعات، واشتهر في البلاد أن الاخوان المسلمين في حماية الحكومة القائمة ، وفي حماية السعديين بصفة خاصة» (٢) .

يؤكد أحمد حسين « مساعدة الحكومات الرجعية للاخوان » بأمثلة أخرى أهمها « أن جماعة الاخوان أنشأت منذ وقت مبكر نظام الجواله رغم أن القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٧ الخاص بالاقمصه الملونه يحظر على الاحزاب والهيئات السياسية أن تتخذ تشكيلات عسكرية أو شبه عسكرية ، وكان هذا الحظر ينطبق تماماً على جواله الاخوان ، التي كانت في حقيقتها تؤلف جيشاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وقد بلغ عددهم في فترة من الفترات عشرين ألفاً في استطاعة جماعة الاخوان تعبئتهم في أي مكان شاءت كما أن قانون الكشافة كان يحظر على الكشافة أن تنتمي إلى أي

١- طارق البشري - الحركات السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٢ - الفصل الثالث ص ٤٧ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٩ .

جماعة سياسية او دينية وكان هذا الحظر مما لم يطبق على الاخوان» (١) .
وفي سنة ١٩٤٦ نجد أن العناصر الثلاثة في موقف الاخوان المسلمين
تتضح بشكل اعنف واقتوى ، واقصد بالعناصر الثلاثة :

أولا - خروج الجماعة من حدود الدعوة الدينية الى العمل السياسي
السافر . وثانيا - ارتباط الجماعة بالسراي والاحزاب الرجعية وخاصة
حزب السعديين . وثالثا - العداء العنيف للوفد باعتباره حزب الاغلبية
والعدو الخطر للسراي والاحزاب الرجعية... هذه العناصر الثلاثة اتضحت
في موقف الاخوان سنة ١٩٤٦ بل اتجهت الجماعة الى التعبير عن مواقفها
بالعنف ، «وبلغ عداؤها للوفد ذروته ، ووصل الى حد الاشتباك في الطرقات
مع مظاهرات الوفديين والشيوعيين . يحكي أحمد حسين أن الاخوان في
هذه الفترة خاصموا الوفد وخاصمهم - فبدأت الاحتكاكات بين الطرفين ،
وبدا الصدام على طول الخط ، وكان طبيعيا أن تقف الحكومة الى جوار
الاخوان المسلمين في كل صدام يقع بينهم وبين الوفد ، بل كانت تحميهم
وتشد أزرهم - وخلال ذات العام - ١٩٤٦ - اتجه الاخوان في نشاطهم
السياسي الى أساليب العنف والضرب والتدمير فيما يقع في المظاهرات
والتجمعات من اشتباكات، وفي ٦ يوليو وقع صدام بين الاخوان والوفديين
في بور سعيد استعمل فيه الاخوان الرصاص وألقوا ثلاث قنابل فأسفر
الحادث عن قتل واحد من خصومهم واصابة ٣٥ فتجمع الكثيرون على دار
الاخوان وأشعلوا الحريق فيها وفي النادي الرياضي ، وحوصر المرشد العام
بأحد المساجد هناك ، ولكنه استطاع النجاة من الخطر ، وفي اليوم التالي
شيعت جنازة المتوفي وقذف المشيعون مركز الاخوان بالحجارة فعمل
البوليس على تفريقهم فاعتدوا عليه ، فأطلق عليهم الرصاص وأصيب ١٦
شخصا ، كما كان لطلبة الاخوان حوادث كثيرة استخدموا فيها العصي
والسياط داخل جامعة القاهرة مع الطلبة الوفديين والشيوعيين ، ورد
عليهم بالمثل . والملاحظ عموما أن الجماعة بعد الحرب الثانية أخذت على
عاتقها التصدي للحركة التقدمية للمجتمع والتنظيمات الشيوعية رافعة
شعار العداء ومحاربة الاتحاد والشيوعية ، وشنت هجوما مركزا على مبدأ
التأميم ذاكرة : موقف الاسلام من الاغنياء وأصحاب رؤوس الاموال ، فليس
بيننا وبينهم الا الزكاة» (٢) .

١ - طارق البشري المرجع السابق ص ٥٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٧٣ .

وهكذا نجد أن جماعة الإخوان المسلمين في الفترة الاولى من نشأتها والتي تمتد تقريبا من ١٩٢٨ الى حوالي ١٩٣٦ كانت تعيش في حدود الدعوة الدينية ، ثم خرجت منذ سنة ١٩٣٦ الى النشاط السياسي العام ، ثم اتجهت منذ سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٤٨ الى الانغماس الكامل في الحياة انسياسية . وفي هذه الفترة الطويلة من نشاط الجماعة والتي تزيد عن عشرين عاما «١٩٢٧ - ١٩٤٨» لا نجد للعقاد اي تعليق او اعتراض على نشاط الجماعة ولا على تفكيرها وآرائها المختلفة .

فما هو سر هذا الموقف من جانب العقاد ؟

ان السبب في موقف العقاد واضح تمام الوضوح ، فموقف العقاد من الإخوان لم يكن موقفا فكريا بقدر ما هو موقف «حزبي» فاذا اتفقت الإخوان مع الحزب الذي ينتمي اليه العقاد سكت عنها ولم يعترض على نشاطها العملي او الفكري ، ولكن اذا تعارض نشاط الإخوان مع الحزب السياسي الذي ينتمي اليه العقاد وقف العقاد ضدها وهاجمها واعترض عليها أشد الاعتراض .

وكانت الإخوان في المرحلة الاولى من حياتها جماعة دينية . ولم يكن وجودها متناقضا مع حزب الوفد الذي كان العقاد ينتمي اليه آنذاك ، وكانت الجماعة في تلك الفترة محدودة النشاط محدودة الانتشار ، ولم تظهر كحقيقة مؤثرة من حقائق السياسة المصرية في تلك المرحلة المبكرة من نشوئها ، وحتى عندما بدأت نشاطها في القاهرة سنة ١٩٣٢ ، على اثر انتقال الشيخ حسن البنا من الاسماعيلية الى العاصمة . . . حتى في هذه الفترة لم تكن الجماعة ذات أهمية بحيث يمكن لكاتب سياسي بارز في ذلك الحين مثل العقاد ان يعلق عليها او يناقش نشاطها الفكري او نشاطها العملي .

ولكن الجماعة تحولت الى حقيقة ملموسة في السياسة المصرية في المرحلة الثانية من حياتها والتي تمتد سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٤٨ . وفي هذه الفترة كان العقاد قد خرج على الوفد وانطوى تحت لواء الحزب الجديد ، حزب السعديين ، وكان الحزب السعدي هو الذي يحمي جماعة الإخوان ويستفيد منها ويساندها ، كما تبين لنا منذ قليل ، وكان الهدف من وراء استغلال السعديين للإخوان هو القضاء على الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية الكبرى ، والخطر الاول على القصر وعلى احزاب القصر الرجعية وعلى رأسها حزب السعديين .

وفي هذه الفترة كان من الطبيعي أن يكون العقاد راضيا عن الإخوان ،

موافقا على نشاطهم ، طالما أن الاخوان يعملون في ظل التخطيط السياسي للحزب السعودي ..

كل ذلك رغم أن أخطاء الاخوان الرئيسية التي أخذها عليهم العقاد بعد ذلك كانت واضحة في الجماعة تمام الوضوح ، وعلى رأس هذه الاخطاء استخدام العنف في فرض الاراء على المخالفين والمعارضين ثم افتراضهم أن مفهوم الاسلام عند الاخوان هو المفهوم الوحيد السليم ، والذي يخرج على هذا المفهوم من المسلمين يكون في نظر الاخوان قد خرج على الاسلام . لم يعارض العقاد الاخوان، ولم ينتقد أخطاءهم الواضحة كما فعل بعد ذلك، ذلك لان الاخوان بعد سنة ١٩٣٦ وحتى ١٩٤٨ كانوا مرتبطين تمام الارتباط بالحزب السعودي ، حزب العقاد .

ثم جاء عام ١٩٤٨ فاكشف السعديون الذين كانوا في الحكم آنذاك أن الاخوان قد خرجوا عن سيطرتهم ، وأصبحت لهم قوتهم الذاتية الكبيرة ، وبدأ القصر يخشى من قوة الاخوان التي ساهم في تدعيمها ، وفتح المجال واسعا أمامها . فقرر القصر وحزبه الحاكم ، وهو الحزب السعودي ، ضرب الاخوان ضربة عنيفة ، بعد أن أصبحت الجماعة قوة مخيفة ، ذات تنظيم عسكري مسلح يهدد أمن النظام بأكمله .

وبذلك أصدر محمود فهمي النقراشي، رئيس الحزب السعودي ورئيس الوزراء قرارا بحل الاخوان المسلمين في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨ . وكان هذا القرار معناه الاصطدام العنيف بين الاخوان المسلمين والسعديين ، وهنا بدأ العقاد يهاجم الاخوان اعنف الهجوم ، مؤيدا قرار الحل ومبررا لهذا القرار .

كتب العقاد مقالا في جريدة الاساس، وهي جريدة الحزب السعودي ، وقد نشر هذا المقال بعد ثلاثة أيام من صدور قرار النقراشي بحل الاخوان المسلمين ، وعنوان المقال « الحكومات وسمازة الفوضى » وقد نشرته « الاساس » في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٨ يقول العقاد في هذا المقال :

« لقد كنا أكثر من عشرين سنة نحارب الجماعات التي تقوم على العنف والارهاب ، كنا نحارب هذه الجماعات التي تقوم على العمل المباشر كما يسميه فقهاء الدستور ، وكنا ننادي بسقوط كل نظام يقوم على أمثال هذه الجماعات ، ومنها جماعات الفاشية في ايطاليا ، والنازية في المانيا ، وجماعات الاستعمار السرية في اليابان . فاذا كانت تجارب هذا العصر قد أثبتت حقيقة من الحقائق فتلك الحقيقة هي أن جماعات العمل المباشر وبال

على العالم بأسره ، بل وبال على من يخلقونها، كما رأينا من مصير موسوليني وهتلر وتوجو وسائر هؤلاء الدعاة من ذوي الاطماع والمجازفات ، وكما رأينا من مصير ايطاليا والمانيا واليابان بعد استعدادها بأضخم عدة عسكرية تملكها الدول الطامعة ، وكما رأينا من مصير العالم في هذه الفوضى التي يعانيها ، ولن يزال يعانيها الى زمن طويل .

هذا هو درس العصر الحديث كله ، فان لم يستفده الناس طائعين فقد ذهبت تجارب الحرب العظمى على غير جدوى ، ونسأل الله ألا يجعلنا من الذين تمر بهم العبر الجسام وهم عنها معرضون » .

هذا هو أول تعليق للعقاد على قرار حل الاخوان ... فهو ينكر على الجماعة استخدامها للعنف ، وينكر عليها انها من جماعات العمل المباشر مثل النازيين والفاشييين ... ولكن السؤال هو : لماذا لم ينتبه العقاد لظاهرة العنف والعمل المباشر في جماعة الاخوان المسلمين الا بعد أن اصطدمت الجماعة بالحزب السعودي سنة ١٩٤٨ ؟ ... لماذا لم يعترض العقاد على فرق «الجوالة» التي كونتها الاخوان والتي كانت تقوم على التدريب العسكري مثلها تماما مثل فرق العاصفة النازية ... لماذا لم يعترض على استخدام العنف عندما كان هذا العنف موجها الى حزب الوفد كما وقع في أحداث بور سعيد سنة ١٩٤٦ ؟ .

الاجابة عن كل هذه الاسئلة هي أن موقف العقاد من جماعة الاخوان المسلمين لم يكن موقفا فكريا سليما ، بل كان موقفا حزبيا ، ينظر الى مصلحة الحزب الذي ينتمي اليه وهو الحزب السعودي فان كانت المصلحة هي مساندة الاخوان والتفاضي عن أخطائهم ، وقف صامتا عن هذه الاخطاء، لا يشير اليها ولا يعترض عليها ، أما اذا تناقضت مصلحة السعوديين مع الاخوان فان واجبه في هذه الحالة هو كشف أخطاء الاخوان والتعريض بهم ... ومهما كان في نقد العقاد للاخوان من الصواب ، فان هذا الموقف الحزبي من جانب العقاد ، يضعف نقده ويثير حوله الكثير من الشكوك والاعتراضات . انه موقف ضيق محدود ، لا يشعر بالخطر الا اذا كان هذا الخطر يمس المصلحة الخاصة ، أما اذا كان الخطر ماسا بمصالح الآخرين ... فلا بأس من الرضا به والسكوت عليه ... وليس هذا الموقف بالطبع هو الموقف الوطني السليم، أو الموقف الفكري الشامل الذي يناقش المبادئ والاصول ويعترض على الخطأ حتى قبل أن يمس المصلحة الخاصة أو يمثل خطرا عليها .

وهذا الموقف يذكرنا بمواقف العقاد السابقة عندما كان مرتبطا بحزب

الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية ، فقد كانت حرية العقاد مع حزب الوفد
أوسع من حريته مع أحزاب الرجعية ، فعندما اختلف مع سعد زغلول زعيم
الوفد الاول حول قضية علي عبد الرزاق وكتابه «الاسلام وأصول الحكم»
وعندما اختلف مع سعد ايضا حول طه حسين وكتابه «في الشعر الجاهلي»
... عندما اختلف العقاد مع سعد حول هاتين القضيتين كما شرحنا ذلك
بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا الكتاب ... استطاع العقاد في هذا
الخلاف أن يعبر عن آرائه ، بل نشر هذه الآراء في صحيفة «البلاغ» التي
كانت لسان حال الوفد في ذلك الحين . وعندما اختلف العقاد بعد ذلك مع
الوفد والزعيم الثاني مصطفى النحاس حول وزارة توفيق نسيم سنة ١٩٣٥
وجد من الشجاعة والجرأة ما جعله يدفع بهذا الخلاف الى أقصاه ، حتى
خرج على الوفد وانشق عليه . أما ارتباطه بالسعديين فلم يكن يسمح له
بالخروج على خط الحزب السعدي بأي شكل من الاشكال .

ونستطيع أن نخرج من هذه المقارنة بأن ارتباط العقاد بالوفد كان
ارتباط مبادئ ، أما ارتباطه بالسعديين فكان ارتباط مصالح ، وارتباط
المبادئ أقوى وأصدق وأشجع من ارتباط المصالح ، كما أن ارتباط المبادئ يمنح
الكاتب قدراً عالياً من الشجاعة وحرية الفكر والتعبير ، بينما يتحول الكاتب
مع ارتباط المصالح الى مجرد أداة يحركها الآخرون ولا تستطيع أن تتحرك
وحدها بحرية وأمانة .

وهكذا عجز العقاد عن معارضة الإخوان طيلة الفترة التي ارتبطوا فيها
بالسعديين ، وبدأ هجومه عليهم بعد اصطدامهم بالحزب السعدي .
ونواصل بعد ذلك استعراض آراء العقاد بعد صدور قرار حل جماعة
الإخوان المسلمين على يد النقراشي زعيم السعديين ورئيس الحكومة .
يقول العقاد في مقال نشره في جريدة الاساس في ٢٢ ديسمبر سنة
١٩٤٨ أي بعد قرار حل الجماعة بحوالي اسبوعين ... يقول العقاد في هذا
المقال وعنوانه « مثل من افساد العقول » :

« تلقيت في البريد رسالة يخاطبني فيها المتنكر قائلاً : « حضرة الكاتب
الاجير » ثم يقول :

« نصيحتي اليك أيها الشخص الا تتمادي في اباطيلك ، واحذر «كذا»
الإخوان المسلمين واعلم بأن لكل شخص مثلك دوسيه « خاص » يكتب فيه
الحسنات والسيئات ... »

ثم يقول : أصبر أيها المسكين وسوف لا يطيل «كذا» صبرك ولا تلعب
بالنار ، ودع النقراشي يظلم وقريباً جداً وفي خلال هذا الشهر ستري أنت

وأمثالك كيف قابل الإخوان حل الجمعية بهذا الصمت وماذا وراء الصمت
... فحاول أن تصمت أو تكتب في موضوع آخر ، ولا تتعرض لهم وقد
قذف «كذا» الوقت ... والله أكبر والله الحمد .

وبعد أن نقل العقاد هذه الرسالة التي بعث بها إليه أحد أعضاء جماعة
الإخوان علق عليها وعلى ما فيها من أخطاء لغوية ونحوية واملائية ، مما
يثبت جو « الجهل العام » الذي كانت تتحرك فيه الجماعة وتسيطر من
خلاله على الأفراد ، وتحيلهم إلى عناصر متعصبة مستغلة ما فيهم من جهل
وقصور في المعرفة ، وقبل أن نقرأ تعليق العقاد ، ينبغي أن نلتفت إلى حقيقة
هامة وهي أن هذا الإخواني الجاهل قد قال في رسالته ما معناه أن جماعة
الإخوان سوف تعبر عن رأيها في حل الجماعة خلال هذا الشهر ... وقد
نشر العقاد هذه الرسالة في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ - كما أشرنا - ولم
يكد يمر أسبوع واحد حتى قام أحد شباب الإخوان المسلمين باغتيال محمود
فهمي النقراشي في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وبذلك تكشف لنا هذه
الرسالة من قوة التنظيم التي كانت تملكها جماعة الإخوان المسلمين ، وعن
قدرة الجماعة على السيطرة على نفوس أعضائها من الشباب بوجه خاص ،
وعن سيادة فكرة الإيمان بالجماعة ومرشدها العام لدى الأعضاء ، حيث
كانت هذه الفكرة - بأي نوع من أنواع التعصب - لا تقبل المناقشة ولا
تحتاج إلى تبرير أو تفسير لدى الأعضاء .

يعلق العقاد على هذه الرسالة مستفيدا منها في توجيه نقده العنيف
لجماعة الإخوان وفضحه لما فيها من عيوب وأخطاء ، كاشفا عن مظاهر
التعصب ومصادره في تكوين هذه الجماعة ... يقول العقاد في نفس
المقال :

« هذه الرسالة قد استحققت أن يلتفت إليها لمقدار ما فيها من دلائل
الجهل ، وضيق العقل ، وسوء الأدب ، ونزعة النفس إلى الشر والافتراء ،
أو لأنها تدل على صنف هذه النفوس التي يسهل أن تساق إلى الشرور
والآثام باسم الدين ، وهي تجهله ولا تفقه حرفه ولا معناه » .

« فأول ما يتبين من هذه الرسالة أن كاتبها جاهل لم يتلق نصيبا من
التعليم الذي يتلقاه طالب صغير ، فهو يكتب « احزر » بالزاي ولا يعرف
قاعدة من قواعد اللغة التي لا تتعدى المرفوعات والمنصوبات ، وهو أكثر من
ذلك لا يقرأ القرآن ولا يفقه حرفه ولا معناه ، بل لا يفقه آياته التي
يكثر تداولها على السنة الناس من غير حفاظ الكتاب الكريم . فمن الآيات
التي يذكرها الخاصة والعامة « ألفت الأزفة ليس لها من دون الله كاشفة »

ومنها « انذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » .
« ولكن هذا الجاهل الذي كتب رسالته بكل تلك الثقة وكل ذلك اليقين
يكتب « ازف الوقت » فيقول « قذف الوقت » ولا يدري ما هو الفرق بين
الآزف والقاذف في اللفظ ولا في الهجاء ولا في المدلول » .

ثم يقول العقاد في نفس المقال بأسلوبه الهجائي العنيف الذي تعود عليه
في صراعه الحزبي والسياسي « وهذه الخنفساء البشرية تكتب باسم
الاسلام الى من ؟ ... الى رجل ألف عشرات الكتب عن « الاله » وعن محمد
عليه السلام وعن خلفاء محمد وأصحابه وعن الفلسفة القرآنية والعقائد
الروحانية ، وانتشرت هذه الكتب في العالم الاسلامي من أقصاء الى أقصاه
باللغة العربية وغيرها من لغات المسلمين ، وكان لها أثرها الواضح في
مكافحة المادية ونزعة الالحاد ، وابتلى منها الماديون المعطلون بما تدل عليه
حملاتهم التي أفعمت بالغيظ والانتقام ، ويعد ذلك يحق لتلك الخنفساء
البشرية أن تنصب الميزان باسم الاسلام لتعطيني ما تسمح به من نصيب في
الحرية أو نصيب في الحياة تبعاً لما تحصيه لي في الدوسيه الخاص من
الحسنات والسيئات .. »

« هذه الرسالة دليل صادق على طبيعة النفوس التي يستهويها الى
الشر طائفة من الدجالين باسم الدين واسم الاسلام . نفوس يقترب فيها
الجهل بضيق العقل بسوء الادب ، ثم يأتي الدجال فينفخ فيها من الغرور
ما يزيد الجهل جهلاً ، والضيق ضيقاً ، وسوء الادب سوءاً ، ويقول لها مع
جهلها هذا وسوء ادبها هذا : انها هي التي تحكم على الناس وتعطيهم حقهم
في الحرية وحقهم في الحياة » .

ثم يقول العقاد مشيراً الى استخدام الاخوان للعنف :
« وقد خدع أطفال في الرابعة عشرة بمثل هذا الدجل فحملوا القنابل
يقدفونها على الناس في سن آبائهم ، وخدع بمثل هذا الدجل رجال كبار
كصاحب هذه الرسالة ، وليس أحوج الى حماية القانون ورقابة القانون من
أمثال هذا وذاك » .

والقضية التي يثيرها العقاد هنا هي قضية « الجهل » الذي تعيش فيه
القاعدة الأساسية لأعضاء جماعة الاخوان ، وهذه النقطة - من الناحية
الموضوعية - صحيحة ولا شك ، فبصرف النظر عن بعض شباب الجماعة
في المدارس أو الجامعات ، فان القاعدة الجماهيرية الكبيرة كانت تعاني من
هذا الجهل ، ولذلك كان من السهل قيادتها في أي اتجاه يريد « مرشد »
الجماعة ، وكان من السهل إثارة « جوانب غير عقلية » في هؤلاء الافراد أو

جوانب « غريزية » تعتمد عليها الجماعات المتعصبة على الدوام ... ومن هذه الجوانب التي اثارتها الجماعة « الشعور الديني » الغامض وليس « الثقافة الدينية » العميقة ... لان الثقافة الدينية تفتح أمام صاحبها آفاقا من التفكير المنطقي الواسع ، بينما يكفي الاعتماد على شعور دينسي غامض لكي يتحول الفرد الى عنصر متعصب مطيع منقاد عنيف .

ولعل مما يؤكد هذا المعنى الذي أشار اليه العقاد ، وهو انتشال «الجهل» وضعف الثقافة في صفوف القاعدة الإخوانية ، ما كان يملأ فكر الجماعة نفسها حتى لدى كتابها الكبار وقادتها المعروفين من غموض وعدم تحديد ، وقد لاحظ كل الباحثين في تاريخ الإخوان هذا الغموض المسيطر على أفكارها وسجلوا هذه الملاحظة . يقول طارق البشري في كتابه «الحركات السياسية في مصر» ص ٥٣ :

« ان تنظيم الإخوان لم يحدد أهدافا سياسية عملية واضحة له ، وفي مقالات المرشد والإخوان وأحاديثهم لا نلمس أي وضوح في هذه النقطة . بل ان هذا الغموض كان مستهدفا أحيانا سيما بالنسبة لنقطة مبدئية تتعلق بماهية الجماعة ، ماهية هذا التنظيم المترابط . « هل نحن طريقة صوفية ، جمعية خيرية ، مؤسسة اجتماعية ، حزب سياسي ، نحن دعوة القرآن الشاملة الجامعة ... نحن نجمع بين كل خير » - وذكر المؤتمر السادس للجماعة المنعقد في ١٠ يناير ١٩٤١ أن الإخوان دعوة سلفية ... طريقة صوفية ... هيئة سياسية ... جماعة رياضية ... رابطة علمية ثقافية ... شركة اقتصادية ... فكرة اجتماعية » - ثم يذكر المرشد « أيها الإخوان : أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسيا ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد ولكنكم روح جديد ... ونور جديد ... وصوت داو » - ولم يحدث ان حظي تنظيم من قادته بهذا القدر من الاحاديث والايضاحات والتفسيرات التي تدور حول طبيعته وماهيته فتزيد الامر غموضا كما حدث بالنسبة للجماعة » .

ثم يقول طارق البشري بعد ذلك في نفس الكتاب «الحركات السياسية في مصر - ص ٦١» معلقا على غموض الفكر عند الإخوان وما أدى اليه من سيادة السلطة الشخصية والزعامة الفردية :

« ... غموض الفكر لازم لانطلاق السلطة الشخصية ، اذ تعتمد على حرية العمل والتصرف واذ يقتضي ذلك انتفاء المحاسبة وامكانياتها ، وغموض الاهداف والمناهج يفقد الآخرين القدرة على المحاسبة ، ويحيل صاحب الدعوة من عامل ملتزم بتحقيق فكرة ما الى صاحب هذه الفكرة

يدور بها حيث شاء ويستتر في خفائها حركته وبواعثها ، ولا يكون للآخرين ازاءه الا الطاعة او الخروج عليه .

هذا هو ما يسجله الباحثون حول فكر الاخوان . . . غموض فني الأهداف والمبادئ ، وهو غموض يخدم الزعامة الفردية داخل الجماعة ويؤكدها ، ويجعل الطاعة المطلقة لهذه الزعامة مسألة رئيسية لا يجوز الخروج عليها بأي حال من الاحوال . وهذا القدر من الغموض الفكري والطاعة العمياء لا يمكن أن يتوفر في تنظيم الا اذا كانت قاعدته على قدر كبير من ضعف الثقافة والمعرفة ، وهو ما يشير اليه العقاد في مقالته ، ويكشف عن نموذج من نماذجه .

ويركز العقاد بعد ذلك في نقده للاخوان على مناقشة مفهومهم للاسلام ورفض هذا المفهوم ، حيث يقول في مقال بعنوان « فتنة اسرائيلية » نشرته جريدة الاساس في ٢ يناير سنة ١٩٤٩ :

« يؤمن أصحاب الاديان على اختلافها بأن الله هو خالق الخلق وأنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، ويؤمنون جميعا بأن حق الله ليس فوقه حق وأن سلطانه ليس فوقه سلطان . ومع هذا يؤمنون جميعا بأن الاله الذي هذه صنعته وهذا سلطانه لا يعاقب أحدا بغير حساب ، والاسلام في طبيعة الاديان التي برزت فيها هذه العقيدة على وجه واضح ناصع لا لبس فيه . ولهذا يسمى يوم القيامة في الاسلام يوم الدين الذي يدان فيه الناس بما يعملون ، ويوم الحساب الذي يسأل فيه كل انسان عما أتاه من خير وجناه من شر » .

« وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تصف الله عز وجل في مقام العطاء والاحسان بأنه يرزق بغير حساب ويوفي الاجر بغير حساب . ولكن ليس فيه آية واحدة تقول للناس ان الله يدين أحدا بغير حساب او يعاقبه بغير سؤال . هذا وهو الخالق العليم بما يعمل خلقه ، الغني عن سؤالهم بعلمه ، الذي له القدرة على جزائهم كما يشاء ، وله العدل الذي تنزه عن الشبهات »
« واذا نزلنا عن مرتبة الربوبية الى مرتبة النبوة لم نجد نبيا واحدا اباح لنفسه أو اباح له الدين أن يتصرف في نفس بشرية بغير بينة وشهادة وقضاء ، وأن أدب النبوة مع هذا كله ليوحى اليه أن يدرأ الحدود بالشبهات » .

« وتأتي دون مرتبة الانبياء ، مرتبة ولاة الامور ، وليس لاحد منهم بالبداية أن يجيز لنفسه في محاسبة الناس حقا فوق حق النبي أو حق الاله » .

«وعلى هذه السنة القديمة دام أمر المجتمع الاسلامي في جميع العهود، من ايام الخلفاء الراشدين الى ايام الخلافتين الأموية والعباسية الى هذه الايام . وكل ما جاء من الشذوذ عن هذه السنة التي لا يستقيم أمر مجتمع من المجتمعات بغيرها انما كان من طائفتين خارجيتين على جماعة المسلمين ، وهما طائفة « الخوارج » وطائفة « اليهود والمجوس » الذين دخلوا الاسلام ليفسدوه ويهدموا دولته من داخلها ، كما فعل عبدالله بن سبأ في صدر الاسلام ، وكما فعل عبدالله القداح في القرن الثالث للهجرة . فالخوارج واصحاب الدعوات الاسرائيلية هم الذين اباحوا لانفسهم قتل النفس وايقاع العقاب بغير سؤال أو قضاء أو حساب ، وهو حق لو شاء الله أن يتخذه لاحد لاتخذه لنفسه ، وهو الفعال لما يريد والعليم بذات الصدور » ويحاول العقاد بعد هذا العرض الذكي العميق لمفهوم المسؤولية في الاسلام أن يخرج بنتيجتين : الاولى هي أن تنظيم الاخوان بهذا المعنى خارج على الدين ، لانه تنظيم ارهابي يبيع لنفسه الحكم على الناس ، وتنفيذ العقاب فيهم بدون محاسبة أو سؤال . وهو أمر لا يتفق مع مبادئ الاسلام ، بل ان الله تعالى لم يبحه لنفسه أما النتيجة الثانية التي يخرج بها العقاد من هذا التحليل فهي أن « الاخوان » هي تنظيم يخدم الصهيونية ويقول العقاد حول هذه النقطة :

« ان الخوارج لم يعرف عنهم تنظيم يمزج بين الدعوة وبين خطط السياسة وتدبير الاقتصاد ، أما اليهود خاصة فقد كانت جماعاتهم السرية في جميع البلدان تدعم دعوتها بالوسائل الاقتصادية والحركات التي تبطن غير ما تظهر الى أن تتمكن من الامر فتجهر بقلب النظام » .
ثم يقول العقاد بعد ذلك في نفس المقال وقد كتبه بعد قيام الاخوان باغتيال النقراشي زعيم السعديين ورئيس الحكومة آنذاك :

« والفتنة التي ابتليت بها مصر على أيدي العصابة التي كانت تسمي نفسها بالاخوان المسلمين هي أقرب الفتن في نظامها الى دعوات الاسرائيليين والمجوس . وهذه المشابهة في التدبير والتنظيم هي التي توحى الى الدهن ان يسأل لمصلحة من تثار الفتن في مصر وهي تحارب الصهيونيين ؟ والسؤال والجواب كلاهما موضع نظر صحيح » .

ثم يبرهن العقاد على ان الاخوان فتنة اسرائيلية ببرهان عجيب هو - رغم ذكائه وطرافته - نوع من التشهير السياسي المعروف عن العقاد في معاركه الحزبية . . . يقول العقاد في نفس المقال :

« ويزداد التأمل في موضع النظر هذا عندما نرجع الى الرجل الذي

انشأ تلك الجماعة فنسأل : من هو جده ؟»

«ان احدا في مصر لا يعرف من هو جده على التحقيق، وكل ما يقال عنه انه من المغرب ، وأن أباه كان « ساعاتيا » في السكة الجديدة . والمعروف ان اليهود في المغرب كثيرون ، وأن صناعة الساعات من صناعاتهم المألوفة، واننا في مصر هنا لا نكاد نعرف «ساعاتيا» كان مشتغلا في السكة الجديدة بهذه الصناعة قبل جيل واحد من غير اليهود ، ولا يزال كبار الساعاتية منهم الى الآن» .

ثم يقول العقاد وهو يعني الشيخ «حسن البنا» في هذا الحديث كله : «... ونظرة الى ملامح الرجل تعيد النظر طويلا في هذا الموضوع . ونظرة الى أعماله وأعمال جماعته تفني عن النظر الى ملامحه ، وتدعو الى العجب من هذا الاتفاق في الخطئة بين الحركات الاسرائيلية الهدامة وبين حركات هذه الجماعة . ويكفي من ذلك كله أن نسجل حقائق لا شك فيها ، وهي اننا امام رجل مجهول الاصل ، مريب النشأة ، يثير الفتنة في بلد اسلامي وهو مشغول بحرب الصهيونيين ، ويجري في حركته على النهج الذي اتبعه دلاء اليهود والمجوس لهدم الدولة الاسلامية من داخلها ، بظاهرة من ظواهر الدين » .

«وليس مما يبعد الشبهة قليلا او كثيرا ان اناسا من اعضاء الجماعة يحاربون في ميدان فلسطين ، فليس المفروض ان الاتباع جميعا يطلعون على حقائق النيات، ويكفي لمقابلة تلك الشبهة ان نذكر ان اشتراك أولئك الاعضاء في الوقائع الفلسطينية يفيد في كسب الثقة، وفي الحصول على السلاح، والتدريب على استخدامه ، وفي أمور أخرى تؤجل الى الوقت المعلوم هنا او هناك . فأغلب الظن اننا امام فتنة اسرائيلية في نهجها واسلوبها ، ان لم تكن فتنة اسرائيلية أصيلة في صميم بنيتها ، وايا كان الامر فهي فتنة غريبة عن روح الاسلام ونص الاسلام ، وانها قائمة على الارهاب والاغتيال ، فلا محل فيها للحرية والاقناع ، وجدير بالمسلمين ومن يؤمنون بالحرية والحجة من غير المسلمين ان يقفوا له بالمرصاد » .

وهكذا يستخدم العقاد منطق الذكي في التشهير بالاخوان ، وهؤلاء الحجة التي يثبت بها انتماء الاخوان الى الحركة الاسرائيلية ، رغم ما فيها من الطرافة والدكاء - كما اشرت - الا انها تخلو من الروح العلمية المنصفة، فحتى لو صح ان الشيخ حسن البنا من اصل يهودي وهو امر لم يقم عليه اي دليل معقول - فان هذا لا يكفي للتدليل على انه متأمر بحكم أصله ، واذا اردنا ان نثبت التأمر على شخص ما فيجب ان تكون لدينا أدلة أخرى

غير أصله وجنسه . ولو اخذنا بمثل هذا المنطق لقلنا ان العقاد لا بد ان يكون معاديا للقومية العربية -مثلا- لمجرد انه من اصل غير عربي عن طريق والدته ، ومثل هذه الاستنتاجات ان دلت على ذكاء فانها لا تكفي للوصول الى الحقيقة .

من ناحية اخرى فان الطابع الارهابي العنيف للاخوان المسلمين قد بقي كما هو عليه حتى بعد اغتيال الشيخ حسن البنا سنة ١٩٤٩ (١) ، وظهور قيادات اخرى ظلت تعمل سنوات طويلة بعد اغتيال الشيخ البنا ، ولا يوجد ادنى شك في ان هذه القيادات الجديدة بعيدة كل البعد عن الاصل اليهودي ، ومع ذلك فقد لعب التنظيم العسكري السري للاخوان دورا عنيفا حتى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . فمسألة التنظيم الارهابي لا تتصل بشخص في الجماعة او اشخاص ، ولكنها تتصل اساسا بتركيب الجماعة نفسها ومبادئها ونظامها الخاص ، ويكفي ان نعود الى مبدا من المبادئ التي اقترتها الجماعة في مؤتمرها الثالث المنعقد سنة ١٩٣٥ والذي يقول «على كل مسلم ان يعتقد ان هذا المنهج كله - منهج الاخوان المسلمين - من الاسلام وان كل نقص منه نقص من الفكرة الاسلامية» .

وكما يقول طارق البشري -بحق- في كتابه «الحركات السياسية في مصر» ص ٥٣ : «ان هذا المبدأ تصادر به الجماعة الدين لمصلحتها ، وبهذا لا تصبح مجرد جمعية تطبق الدين كما يحاول غيرها ان يفعل ، وانما تؤكد ان منهجها وحده هو الاسلام الصحيح ، فلا يعتبر غيره كذلك ، وبهذا يكون تنظيم الجماعة هو التجسيد للجماعة وللإسلام ومؤسسة مهيمنة عليه ، فيكون من لم يوالها خارجا عن الاسلام» .

وهذا المبدأ الذي يعتبر الاسلام قاصرا على الاخوان وحدهم هو المصدر الرئيسي الصحيح لما أشار اليه العقاد من طبيعة الارهاب والعنف في تنظيم الجماعة ، ولما اعطته الجماعة لنفسها من حق الحكم على الآخرين ، وتنفيذ هذا الحكم دون محاسبة ، وهو ايضا مصدر التعصب لدى اعضاء الجماعة ، وافتراس الصواب في كل آرائهم ووجهات نظرهم المختلفة . وقد لمس العقاد في مقاله السابق هذه الامور كلها بوضوح ، ولكنه جنح الى التشهير في تبرير هذه الظواهر الصحيحة في تكوين الاخوان ، بدلا من المناقشة

١ - كان اغتيال الشيخ البنا جريمة من الجرائم التي ارتكبتها حكومة السعديين - حزب العقاد - تحت رئاسة ابراهيم عبد الهادي وبتشجيع من الملك فاروق .

الموضوعية ، ويعود ذلك كما أشرت الى ان موقف العقاد كان نابعا من ظروف حزبية ساخنة ، لا من ظروف موضوعية تملي الحوار الهادئ ، والمناقشة العلمية ، وتفرض روح البحث عن الحقيقة .

ويعود العقاد مرة أخرى الى نقد جماعة الإخوان عن طريق التشهير ، مستغلا في ذلك قدرته البارة على التحليل النفسي ، فربط بين شخصية الشيخ حسن البنا وشخصية المجرم الصعيدي «الخط» ، ومن الواضح ان العقاد يهاجم الإخوان بالتهم التي يعلم انها يمكن ان تمس نفس الراي العام بشدة ، ولذلك فهو يستخدم الاحداث التي كانت سائدة في سنة ١٩٤٨ فهو يتهممهم في المقال السابق بأنهم «يساعدون الصهيونية في حربها على مصر والعرب عموما» وهي تهمة كان لها - وما زال - وقعها العنيف على نفوس الناس سنة ١٩٤٨ خلال حرب فلسطين الاولى وفي أعقاب هذه الحرب وحتى الان، ومن ناحية أخرى فهو يربط بين «الشيخ البنا» وبين «الخط» لان جرائم الخط كانت مشهورة ومعروفة في العام الذي وقعت فيه هذه الجرائم وهو عام ١٩٤٨ .

وتشبيه الشيخ البنا بالخط هو تحريض للناس على كراهية مرشد الإخوان، والربط بينه وبين مجرم خطير أثار الخوف والكراهية في النفوس . يقول العقاد في مقال له بعنوان «إيمان مضلل ؟... كلا» وقد نشر المقال في جريدة الاساس في ١٧ يناير سنة ١٩٤٩ :

«أجمع المصريون على استنكار تلك الجرائم الوحشية التي يقدم على ارتكابها أفراد العصاة التي كانت تسمى بجمعية الإخوان المسلمين ، ومن حقها ان تسمى على الاصح بجمعية «خوان المسلمين» ولكن فريقا من الذين بحثوا في أسرار تلك الجرائم يتوهمون ان جناتها الاشرار يساقون اليها بدافع من الايمان المضلل ، ويحسبون ان ادخال هذا الايمان الى عقولهم الملتوية يحتاج الى قدرة نفسية او قوة من قبيل القوة المغناطيسية عند القائمين بالدعوة الى تلك العصاة ، ولولا تلك القوة المغناطيسية لما استطاعوا ان يشحنوا عقول الاغرار بذلك الضلال ولا ان يدفعوا بهم الى ذلك الاجرام » .

«وهذا هو الوهم الذي يفرض للمجرمين شرفا لا يرتفعون اليه : وهو شرف الايمان ، ولو كان ايمانا مضللا منحرفا كل الانحراف عن مقاصد الاديان وبخاصة مقاصد الدين الاسلامي، فكل ما يحتاج اليه أولئك المجرمون ليندفعوا الى الاجرام هو تحريك ما في نفوسهم من طبيعة الشر والغرور والطمع - ولا حاجة بهم بعد ذلك الى ايمان يتعب في تعليقه المضللون ، او

يدل على قدرة أولئك المضللين .

ثم يقول العقاد بعد هذه المقدمة :

«ان فقيد الوطن - النقراشي - رحمه الله قد أراح هذه البلاد من عصابات كثيرة قبل هذه العصابة الاجرامية ، ومنها عصابة «الخط» المشهورة التي كانت تعبت بالفتك والسلب والنهب في أواسط الصعيد . والخط لم يدع لنفسه انه إمام من أئمة الدين . ولم يدع له احد شيئا من العلم او القدرة على التدجيل باسم العلم او الدين ، ومع هذا قد استطاع ذلك المخلوق ان يجمع حوله اربعين او خمسين رجلا يجازفون بالحياة في سبيل طاعته ، ويجازفون بالخروج على القانون والشرعية تنفيذا لأمره . فهل كانوا محتاجين الى ايمان مضلل يسوقهم الى المجازفة بالحياة وعصيان الدولة وإعلان الحرب على المجتمع كله بغير نظر الى عواقب الاجرام ؟» . كلا . لم تكن بهم حاجة الى ايمان قوي ولا ايمان ضعيف . وتلك ما احتاجوا اليه هو تحريك طبيعة الشر والطمع والغرور : الشر الذي يستخف بالحياة البشرية . والطمع الذي يتطلع الى ما في أيدي الناس ، والغرور الذي يخيل اليهم انهم أبطال لانهم يقتلون ويسلبون . ولقد استطاع الخط ان يستغل هذه الفرائز المنكوسة ، ويدفع بها الى المخاطر ، ويحارب بها الأمة والدولة دون ان يستعين على ذلك بعقيدة دينية ، بل استطاع ان يستغلهم مع علم اصحابها علم اليقين انهم يعصون امر الله كما يعصون امر ولاية الامور» .

ثم يقول العقاد بعد ذلك مستمرا في تحليله النفسي للمرشد وللأخوان على انهم «مجرمون» من فصيلة «الخط» بل من فصيلة اقل منه ومن عصابته :

«ولقد يفهم الناس جميعا موضع الشر والغرور في جرائم تلك العصابة التي تسمى بحق عصابة «خوان المسلمين» . ولكنهم قد يحسبون ان موضع الطمع منها أخفى من موضع الشر والغرور . والواقع انه هو الباعث الاول في نفوسهم على سفك الدماء ، واشاعة الفوضى في جوانب هذه البلاد ، فان الكلمة الاولى التي تقال لهم هي ان الاسلام دين ودولة وانهم يعملون ليقبضوا بأيديهم على زمام الدولة ، في يوم من الأيام . يقال لهم هذا ويقال لهم معه ان ارهاب القضاة كفيل بنجاتهم من حكم الموت ، وانهم لا يلبثون ان يخرجوا من السجن ابطالا متوجين بأكاليل الفخار ، متربعين على مناصب الحكم متصرفين في الانفس والاموال فان خانهم الجد العاثر ونفذ فيهم حكم الموت فهنا يأتي الطمع الاكبر في جنات عرضها السموات والارض اذا

بطلت الحيلة في مطامع الحكم والسلطان» .

«وهذا الطمع الاحتياطي محسوب حسابه عند فوات كل رجاء فسي المطمع الاصيل : وهو طمع الدولة والدنيا والتسلط على الارواح والاموال . وهو احتياطي يدخرونه لمقاومة الضعف الذي يخامرهم ولا يخامر أبطال الخط وأمثاله ... فهم بهذا الاحتياط أحط وأجبن من أدعياء البطولة بقطع الطريق . هم بهذا الاحتياط لا يقتلون عن المجرمين في الشر والغرور والطمع ولكنهم يقتلون منهم في الجراءة والاقدام» .

«تلك حقيقتهم في الدين . وتلك حقيقتهم في علم النفس ، فلا يرفعهم جاهل بهم فوق أقدارهم ، فما هم بمؤمنين مضللين في إيمانهم ، ولكنهم مجرمون في الصميم» .

وهكذا يلجأ العقاد الى التحليل النفسي لتفسير الاخوان ولل هجوم عليهم بعد ذلك ، حيث يحاول ان يثبت من خلال تحليله ان الاخوان مجرمون تحركهم دوافع الاجرام من طمع وشر وغرور . ويحاول العقاد من ناحية اخرى ان يخضع «الخط» للتحليل نفسه كمجرم وقائد عصاة .

ولا شك ان التحليل النفسي مفيد في فهم الجريمة ، وسائر الظواهر الاجتماعية ، ولكن هذا التحليل لا يكفي ابدا اذا كانت الظواهر أكثر شمولاً وتعقيداً من الظواهر الفردية ، ان التحليل النفسي يصلح في حالة القاتل الفرد او اللص الواحد ، ولكنه لا يقدم حلاً حاسماً عندما تكون المسألة أكبر وأشمل ... فظاهرة العنف والارهاب في الاخوان المسلمين لا يمكن ارجاعها الى حالة نفسية مرضية واحدة تسيطر على الجميع ، كما ان «الخط» لم يكن مجرد ظاهرة فردية ، فقد أنبتت بيئة الصعيد في مصر كثيراً من المجرمين على شاكله الخط ، مما يقطع بأن المسألة لا تعود الى المرض النفسي ، وانما تعود الى ظروف عامة أوسع وأشمل ، لم يلتفت اليها العقاد ، لان منهجه في دراسة الظواهر الاجتماعية يعتمد على تحليل الافراد من داخلهم دون النظر الى ظروفهم .

«ولا شك ان الاخوان المسلمين قد ظهوروا في المجتمع المصري في فترة من فترات الاضطراب الفكري والسياسي والاقتصادي ، فقد انتشرت حركة الاخوان بعد الحرب الثانية ، وفي تلك الفترة كان المجتمع المصري يضج بالحركات العنيفة ، فهناك مطلب عاجل هو الاستقلال وجليه الانجليز ، وهناك مطلب آخر هو القضاء على الفساد الاقتصادي الذي أدى الى سحق الطبقات الفقيرة التي تكون غالبية الشعب في مصر ، وهناك المداهب السياسية العالمية التي تتردد أصدائها في داخل البلاد ، ثم الصراع بين

القصر والحركات السياسية الشعبية وعلى رأسها حزب الوفد ... حزب
الغلبية ، وهناك الصراع بين الأحزاب السياسية نفسها . كل هذه العوامل
خلقت جوا من الاضطراب والقلق داخل المجتمع المصري ، وفي هذا الجو
نشطت حركة الإخوان وحاولت ان تستفيد من كافة التناقضات الموجودة
في المجتمع لتحقيق وجودها وانتشارها . واستغلت الدعوة الشعور الديني
وأثارته بعنف ، واجابت على الاضطراب القائم في د'خل المجتمع بالانضباط
والتنظيم الحديدي في داخل الجماعة ، وحررت نفوس اعضائها من القلق
بوضع اجابات ثابتة وان كانت غامضة لكافة الاسئلة ، وفرضت على الاعضاء
ان يقبلوا هذه الاجابات والا يكثرؤا من التساؤل استنادا الى أنهم يسيرؤن
وراء قيادة ملهمة ، تستطيع ان تعرف الحق والصواب وتقودهم اليه .
ومن هنا يكون نجاح الإخوان ثمرة لظروف يعيش فيها المجتمع ويعاني
منها ... ظروف فكرية وعقائدية وسياسية واقتصادية ، ظروف يسيطر
عليها القلق والتمزق والضيق واليأس والبحث عن حل وطريق للخلاص .
فليست المسألة هي ان الإخوان مجموعة من المجرمين المفطورين على
الجريمة ، بقدر ما كانت حركتهم ثمرة مرة للظروف التي كان المجتمع يعيش
فيها ويعاني منها .

وهذا المنهج نفسه يفسر «الخط» وعصابته ... فقد ظهر «الخط» في
مجتمع الصعيد ، وهو مجتمع يعاني من الفقر الشديد ، والتخلف الحضاري
والاقتصادي ، وخاصة في تلك الفترة التي ظهر فيها الخط سنة ١٩٤٨
ولقد كان معروفا في تلك الفترة ان الطبيعة القاسية في الصعيد حيث
تحيط الجبال بالنيل ، ولا تترك الا شريطا ضيقا من الارض للزراعة ...
هذه الظروف الصعبة جعلت قبضة الدولة غير محكمة بالنسبة لمجتمع
الصعيد .

كذلك كان المجتمع الصعيدى يعيش في ظل نوع من أسوأ أنواع الاقطاع
الزراعي ، فكانت الأسر الاقطاعية تفرض قانونها الخاص وتجعل ارادتها فوق
ارادة الدولة والمواطنين ، وفي مثل هذه البيئة تظهر الانفجارات المختلفة ومن بينها
حركات قطاع الطرق ، الذين يحاولون الرذ على الحرمان والقهر وسيادة
الأسر الاقطاعية وحماية الدولة لهؤلاء الاقطاعيين ، ويحاول قطاع الطرق
هؤلاء ان ينتزعوا مطالبهم بأيديهم ... فالخط هو ظاهرة تولد في مجتمع
مثل مجتمع الصعيد في ظروفه القديمة القاسية . وليس «الخط» مجرد
مجرم يعاني من الطمع والشر والغرور . فالتفسير النفسي وحده لا يستطيع
تبرير ظهور «الخط» وظهور أمثاله في بيئة مثل بيئة الصعيد ، بينما ام

يظهر مثل هذا المجرم ، ولا يمكن ان يظهر مجرم على طريقته ، في مجتمع الوجه البحري «الدلتا» لان هذا المجتمع اكثر تحضرا واقل فقرا وتخلفا ، وأغنى في اراضيه ومساحته الزراعية ، واقل قسوة وتعقيدا في بيئته الجغرافية من مجتمع الصعيد .

فالتفسير النفسي اذن لا يكفي لتبرير ظهور الاخوان ولا يكفي للمقارنة بينهم وبين الخط وعصابته ، حيث اننا نجد ظروفًا عامة وعميقة تتحكم في ظهور الاخوان كحركة سياسية تعتمد على العنف والارهاب والرفض والتمرد ، بل نجد ظروفًا عامة تتحكم في ظهور الخط وعصابته .

ولكن العقاد يكتفي في تحليله بالوقوف عند الدوافع النفسية الخاصة التي لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون كافية في الوصول الى الحقيقة .

على ان العقاد يقدم لنا في مقال آخر نقدا للاخوان يعتمد فيه على فكرين موضوعيتين سليمتين . اما الفكرة الاولى فهي ان الاخوان لا يمثلون الاسلام وحدهم ، وانما هناك فكر اسلامي آخر لا ينطوي تحت لوائهم ، ولا يتفق مع افكارهم ولا متاهجهم في العمل ، والعقاد يحرص على ابراز هذه الفكرة حتى يسقط حجة الاخوان في انهم وحدهم الذين يمثلون الاسلام ، وأن أي خروج عليهم هو خروج على الاسلام ، وهي دمسوة كانت السبب الاكبر في اتجاه الاخوان الى الارهاب والعنف ... فما داموا هم وحدهم الذين يمثلون الاسلام فكل خارج عليهم محكوم عليه بالاعدام . اما الفكرة الثانية التي تحمس لها العقاد وحرص على ابرازها - وهي فكرة صحيحة ودقيقة - فهي ان الاخوان المسلمين لم يحددوا موقفا واضحا من المسألة الوطنية ، فلم يدخلوا في أي حرب عنيفة او هادئة ضد الانجليز والاحتلال الانجليزي منذ نشأتهم سنة ١٩٢٧ وحتى قرار حلهم سنة ١٩٤٨ ، وهي نقطة كانت دائما تثير التساؤل حول الاخوان لدى أي باحث او مؤرخ ، وان كان شباب الاخوان قد شاركوا بعد ذلك وفي سنة ١٩٥١ في معارك الفدائيين المصريين ضد الانجليز في القناة .

يقول العقاد في مقال له بعنوان «صوت حكيم من شباب كريم» نشره في ٤ فبراير سنة ١٩٤٩ :

«وصل اليّ بيان بتوقيع شباب الازهر يعرب فيه كاتبوه عن رأيهم في اولئك «الخوان» الذين كانوا يسمون انفسهم بإخوان المسلمين ، ويعملون ما يتمنى الصهيونيون . وقد اعلن شيوخ الازهر الأجلاء حكم الدين الاسلامي في جرائم الفتك والارهاب التي تتابعتم من تلك الطغمة الباغية ، فلا جرم تأتي الخطوة الاولى في تقرير ذلك الحكم من شباب الازهر الذين يوكل

اليهم امر قيادة الدعوة في المستقبل القريب ، والذين يتجه اليهم اول ما يتجهون اولئك الدعاة الذين يستترون باسم الاسلام لقضاء مآرب واطماع يبرأ منها هذا الدين السمع الحنيف . ومما نغتب به ان نلمس في بيان الشباب الازهري دلائل الفهم الصحيح لموقف العاملين في القضية العربية، ودلائل الاطلاع على خفايا السياسة التي تحيط بتلك القضية» .

وبعد ان يشير العقاد الى ان شباب الازهر وهم في نظر الرأي العام ممثلو الاسلام الحقيقيون انما يرفضون الاخوان المسلمين وادعاءهم بأنهم وحدهم هم الذين يمثلون الفهم الصحيح للاسلام . . . بعد هذه المقدمة ينشر بيان شباب الازهر ويؤيد ما تضمنه هذا البيان بأن هناك مؤامرة شاملة على الامة يشترك فيها الاخوان . . . يقول بيان شباب الازهر كما نشره العقاد في مقاله :

«في شهر واحد قامت حركات متآزرة في جميع الدول العربية تهدف الى غرض واحد وهو التخلص من القادة المخلصين الذين يقفون من قضية فلسطين والعروبة موقف الإباء والكرامة فاضطرت الوزارة السورية برئاسة مردم بك الى الاستقالة ، ولحقت بها وزارة الباجهجي بالعراق ، وفي الوقت نفسه اندلع لهيب المظاهرات المسلحة بقيادة الاخوان المسلمين لاسقاط وزارة النقراشي باشا فلما عجزت اليد الاثيمة دفعت بمجرم من مجرميها الى اغتيال حياته الطاهرة وهو يصرف معركة لولا لطف الله لاودت بسلامة الوطن » .

ويعلق العقاد على بيان شباب الازهر فيقول :

«وانه لموقف يدعو الى العجب والالام حقا كما جاء في البيان ان تختار هذه الجماعة تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الكفاح العربي وجيشنا الباسل يخوض أعنف المعارك فريدا في الميدان لتقوم بهذا العمل الاجرامي» .

ثم ينتقل العقاد في تعليقه على البيان الى الملاحظة الهامة التي يشير اليها في هذا المقال وهي عدم اتخاذ الاخوان لاي موقف ضد الاحتلال الانجليزي . . . يقول العقاد عن الاخوان :

«وأدعى الى العجب ان الجماعة ظلت عشرين سنة لا تعمل في السياسة الوطنية شيئا على عهد الاحتلال وسطوته ، فلما ضعفت تلك السطوة وآل الامر للحكومات المصرية ظهر نشاطها وتعاقبت أحداثها وراحت تحارب هذه الوزارة وتهادن تلك الوزارة، ولا للمبادئ ولا للدين كانت خصومتها للأحزاب والوزارات كما جاء في البيان» .

ثم يقول العقاد بعد ذلك :

«واننا لنتنقل نقلة بعيدة عن هذا البيان الحكيم الى تلك الرسائل التي يكتبها الى أناس من تلك العصاة الاجرامية ليقتنعوني ببرهانهم الوحيد : برهان الشتم والتهديد بأن العصاة جديرة بالبقاء والسيادة على المسلمين . فمن تلك الرسائل رسالة يقول فيها صاحبها الذي أملاها : ان موقف الديوش - هكذا العربية من الجيش المصري انما هو مكيدة تواطأ عليها النقراشي باشا مع اليهود والحكومات العربية للقضاء على الجيش العربي في ميدان فلسطين» .

ويعلق العقاد على هذه الرسالة الاخوانية فيقول :
«ونقول ان الرسالة مملاة على كاتبها لما أشرنا اليه من ذلك الخطأ الفاحش في الهجاء» (١) .

«اما العقل الذي يتصور تلك الفرية فهو في الواقع أغبى من عقل الكاتب الذي لا يفرق بين الجيم والبدال في كتابة الجيوش» .
وينتهي العقاد مقاله بقوله :

«ان كان وجود واحد من هؤلاء نكبة كافية على أمة كاملة ، فالعزاء في تلك النكبة ان الأمة لم تخل من شباب راشد يعقل ويفهم ويأبى لدينه ان يوصم هذه الوصمة التي تبرأ منها الاديان ، وانه لعزاء يحق لنا ان نستلهمه من ذلك البيان» .

تلك هي خلاصة وافية لموقف العقاد من الاخوان المسلمين . وقد مس العقاد ولا شك عدة نقاط رئيسية وصائبة في نقده للاخوان ، فقد اكد على الطابع العدواني الارهابي لتنظيم الاخوان ، ورفضه واستنكره أشد الرفض والاستنكار ، كما أشار الى فهمهم المتعصب الضيق للاسلام واعتراض على ان يعتبروا انفسهم وحدهم ممثلين للاسلام بحيث يصبح كل خارج على نطاقهم خارجا على الاسلام . وأشار الى موقفهم السلبي من الاحتلال الانجليزي ، حيث انهم في المرحلة ما بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٤٨ لم يظهروا أي عداء للانجليز الذين كانوا يحتلون مصر في هذه الفترة .

كل هذه المآخذ الاساسية التي سجلها العقاد على الاخوان المسلمين كانت صحيحة في جملتها ، ولكن العيب الرئيسي في موقف العقاد من الاخوان هو انه حارب الاخوان من موقف حزبي ضيق كما أشرنا في بداية هذا الفصل . . . فالعقاد لم يلتفت الى أخطاء الاخوان التي كانت ظاهرة

. الخطأ هو كتابة الديوش - بالبدال بدلا من الجيوش .

بوضوح أمام أي مفكر مستنير خلال السنوات العشرين السابقة على سنة ١٩٤٨ ، وهو العام الذي اصطدموا فيه بالحزب السعودي ... حزب العقاد . وأخطاء الإخوان لم تظهر فجأة سنة ١٩٤٨ ، كما أن الحزب السعودي ، حزب العقاد ، قد ساهم في تدعيم أخطاء الإخوان ، وساعدهم على أن يخالفوا القوانين السائدة في البلاد ، وذلك عندما كان الحزب السعودي يجد في تقوية الإخوان وسيلة لضعاف الوفد ، حزب الأغلبية الشعبية ، ولقد كان السعوديون يريدون إضعاف الوفد لا من أجل صالح الوطن ، ولكن من أجل صالح الملك والانجليز ، ومن أجل مصلحة السعوديين الخاصة . لم يلتفت العقاد لأخطاء الإخوان الظاهرة قبل سنة ١٩٤٨ لأن الإخوان لم يكونوا يصطدمون بحزبه ، ولم يلتفت العقاد إلى أن من أسباب ظهور حركة الإخوان تحكم أحزاب الأقلية الرجعية وعلى رأسها الحزب السعودي الذي ينتسب إليه في أقدار البلاد ، مما خلق مناخا سياسيا مضطربا مليئا بالقلق ، فأحزاب الأقلية وعلى رأسها الحزب السعودي لم تستطع أن تحل أي مشكلة رئيسية من مشاكل كل البلاد ... لم تحل المشكلة الوطنية ولا المشكلة الاجتماعية ، ولم تسمح بحرية التعبير فسي البلاد ، مما خلق موجة واسعة من اليأس والسخط ، وفي ظل اليأس والسخط ظهرت حركة الإخوان بطابعها المعروف في تلك الفترة ... طابع العنف والارهاب والطاعة العمياء والتعصب . ولذلك كله فلا يمكن الحكم على العقاد بأنه كان يحارب الإخوان محاربة المفكر الوطني الديموقراطي لحركة متعصبة ضارة بالوطن ، لأن موقف العقاد السياسي في فترة محاربته للإخوان كان أسوأ وأشد خطأ من الإخوان أنفسهم ... فقد كان يقف في صف حكومة رجعية ارهابية من حكومات القصر هي حكومة السعوديين ، وهي التي ساهمت مساهمة كبرى في ضرب الحركة الوطنية في مصر بشتى اتجاهاتها بعد الحرب العالمية الثانية وفرضت الارهاب على سائر الفئات والطوائف والهيئات .

ولكن هذا كله لا ينفي أن العقاد قد استطاع أن يضع يده بعمق وذكاء على نقاط ضعف رئيسية في حركة الإخوان المسلمين ، وخاصة في مرحلة ازدهارها وانتشارها بعد الحرب العالمية الثانية ، رغم أنه - بحكم طبيعة معركته الحزبية المباشرة مع الإخوان - قد لجأ كثيرا إلى التشهير غير العلمي ، ورغم أن حزبه السعودي قد شارك بطرق مباشرة وغير مباشرة في تكوين جماعة الإخوان على تلك الصورة الخاطئة المنحرفة البعيدة عن التيار الوطني الاساسي ، وهي الصورة التي ظهر بها الإخوان بعد الحرب الثانية .

العقاد والحزب الوطني

أنشئ الحزب الوطني في ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وكان انشاؤه على يد الزعيم الكبير مصطفى كامل ، وقد جعل الحزب مبداه منذ البداية «الجللاء عن مصر» ، حتى لقد كان البعض يسمونه «حزب الجللاء» ، وقد توفي مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فتولى زمامة الحزب من بعده محمد فريد الى ان مات غريبا في برلين سنة ١٩١٩ ، وخلال هذه الفترة لم يكن هناك تناقض حاسم بين معسكر الحزب الوطني ، والمعسكر السياسي الذي ينتمي اليه العقاد ، فالوفد المصري الذي انتمى اليه العقاد بعد انشائه ، لم يظهر كحزب منظم في الحياة السياسية الا في سنة ١٩١٩ وقبل وفاة محمد فريد بقليل ، وان كان هناك شيء من النفور المبكر بين العقاد والحزب الوطني فانما يعود الى دعوة مصطفى كامل الى الارتباط بين مصر وتركيا ، حيث كان الزعيم الوطني يرى في ذلك وسيلة لضرب انجلترا ، وكان العقاد يرفض هذا الاتجاه ، ويميل الى الدعوة التي تنادي باستقلال مصر دون الارتباط بالخلافة التركية العثمانية .

وعندما بدأ العقاد يبرز في ميدان السياسة المصرية ككاتب شعبي له قيمته وتأثيره ، وذلك منذ سنة ١٩١٩ كان حزب الوفد المصري قد ظهر في الحياة السياسية المصرية وبدأ يلعب دوره بوضوح ، والحقيقة ان الحزب الوطني الذي قاد كفاح مصر حتى سنة ١٩١٩ قد تقلص دوره وتناقص بظهور الوفد المصري وقيادته الجديدة التي يمثلها سعد زغلول . ولم يكن ظهور الوفد وزعامة سعد هما فقط سبب ضعف الحزب الوطني ، بل كان هناك سبب آخر رئيسي هو وفاة محمد فريد الذي استطاع ان يملأ بقوة وجدارة مكانة مصطفى كامل الزعيم الاول للحزب . ولكن الحزب الوطني لم يستطع

ان يقدم للحركة السياسية في مصر زعامة من نفس القيمة التي كانت تتمثل في مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى العكس كان الوفد قد اجتذب ابرز العناصر في الحركة الوطنية في مصر وضمها الى صفوفه .

ولقد كانت هناك قبل ظهور الوفد معركة خافتة بين الحزب الوطني وبين سعد زغلول بدأت بهجوم من جانب مصطفى كامل على سعد عندما كان سعد وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٦ .

فقد كتب مصطفى كامل عن سعد زغلول بعد فشل سعد في الحصول على تأييد مشروع قدمه للجمعية العمومية يقول «... ان كل شيء من احوال سعد باشا وشؤونه يدل على شدة ميله الى السلطة ، فسعد باشا قد فشل فشلا عظيما في الجمعية العمومية ولو كان وزيرا أوروبا لكان قد استقال في الحال ، ولكنه وزير في مصر ، يعتقد ان ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته ، الا ان الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض لياسفون على حاضره كل الاسف ، وليخافون على ماضيه كل الخوف ، ويفضلون ماضيه كل التفضيل ، ذلك لان الوزير قائم الان على منحدر مخيف» (١) ... اما محمد فريد فقد اظهرت مذكراته سوء رأيه في سعد زغلول ، فقد قال عن سعد «انه يريد الوصول الى الوزارة على اكتاف الحزب الوطني» (٢) كذلك وصف محمد فريد سعد زغلول بأنه «انتهازي» ولا بد من «اخذ الموائيق منه قبل التعاون معه» (٣) .

وفي سنة ١٩٢٤ وقعت محاولة لاغتيال سعد زغلول وكانت هذه المحاولة على يد شاب اسمه «عبد الخالق عبد اللطيف» كان متأثرا بمبادئ الحزب الوطني وخاصة في دعوته الرئيسية «لا مفاوضة الا بعد الجلاء» وكان سعد يستعد آنذاك لمفاوضة الانجليز حول مطالب البلاد ، وقد اتهم الشاب الذي قام بمحاولة الاغتيال بالجنون وتبرا منه الجميع وأودع مستشفى الامراض العقلية ، ولكن محاولة الاغتيال تكشف مدى ما كان في صفوف الحزب الوطني من كراهية لسعد وعداء عنيف له .

وبعد وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ اخذت صحف الحزب الوطني تهاجم

١ - عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - ص ٤٠٧ .

٢ - عبد الخالق لاشين - سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ص ٢٠١ .

٣ - المرجع السابق ص ٥٦ .

سعدا وتحاول النيل منه وتتهمه باتهامات متعددة منها «اختلاس أموال الأمة» وغير ذلك من الاتهامات الغريبة (١) .

وإذا كان الحزب الوطني قد ضعف كحزب سياسي بعد سنة ١٩١٩ ، فإنه لم يضعف كتيار بارز في الفكر العربي المصري ، ومما جعل لهذا التيار أهمية واضحة أن أكبر مؤرخ ظهر في تاريخ مصر الحديثة في القرن العشرين قبل ثورة ١٩٥٢ وهو عبد الرحمن الرافعي كان من بين أنصار الحزب الوطني والمؤمنين بمبادئه وأفكاره ، وقد انعكست أفكار الحزب الوطني على كتابات عبد الرحمن الرافعي وخاصة بالنسبة لأحمد عرابي وسعد زغلول ، فقد هاجم الرافعي الزعيمين الكبيرين . . . وكان هجومه على عرابي مستمدا من هجوم مصطفى كامل عليه ، لأن مصطفى كان في أوائل هذا القرن متحالفاً مع الخديوي عباس حلمي الثاني بن الخديوي توفيق اندي ثار عليه عرابي ووقف ضده ، وكان مصطفى كامل يعتبر عرابي مسئولا عن الاحتلال وهي وجهة نظر خاطئة وغير سليمة ، وقد أخذ عنه الرافعي موقفه ضد عرابي ، أما بالنسبة لسعد فقد اعتبر «الحزب الوطني» أنه سرق من الحزب زعامته للحركة الوطنية ، ومن هنا كان الهجوم عليه في صحف الحزب الوطني ، وفي كتابات مفكري الحزب وعلى رأسهم عبد الرحمن الرافعي ، وأن كان هجوم الرافعي على سعد يكتسي بثوب الاحترام والموضوعية أكثر مما نجده في صحف الحزب الوطني ، ومصدر ذلك كله هو «عقدة الحزب الوطني» . . . وقد أثرت هذا الموضوع في كتاب سابق لي هو «أصوات غاضبة في الأدب والنقد» وذلك في التعليق على كتاب «عصر ورجال» لفتحى رضوان ، وهو أحد المفكرين المتأثرين بعقدة الحزب الوطني ، ورغم ما في الكتاب من قيمة وعمق ونضج ، فإن عقدة الحزب الوطني قد أثرت على ما أصدره الكاتب من أحكام تاريخية . . . وقد كتبت عن هذه النقطة «ص ٨٥ من كتاب أصوات غاضبة» أقول :

« . . . أن فتحى رضوان لا يسلم مما يمكن أن نسميه عقدة الحزب الوطني في الفكر المصري المعاصر . هذه العقدة التي تعتبر أن المقياس الوحيد للنجاح أو الفشل في خدمة الوطن هو : الاقتراب من مصطفى كامل أو الابتعاد عنه ، وهذه العقدة تعتبر كل المحاولات الثورية التي سبقت ١٩٥٢ حركات فاشلة جملة وتفصيلا بما فيها ثورة ١٩١٩ وأن هذه المحاولات كان

١ - عامر العقاد - صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١٥٥ .

يمكن ان تنجح لو عاش مصطفى كامل او محمد فريد . وعقدة الحزب الوطني في الفكر المصري من ناحية اخرى لا ترى خيرا على الاطلاق في شخصيات مثل سعد زغلول او لطفي السيد وتتهم الاثنين بالتعاون مع الانجليز والتساهل معهم . وعقدة الحزب الوطني هي نفسها التي سيطرت على فكر عبد الرحمن الرافعي وهو يؤرخ للحركة القومية في مصر فأفسدت نظرته الى كثير من الامور رغم العمل الفكري الجليل الذي قام به هذا المؤرخ الكبير . . . وفي ظني ان هذه العقدة هي التي حجبت عن فتحي رضوان رؤية جوانب كثيرة من ذلك العصر الذي ثار عليه في كتابه ثورة لا شك في صدقها وامانتها .

واهم ما حجبت هذه العقدة عن عينيه ان سعد زغلول مثل مصطفى كامل كان يمثل اجتهادا معينا في النضال المصري ، فكما كان مصطفى كامل يتعاون مع الخديوي عباس ويهاجم العربيين هجوما مريرا لا يمكن ان يقبله الحس الوطني براحة ضمير او اطمئنان بال ، كذلك كان مصطفى كامل يعتمد على الفرنسيين الذين كانوا يستعمرون بلادا عربية اخرى مثل الجزائر وتونس ، ويدعو لتركيا التي كانت تستعمر بلادا عربية اخرى استعمارا قاسيا مثل : سوريا ولبنان والعراق . . . مثلما اوصل الاجتهاد السياسي عند مصطفى كامل الى تلك المواقف كلها ، فان اجتهاد سعد زغلول السياسي وصل به الى قبول التعاون مع مصطفى فهمي كوزير في الوزارة التي يرعاها كرومر ، ووصل به الى الانصراف تماما عن اي دعوة للارتباط بتركيا ، كما جعله يعتمد على المواجهة المباشرة مع انجلترا دون الاعتماد على اي قوة دولية اخرى . . . سواء كانت هذه المواجهة لينة ام عنيفة .

والموقف التاريخي العادل هو ان ندرس تاريخ هذين الزعيمين ونحاول فهم ظروفهما المختلفة وسنجد أنفسنا متفقين معهما احيانا ومختلفين احيانا اخرى . . . اما الادانة الكاملة لسعد زغلول ، والولاء المطلق لكل مواقف مصطفى كامل ففيه ظلم ومبالغة وتجن على اجتهادات كل من الزعيمين الكبيرين ، وهي وجهة نظر لا يمكن التخلص منها ابدا فيما أتصور الا بالخلاص من عقدة الحزب الوطني ثم النظر للتاريخ المصري والنضال المصري كوحدة كاملة » .

هذه بعض ملامح عقدة الحزب الوطني في الفكر العربي المصري ، وهذه العقدة هي التي تصدى العقاد لها بقوة وعنف ، ومن هنا اصطدم العقاد بالحزب الوطني وصحافة الحزب الوطني بعد سنة ١٩١٩ ، والحقيقة ان العقاد استطاع ان يواجه عقدة الحزب الوطني بحجج قوية واسلوب عنيف،

حتى لنستطيع ان نقول انه كان اقوى الدين ردوا على آراء الحزب الوطني قبل ١٩٥٢ ، حيث تصدى بعد ذلك عدد من العلماء والمؤرخين الشبان لتفنيد آراء مدرسة الحزب الوطني والرد عليها .

ومنذ البداية حاول العقاد ان يبرىء مصطفى كامل ومحمد فريد من اخطاء الحزب الوطني ومن الآراء المختلفة التي يرددها أنصار هذا الحزب، وكان موقف العقاد استجابة للمكانة القومية الكبيرة التي يحتلها هذان الزعيمان في نفوس الامة ، حيث كان لكفاحهما العظيم مكان لا يمكن اهماله او تجاوزه ، بل لقد وصل العقاد الى حد القول بأن مصطفى كامل ومحمد فريد لا علاقة لهما بأنصار الحزب الوطني ، وأن هؤلاء الانصار هم آخر من يحق لهم ان يتحدثوا عن مصطفى وفريد .

يقول العقاد بأسلوبه الحاد العنيف المعروف عنه في معاركه السياسية: «وقد علمت هذه الشرذمة ما لها من حقارة الشأن وما لأحيائها من المهانة التي تلحق بالاموات . فهي لا تفتأ تستغل كرم النفوس والحزن على الداهيين لترغم مزاعمها وتستطيل بأكاذيبها والناس صامتون معرضون ، وبلغ فهمها للتضحية انها كانت كأنما تريد الا يموت احد ممن ينتسبون اليها او ممن تنسبهم هي اليها ، وإلا فكل من مات هو من شهدائها هي لا من شهداء الامة ولا ممن جرى عليهم قضاء الموت كما جرى على مئات من الاتحاديين والاحرار والدستوريين والوفديين . - لا بل كما جرى على الانجليز - في مختلف الظروف والاعمار .»

«وإنك لتعجب ما لهؤلاء ولمصطفى كامل مثلاً وليس هو منهم وليس هم منه ؟ وما لهم ولمحمد فريد وقد حاولوا تعريضه للقتل في الاستانة لانسه يطالب باستقلال وطنه ، ثم تركوه يموت في مستشفيات المانيا واخذوا المال الذي أرسل اليه فبددوه في حانات ايطاليا ومواخيرها ؟ وما لهم ولأمين الرافعي وقد تبرأ الرجل منهم مرتين عند تأليف الوفد وعند فصل صحيفة اللواء من الاخبار ؟ ولكن هذه الشرذمة كما قلنا تريد ان تستغل المسوت وتصنع في استجداء الثقة ما يصنعه السائلون الذين يقطعون ايديهم ليستجدوا بها العطاء » (١) .

وبعد هذه الكلمات المليئة بالتجريح والتي دأب العقاد على استخدامها في مناقشاته السياسية يتحدث العقاد عن بعض المبادئ الاساسية التي

١ - عامر العقاد - صفحات من معارك العقاد السياسية - ص ١٦٠ .

ينادي بها الحزب الوطني ويهاجم الوفد على أساسها مثل المبدأ الذي يقول «لا مفاوضة الا بعد الجلاء» يقول العقاد : «لم يكن مصطفى كامل زعيما لهؤلاء ولم يكن رجلا يجهل السياسة وظروفها لانه سافر الى بلد الانجليز اكثر من مرة ليفاوض النواب وغير النواب في القضية الوطنية ويشكو الى الانجليز سياسة كرومر موفدا من قبل الخديوي السابق عباس حلمسي الثاني ولانه ذهب في «مراعاة الظروف» الى حد لم يذهب اليه زعيم مصري قط ولا زعيم من غير المصريين ، فاشتراط ان تظل مصر «تحت السيادة العثمانية» وما علمنا من تسهيل يجوز ان يذهب الى هذا الحد في برامج الامم المطالبة بالاستقلال ...» (١) . ويندد العقاد بمبدأ «الحزب الوطني» الذي يرفض المفاوضة الا بعد الجلاء ، والذي على أساسها يهاجم أنصار الحزب الوطني سعد زغلول وحزب الوفد ... وهو المبدأ الرئيسي الذي عاش عليه الحزب الوطني حتى تم الفأؤه مع بقية الاحزاب سنة ١٩٥٣ .

يقول العقاد عن رفض الحزب الوطني للمفاوضات :

«بقيت المفاوضات والمحادثات او المعاهدات كما بسمونها» .

«فما هي الخطة التي يفرضونها على الامة فرضا لا تصرف فيه ولا تفكير ؟ ادين هي نزل من السماء فلا تبديل ولا محيد عنه ؟ اسياسة هي خفيت على العقول ولم يخلص الى سرها احد سواهم ممن قراوا تواريخ الدول ومارسوا حوادث الايام ؟ اما ان كانت دينا نزل عليهم وحيا فنحن نعلم ان محمدا عليه السلام فاوض الكفار وعاهدهم واخذ منهم واعطاهم بل نعلم انه كتب المعاهدة بينه وبينهم على الشروط التي املوها وكلها غنم لهم وغبن على المسلمين ، ففي صلح الحديبية وضعت الحرب بين النبي وقريش اربع سنوات على ان : ١ - من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده . ٢ - وان يرجع النبي من غير عمرة في عام الصلح ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة وليس معه من السلاح الا السيف في القراب والقوس . ولما أخذوا في كتابة هذه المعاهدة املى عليه السلام «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل لعلي بن ابي طالب بل اكتب اللهم ا فأمره النبي بذلك . ثم قال النبي : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : لو نعلم انك رسول الله ما خالفناك ، اكتب محمد بن عبد الله . فأمر عليه السلام عليا بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله

١ - المرجع السابق ص ١٥٦ .

فامتنع ، فمحاها النبي بيده ...»

ثم يقول العقاد :

«هذه مفاوضة بل معاهدة تمت بين النبي وكفار قريش ليس فيها شرط واحد يرضي المسلمين ، وليس فيها شرط واحد يخالف ما أملاه الكفار ، وما كان النبي أضعف منا ، ولا أقل اعتمادا على الحق أو على الله ، وما كان كفار قريش أقوى من الدولة البريطانية بما عندها من الجيوش والاساطيل ، فان كان لهذه الحثالة من قلول الحزب الوطني وحي غير هذا الوحي فليجهروا به ، فانهم يزعمون انهم هم المؤمنون ، وانهم بقية من سرايا الدين الحنيف خرجت في هذا الزمان لقتل الملحدين !» .
«والحقيقة ان «اللامفاوضة» هذه بدعة جديدة لم يقل بها احد من الشهداء السابقين ولا دخلت في برنامج الحزب الوطني الا حين رأوها صالحة لمعاكسة «العدو المبين» سعد زغلول وذريعة للمشاغبة عليه وعلى العاملين من أنصاره» (١) .

هذا هو رد العقاد على مبدأ «اللامفاوضة» الذي نادى به الحزب الوطني وحارب الوفديين على اساسه ، وكلام العقاد سليم ، وهو موقف سياسي مقنع ، فمبدأ رفض المفاوضة مع الانجليز الذين كانوا يسيطرون على كل شيء في البلاد مبدأ عاطفي ، لا يحمل اي اثر من مقومات التعقل او الواقعية او النضال السياسي السليم . وقد يتراءى للبعض ان يقارن بين مبدأ «اللامفاوضة» الذي نادى به الحزب الوطني في الكفاح ضد الانجليز ، ومبدأ «اللامفاوضة» الذي أجمع عليه العرب في كفاحهم الراهن ضد اسرائيل ... والحقيقة ان الفارق بين الامرين كبير ، ومن هنا كانت الدعوة الى «اللامفاوضة» مع الانجليز دعوة غير مقبولة ، بينما تبدو الدعوة الى «اللامفاوضة» مع اسرائيل معقولة ومقبولة ، بل هي الدعوة الوحيدة المعقولة في مواجهة دولة لها تركيب دولة اسرائيل ، ويكفي ان نسجل فارقا اساسيا بين بريطانيا واسرائيل ، وهو ان بريطانيا كانت تحتل مصر ولا تدعي ان مصر هي جزء من المملكة البريطانية ، او ان الشعب الذي يسكن وادي النيل هو شعب انجليزي ، بينما اسرائيل تقوم اساسا باقتلاع جذور شعب كامل هو الشعب العربي الفلسطيني لتضع مكانه شعبا آخر مهاجرا من بلدان أخرى ... فالاحتلال الانجليزي عمل غير مشروع من دولة

لها وجودها هي بريطانيا ، بينما الاحتلال الصهيوني هو عمل غير مشروع من دولة غير مشروعة هي اسرائيل ، والمفاوضة مع اسرائيل تعني الاعتراف بها ، والعرب - ومن حقهم ذلك بل من واجبهم ايضا - لا يعترفون بدولسة اسرائيل ، ولا بشرعية قيامها في هذه المنطقة .

من هنا كان منطق العقاد سليما في رفض مبدأ اللامفاوضة مع الانجليز ولا مجال للمقارنة بين اللامفاوضة مع الانجليز واللامفاوضة مع اسرائيل .

هناك نقطة أخرى رفضها العقاد من الحزب الوطني وهي دعوته الاولى الى ربط مصر بالخلافة العثمانية . . . ولم يكن العقاد يرفض هذه الدعوة فقط ، بل كان يرى انها كانت نوعا من التكتيك المؤقت عند مصطفى كامل ، وليست مبدأ من المبادئ ، كما كان يرى ان محمد فريد كان معارضا لهذه الدعوة .

كتب العقاد عن الشيخ عبد العزيز جاويز احد كتاب الحزب الوطني البارزين الذين كانوا يهاجمون سعد زغلول من موقع الايمان بمبادئ الحزب الوطني . . . يقول العقاد في كتابه «سعد زغلول - سيرة وتحية» ص ١٣٤ : «لا يفوتنا ان نلاحظ ان طريقي سعد وجاويز في الوطنية طريقان لا يلتقيان ولا يتجاوران . فسعد يعمل لاستقلال مصر بأيدي المصريين لتكون مصر للمصريين ، أما جاويز فتونسي مشمول بالحماية الفرنسية ، وهو من دعاة الخلافة العثمانية لا يريد لمصر الا منزلة الولاية التابعة من السيد المتبوع ، وقد كان من آماله في الحرب العظمى ان يتقلد فيها مشيخة الاسلام بعد فتحها على أيدي الجنود التركية ، فشقي بدعوته هذه ذلك الرجل النبيل الكريم محمد فريد رئيس الحزب الوطني . فانه كان معه في الاستانة ، وكان يدعو الى استقلال مصر ويتخذ له شعارا «مصر للمصريين» فكان لا يلقى من جاويز الا المكيدة والسعاية والتآمر عليه مع ضباط «تركيا الفتاة» الذين يستكثرون على مصر ان يعترفوا لها بالاستقلال ، وينوون ادخالها في حوزة الدولة العثمانية بولاية الصدر الاعظم سعيد حليم» .

فالعقاد يرفض تلك الفكرة التي نادى بها الحزب الوطني ، وهي فكرة الارتباط بين مصر وتركيا ، بل يرى ان محمد فريد كان معارضا لهذه الفكرة ، بينما كان مصطفى كامل يعتبرها وسيلة مؤقتة للخلاص من قيد الاحتلال الانجليزي ، أما من جاء بعد مصطفى كامل وفريد فهم ينادون بهذه الفكرة ويعملون لها سرا وعلانية . ولا شك ان فكرة الحزب الوطني في

الربط بين مصر وتركيا كانت مخطئة ، وكان ذلك سببا من اسباب انقراض الجماهير عن الحزب ، ولا شك ايضا ان محمد فريد كان لا يميل الى الرأي القائل بتحرير مصر من انجلترا لتحويلها الى ولاية عثمانية .

وقد ساهم العقاد في تعرية هذين المبدئين عند الحزب الوطني ... مبدأ «اللا مفاوضة» ومبدأ «الارتباط بين مصر وتركيا» ... واستطاع العقاد ان يكشف عما في هذين المبدئين من التهاافت والضعف وعدم الواقعية . على ان العقاد من جانب آخر لم يسلم في هجومه على الحزب الوطني من التشهير الذي يصل الى حد التجني والبعد عن الموضوعية ، فالعقاد مثلا لم يقدم اي دليل علمي لاثبات ما ادعاه من ان رجال الحزب الوطني قد تأمروا لقتل زعيمهم محمد فريد ، او انهم فضلوا الاستفادة بأموال الحزب في العبث واللهو على تقديمها لمحمد فريد اثناء مرضه ليستخدمها في العلاج ... ثم هذا الطعن - الذي يرتدي صورة اقليمية متعصبة وغسيرة سليمة في شخصية الشيخ عبد العزيز جاويز ومواقفه المختلفة لاسباب من بينها انه تونسي ... ولست ادري ما هي التهمة البتي تكمن في ان يكون الشيخ جاويز من تونس ..

مثل هذه الاتهامات والطعون المختلفة يسوقها العقاد دون ان يقدم عليها دليلا ثابتا او برهانا علميا يؤكد صحتها ، او يبررها تبريرا سليما ، مما يضعف مثل هذه الاتهامات ، ويجعلها نوعا من الشكوك والظنون التي لا سند لها .

ولقد كانت مواقف العقاد ضد الحزب الوطني عادلة في اساسها ، وكانت الافكار الرئيسية التي يدافع عنها صحيحة ، وكانت الحجج التي يعتمد عليها قوية ومقنعة ، ولكن أسلوبه في التشهير والتجريح كان لونا من الخروج عن دائرة المناقشات السليمة ، ولم يكن العقاد بحاجة الى هذا الاسلوب ليصل الى عقل الرأي العام ووجدانه ، بل لقد كان تخليه عن مثل هذا الاسلوب مما يزيده اقناعا وقوة .

بين الملك فؤاد والملك فاروق

تولى الملك فؤاد السلطة سنة ١٩١٧ بعد وفاة اخيه السلطان حسين كامل ، وتوفي فؤاد سنة ١٩٣٦ . وفي هذه الفترة كلها كان العقاد قد ظهر في الحياة الادبية والسياسية واصبح كاتباً لامعاً صاحب شعبية واسعة ، لا تدانيها شعبية كاتب آخر . ولعل مما يصور لنا مكانة العقاد في هذه الفترة ما كتبه الاستاذ محمد سعيد العريان في كتابه «حياة الرافعي» وكان العريان من تلاميذ الرافعي واصدقائه ، ومن هنا فان كلمات العريان بعيدة تماماً عن شبهة المبالغة او المجاملة ... لان الرافعي كان اكثر الادباء عداً للعقاد وهجوياً عليه .

يقول العريان :

«أصدر العقاد ديوانه «وحي الاربعين» في سنة ١٩٣٣ والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج ، وحكومة صدقي باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و«الوفد» ومن ورائه الامة كلها يجاهد حكم الفرد ، ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الاول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ، ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة وفي كل قرية، فلا عجب ان يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو ابلغ من كتب وأشعر من نظم ، حتى ليؤول امره من بعد الى ان ينحله الدكتور طه حسين بسك الوفدي المتحمس لقب أمير الشعراء ، تملقا للشعب ونزولاً على هواه ...» ثم يقول العريان بعد ذلك :

«ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيد الكتاب وأمير الشعراء او لا يكون . ولكن هذه كانت منزلته عند الشعب يومئذ ، فلا يعاديه احد الا

كان عدو الامة ، ولا يعرض له احد بالنقد في اي منشأته الادبية او السياسية الا كان في رأي الشعب «دسيسة وطنية» او صنيعة رجعية..» هذه هي كلمات «العريان» التي تكشف لنا بوضوح الى اي مدى وصلت اليه مكانة العقاد وقيمته لدى الرأي العام السياسي والادبي خلال تلك الفترة التي امتدت حتى سنة ١٩٣٥ وانتهت تماما سنة ١٩٣٧ بانضمام العقاد الى احزاب الاقلية الرجعية وبالذات الى حزب السعديين .

وفي هذه الفترة التي كان فيها العقاد هو كاتب الشعب الاول ، كان الملك فؤاد هو عدو الشعب الاول ، فقد كان الملك فؤاد يحاول ان يستند على الانجليز الذين جاءوا به الى العرش ، ووقع اختيارهم عليه دون غيره من ابناء اسرة محمد علي ، وكان فؤاد يعمل بصورة دائمة على الانفصال بالسلطة ويتآمر على دستور ١٩٢٣ ، ليجعل من نفسه مصدر السلطات ، بدلا مما ينادي به الدستور من ان الشعب هو مصدر السلطات ، وقد اصطدم الملك فؤاد بسعد زغلول ، واصطدم بعد ذلك بمصطفى النحاس ، وكان الملك هو الذي جاء بحكومة محمد محمود او حكومة اليد الحديدية سنة ١٩٢٨ ، ثم جاء باسمايل صدقي سنة ١٩٣٠ ، وبالتآمر مع اسماعيل صدقي تم تغيير دستور ١٩٢٣ ، وإصدار دستور جديد كان الاعتراض عليه من الامة اعتراضا شديدا ، وفي هذا الدستور الجديد زادت سلطات الملك الى ابعد الحدود ، ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على هذا الدستور من خلال عرض المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراعي له ، حتى ندرك ان زيادة سلطات الملك الى حد الاستبداد المطلق كانت هي الهدف من وراء هذا الدستور الجديد ، يقول الراعي في كتابه «في أعقاب الثورة المصرية» ص ١٣٣ عن «قواعد دستور صدقي باشا» :

«يتجلى في دستور صدقي باشا طابعه الرجعي ، فقد أهدر سلطات الامة في مواضيع كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ - انه اعتبر الدستور منحة من الملك ، وهذا معناه ان للملك ان يلغى الدستور كلما يشاء ، مع ان دستور ١٩٢٣ هو تعاقد بين الملك والامة لا يملك الملك فسخه .

٢ - انه جعل الدستور الجديد غير قابل لأي تعديل مدى عشر سنوات .
٣ - انه قيد المسؤولية الوزارية اي حق مجلس النواب في الثقة او عدم الثقة بالوزارة - وهو جوهر النظام الدستوري - قيده بقيود تجعل استعمال هذا الحق متعلدا بل ممتنعا فعلا .

٤ - جعل الاعضاء المعينين في مجلس الشيوخ ثلاثة أخماس المجلس وبذلك

خول للحكومة تعيين اقلية اعضائه خلافا لما يقضي به دستور سنة ١٩٢٣ اذ يجعل الاعضاء المعينين الخمسين والمنتخبين ثلاثة أخماس .

٥ - جعل للملك حق ائمال اي قانون يقره البرلمان .

٦ - جعل للملك وحده تعيين شيخ الازهر وغيره من الرؤساء الدينيين ، في حين ان دستور ١٩٢٣ جعل تعيينهم وفقا للقانون ، وهذا القانون جعل للوزارة حمل المسؤولية في ذلك .

٧ - ينص دستور سنة ١٩٢٣ «المادة ٤٠» على ان الملك يدعو البرلمان لاجتماع غير عادي متى طلبت الاقلية المطلقة لاعضاء اي المجلسين ، ولكن دستور صدقي جعل هذه الدعوة عند الضرورة ، ومعنى ذلك ان للملك تقدير هذه الضرورة فله ان يهمل طلب الاقلية الدعوة الى اجتماع البرلمان .

هذه بعض مبادئ الدستور الذي اعلنه صدقي بدلا من دستور ١٩٢٣ ، وكل هذه المبادئ لها هدف واحد هو تأكيد سلطة الملك فؤاد وتدعيم استبداده .

وكان من الطبيعي ان يقف العقاد كاتب الوفد وكاتب الشعب الاول آنذاك في وجه هذا الدستور ، وفي وجه الملك فؤاد ، عدو الدستور وعدو الشعب .

وقد وقف العقاد بلا تردد في وجه الملك فؤاد ، وهاجمه في البرلمان سنة ١٩٣٠ بعبارته المشهورة «ان الامة على استعداد لسحق اكبر رأس في البلد يحاول ان يعيث بدستور البلاد» .

وكان اكبر رأس في البلد هو رأس الملك فؤاد .

وقد حاول الملك ان يلغي الدستور ونجح في ذلك على يد اسماعيل صدقي .

ووقف العقاد وكان يعمل أيامها في جريدة «المؤيد الجديد» ليهاجم حكومة صدقي ويهاجم من ورائها الملك فؤاد . ونشر العقاد في هذه الجريدة عددا من المقالات الهامة ، وهي المقالات التي أدت به الى السجن كما شرحنا ذلك في الفصول السابقة من هذا الكتاب .

وقد كان هذا الموقف من جانب العقاد واحدا من اشجع مواقفه السياسية ، واكثرها جراءة ووضوحا وارتباطا بالشعب ، وقد كان الثمن الذي دفعه العقاد هو دخوله السجن بتهمة العيب في الدات الملكية ، كما جاء تفصيل ذلك في الفصول السابقة .

وهكذا نجد ان العقاد قد وقف على طول الخط موقف المعارضة من

الملك فؤاد ، وارتبط على الدوام بالمعسكر السياسي الشعبي الذي كان يعارض الملك ويحاول ان يحد من سلطانه ، وأن يدعم سلطان الدستور والشعب . ولا شك أن موقف العقاد من الملك فؤاد هو صفحة مشرقة ومشرقة في حياته السياسية ، بل هو صفحة من المع صفحات النضال السياسي في تاريخ كتاب مصر المعاصرين .

مات الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ ، وتولى العرش بعده الملك فاروق ، وكان العقاد قد خرج من الوفد وبدأ مرحلة جديدة في حياته ، ارتبط فيها بأحزاب الاقلية التي قضى عمره حتى ذلك الحين وهو يحاربها أعنف الوان الحرب . وكانت احزاب الاقلية تعتمد على الملك ، لانها لا تحظى بالتأييد الشعبي ، وكان الملك فاروق تحت تأثير مستشاريه وعلى رأسهم علي ماهر وأحمد حسنين ، يدعم احزاب الاقلية ، لكي يسيطر من خلالها على السلطة، وينفرد بها ، ولكي يقضي على نفوذ الوفد وعلى شعبيته الواسعة التي تهدد سلطانه على الدوام .

ومع الملك فاروق يختلف موقف العقاد .

ان العقاد يؤيد فاروقا لانه أصبح ينتمي الى احد احزاب الاقلية المستندة الى الملك ، وهو حزب السعديين ، وتتحول مواقف العقاد ، فبعد ان كان يعارض الحكومات الرجعية التي تعتمد على الارهاب في الحكم يقف مدافعا عن هذه الحكومات مناصرا لها ، ويتحول الى شن حربه على الوفد، وعلى القوى الوطنية التي تقف في وجه الملك فاروق ، وتقف في وجهه احزاب الاقلية .

ومن خلال ما كتبه العقاد عن الملك فاروق نحس بمدى التحول الذي طرأ على موقف العقاد السياسي وعلى ثورته واندفاعه الشريف في معارضة الاستبداد السياسي ، كما كان موقف العقاد من الملك فؤاد .

كتب مرة يصف لقاء تم بينه وبين الملك فاروق يقول :

«انني لم أسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لاستجلاء طلعة الملك عن كذب ، والاصغاء الى جلالته على انفراد ، في جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث ، لانه جو الملك والديمقراطية ممثلين في شخصه الكريم أجل تمثيل ، مجتمعين في سماعه وكلماته وارشاداته احسن اجتماع ، لقد سمعت في هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف ، وكلام وطني غيور، وكلام منحدث ظريف، وطاف بخاطري ذكر الايمان وذكر الوطن» (١) .

وكتب العقاد أيضا في جريدة البلاغ سنة ١٩٣٧ عن الملك يقول :
«من نصر الملك فقد نصر الحق ونصر الامة ومن تولى فعليه لعنة الحق
ولعنة الامة » .

وهذا كلام يتناقض تماما مع روح الثائر المتمرد عباس العقاد ، ومع
هجومه العنيف في سنة ١٩٣٠ على الملك فؤاد . وقد كان الملك فؤاد اقوى
في شخصيته وفي مواقفه السياسية بكثير من ابنه الملك فاروق الذي كان
ما زال سنة ١٩٣٧ صبيا صغيرا في السابعة عشرة من عمره . . . لقد
هاجم العقاد الملك فؤاد في البرلمان وهدد بسحق رأسه ، وهو الان - في
سنة ١٩٣٧ - يرى ان مناصرة الملك فاروق مناصرة للحق وللامة وان من
لا يناصر الملك تحق عليه لعنة الحق ولعنة الامة .

وبعد عودة النقراشي من عرض قضية مصر على مجلس الامن سنسنة
١٩٤٧ يكتب العقاد قصيدة يمدح فيها الملك فاروق لانه كرم رئيس وزرائه
ورئيس الحزب السعدي الذي ينتمي اليه العقاد . . . يقول العقاد في مدح
فاروق متحدثا عن مصر وحبها للملك ، والقصيدة من ديوان العقاد « بعد
الاعاصير » :

وما اتخذت غير فاروقها	عمادا يحاط وركنا يؤم
ولا عرفت مثله في العلا	صديقا يشاركها في القسم
فدته البلاد وفدى البلا	د بعالي التراث وعالي القيم
ملك يلوذ به عرشه	وكم ملك بالعروش اعتصم
وذو علم تستظل الملو	ك باعلامها ويظل العلم
وراع رعيته عزه . . .	اذا عز بالصخر باني الهرم
أبى الملك الا كما شاءه	منيع الجوار رفيع الدعم

ويروي الاستاذ فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» ص ٢٢٦ هذه
القصة عن العقاد فيقول :

« . . . رأيت العقاد في احدي انفجارات غضبه ، في دار جريدة البلاغ
في سنة ١٩٣٨ ، في أعقاب اقالة الوزارة الوفدية النحاسية ، التي وليت
الحكم بعد ابرام معاهدة ١٩٣٦ ، وكان الظن عند الوفديين انه لم يعد بعد
هذه المعاهدة للملك من السلطان ما كان له من قبل ، وأن الانجليز عظيمو
الشعور بجميل الوفد ، لانه هو الذي احتمل اكبر المسؤولية في ابرام هذه
المعاهدة ، بحكم كونه صاحب الاغلبية في البلاد ، وانهم لذلك سيطلقون يد

الوفد في البلاد ويؤيدونه ضد الملك . ولكن الملك فاروقا ، بتأثير من حوله من مستشاريه ، وفي مقدمتهم علي ماهر ، تخلص من النحاس ، بعد حملة صحفية حامية قامت بها جريدة البلاغ وجريدة مصر الفتاة ، ورأى الملك ان يعبر عن تقديره للذين ساهموا في هذه الحملة فمنح عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ رتبة الباشوية ، ولم يظفر العقاد بشيء . ولو لم يكن العقاد شديد الحساسية ، لادرك بالضبط دافع الملك ومن وراء الملك على هذا التصرف .

ثم يقول فتحي رضوان ان عدم مكافأة العقاد ترجع - في نظر الملك فاروق ومستشاريه الى موقفه القديم من الملك فؤاد والى هجوم العقاد ضد علي ماهر مستشار الملك خلال السنوات التي ارتبط فيها العقاد بالوفد ويعلق فتحي رضوان على ذلك كله بقوله :

«كان العقاد جديرا بأن يعرف ان الملك فاروق وقد سب هو أباه وان مستشار الملك وقد سبه كذلك ، لا يحب ان ينسب له اساءته لهما ، وأن يمنحاه رتبة الباشوية او البكوية ، وكان اليق به ان يتجمل بضبط النفس ، ولا يثور ثورة مضرية لحرمانه من اللقب ، وهو الاديب الذي يزهو بمكانته الادبية بين مواطنيه ، وبغزة القلم ، وسلطان اهل الفكر ، ولكن العقاد لم يبذل جهدا في اخفاء غضبه بل انه اسرف في اظهاره الى حد بلغ معه صوته آخر الدار . ولست أنسى منظر العقاد وهو يقول : قد تقولون ان الاديب في غنى عن الالقاب ، ولكن اما وقد منحت الدولة للادباء القابا ، ففيم حرمان العقاد وحده ؟ اذا كان اللقب قد منح للمكانة فمن هو الذي يفضلني مكانة ، واذا كان للمساهمة في محاربة الطغيان الوفدي فاي قلم حارب الطغيان محاربتني له ؟»

هذه هي القصة التي يرويها فتحي رضوان ، وهي تدلنا على مدى التحول الذي حدث في موقف العقاد وشخصيته لقد أصبح العقاد يكتب في السياسة من اجل الجزاء والمكافأة ، ولم يعد يكتب من اجل المبدأ فقط ، وهو الان ينتظر ثوابا من الملك فاروق ، وقد كان من قبل يهاجم أباه الملك فؤاد ويتحداه ويلعنه ولا يعاب بدخول السجن في سبيل اعلان موقفه ضده . لقد أصبح العقاد مرتبطا بحزب يرتبط هو الآخر بالملك ويستند اليه ومن هنا كان هذا التحول الغريب المؤسف في موقفه . على ان العقاد يصل أحيانا في حديثه عن الملك فاروق وفي دفاعه عنه الى حد بعيد من التملق والنفاق ، فقد كتب عن الملك فاروق سنة ١٩٥١ اي قبل قيام الثورة بحوالي عام وفي قمة المد الثوري الشعبي ، وذلك بمناسبة

الزواج- الثاني لفاروق من ناريمان ... كتب العقاد مقالا بعنوان «سنة الديمقراطية في زواج الملك فاروق» نشرته مجلة الهلال في عددها الصادر في مايو ١٩٥١ ، ولم يكن العقاد مضطرا لكتابة مثل هذا المقال. فقد كان حزبه السعدي خارج الحكم ، وكان الراي العام الشعبي معارضا أشد المعارضة للملك فاروق في تلك الفترة ، وكانت سمعة فاروق ومكانته الشعبية في الحضيض ، والمناسبة نفسها لم تكن مناسبة تستحق ان يكتب فيها العقاد ، ومع ذلك فقد كتب هذا المقال الذي يعتمد على ومضات مختلفة من ثقافة العقاد ومعرفته بتقاليد الشعوب وعاداتها في مختلف العصور، ولكن المقال من الناحية السياسية والفكرية والخلقية يكاد يكون «سقطه» من سقطات العقاد ، والعقاد ، حتى في هذه المناسبة لم ينس عداءه الشديد للمذاهب الاشتراكية ، فاتخذ من زواج فاروق من فتاة ليست من الاسرة الملكية فرصة للطعن على الافكار الاشتراكية ، بحجة انها كانت افكارا هدامة وأن الملك فاروق يعطي نموذجا يثبت ان هذه المذاهب لا قيمة لها ولا اهمية ... يقول العقاد في مقاله «مجلة الهلال مايو ١٩٥١»: «وتشاء العناية لصاحب عرش مصر ان يرعى سنة الديمقراطية ، ويجدد سنة الاسلام باختيار مليكة شعبية من كريمات شعبه ، فلا حاجز من حواجز النسب بين الراعي والرعية ، ولا محل لهذه الحواجز نفسي المجتمع كله بعد ارتفاعها بين بيت الملك وسائر البيوت المصرية ، وانها لسنة تحمدها الامم في كل آونة ، ولكنها احمد ما تكون حين تثار حرب الطبقات، كما تثار اليوم بين أرجاء العالم على السنة طلاب الفتنة. ودعاة الوقيعة ، فلا تنهض لهؤلاء الدعاة حجة حيث يتصل النسب من العرش الى بيوت رعاياه ، ومن هذا العنوان الساطع تسري القدوة الحكيمة الى صفحات الكتاب كله فلا تدع فيه بمشيئة الله حاجزا حائلا بين طبقة وطبقة ولا بين عامل وعامل فيما يستحقون » .

وعما قريب يحتفل العرش المصري بربه وربته ، فيعلو الدعاء الى مالك الملك ورب الارباب ان يسعد الجالسين عليه وأن يجعله سعودا شاملا لهذه الامة في الحال والمآل » .

ويبدو هذا المقال الذي كتبه العقاد نوعا من «النفاق الثقافي» - اذا صح التعبير - للملك فاروق ، في وقت لم يكن فيه الملك موضع احترام احد ولا لثقة احد . فالمقال مليء بالمقارنات الثقافية عن الحضارات القديمة والحضارات الجديدة والعصور الوسطى ، والعصور الحديثة ، وما كان فيها من تقاليد مختلفة في نظام الزواج وبناء العائلة ، والعقاد يخلص من

ذلك كله بأن فاروق في زواجه من ناريمان انما يمثل « الديمقراطية السليمة » .

والعجيب ان العقاد قد كتب سنة ١٩٣٨ مقالا عن الزواج الاول لفاروق من فريدة ، وردد بعض المعاني المشابهة لمقاله عن زواج فاروق من ناريمان ، حيث يقول العقاد في مقاله القديم «زواج ملكي - مجلة الرسالة في ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨» :

«... والامة المصرية تبتهج بزفاف الملك فاروق حفظه الله وادام ايامه ليتم الاطلاع على الفارق بين تقاليدنا وتقاليد الغربيين في هذه الشؤون ، فقد فرض العرف القديم وفرضت المواقف السياسية قيودا على ملوك الغرب لا محل لها من العادات الاسلامية والشرقية ، ومن ثم كان زواج الملوك المصريين اقرب الى الديمقراطية والى الحرية والى المعاني الانسانية مما يكون بين الامم الغربية ، وهي فيما توحيه الظواهر مهد الحرية في مسائل الزواج » .

فالملك فاروق - في نظر العقاد - ديموقراطي بزواجه من فريدة سنة ١٩٣٨ .

والملك فاروق - في نظر العقاد ايضا - ديموقراطي بزواجه من ناريمان سنة ١٩٥١ .

وما أرخص الديمقراطية اذا كانت هذه هي علامات الديمقراطية . على ان العقاد سنة ١٩٣٨ كان له بعض العذر ، فقد كان الملك فاروق آنذاك ما زال موضع الرعاية الشعبية والعطف الجماهيري كما ان مقال العقاد القديم عن الزواج الملكي كان مقالا طريفا وذكيا حيث بناه اساسا على ترجمة فصل من مسرحية للكاتب الانجليزي لورنس هوسمان تقوم فيه المناقشة بين اللورد ملبورن والملكة فكتوريا حول مسألة الزواج الملكي ، وفي هذا الحوار الطريف تنكشف تلك الروح الاجتماعية المحافظة في انجلترا ، والقيود الصعبة التي توضع حول زواج الارستقراطية الانجليزية ، وهذا نموذج من الصفات التي يحددها اللورد ملبورن لزواج الملكة ، كما جاء في الفصل الذي ترجمه العقاد من مسرحية «هوسمان» :

«... من الواجب اولا ان يكون «الزوج المنشود» من سلالة ملكية ، ومع هذا يجب الا يكون وازنا مباشرا او مرجحا لعرش الملك والامارة . لان وراثته ربما جرت المشكلات السياسية . والقرين اللائق بصاحبة الجلالة ينبغي فوق عراقتة الملكية وبعده عن وراثة العرش ان يكون اميرا من بيت لا هو بالصغير المفرط في الصغر ، ولا هو بالخطير المفرط في العظم ، اذ لا

مناص لنا من اجتناب المحالفات المعقدة ، وينبغي ، بعد هذا ان يدين بالعقيدة البروتستانتية . ثم ينبغي ايضا ان يكون شابا كي يصبح قرين حياة لصاحبة الجلالة . ولا بد من العثور على احد قادر بعد الاصطباغ بالصبغة الانجليزية ان يقتبس عاداتها ومشاربها ، ويجمل به فوق ما تقدم يا مولائي ان يملك بعض الثروة وان لم تكن عظيمة ، فان البرلمان سوف يتكفل بما هو لازم ، وأن يكون صاحب سمعة لا تليق بمقامه ، وأن يكون على جانب من العقل ولكن على غير جانب عظيم منه اذ لا يحق له ان يتعرض لشئون السياسة » .

ويعلق العقاد على هذا الحوار الطريف بعد ترجمته ليستنتج منه ما سبق ان اشرنا اليه من نتائج تقول بأن الزواج الملكي في مصر أقرب الى الديموقراطية من الزواج في بلاط الانجليز . ويبدو هذا المقال القديم اكثر عمقا وذكاء من مقال العقاد عن الزواج الثاني لفاروق حيث يدور هذا المقال الاخير على التمجيد المباشر لفاروق في غير موضعه وفي غير مناسبته ، وعلى تكرار ما كان يدعيه فاروق من تمسك بالدين وايمان بالاسلام ، للارتفاع بشأنه لدى الجماهير . ومن هنا نبيح لانفسنا ان نقول ان العقاد في مقاله عن زواج فاروق من ناريمان هو «سقطه» لا شك فيها من سقطات العقاد .

واذا كان موقف العقاد من الملك موقفا ضعيفا ، ولا احد يملك ان يدافع عنه او يبرره ، واذا كان هذا الموقف هو جزءا من الانحراف السياسي العام للعقاد ، منذ سنة ١٩٣٧ حيث ابتعد عن الجماهير الشعبية والرأي العام الوطني ، ليرتبط بنتخبة قليلة من السياسيين الذين قد يتمتعون بالامتياز كأفراد ، ولكنهم كانوا في حقيقتهم مرتبطين بالملك والانجليز وسائر القوى المعادية للحركة الوطنية في البلاد اذا كان هذا كله صحيحا بالنسبة لموقف العقاد من فاروق ، واذا كان هذا كله امرا لا يمكن الدفاع عنه ولا يمكن تبرئة العقاد منه ، الا ان الانصاف للعقاد يقتضي منا ان نضع امامنا بعض العوامل المخففة في الحكم على موقف العقاد ، وان كانت هذه العوامل لا تبريء العقاد ولا تنفي عنه الادانة .

من هذه العوامل المخففة ان الملك فاروق كان يحظى في بداية عهده بنوع من العطف الشعبي مصدره انه صغير في السن ، وأنه فقد أباه في هذا السن الصغير ، حيث ان والده مات وهو في السادسة عشرة من عمره ، وهذا العامل العاطفي له في العادة تأثير كبير على شعب مصر ، فهو شعب يتأثر بهذه العواطف الانسانية اشد التأثر ، ومن ناحية أخرى فان الملك

فاروق قد حاول في البداية ان يحيط نفسه بهالة دينية ، فكان يحرص على صلاة الجمعة كل اسبوع وسط جماهير الشعب في جامع من الجوامع ، وكان يحيط نفسه وقصره في رمضان بمشاهير قراء القرآن وبرجال الدين الذين يقرأون عليه بعض الدروس الدينية ، وكان لهذا العامل الديني ايضا تأثيره على نفسية الجماهير الشعبية التي تتأثر دائما بشعورها الديني وتبستگی له .

على ان الملك فاروق قد حظي من ناحية أخرى ببعض العطف الشعبي بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، حيث حاصر الانجليز بدباباتهم قصر مابدين ، وفرضوا على الملك تأليف وزارة وفدية ، وكانت صورة «الملك» في ذلك الحين هي انه معارض للانجليز ، مما اكسبه بعض الشعبية لدى الرأي العام .

على ان هذا كله قد تبدد في السنوات التالية لسنة ١٩٤٢ ، بعد ان بدأ الناس يكشفون اكاذيب الملك ، ويحسون بما في حياته من انحلال ونزوات وبعد عن المسئولية ، كما ان الجماهير الشعبية ادركت ان الملك بطبيعة موقفه السياسي والاجتماعي لا يمكن ان يقف في صف الحقوق الصحيحة للمواطنين ، فالملك يريد ان يحكم وحده ، وهو يريد ان ينمي ثروته الكبيرة ، ومثل هذه المطالب تتناقض تماما مع مصالح الشعب . ومن العوامل المخففة ايضا بالنسبة لموقف العقاد من الملك فاروق ، ان كثيرين من كبار ادياء مصر المعاصرين للعقاد قد كتبوا عن فاروق ووقفوا الى جانبه - صادقين او متظاهرين بالصدق - وأبرز هؤلاء جميعا طه حسين الذي خطب مرارا في مدح فاروق ، وفي التعبير عن الولاء له ، ولعل أبرز خطبة له في هذا المجال هي خطبته في الاحتفال بمرور ربع قرن على انشاء جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ففي هذا الخطاب تمجيد بالسف لفاروق ولوالده الملك فؤاد . بل ان سلامة موسى وهو الكاتب التقدمي الاشتراكي قد ساهم في مدح الملك فاروق وكتب عنه وعن أسرته عددا من المقالات .

ولعل هذا العامل ، وهو مشاركة كثيرين من الكتاب في مدح الملك فاروق لا يجوز ابدا ان يكون سببا كافيا لتبرئة العقاد من اندفاعه في مدح فاروق ... فالخطأ لا يبرر الخطأ وكل الكتاب الذين مدحوا فاروقا كانوا مخطئين في موقفهم ، ومن ناحية أخرى فان المقارنة بين موقف العقاد المتخاذل من فاروق وموقفه الشجاع من فؤاد تدين العقاد وتدفعنا الى مؤاخذته بالقياس الى ماضيه المشرف .

والعامل الاخير الذي يمكن ان يخفف من خطأ العقاد في دفاعه عن فاروق هو ان العقاد لم يكن من محترفي مدح فاروق ، مثل بعض الادباء والشعراء المعروفين في مصر ، ولكنه كان يكتب عن فاروق في مناسبات متفرقة تقتضيها بعض الظروف والضرورات من وجهة نظر العقاد .
ومجمل ما كتبه العقاد في مدح الملك فاروق لا يزيد عن بضع صفحات من انتاجه الفزير .

على ان العقاد قد غير موقفه من فاروق تغيرا كاملا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فسارع الى الهجوم عليه وتحليله كمريض نفساني ، بل لقد كان هذا التحليل نوعا من التمزيق لشخصية فاروق .
وهذا نفسه يدين العقاد مرة اخرى .

فما دامت خطايا فاروق واضحة امامه بهذا الشكل الذي كتب به بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فلماذا استسلم لمدحه من قبل على هذه الصورة الخاطئة التي رأيناها ؟... تلك مسئولية للعقاد ، وخطأ من أخطائه التاريخية لا بد من تسجيله عليه .

كتب العقاد مقالا يدل على فهم دقيق لشخصية فاروق وهو بالتالي يؤكد مسئولية العقاد في دفاعه السابق عن فاروق ... يقول العقاد في مقال بعنوان «الجيش وقائده» من كتابه «دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية» ص ٢٢٤ : «لا نعتقد ان فاروقا كان يعقل ان يضع لنفسه سياسة يحمي بها عرشه ويوطد دعائم ملكه ، ولكنني أرجح انه تلقى من ابيه وصية مكتوبة او محفوظة تلخص له قواعد السياسة التي اعتمد عليها لحماية العرش وتوطيد دعائم الملك ، ومنها الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ، وقد كان ابوه يحاول الاحتفاظ بولائهما غاية ما وسعه ، ولم يكن وسعه بالقليل » .

ثم يسجل العقاد ان فاروقا لم ينتفع بهذه الوصية فيقول :
«كل ما فهمه فاروق من الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ان يفرض على كل منهما اعوانا او اذنابا يخدمونه ويخدمون مصالحهم في وقت واحد» .
ثم يشير العقاد الى حرب فلسطين فيقول عن فاروق :

«ما زال به الجهل حتى أصبح اذنابه واعوانه حمى له من الجيش ، وهم اعجز من ان يحموا انفسهم لو لم يعتمدوا عليه ... وصل فاروق الى هذا الموقف قبل حرب فلسطين ، فلما تكشفت تلك الحرب عن فضائح السلاح لم يبق في الجيش المصري ضابط ولا جندي يضمن الولاء للملك المجرم الذي بلغت به الضعة والعياذ بالله ، ان يتجر بأرواح جنده وهم في ساحة

القتال » .

وهذه الكلمات التي يكتبها العقاد عن فضائح الاسلحة الفاسدة كانت معروفة للجميع سنة ١٩٥٠ في وزارة الوفد الاخيرة ، وكان العقاد يعرفها قبل ذلك ولا شك ، لانه كان عضوا في مجلس الشيوخ ، وكان عارفا بكثير من خفايا السياسة المصرية . . . ومع ذلك كتب العقاد مقاله عن ديمقراطية الملك فاروق وتمسكه بمبادئ الاسلام في مايو ١٩٥١ . . . والدليل على الديمقراطية والتمسك بمبادئ الاسلام هو الزواج من ناريمان التي ليست من أسرة ملكية بل من أسرة عادية من ابناء الشعب !!

ويعود العقاد في مقال آخر للحديث عن الملك فاروق بعد ثورة ١٩٥٢ فيكتب بعنوان « ملكان ومرضان » ، وفي هذا المقال يستخدم منهجه المفضل لديه في التحليل النفسي الفردي للشخصيات من الداخل بدلا من النظر الى الظروف والاضاع الاجتماعية بالاضافة الى العوامل الخارجية . يقول العقاد في هذا المقال «دراسات في المذاهب الاجتماعية والادبية صفحة ٢٣٩ » :

«نزل طلال ملك الاردن عن عرشه لمرض اصابه ، وقيل عن هذا المرض انه داء الفصام الذي يعرفه الاطباء النفسانيون في اوربا وأمريكا بأسماء متعددة منها الشيزوفرانيا والخرف المبكر » .

«وقبل ان يصل الملك طلال الى القاهرة للعلاج في مستشفياتها لحق به ملك مصر نفسها ونزل عن العرش لاسباب غير اسباب المرض ، وهي استجابة لرغبات الامة أعرب عنها الجيش في بيانه» .

«على ان فاروق لم ينسلم من مرض نفسي كمرض طلال او من قبيله . . واكثر الذين يقرأون الدراسات النفسية من غير الاطباء - ونحن منهم - يطبقون ما قرأوه على اخباره وأطواره فيجدون انها تنطبق تارة على جنون القسوة «سادزم» وتنطبق تارة على جنون السرقة «كليبثومانيا» وتنطبق تارات على جنون الشهوة «ساتيريسز» ولا تعوزهم الادلة على نوع من هذه الانواع » .

ولكن العقاد يخلص من هذه الافتراضات بتحديد المرض الاصيل في شخصية فاروق فيقول في نفس المقال :

«ان المرض الاصيل الذي غلب على طبيعة فاروق فيما نعلم هو «توقف النمو» ، وتتفرع عليه حالة تسمى بحالة التشبث ، وقد كانت ظاهرة الاعراض على فاروق» .

«وتوقف النمو هذا مرض كثير الشعب متعدد المقاييس . . . ومن أشد

آفات هذا المرض ان يكبر الرجل ولا يزال شعوره نحو ابيه خاصة شعور الطفل نحو الاب الذي يعوله ولا يقوى على فراقه . . . ومما لا شك فيه ان فاروقا كان مصابا بهذه الآفة على أشدها ، وكانت غرائبه كلها تدور عليها ، فقلما حدث حادث سياسي الا ذكر فيه أباه ، وقلما تكلم عن مشروع الا اشار فيه الى رغبات ابيه ، وقلما عرضت مناسبة الا ذهب فيها لزيارة ضريحه وبكى عنده او تباكى بعد الوفاة بسنوات» .

«هذه الآفة من شأنها دائما ان تشعر صاحبها بقصوره وتلعج نفسه «بمركب النقص» الذي يدفعه الى اظهار القوة واظهار القسوة والشك في كل احد غير محور «التشبث» كأنه يتهمهم جميعا ولا يلقي باعتماده الباطن كله على غير هذا المحور» .

ويستمر العقد في شرح أعراض هذا المرض وتطبيقه على فاروق . . . وقد يكون تحليل العقد لفاروق كشخص صحيحا تماما من حيث المرض النفسي والصحة النفسية ، ولكن العقد لا يشير في هذا المقال الى الموقف الاجتماعي والسياسي للملك فاروق ، وهو مرض أخطر بكثير من كل امراضه وعلة النفسية ، ذلك لان فاروقا كان رأس الاقطاع والراسمالية في مصر ، وانه كان يستغل سلطته كلها في الدفاع عن الاقطاع والراسمالية ضد طبقات الشعب المختلفة ، ومن هنا كان التناقض بينه وبين القوى الوطنية والحركة الشعبية ، وكان التناقض بينه وبين جميع الاهداف الوطنية في التطوير الاجتماعي والتحرير السياسي والعدالة والاصلاح .

لم ينتبه العقد لهذا المرض الرئيسي ، لانه كان أسيرا لمنهجه في تحليل الاشخاص والمواقف ، وهو المنهج الذي يدور حول العوامل الداخلية الذاتية في الفرد ، ويهمل العوامل الموضوعية التي تتصل بالمجتمع وتؤثر في مواقف الافراد بل تساهم مساهمة رئيسية في تكوين هؤلاء الافراد .

العقاد وثورة ٢٣ يوليو

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ سارع العقاد الى تأييدها ، ولكن تأييده لهذه الثورة كان له طابع خاص ، فهو من ناحية لم يكتب عن الثورة كثيرا بل كانت كتاباته مجموعة محدودة من المقالات كتبها في السنوات الاولى من الثورة ، ثم ابتعد العقاد بعدها عن الخوض في السياسة ، واقتصر نشاطه طيلة فترات الثورة من ١٩٥٢ حتى وفاته سنة ١٩٦٤ على ثلاثة مجالات : الاول هو العمل الصحفي حيث كان يرد على اسئلة القراء في الادب والثقافة ، وخاصة في يوميات الاخبار التي ظهرت بعد ذلك في عدة اجزاء كبيرة وتعتبر هذه اليوميات اشبه بدائرة معارف شعبية تتناول كافة العلوم والفنون والمدارس الفكرية ، كل ذلك في خطوط عريضة ومعلومات اساسية مركزة تماما مثل دوائر المعارف الشعبية الميسرة ، والمجال الثاني الذي شغل به العقاد خلال الفترة التي عاشها في ظل الثورة هو مجال الدراسات الاسلامية التي اصدر منها العقاد عددا كبيرا في هذه الفترة ، وكان المجال الثالث الذي شغل به العقاد هو تلك الحرب العنيفة على الفكر اليساري والفكر الشيوعي على وجه الخصوص . اما الكتابة السياسية المباشرة فقد كف العقاد عنها تماما بعد فترة قليلة من قيام الثورة . وتفسير موقف العقاد ميسور ، فقد تعود العقاد ان يشارك في الحياة السياسية في فترة الصراع الحزبي ، حيث كان يستند في معظم حياته السياسية الى حزب من الاحزاب يؤيده ويعارض خصومه وقد انتهت الاحزاب بعد الثورة ، وكانت الثورة نفسها تخوض تجربة بعد الاخرى في سبيل بناء تنظيمها السياسي ، ومن هنا اثر العقاد الابتعاد تماما عن ميدان الحياة السياسية المباشرة ، واقتصر على نشاطه في المجالات السابقة التي اشرت اليها .

ولكن ماذا كان موقف العقاد في المقالات التي كتبها عن ثورة ١٩٥٢ ؟ لا شك ان العقاد قد تلقى عدة صدمات بعد قيام ثورة ١٩٥٢ ، وكانت الصدمة الاولى بالنسبة له هي قيام الثورة بالغاء النظام الحزبي ، ثم

توالت الصدمات بالنسبة للعقاد ، فقامت الثورة بتحديد الملكية الزراعية، وقامت بتأميم كثير من وسائل الانتاج وخاصة سنة ١٩٦١ وللعقاد رأي في تحديد الملكية الزراعية اعلنه في بعض كتاباته ، وله في التأميم رأي مشابه، وكلا الرأيين لا يتفق مع ما اتخذته ثورة ٢٣ يوليو من قرارات واجراءات. فالمسألة الاقتصادية عند العقاد لها حلان : الضرائب التصاعدية والتعاون وليس تحديد الملكية او التأميم .

يقول العقاد في مقال له بعنوان «لو اصبحت مصر اشتراكية» من كتابه «دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية ص ٢٠٨» :

«ان الضرائب التصاعدية ترضي شعور الفرد بحقه في الملكية ، وتغني عن تقييد الملكية الزراعية او العقارية بمقدار محدود فاذا رأى الزارع ان الضيقة التي تزيد مساحتها على خمسمائة فدان مثلا تتساوى ارباحها وارباح الاربعمائة ، او رأى ان الفرق في الربح تقابله زيادة الضرائب وزيادة التكاليف ، فهو من غير امر ولا قانون سيتحول بالمال الزائد الى مرفق آخر غير الزراعة ، وسينتهي هذا التحول في القطر كله الى التوازن بين مرافق التجارة والى التقارب بين اصحاب الضياع الكبيرة واصحاب المزارع الصغيرة دون ان يخل بنشاط الفرد في رعاية ملكه والسهر على مصالحه» .

ثم يتحدث العقاد عن التعاون فيقول في نفس المقال :
«اما التعاون فهو الوسيلة المثلى للقضاء على الاستغلال والقضاء من ثم على حرب الطبقات» .

ويكشف العقاد بمثل هذه الافكار عن ضعف معرفته بالفكر الاقتصادي بصورة تثير الدهشة ... فكيف نسي العقاد مثلا ان هناك الوانا من التحايل على القوانين بطريقة قانونية ، بحيث يمكن لمن يملك خمسمائة فدان ان يوزعها على افراد آخرين من عائلته ، او على زوجاته ، حيث يكثر تعدد الزوجات بين الاقطاعيين ، وكيف يتجاهل ان هناك وسائل عديدة لاصحاب الثروات يستطيعون بها تهريب اموالهم ، وإخفاءها واستغلالها في غير الصالح العام ، وكيف يتجاهل ان اصحاب الثروات من الاقطاعيين وغيرهم هم الذين يضعون القوانين داخل البلدان التي يتحكمون في ثرواتها ، وان قوانينهم لا يمكن الا ان تكون على قدر مصالحهم بحيث لا يصبح هناك اي حل الا اصدار قوانين تحدد الملكية بصورة قاطعة دون ان تترك الامر لمجرد فكرة الضرائب التصاعدية .

وكما يرفض العقاد فكرة تحديد الملكية يرفض فكرة التأميم تحت الدعوة الخالدة وهي الحافز الفردي ... يقول العقاد في نفس المقال السابق :
«ان تجارب مصر وتجارب غيرها قد أثبتت لنا على التحقيق ان المرفق

الذي تديره الحكومات تتضاعف تكاليفه وتزيد فيه المغارم على الغنائم ويؤول شأنه الى الاهمال وقلة الاكتراث . . . وبداهة العقل تأبى ان يقال ان عمل الانسان لغيره كعمله لنفسه ، فان الطبيعة برمتها - كما المحنا لذلك مرارا - لا تحمل الحي على ابقاء نوعه ما لم يكن في تكوينه دافع من المتعة الشخصية ، ومن الحنان الابوي ، ومن الامل الذي تدور عليه عواطف الأحياء ، فمن الخطر تسليم المرافق جميعا الى الدولة ، والفناء البواعث الفردية التي تشجدهم وتقنع المرء بأنه يعمل لنفسه وذريته مع خدمته للمجموع .

ويقدم العقاد الحل المثالي فيقول :

«وإنما قوام الامر بالنسبة الينا نحن المصريين على الخصوص ان نبقى للفرد الملك وحق التصرف فيما يقدر عليه ، وندع للحكومات ان تستأثر بالاعمال العامة التي لا قبل بها للأفراد ولا للشركات» .

والواقع ان العقاد هنا يدافع بوضوح عن النظام الحر في الاقتصاد او النظام الرأسمالي ، ولا يرى في الاشتراكية وفي مبدأ التأميم نفعا لاحد . . ورغم انه يترك للدولة ادارة الاعمال الكبرى التي لا يقدر عليها الافراد ولا تقدر عليها الشركات . . فهو في الحقيقة لا يترك للدولة اي شيء . . . فالافراد يقدرون على اشياء كثيرة جدا ، واصحاب الملايين في البلاد الرأسمالية يملكون اضعف المصانع وأخطرها شأنا ، وعلى سبيل المثال هناك اضعف الطائرات الحربية التي يملك مصانعها في امريكا وفرنسا وغيرهما افراد من أمثال «داسو» الفرنسي ، كما ان هناك عددا من اصحاب الملايين يملكون كل ما يخطر على البال من الصناعات الحديثة المعقدة من أمثال روتشيلد وركفلر وكروب وغيرهم . اما ما لا يستطيعه الافراد فان الشركات تستطيع ان تديره . . . ولا يوجد عمل اقتصادي ضخم لا تستطيع الشركات ان تقوم به . فماذا يبقى اذن للدولة بعد ان ترك لها العقاد ما لا يستطيعه الافراد والشركات ؟

ان الشركات والافراد يستطيعون القيام بادارة اضعف المصانع واضعف المشروعات الاقتصادية . . . ولكن ذلك يتم عادة باستغلال الآخرين وعلى حساب المصلحة العامة دائما . والحوافز الطبيعية التي يتحدث عنها العقاد والتي يقول عنها : «ان الطبيعة برمتها لا تحمل الحي على بقاء نوعه ما لم يكن في تكوينه دافع من المتعة الشخصية ، ومن الحنان الابوي ، ومن الامل الذي تدور عليه عواطف الأحياء» . . . هذه الحوافز الطبيعية التي يتحدث عنها العقاد هي ولا شك حوافز حقيقية لا يستطيع احد ان ينكرها الا اذا كان من المتعصبين الذين ينكرون حقائق الحياة الكبرى .

ولكن الخطأ يتركز في النتائج التي يخرج بها العقد من اقرار صحة هذه الحوافز الطبيعية ... ذلك ان الذي تنادي به الاشتراكية في مفهومها السليم هو منع الاستغلال ... فمن المتعة الشخصية مثلا ان يمتلك الفرد الواحد قصورا ، وملايين من الجنيهات ... ولكن هذا «الامتلاك» سوف يكون حتما على حساب الآخرين الذين يجوعون او يتعرضون للتشرد، ومن هنا فان الاشتراكية ترفض الامتلاك الذي يؤدي الى استغلال الآخرين وحرمانهم من حقوقهم في الحياة . اما الامتلاك الذي يترتب على عمسـل الانسان وجهده واحتياجه فان الاشتراكية لا ترفضه ولا تعترض عليه بحال من الاحوال ... انها تضع شرطا للملكية : ان تكون ثمرة العمل المنتج وان تكون بعيدة عن استغلال اي فرد آخر :

ومن هنا فان الملكية تظل قائمة في ظل الاشتراكية ولكن الملكية العامة تكون هي الاساس ، اما الملكية الخاصة فيحدها ثلاثة حدود حاسمة هي : عمل الانسان وعدم استغلاله للآخرين واحتياجاته المشروعة . وفي هذا المقال نفسه يكشف لنا العقد عن فهم خاطيء تمام الخطأ للاشتراكية عندما يقول :

«اصبحت مصر اشتراكية او شبيهة بالاشتراكية قبل اكثر من مائة سنة ، ولم تكن اشتراكيها تطبيقا لنظرية من النظريات التي ينادي بها اصحاب المذاهب الاقتصادية ، ولكنها عملية تستلزمها احوال الزمن ، وكانت اسبق الاشتراكيات العملية من نوعها في الزمن الحديث ... كانت الارض كلها ملكا لمحمد علي الكبير ، وكانت التجارة الخارجية تدار بيد الحكومة» . هذا الفهم للاشتراكية عند العقد رغم التحفظات التي يبديها حيث يقول: ان هذه الاشتراكية ليست تطبيقا لنظرية من النظريات الحديثة ... هذا الفهم رغم التحفظات فهم خاطيء ، لان هذا النوع من سيطرة الدولة على الاقتصاد في عهد محمد علي - رغم قيمة هذا الاقتصاد وأهميته وسبقه لكثير من التجارب والنظريات - كان يعتبر نوعا مما يسمى الان باسم «رأسمالية الدولة» وهو امر يختلف تماما عن الاشتراكية .

التأميم والملكية العامة في الاشتراكية ضرورتان اساسيتان ، ولكن بشرط ان يتم ذلك لمصلحة الطبقات الشعبية ، وأن تعود الفائدة الاولى على هذه الطبقات ، ولكن ملكية محمد علي للارض او للتجارة الخارجية او للمصانع كان الهدف منها اساسا هو تدعيم الدولة ، ولا شك ان محمد علي كان حاكما قويا ، وكانت لديه فكرة عبقرية لاقامة دولة عصرية حديثة في مصر ... ولكن ذلك كله شيء والاشتراكية التي تهدف الى تحرير الطبقات الشعبية من الاستغلال شيء آخر .

ولا علاقة لاجراءات محمد علي بالاشتراكية ، وقد قام محمد علسي نفسه في حياته بتوزيع ملكيات زراعية واسعة على الاعوان والانصار وكبار الموظفين . «فمنذ سنة ١٨٢٩ بدأ محمد علي يمنح أعوانه وأسرته اراضي واسعة تسمى بالابعاديات ، ومع انها لم تكن تورث لاعتقابهم من بعدهم نظريا الا ان ذلك لم يطبق عمليا ، فقد منحوا ذلك الحق فعلا في سنة ١٨٣٦ على ان تورث للابن الاكبر سنا ، وكان ذلك بتأثير من أرتين باشا بفرض خلق ارستقراطية زراعية» (١) .

وهكذا . . . فطالما ان الملكية العامة لا تقوم اساسا لمنع الاستغلال فهذا النوع من الملكية هو «راسمالية دولة» او ما يشبه «راسمالية الدولة» ، وهذا النوع من الملكية مهدد دائما بالعودة الى نظام الاستغلال الفردي ، كما انه لا يعود بالخير على الطبقات الشعبية وانما تكون نتائجه دائما لصالح الطبقة الحاكمة .

وهكذا نجد ان العقاد لا يوافق على مبدئين اساسيين من مبادئ ثورة ٢٣ يوليو في المجال الاقتصادي وهما : التأميم وتحديد الملكية ، كما ان العقاد يكشف بكلماته ان فكرته عن الاشتراكية تشوبها أخطاء اساسية ، وبالذات عندما يخلط بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة . ولكن العقاد لم يدخل معركة ضد التأميم ولا ضد تحديد الملكية ، ولعل هذه الاجراءات التقدمية من جانب ثورة ٢٣ يوليو ان تكون سببا آخر قويا من اسباب ابتعاد العقاد عن الميدان السياسي .

ولكن ماذا نجد بعد ذلك فيما كتبه العقاد عن ثورة ٢٣ يوليو ؟ كان اهم ما حرص العقاد على الترحيب به وتأييده هو ان ثورة ١٩٥٢ كانت ثورة بيضاء ، وذلك لان العقاد رغم عنفه وقسوته في مناقشات الحزبية ، الا انه يفكر بعقلية ديموقراطية تقبل المنافسة والخصومات ولا تقبل العنف الدموي . . . فهو يقول في مقال له بعنوان «الجيش وقائده» - «دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية» ص ٢٢٥ :

« . . . حتى اذا كانت الاسابيع الاخيرة من عهد فاروق المشؤوم جرى ذكر الكوارث التي تتعاقب على الامة في مجلس يضم اكثر من عشرين مصريا بين اديب وصحفي وأستاذ وطالب ، فقال قائل : وما العمل ؟ . . . قلت انها الثورة لا محيص منها ، وليكن ما يكون ! . . . والحمد لله جاءت الثورة ولم يمض شهران وجاءت سليمة ولم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل

١ - عبد الخالق لاشين - سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ص ٢١٧ .

الامور ، وقد كان الخلاص من عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها ان تقدم الامة في سبيلها على خسارة في الارواح والاموال ، واضطراب الامور شهورا او اكثر من شهر . فلما تكفل الجيش للامة بالثورة التي كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرها واهوالها ، وانتظمت الامور في سياقها ، وانجلي ملك مكروه من عرشه بأيسر من جلاء عمدة في قرية صغيرة ينصره اناس ويخلدله آخرون .

فالثورة بيضاء ، وهذا أسلوب في التغيير السياسي يتفق مع نفسية العقاد وعقليته تمام الاتفاق .

ولا ينسى العقاد سخطه على الشيوعية ونفوره منها ورفضه لها وهو يرحب بثورة ٢٣ يوليو ، فهو يحمد الله ان هذه الثورة جاءت في وقتها لتقطع الطريق على ثورة شيوعية حمراء . . . يقول العقاد في نفس المقال : «ان فاروق قد نزل عن العرش وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، فلو انه بقي على العرش الى نهاية اجله فلا يعلم الا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهي تنحدر من هاوية الى هاوية . . . اما اذا قدر له ان يخلع قبل نهاية اجله ، فمن المستبعد جدا ان يتفق ملوك الاقطاع الصفار على خلع ملك الاقطاع الكبير ، وانما يجيء خلعه بقوة اجنبية تعصف باستقلال البلد او بثورة شيوعية تعصف بكل خير فيه وتسلمه الى الفوضى التي لا يدري احد متى تثوب الى قرار» .

وهكذا فان ثورة ٢٣ يوليو عند العقاد تكون قد حمت البلاد من ذلك الكابوس الذي يخشاه وهو قيام ثورة شيوعية .

ويتساءل العقاد بعد ذلك سؤالا يمكن ان يرد بصورة طبيعية على ذهن امثاله من المؤمنين بالديموقراطية الغربية «الليبرالية» . . . انه يتساءل عن دور العسكريين في ثورة ٢٣ يوليو وعن مدى استمرار هذا الدور . فهو يبرر قيام الجيش بالثورة بقوله :

«وقبل ان يسأل سائل : وما للجيش ولهذه الشؤون ؟ عليه ان يسأل : كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق ؟»

فالعقاد يرى ان الجيش كان «مضطرا» للقيام بالثورة لان الاصل في القوات العسكرية هي ان تبني مهمتها على الدفاع عن الوطن وليس على العمل بالسياسة ، ويعود العقاد الى التأكيد على ان دور «العسكريين» في الثورة هو دور محدد بظرف معين ، وليس دورا دائما بحيث يتحول العسكريون الى العمل السياسي ويتركون عملهم الرئيسي . . . يقول العقاد في نفس المقال : «ليس المقصود بهذا ان عمل السياسة في مصر قد بطل ، وان القوة العسكرية مسئولة وحدها بعد اليوم عن تدبير معضلات السياسة

والاجتماع والاقتصاد وسائر ما ينتظم في جملة مهام الاصلاح» .
«ان كاتب هذه السطور آخر من يرى هذا الرأي او يقول بهذا القول،
وانه لقول لا يقول به فيما نعتقد الا متملق جاهل ، والمتملق الجاهل يسيء
الى من يتملقه من حيث يحسب انه يثني عليه» .

«فالعلم بالفنون العسكرية في هذا العصر اوسع من ان يحيط به رجل
واحد ، لانه معرفة تتناول اسلحة الجو والبحر والبر وابواب العلم الطبيعي
والرياضي التي تدخل من قريب او من بعيد في هذه الفنون ، وتحتاج مع
هذا الى الخبرة بالاطوار النفسية واساليب الدعوة والاستطلاع ، ولا يحيط
بها قائد فرد ولا يستغني فيها على اية حال عن مشورة الخبراء ممن يعلمون
مثل علمه او ينفردون بعلم لم يطلع عليه ... فليست القيادة العسكرية من
السهولة بحيث ينهض بها قائد واحد ، وينهض بغيرها من المهام الكبرى
في وقت واحد» .

وهكذا يؤكد العقاد على ان قيام العسكريين بالثورة هو مرحلة استثنائية
تقتضي بعدها ان يكون هناك عسكريون متخصصون في علومهم وفني
رسالتهم الكبرى .

ثم ينبه العقاد الاقطاعيين الى ضرورة «حمد الله» على الثورة ، لانها
كانت اخف عليهم مما كان ينتظرهم من البلاء ... وكلمات العقاد هنا اشبه
بنوع من العزاء للاقطاعيين وكأنه لشدة تعاطفه مع هؤلاء الاقطاعيين يطلب
منهم الصبر والاحتمال بعد ان وقفت المسألة عند هذه الحدود ، وقد كانوا
مهددين بقطع رقابهم ، والقضاء عليهم قبل القضاء على ما يملكون ... يقول
العقاد في نفس المقال السابق :

«... ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه
النتيجة فانها حماية لهم الى آخر المطاف» .

فالثورة في نظر العقاد حماية للاقطاعيين من الموت والدمار ، وان لم
تكن حماية لاملاكهم ... ولست أدري لماذا يهتم العقاد بتهدئة الاقطاعيين
وإزالة مخاوفهم من الثورة ؟ ولست أدري كيف اعتبر العقاد ان الثورة بعد
تحديد الملكية هي حماية للاقطاعيين ، والاقطاعيون بالطبع وان كانوا قد
امنوا على ارواحهم بفضل انعدام الروح الدموية في الثورة الا انهم يعتبرون
من ناحية أخرى ان الثورة قد قضت عليهم وعلى مصالحهم ، وانهم لم
يكونوا قط في «حماية الثورة» .

منطق العقاد هنا منطق المتعاطف مع الاقطاعيين الذي يحاول ان يهدئهم
ويكشف لهم عن جانب في الثورة يمنحهم الامان والاطمئنان .

والحقيقة ان الثورة ليست مطالبية بحماية الاقطاعيين ، كما ان الاقطاعيين لا ينتظرون الحماية من الثورة . . . وان كان ذلك لا ينفي معنى رئيسيا توفر في ثورة ٢٣ يوليو هو ان تصفية طبقة اجتماعية عن طريق تصفية مصالحها لا يعني تصفية افراد هذه الطبقة تصفية دموية عنيفة . . . ومثل هذا الموقف يضمن للثورة ان تكون ذات طابع انساني كريم .

هذا هو مجمل ما رآه العقاد في ثورة ١٩٥٢ .

فميزاتها الرئيسية هي انها ثورة بيضاء ابتعدت عن الدم وعن تفجير صراع اجتماعي عنيف يذهب بالارواح ويفقد الناس الامن والطمأنينة . وهي ثورة ذات طابع عسكري في البداية بحكم الظروف التي مرت بها مصر ، ولكنها لن تستمر في هذا الطابع العسكري ، ولا يجوز ان تستمر فيه ، لانها سوف تفصل بين رسالة العسكريين ورسالة السياسيين ، حيث ان رسالة العسكريين هي التعمق في العلوم العسكرية وحماية الوطن اما رسالة السياسيين فهي تحقيق الثورة في داخل المجتمع .

وثورة ٢٣ يوليو في نظر العقاد قد رحمت المجتمع المصري من ثورة شيوعية حمراء تعصف بكل شيء .

وثورة يوليو عند العقاد رحيمة بالاقطاعيين ولو عقل الاقطاعيون لحمدوا الله على هذه الرحمة لانهم كانوا معرضين لما هو أعنف وأقسى . ولكن العقاد لم يلتفت الى نقاط أخرى هامة في ثورة ٢٣ يوليو . لم يناقش اتجاه الثورة نحو التحول الاشتراكي في المجتمع المصري . . . لان العقاد كما هو واضح لا يوافق على الاجراءات الرئيسية في التحول الاشتراكي عن طريق ثورة ١٩٥٢ مثل : تحديد الملكية وتأميم وسائل الانتاج . ولم يناقش العقاد الانتماء العربي لمصر الذي اكتشفته ثورة ١٩٥٢ وحرصت عليه أشد الحرص وعملت على تأكيده وتدعيمه .

ولم يناقش ما أحدثته ثورة ١٩٥٢ من تغير أساسي في علاقات مصر الدولية وخاصة ما يتصل منها بعلاقة مصر بالكتلة الاشتراكية .

كل هذه جوانب سكت عنها العقاد ولم يلتفت اليها . . . اما لانه لم يستوعبها بحكم تكوينه الفكري ، واما لانه كان يرفضها ويعترض عليها ، ولا يجد الفرصة المناسبة للرفض والاعتراض . . . وخلاصة ما يمكن ان نقوله هو ان العقاد كان سلبيًا بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو ، فيما عدا ما قدمه للثورة في السنوات الأولى من تأييد وضعه في اطار مفاهيمه الخاصة للتطور الاجتماعي والاقتصادي، وبعض هذه المفاهيم خاطيء وقاصر كما رأينا في هذا الفصل وفي الفصول السابقة .

العقاد والوحدة العربية

ماذا كان موقف العقاد من الدعوة الى الوحدة العربية ؟
اننا لا نجد في كتابات العقاد ما يمثل دعوة صريحة الى الوحدة العربية، بل نجد في كتاباته الاولى اهتماما واضحا بمصر والشخصية المصرية ، وقد كتب العقاد فصلين في كتابه عن «سعد زغلول» كان موضوعهما هو الشخصية المصرية والطبيعة المصرية ، لم يلتفت في هذين الفصلين الى العنصر العربي في الشخصية المصرية ، بل لقد كتب العقاد سنة ١٩٢٧ مجموعة من المقالات بعنوان «الشعر في مصر» نشرها في كتابه «ساعات بين الكتب» وفي هذه المقالات يفرق العقاد بين المصريين والعرب تفرقة واضحة ، يقول العقاد في المقال الاول من هذه المقالات :

«تنوعت عبقریات العرب والانجليز والالمان والبولونیین وامم اخرى في الشرق والغرب وفي القديم والحديث .
فما شأن مصر يا ترى بين هذه العبقریات وما نصيبها من الشعر خاصة ومن وسائل الاعراب الاخرى عن ذوات النفوس ؟ اهي شاعرة بالفطرة ام شاعرة بالمحاكاة ؟ وهل شعرها من شعر العبقرية والطبع العميق ام هو شعر الحس والالفاظ والاصداء ؟»

ثم يقول العقاد بعد ذلك في نفس المقال :
«... ونظرت الى العصور الحديثة بعد الاسلام فلم اعثر بشاعر واحد انبثته مصر يذكر بين اعظم الشعراء وتسمع له رسالة من رسالات الحياة، فكل شعرائها عرب او مقلدون للعرب، وكل هؤلاء هؤلاء عالة على الادب ونفاية ضئيلة اولى بها ان تنبد وتهمل .»

وفي هاتين الفقرتين نجد ان العقاد يفرق بوضوح بين المصريين والعرب .
والواقع ان العقاد كان يعيش في الفترة الاولى من حياته السياسية في
بيئة فكرية تدفعه دفعا الى الدعوة المصرية التي تؤمن بالقومية المصرية
الخالصة ، فالعقاد هو ابن ثورة ١٩١٩ التي كانت في اساسها ثورة مصرية
قامت تحت شعار مصر للمصريين ، ولم تكن هذه الثورة تحمل اي ملامح
عربية ، وكان زعيمها سعد زغلول يرفض الربط بين مصر وبين سائر ابناء
الامة العربية ، ويردد في ذلك حججا متعددة ، ويقول الدكتور انيس صايغ
في كتابه عن «الفكرة العربية في مصر» ص ١٤١ :

«لن نجد شخصية افضل من سعد زغلول للبرهنة بواسطتها علىصرية
التفكير السياسي في وادي النيل خلال المرحلة الموضوع للبحث -١٩١٩-
وسعد سياسي مخضرم بين المرحلتين الاولى والثانية . وقد خلفت فيه
المرحلة الاولى اسس الاتجاه المصري من خلال تتلمذه على الشيخين الافغاني
وعبده ، وملازمته لعرابي ، ثم اقامته في باريس وتأثره بالفكر القومي
الاوربي ، وظهرت آثار ذلك الاتجاه في تصرفاته واقواله لما دانت له مصر
بالزعامة الرسمية والشعبية من بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، ولما
اصبح رمز القضية الوطنية . ويشعر من يراجع خطب سعد داخل مجلس
النواب وخارجه ، ومجموعة بياناته السياسية ومذكراته وتصاريحه ، ان
سعدا كان يعيش في عالم غريب عن العرب ، وأنه لم يحس بوجود قضية
اسمها القضية العربية ، وأن استقلال مصر التام ووحدها مع السودان هما
الامران الوحيدان اللذان شغلا باله . ولسعد عدة اقوال مأثورة في القومية
والامة المصريتين - ولكنها اقوال عاطفية اكثر مما هي تحديدات علمية ، كما
انه كان ممن شجعوا احياء هتاف مصر للمصريين ، وخاصة بعد عودته من
أوروبا سنة ١٩٢١» .

«وحدث ان اتصل بعض السياسيين العرب بسعد وهو في باريس
يدافع عن قضية مصر ، وعرضوا عليه توحيد جهودهم ، والقيام بعمل عربي
مشترك ضد الاستعمار ، فرد سعد عليهم «ان قضيتنا مصرية وليست
عربية» . وروى عبد الرحمن عزام انه كان يتكلم ذات يوم عن الوحدة العربية
امام سعد فقاطعه سعد متهمكا «اذا جمعت صفرا مع صفر فالنتيجة صفر»
وقد افصح سعد بهذا الرد عن معارضته لاي فكرة عربية » .

ثم يقول الدكتور انيس صايغ بعد ذلك :

«ان سعدا هذا الذي استهزا بمقدرة العرب ومصلحة مصر في اعلان
عروبتها وتبرا منهم وابتعد عن قضاياهم ، والذي رسم للسياسة المصرية

خطى منعزلة عن القضية العربية ، لقي من العرب من التكريم ، ما لم يلقه منهم اي سياسي عربي آخر في ذلك العهد . وما ان اذيع خبر وفاته حتى أعلن العرب الحداد عليه ، من العراق الى مراكش . وأقام العرب له عشرات المهرجانات التأبينية في ديار الاقامة وفي ديار الهجرة . وأصدرت الصحف أعدادا خاصة به وكتبت عدة كتب عنه . بل ان بين العرب من سماه سعد العرب ، مع انه لم يكن سوى سعد مصر .

هذا هو ما كتبه الدكتور انيس صايغ عن سعد زغلول وموقفه من الفكرة العربية ، وسعد زغلول كان هو الزعيم الذي حدد الاطار السياسي لفكر العقاد منذ سنة ١٩١٩ ، حيث بقي العقاد يتحرك في هذا الاطار حتى سنة ١٩٣٥ .

والواقع ان هذه الفترة كانت مليئة بالاتجاهات المختلفة لان السؤال عن حقيقة الشخصية المصرية كان سؤالا مطروحا بقوة على المفكرين والسياسيين المصريين . وكان هناك دعاة الوحدة الاسلامية ، وكانت هناك القومية المصرية . اما الدعوة العربية فلم تكن قد برزت بعد في ميدان السياسة المصرية ، ولا شك ان العقاد كان من دعاة القومية المصرية المستقلة عن الدعوة الاسلامية والمستقلة عن الدعوة الى الوحدة العربية ، وهذه الدعوة الى القومية المصرية هي الدعوة التي كان حزب الوفد يؤمن بها ويتحرك في اطارها خلال تلك الفترة التي ارتبط فيها العقاد بالوفد من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ .

ولكن التأمل الدقيق في الدعوة الى القومية المصرية يكشف لنا عن تيارين مختلفين أشد الاختلاف في هذه الدعوة ، وهذا هو الامر الذي لم ينتبه اليه الدكتور انيس صايغ في حديثه عن سعد زغلول ، وهو الامر الذي لم ينتبه اليه عدد آخر من الباحثين الجادين حول موضوع «عروبة مصر» . وذلك لان سعد زغلول والعقاد انما ينتميان الى تيار خاص من تيارات الدعوة المصرية .

اما التيار الاول في الدعوة الى القومية المصرية فهو تيار اقليمي فرعوني ، يؤمن ان الشخصية المصرية تستمد جذورها الاساسية الصحيحة من الحضارة الفرعونية القديمة ، وان كل الشعوب التي وفدت على مصر انما هي شعوب جاءت من اجل الغزو والاستعمار بما في ذلك العرب . فالعرب في مصر مثلهم مثل اليونانيين والرومان والفرس والأتراك . . . كلهم غزاة ، ويجب على مصر ان تتخلص من آثارهم نهائيا وأن تعود الى شخصيتها الاصلية وهي الشخصية الفرعونية ، وكان اصحاب هذه الدعوة ينادون بالتخلص من اللغة العربية والثقافة العربية وكانوا ينادون بربط مصر

بالغرب والتراث الحضاري للغرب ، والخروج من ذلك بمزيج جديد من
الفرعونية والحضارة الغربية الحديثة ، على ان يحدد هذا المزيج ملامح
الشخصية المصرية الصحيحة ، مع استبعاد كل العناصر العربية في هذه
الشخصية . وكان من دعاة هذا الاتجاه لطفي السيد الذي كان يرى ان دعاة
الوحدة العربية «يضيعون الوقت في خيال عقيم واحلام بعيدة التحقيق» .
ويقول عن التحالف العربي «ان السعي الى اقامة تحالف من هذا النوع
وهم من الاوهام » ، وينادي احد دعاة هذا الاتجاه بتسمية المصريين
جميعا باسم « الاقباط » . . . حيث يقول مرقص سميكه
باشا في محاضرة له بالجامعة الامريكية سنة ١٩٢٦ : « . . . احب ان اذكر
ان لفظ قبطي معناها مصري وهي محرفة من اللفظة اجبتوس ، ولذلك
فجميعكم اقباط ، بعضكم اقباط مسلمون والبعض الآخر مسيحيون . وكلكم
متناسلون من المصريين القدماء » (١) .

وقد امتدت هذه الدعوة الى اللغة العربية ، وطالب انصارها في
محاولات بتغيير الكتابة باللغة العربية والكتابة بدلا منها بالحروف اللاتينية
او الكتابة بالحروف العربية على ان تكون لغة مصرية خالصة هي اللهجة
الشعبية ، بحيث تتحول هذه اللهجة لتصبح لغة للكتابة وليس مجرد لغة
للحديث فقط ، مع التخلص من اللغة العربية تماما .

وامتدت هذه الدعوة الى مجالات واسعة متعددة وخاصة في الميادين
الثقافية والعملية ، وكان الانعكاس السياسي لهذه الدعوة هو التأكيد على
استقلال الشخصية المصرية وانفصال مصر تماما عن بقية اجزاء الوطن
العربي .

وقد كتب محمد عبد الله عنان ، وهو كاتب ومثقف من كبار مثقفي مصر
في الجيل الماضي عن «القومية المصرية» في مقال له سنة ١٩٣٢ ، وفي هذا
المقال يكشف لنا الكاتب بوضوح ما كان يقصده انصار هذا التيار المصري
بدعوتهم ، حيث كانوا يعارضون الوحدة العربية معارضة صريحة مباشرة . .
يقول محمد عبد الله عنان في مقاله (٢) :

«لقد صرحنا برأينا اكثر من مرة في شأن فكرة الجامعة العربية ، فهي
على ما يصورها الغلاة من دعائها في نظرنا أمنية خيالية لا تقوم على اية
اسس او تقديرات عملية ، وقد تكون مثلا أعلى يرجع بالاذهان الى عصور

١ - الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر - الدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص ١٣٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١٣٩ .

المجد التي جمعت بين الامم العربية تحت خلافة او سلطة اسلامية واحدة . فلها بذلك روعتها وجمالها . ولكنها مع ذلك سراب تبده الحقائق والظروف الواقعة . بل ان التعلق بها صار في نظرنا بجهود الامم العربية بما قد يبثه اليها من الوهن المترتب على اغفال الحقائق والانصراف عن تقدير الظروف الخاصة» . ثم يقول عبد الله عنان في نفس المقال بعد ذلك :

«من الخطأ البين ان تنظم مصر في سلك البلاد العربية ، اذا تعلق الامر بالناحية القومية . فالقومية المصرية كما قدمنا قومية اصيلة . وقد وجدت الامة المصرية منذ اقدم عصور التاريخ . واقترن اسمها بحضارة من اقدم وامجد الحضارات . ولم تفقد الامة خواص الوحدة والتجانس منذ ايام الفراعنة ، اعني منذ آلاف السنين ، بل استطاعت ان تحافظ على هذه القومية طوال العصور ، ولم تذهب فتوح الفرس واليونان والرومان بشخصيتها كاملة وكوحدة قومية ، بل كانت هذه القومية دائما قوة كامنة اذا اختفت ايام الطفيان والمطاردة والمحن القومية عادت لاول شعاع من الامل ، فلما جاء الفتح الاسلامي كانت مصر ولاية رومانية ، ولكنها كانت كتلة قومية كبيرة . فورثت من غزاتها الجدد : الاسلام واللغة العربية ، ولكنها حافظت على خواصها القومية ، ونشأت في ظل الاسلام امة مصرية مسلمة ، عربية لا بخواصها الجنسية او القومية ، ولكن فقط باللغة التي تنطق بها » .

«ومع هذا الاندماج السياسي التام ، فان مصر لم تكن عربية فقط ، وانما كانت الى جانب شقيقاتها العربيات تحتفظ دائما بمصريتها القومية العميقة ، بل كانت فوق ذلك تطبع الحياة العامة لهذه الشقيقات في كثير من الاحيان بالوان مصرية عميقة ، تبدو بارزة في بعض مراحل تاريخها . فهذه المصرية القومية الاصلية هي التي تستظل مصر بلوانها اليوم . وهذه المصرية هي في الواقع دعامة شخصيتنا القومية . فلسنا نفهم كيف ينكرها علينا بعض اخواننا العرب» .

هذا هو ما كتبه محمد عبد الله عنان عن القومية المصرية والقومية العربية . وهكذا نجد ان هذا التيار في تحديد الشخصية المصرية فسي اطارها القومي يهدف اساسا الى محاربة الفكرة العربية في مصر والابتعاد عنها بصورة نهائية كاملة .

ولكن هذا التيار لم يكن هو وحده التيار القائم في ميدان الدعوة الى القومية المصرية . فقد كان هناك تيار آخر كان يفهم القومية المصرية على وجه مختلف ، وبالنسبة لهذا التيار كانت القومية المصرية تعني الرد على

سيطرة الاحتلال الانجليزي على البلاد ، ثم سيطرة العناصر الاجنبية المتمصرة من اترك وشراكسة وغيرهم على اقتصاديات البلاد ، وعلى الحياة الاجتماعية فيها . ثم كانت ردا على دعاة الارتباط بتركيا العثمانية وعلى رأسهم انصار الحزب الوطني .

كانت دعوة القومية المصرية عند هؤلاء ردا على كل محاولة اجنبية لمحو العنصر المصري والقضاء عليه ، ولم يكن هنالك اي نوع من الصراع بين القومية المصرية وبين القومية العربية في نظر هؤلاء .

ومن ناحية اخرى نجد ان معظم ممثلي هذا التيار كانوا من اصحاب الثقافة الاسلامية والثقافة العربية ، وعلى رأس اصحاب هذا التيار يقف سعد زغلول ، فقد كان سعد من الذين تلقوا دراستهم في الازهر ، وكانت ثقافته العربية واسعة ، وكان تلميذا للشيخ محمد عبده وصديقا له ، ومن هنا كانت دعوته للقومية المصرية بعيدة تمام البعد عن ان تكون دعوة ضد الاسلام او ضد العروبة ، ويمكننا ان نتصور دعوة القومية المصرية عند سعد زغلول على انها دعوة لقيام «الثورة التحريرية في بلد واحد» كمرحلة اولية، بدلا من تعميم الدعوة وشمولها للوطن العربي كله في ظروف اوائل القرن العشرين، حيث كان الامر يبدو صعبا بل يبدو مستحيلا. وما اشبه هذه الدعوة بالدعوة التي ترددت في اوائل هذا القرن عن «بناء الاشتراكية في بلد واحد»، بدلا من الدعوة الى الثورة الاشتراكية العالمية ، فغاية ما كان يتطلع اليه سعد هو تحرير مصر وإبراز شخصيتها امام التحديات التي كانت تواجهها وعلى رأسها تحدي الاستعمار الانجليزي ، ولم تكن القومية المصرية من وجهة نظر سعد زغلول موجهة الى «نفي» الطابع العربي في الشخصية المصرية ، وحتى التصريحات التي نسبت الى سعد زغلول لا تكشف عن رفض مبدئي لعروبة مصر ، بل تكشف عن معرفة بالصعوبات القائمة في وجه تحويل القضية المصرية الى قضية عربية في ذلك الوقت المبكر من ظهور الحركة الوطنية في مصر في اوائل القرن العشرين، والصعوبات التي كان يحس بها سعد زغلول في التوحيد بين كفاح مصر وكفاح العرب في ذلك الوقت كانت صعوبات حقيقية ، ويكفي ان نلاحظ ان مصر كانت تخوض معركتها اساسا ضد الانجليز ، بينما كانت بعض الدول العربية الاخرى مثل سوريا والعراق والحجاز تخوض معركتها اساسا ضد الاتراك ، وكان الانجليز يساعدون العرب خارج مصر في الإعداد للثورة العربية ضد الاتراك سنة ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين . وكان حل مثل هذا التناقض في منتهى الصعوبة ، حيث كان ذلك يقتضي اتصالا وتنسيقا بين الحركات السياسية

المختلفة في الوطن العربي ، وهو امر كان يبدو مستحيلا او شبه مستحيل في اوائل هذا القرن .

والخلاصة ان التيار الذي كان يمثلُه سعد زغلول في الدعوة الى القومية المصرية لم يكن يرفض الفكرة العربية رفضا نظريا مبدئيا بل كان يرفضها من الناحية العملية فقط .

والحقيقة ان هذا التيار الذي كان يمثلُه سعد زغلول هو نفسه التيار الذي كان مستعدا للتحول والتطور حتى يصبح تيارا مصرية عربيا في اول فرصة تتاح لابرار هذا الاتجاه في مصر . انه تيار عربي «بالامكان» وان لم يكن تيارا عربيا بالفعل .

وبالفعل فقد تطور التيار الذي خلقه سعد زغلول في السياسة الى تيار يقترب يوما بعد يوم من الفكرة العربية ، ففي سنة ١٩٣٩ اي بعد وفاة سعد باثنتي عشرة سنة ، كتب مكرم عبيد احد تلاميذ سعد ، واحد زعماء الوفد آنذاك ، وواحد من اعلام الاقباط في مصر ... كتب مكرم مقالا في مجلة « الهلال » يعلن فيه بوضوح عن ايمانه بعروبة مصر ، بل لقد كان عنوان مقاله «المصريون عرب» ، وفي هذا المقال يقول مكرم عبيد (١) :

«نحن عرب ويجب ان نذكر في هذا العصر دائما اننا عرب قد وحدث بيننا الآلام والآمال ووثقت روابطنا الكوارث والاشجان ، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان ، نحن عرب في هذا الجهاد القائم في كل قطر من اقطار العروبة لاستكمال الحرية ، وإحياء مجد الحضارة العربية، ونحن عرب من ناحية تاريخ الحضارة العربية في مصر، وامتداد اصلنا القديم الى الاصل السامي الذي هاجر الى بلادنا من الجزيرة العربية ، ولهذا يجب ان نعمل متضامين ونسعى الى المجد متعاونين ونوثق الوحدة العربية التي تنهض على الاشتراك في الاماني والآلام وفي التاريخ واللغة والخصائص القومية ، فالوحدة العربية حقيقة قائمة ، هي موجودة لكنها في حاجة الى تنظيم» .

هذه هي الكلمات التي كتبها مكرم عبيد ، والتي تكشف عن فهم علمي سليم لمعنى الوحدة العربية وللصلة العميقة بين مصر والعرب والتي تعود الى ابعد من فتح العرب لمصر ... هذه الكلمات لم يكن من السهل ان تصدر الا عن مفكر عاش في البيئة السياسية التي خلقها سعد زغلول ، والتي لم

١ - الفكرة العربية في مصر للدكتور انيس صايغ ص ١٧٣ .

تكن تفهم القومية المصرية على انها معارضة او معادية من حيث المبدأ للعروبة ، بل كانت القومية المصرية عند سعد زغلول وأبناء مدرسته السياسية تعبيرا عن رفض الاحتلال ، والعناصر الاجنبية الاخرى التي حاولت ان تفرض سيادتها الفكرية او الاجتماعية او الاقتصادية على مصر ، كما كانت تعني رفض الارتباط الذي دعا اليه الحزب الوطني بين مصر والاتراك .

في هذه المدرسة السياسية ، مدرسة سعد زغلول ، ولدت افكار العقاد عن القومية المصرية والشخصية المصرية ، بل كانت افكار العقاد في هذا المجال تعميقا وتطويرا لمبادئ هذه المدرسة ، ومن هنا لم يكن حديث العقاد عن القومية المصرية او الشخصية المصرية يعني ابدا اي عدااء او رفض للفكرة العربية ، بل ان تكوين العقاد كان يحمل بعض العناصر الاساسية التي تجعل منه قريبا الى الفكرة العربية أشد القرب ، سواء في المرحلة الاولى من حياته السياسية ، حيث ارتبط بالوفد والحركة الوطنية الشعبية ، او في الفترة الثانية من حياته السياسية حيث ارتبط بالاحزاب السياسية الرجعية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ويمكننا ان نحدد هذه العناصر في تفكير العقاد بثلاثة عناصر .

اما العنصر الاول فهو عنصر الثقافة .

لقد كان العقاد واسع المعرفة بالثقافة العربية القديمة وكان شديد الاحترام لهذه الثقافة ، شديد الايمان بها ، وكان الادب العربي القديم جزءا من الثقافة العربية التي عرفها العقاد وآمن بها أشد الايمان ، وقد كتب العقاد كتابات كثيرة عن الادب العربي القديم ، ومن امثال هذه الكتابات ما كتبه عن المتنبي وعن ابن الرومي وعن أبي نواس وعن عمر بن ابي ربيعة وجميل بثينة وغيرهم من شعراء العرب وأدبائهم . وقد بدأ العقاد حياته الادبية في اوائل القرن العشرين بالدعوة الواسعة الحارة الى التجديد الادبي ، وكانت العادة ان يبدأ دعاة التجديد بهدم الادب القديم ، ولكن العقاد كان يدعو الى التجديد الادبي بحرارة وحماس ، وهو في نفس الوقت يدافع عن الادب العربي القديم ، ويكشف عن جوانب جديدة مشرقة في هذا الادب وان كان في نفس الوقت يرفض تقليد هذا الادب ، ويدعو الى الاصاله التي كانت تميز اعلامه الاوائل .

وعندما نقارن مثلا بين دعوة العقاد الى التجديد الادبي وبين دعوة سلامة موسى الى نفس القضية ، فاننا نكتشف ان العقاد كان في دعوته الى التجديد يؤمن أشد الايمان بقيمة الادب العربي في عصوره الزاهية ، ويؤمن بالعبقريه الادبية عند

العرب في مراحل نهضتهم لا في مراحل الهزيمة والتخلف، بينما كان سلامة موسى ينادي برفض الادب العربي القديم كله وبأنه لا يعبر عن الانسان ولا عن الحضارة. اي ان دعوة العقاد الى التجديد الادبي كانت تعني العودة بالادب العربي الجديد الى الاتصال بالادب العربي القديم في عصوره الزاهية ، والى الاتصال بالآداب العالمية الحديثة من جهة أخرى ، بينما كان سلامة موسى يدعو الى البدء من جديد ورفض القديم واقتلاعه من الجذور. على ان العقاد لم يقف عند حدود الثقافة الادبية بل امتدت نظرتة الى الثقافة العربية في شتى مجالاتها . . . وكان يؤمن بأهمية الثقافة العربية وقيمتها ودورها الواسع في حضارة الانسان . وللعقاد كتابان صغيران ولكنهما كتابان هامان ، أولهما هو «أثر العرب في الحضارة الاوربية» والثاني هو «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين» . والفكرة الاساسية في هذين الكتابين هي الايمان العميق بالعبقريّة العربية ودورها في الحضارة الانسانية . وهو ايمان لا يعتمد على العاطفة ، بل يعتمد على العقل والبحث العلمي الدقيق .

وقد لقي هذان الكتابان مناقشة واسعة واعتراضات مختلفة من بعض النقاد والباحثين ، ولكن الذي يهمنا هنا هو ان العقاد اثبت في هذين الكتابين الآثار الباقيّة للحضارة العربية في الحضارة الانسانية حتى اليوم . ومن أهم ما اثبتته في هذا المجال هو ان الحروف العربية كانت هي الاساس الذي استمد منه العرب حروف الكتابة ، وأن العرب هم اصحاب السبق في هذا المجال . ويثبت العقاد ما تركه العرب من آثار أخرى واسعة في الحضارة الاوربية في شتى جوانب الفكر والحضارة الانسانية . ويخرج القارئ لهذين الكتابين بالثقة العميقة بالعبقريّة العربية، ويخرج ايضا بالثقة في امكان العرب في المساهمة الحضارية الفعالة اذا تخلصوا من عوامل التخلف التي تحيط بهم في الظروف الراهنة . وهذه الثقة بالامكانيات الكامنة في الشخصية العربية هي أصل من اصول الفكرة العربية الراهنة ، وهي الفكرة التي تدعو الى القومية العربية والوحدة العربية .

ونعود بعد ذلك الى العنصر الثاني الذي نجده في فكر العقاد ، والذي يربط بين هذا الفكر وبين الاتجاه العربي السليم . هذا العنصر الثاني هو عنصر اللغة العربية ، فالعقاد يدافع عن اللغة العربية دفاعا قويا ، واللغة

العربية كما هو واضح عنصر أساسي من عناصر الرباط بين أبناء الوطن العربي، ولذلك تعرضت اللغة العربية لحرب عنيفة من أعداء الوحدة العربية، وأعداء القومية العربية، ولقد قامت محاولات عديدة للقضاء على اللغة العربية، وما تزال هذه المحاولات تتكرر حتى الآن، وهدفها هو إضعاف عنصر أساسي يربط بين أبناء الوطن العربي.

كانت هناك محاولات لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وكانت هناك محاولة لتغيير اللغة العربية لتحل محلها اللهجات الشعبية. وكانت هناك محاولات ضرب اللغة العربية باللغات الأجنبية مثل اللغة الفرنسية في الجزائر، واللغة الانجليزية في جنوب السودان، واللغة الإيطالية في ليبيا، وفي حرب اللغة هذه كان موقف العقاد واضحاً تمام الوضوح.

كان يدافع عن اللغة العربية بقوة، وقد أصدر كتاباً عنوانه «اللغة الشاعرة» يثبت فيه أصالة اللغة العربية وجمالها، ويكشف فيه عن كثير من جوانب التفوق في اللغة العربية. ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي ظهرت في الدفاع عن اللغة العربية.

يبقى العنصر الثالث في فكر العقاد وهو اهتمامه الواسع بالاسلام. فاسلاميات العقاد تمثل جهداً بالغ القوة في دراسة الفكر الاسلامي والتاريخ الاسلامي والشخصيات الاسلامية.

والعرب كما هو معروف يتكونون الآن من اقلية مسلمة واقلية مسيحية. ولكن الاسلام بمعناه الفكري والحضاري والثقافي هو جزء اساسي من تكوين العقل العربي في المرحلة الراهنة بين المسلمين والمسيحيين على السواء. والاهتمام بإحياء الاسلام بجوانبه المتعددة في ضوء العقل الحديث هو تدعيم للشخصية العربية في جانب هام من تراثها الاصيل.

وبذلك يكون العقاد قد قدم خدمة واسعة لتأكيد الشخصية العربية والدفاع عنها، وتدعيم ثقافتها بنفسها، وذلك من خلال دفاعه عن الثقافة العربية والكشف عن قيمتها ودورها الواسع في الحضارة الانسانية، ثم من خلال الدفاع عن اللغة العربية وما فيها من عناصر القوة والبقاء والجمال والتفوق، وأخيراً من خلال دراسة الاسلام والتوسع في هذه الدراسة على ضوء المناهج العصرية الحديثة.

وقد كانت هذه الجهود الفكرية كلها موجهة اساساً لخدمة العناصر المشتركة في الشخصية العربية في كل اجزاء الوطن العربي... اي ان هذه العناصر هي العناصر التي تمثل قاسماً مشتركاً بين المصريين والسوريين

والعراقيين وسكان المغرب العربي وأهل الجزيرة العربية والسودانيين وغيرهم من العرب في داخل البلاد العربية وخارجها ، المسلمين منهم والمسيحيين في نفس الوقت .

ومن الناحية العملية فأننا نجد ان كتابات العقاد الى جانب غيرها من كتابات اعلام الادباء في الجيل الاول من امثال طه حسين وأحمد امين والزيات والمازني وغيرهم . . هذه الكتابات ولا شك كانت غداء فكريا لكل المتعلمين والمثقفين في الوطن العربي منذ بداية الربع الثاني للقرن العشرين - ١٩٢٥ - حتى الان . ولقد كانت كتابات العقاد وابناء جيله عنصرا من عناصر التماسك في كل المناطق العربية التي تعرضت للاضطهاد ، وحاول الاستعمار ان يمحو شخصيتها عن طريق الحرب التي شنّها على الثقافة العربية واللغة العربية والاسلام ، وعلى سبيل المثال كانت هذه الكتب تصل عن طريق التهريب الى المثقفين والمتعلمين الجزائريين اثناء كفاحهم ضد الاستعمار الفرنسي ، وكانت هذه الكتب هي التي حافظت على الشخصية العربية للجزائر في تلك الايام الصعبة القاسية ، حيث كان الاستعمار يركز على القضاء التام على عروبة الجزائر لغة وفكرا ودينا .

ومن هنا فأننا نستطيع ان نقول : ان فكر العقاد وكتاباته قد خدمت قضية الوحدة العربية خدمة واسعة واساسية ، كل ذلك دون ان نجد في كتابات العقاد دعوة مباشرة الى الوحدة العربية ، بل اننا نجد في كتاباته احيانا تلك التفرقة التي يسجلها بين المصريين وغيرهم من العرب ، كما جاء في مقاله الذي اشرنا اليه في اوائل هذا الفصل عن «الشعر» في مصر ، كما نجد في كتاباته احيانا ما يبدو منه ان العقاد لا يتصور ظهور وحدات سياسية على طراز الوحدة العربية التي تقوم على اساس من دعوة القومية العربية ، وتتضح هذه الفكرة عند العقاد من مقالين له في كتاب «بين الكتب والناس» وهذان المقالان هما «هل نحن في عصر الجامعات ؟» و«لسنا في مصر الجامعات» . . . والجامعات في هذين المقالين تعني «الوححدات السياسية» مثل «الجامعة العربية» او «الجامعة الجرمانية» . . . السخ هذه «الجامعات» التي تعني قيام وحدات سياسية على اساس وجود روابط مشتركة بين عدة بلاد او عدة شعوب .

والعقاد في هذين المقالين يرفض فكرة الجامعات ويقول « . . . جملة القول ان عصر الجامعات قد انقضى بانقضاء مرحلته التاريخية ، وان الدعوات الكثيرة الى الجامعات المختلفة لا تدل على اننا في عصر الجامعات ، بل لعلها هي الدليل على بطلان هذه الدعوات لانها حيلة ومحاولسة ، ولا

يصطنع التاريخ بالحيل والمحاولات» . هذا هو الرأي النظري السريع للعقاد .
انه لا يؤمن بالجامعات القومية ... ومن بينها الجامعة العربية التي
تدعو الى وحدة العرب .

ولكنه رأي سريع كما قلت ... ورأي غير قائم على اساس من الدراسة
العميقة ... فعندما يحاول العقاد بعد ذلك ان يبرر فشل الدعوة الى
الجامعة العربية فانه يقول في نفس المقال «هل نحن في عصر الجامعات» من
كتابه «بين الكتب والناس» ص ٧٢ :

«... بدأ السعي الى توحيد الامم العربية قبل اكثر من مائة سنة على
يد القائد المقدام ابراهيم بن محمد علي الكبير - رأس الاسرة المحمدية
العلوية - فكان يقول ان فتوحه لا تقف دون بلد من البلاد ينطق فيسه
بالضاد ، ولكن الدول الاوربية احبطت هذه الحركة ، وظلت تعمل على
احباطها نحو خمسين سنة ، ثم عادت تنفخ فيها بما تستطيعه من المساعي
الثقافية والسياسية ، فكانت فرنسا ترسل البعث الى لبنان والشام
لاحياء تراث العرب ونشر المخطوطات المهجورة ، وكانت بريطانيا العظمى
ترسل عيونها ووكلاءها الى أرجاء الجزيرة العربية ، وكانت الدولتان
والولايات المتحدة معهما تجتهد اجتهداها في ذلك لهدم الدولة العثمانية لا
لخدمة العرب والثقافة العربية ، فلما خرجت امم العرب من سلطان آل
عثمان تبدل الموقف كله ، وأصبحت هذه الدول لا تسمح لجامعة العرب
بالبقاء الا بمقدار ما تستفيد منها وتسخرها في تزجية مطامعها ، وقد
تعارض هذه المطامع وتتناقض فلا تعرف الجامعة كيف تستجيب لها ،
ولو أرادت ان تستجيب» .

ثم يقول العقاد بعد ذلك في نفس المقال :

«وتقوم الجامعة العربية اليوم على دعامين : اتقاء الخطر عليها من
خارجها ، واتقاء الخطر عليها من داخلها ، فقد يكون الخطر الذي تتوقعه
احدى الدول العربية من دولة عربية أخرى بعض الاسباب التي تدعوها الى
التجمع والحرص على دوام الائتلاف» .

هذه كلمات العقاد المباشرة عن الوحدة العربية او الجامعة العربية كما
كان يسميها . ويمكننا ان نسجل على هذه الكلمات عدة ملاحظات .

الملاحظة الاولى هي ان العقاد قد اشار الى بعض الظروف الخارجية
التي احاطت بحركة الوحدة العربية ، مثل محاولة ابراهيم باشا تحقيق
الوحدة بقوة السلاح ، ومثل محاولة الغربيين احياء حركة الوحدة العربية
لمقاومة الامبراطورية العثمانية والعمل على تدميرها ، ثم معارضة الغرب

للوحدة العربية بعد القضاء على العثمانيين ،
هذه كلها ظروف خارجية ولكن حركة القومية العربية لها عواملها
الداتية التي دفعتها الى الخروج الى الحياة والى ميدان الواقع السياسي،
هذه العوامل الداتية هي الارتباط المشترك في الثقافة والدين واللغة ،
ووحدة الارض ووحدة المصلحة والمصير بين سكان المنطقة العربية من
الخليج الى المحيط . وهذه العوامل الداتية هي العوامل الباقية والاصيلة
في تكوين القومية العربية وهي العوامل التي تجعل من الوحدة العربية
حركة تاريخية حتمية لا بد ان تتحقق ، وقد أغفل العقاد الاشارة الى هذه
العوامل في مقاله .

من ناحية أخرى نجد ان العقاد يشير في هذا المقال الى حركة الوحدة
العربية على انها حركة تجمع وائتلاف ، وهذا وصف خاطيء تماما لحركة
الوحدة العربية ، فالوحدة العربية لا تعني التجمع والائتلاف ، فالتجمع
والائتلاف يمكن ان يتم بين بعض الدول ذات السياسة الواحدة في مرحلة
تاريخية معينة دون ان يكون بين هذه الدول اي نوع من الوحدة القومية،
فالمانيا وايطاليا واليابان كان يضمهم معسكر واحد هو معسكر المحور ، ولم
يكن بين هذه البلاد اي رباط قومي من اي نوع ، وهناك معسكر الدول
الاشتراكية التي لا ترتبط مع بعضها بأي رباط قومي وهناك معسكر عدم
الانحياز . . الى آخر هذه المعسكرات التي يمكن ان نقول عنها انها نوع من
النجم او الائتلاف ، ولكن القومية العربية حركة أخرى تهدف الى اقامة
وحدة سياسية شاملة تجعل منها بلدا واحدا مثل الولايات المتحدة او
روسيا او الصين ، او غيرها من البلاد .

والملاحظة الاخيرة على كلمات العقاد هي انه لم يدرك في حديثه عن
«الجامعات الوطنية» ان الامة العربية هي وحدها تقريبا - في العصر
الحاضر - التي تمزقت اوصالها الى وحدات اقليمية مصطنعة ، رغم ان
ذلك ضد مصلحتها وضد مستقبلها السياسي والاقتصادي والحضاري كله،
وان المفروض ان يتم تصحيح هذه التجزئة والعمل على توحيد الامة
العربية من جديد .

هذا القصور عند العقاد في فهم حركة الوحدة العربية لا ينفي انه في
حقبته من اكبر الذين خدموا الوحدة العربية عن طريق جهوده
الثقافية الواسعة في دراسة الادب العربي والفكر العربي واللغة العربية
والاسلام . صحيح ان العقاد لم يبلور دراساته المختلفة في دعوة صريحة
ومباشرة الى الوحدة العربية . . . ولكنه قدم الى دعاة الوحدة العربية

كثيرا من الدراسات التي يمكن ان يستندوا اليها استنادا قويا في تدعيم قضيتهم .

ولعل ايمان العقاد الداخلي العميق بارتباط مصر بالامة العربية ، وهذه النقطة دائما هي المحك الصادق لايمان اي كاتب مصري بالقومية العربية والوحدة العربية ، لعل هذا الايمان بعروبة مصر عند العقاد هو الذي دفعه الى ان يكتب فصلا عن الصهيونية في كتابه « ١١ يوليو وضرب الاسكندرية » . . . وهذا الكتاب يتحدث عن لحظة في تاريخ مصر ليس لها اي علاقة مباشرة بالتاريخ العربي ، هذه اللحظة هي ضرب الاسكندرية ودخول الجيوش الانجليزية الى مصر وبداية احتلال سنة ١٨٨٢ ، ومع ذلك فقد انتبه العقاد في هذا الكتاب الذي صدر في ١١ يوليو سنة ١٩٥٢ اي قبل قيام الثورة بأحد عشر يوما ، الى دور الحركة الصهيونية في الاحتلال الانجليزي لمصر تمهيدا - من جانب الصهيونية - لتحقيق اهدافها في الوطن العربي . . . وبذلك يكون العقاد قد أدرك بوضوح ذلك الارتباط بين المصير العربي والمصير المصري . . . ويقول العقاد في كتابه صفحة ٨١ :

«اتفق في سنة ١٧٩٨ سنة الحملة الفرنسية على مصر ، ان يهوديا فرنسيا اذاع في باريس خطابا الى قومه يدعوهم فيه الى تأليف مجلس عام يضم اليه مندوبين من اليهود المنتشرين في انحاء العالم ، ويكون اجتماعه الاول في باريس لتقديم طلب الى الحكومة الفرنسية يسألونها ان تساعدكم على رد وطنهم القديم ، ويشفعون هذا الطلب بالسعي في الاستانة لاقتناع السلطان العثماني بقبوله ، وقد جاء في ذلك الخطاب ان البلاد التي يريدونها تشمل الوجه البحري في مصر الى عكا والبحر الميت وشواطئ البحر الاحمر ، وهي رقعة من الارض تجعلهم سادة التجارة الهندية والعربية والفارسية .

ويقول صاحب الخطاب ان فرنسا يمكن ان تستمال الى هذه المهمة بما تخصصها به من الربح والعوض والمقايسة على النفوذ . . . نقل سوكولوف هذا الخطاب في كتابه عن تاريخ الصهيونية من سنة ١٦٠٠ الى ١٩١٨ . . . » ويكشف العقاد بعد ذلك عن الجهود الصهيونية الاخرى التي ساهمت في تدبير احتلال مصر ، ومن خلال هذه الدراسة يتضح لنا ان الصهيونية وهي عنصر رئيسي في التآمر على العرب في العصر الحديث - كانت تضع في مقدمة خططها ان تدمير مصر هدف لا بد منه لتنفيذ خططها المختلفة في الوطن العربي .

وهكذا فاننا نجد في كتابات العقاد المباشرة وغير المباشرة عن الوحدة

العربية نوعاً من التناقض الشكلي ، ففي الوقت الذي تمثل كتاباته الرئيسية دعوة الى الثقة بالعرب والحضارة العربية وفهما للروابط الاساسية بين مصر والعروبة . . . في الوقت الذي تمتلئ فيه كتابات العقاد بهذه الافكار فأنا نجد له كتابات متناثرة توحى بأنه يفرق بين مصر وبين العرب ، او توحى بأنه لا يعتقد بإمكان قيام وحدات قومية ، وبأن الوحدة العربية من بين هذه الوحدات التي لا يتصور امكان قيامها .

هذا هو التناقض الشكلي الذي نجده في كتابات العقاد .

ولكن هذا التناقض لا ينفي ان الجهد الاكبر والاعمق في كتابات العقاد حول العرب والثقافة العربية والحضارة العربية هو جهد يخدم الاتجاه الى الوحدة العربية خدمة بالغة القيمة والاهمية ، بينما تمثل كتاباته الاخرى التي تبدو منها رائحة المعارضة للوحدة العربية هوامش عابرة غير عميقة الجذور في فكره وثقافته .

صورة عامة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع العقاد وحياته السياسية هل يمكننا ان نخرج بصورة عامة تجمع هذه الخطوط المبعثرة المتفرقة ؟ هل يمكن بعد التفصيل ان نصل الى شيء من التلخيص والتركيز والايجاز ؟ ان اي صورة للعقاد السياسي في قلبه بين اليمين واليسار لا يمكن ابدا ان تغني عن الملامح التفصيلية ، ومع ذلك فيمكننا ان نحدد هذه الصورة العامة في عدد من الخطوط الرئيسية .

فقد عاصر العقاد فترة طويلة من الحياة السياسية في مصر والوطن العربي بل في العالم كله ، حيث بدأ الكتابة في اوائل هذا القرن ، حوالي ١٩٠٦ او ١٩٠٧ واستمر يحمل قلمه حتى وفاته سنة ١٩٦٤ اي انه ظل يكتب خلال ما يقرب من ستين سنة متصلة ، وفي هذه الفترة حدثت انقلابات وتقلبات عديدة في السياسة المحلية والسياسة العالمية وقد عكست هذه التقلبات اثرها على العقاد وحياته السياسية .

على اننا مع كثرة العواصف والتقلبات نستطيع ان نبتين مرحلتين رئيسيتين في حياة العقاد السياسية ... المرحلة الاولى هي مرحلة ارتباطه بالحركة الوطنية والشعبية ، وهي المرحلة التي تمتد منذ بداية حياته الفكرية حتى سنة ١٩٣٧ ، وفي هذه المرحلة كان العقاد كاتباً شعبياً ، يقف في المعسكر الوطني في السياسة المصرية دون تردد ، بل كان يقف على رأس هذا المعسكر ، وكانت كتابات العقاد ذات تأثير واضح على الجماهير ، وكانت القضايا التي آمن بها وعبر عنها هي قضية التحرير الوطني ، وقضية الديمقراطية وحرية التعبير والرأي والمعارضة العنيفة للدعوات الفاشية المحلية والعالمية على السواء ، والعقاد في هذه المرحلة يقدم نموذجا للكاتب الوطني الحر الذي يقف بكل مواهبه ويجند نفسه بقوة

لخدمة الجماهير وخدمة الوطن في قضاياها الرئيسية ، ولا شك ان تاريخ العقاد السياسي في هذه المرحلة يعتبر نموذجا للتاريخ الوطني النزيه الشريف ، انه تاريخ كاتب كبير يهدف الى التأثير في جماهير قرائه والى خدمة وطنه على نطاق واسع . . . فالعقاد لم يعتكف في برج عاجي في تلك المرحلة من حياته ، مكتفيا بالكتابة الادبية والثقافية بعيدا عن لهيب المشاكل والمتاعب ، بل على العكس حرص على ان يخوض المعارك اليومية التي كان الشعب يخوضها ضد الانجليز والرجعيين المحليين . ولم يكن العقاد يكتب كتابات سريعة عابرة ، بل كان يكتب كتابات عميقة وجميلة ومؤثرة يظهر فيها اثر الاهتمام والاقتناع والحرص العميق على المشاركة في القضايا العامة .

مرحلة مشرقة ومشرقة في تاريخ العقاد . بعد ذلك تجيء المرحلة الثانية في حياة العقاد السياسية منذ سنة ١٩٣٧ ، لتسجل انحراف العقاد عن الخط الوطني الذي سار فيه منذ بداية حياته الفكرية ، لقد ترك العقاد الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية ، وارتبط بالاحزاب الرجعية اليمينية وعلى راسها الحزب السعدي ، وكانت هذه الاحزاب تعمل في اطار سياسة واضحة يحددها الانجليز او تحددها الرجعية المحلية في مصر . لماذا كان هذا الانحراف او التحول ؟

... لقد كان من الممكن ان يخرج العقاد على الوفد ويرفض اخطائه السياسية والتنظيمية ، ويبحث لنفسه عن طريق سياسي جديد ، بعيدا عن الوفد واكثر منه وطنية وشعبية وتقدمية . ولكن العقاد على العكس ، خطأ بعد خروجه من الوفد خطوات متعددة الى الوراء ، واصبح كاتباً لامعاً في المعسكر الرجعي اليميني للسياسة المصرية .

هل كان ذلك لان العقاد آثر ان يستريح بعد عناء طويل في ظل الرجعية التي وفرت له كثيرا من وسائل الراحة والامان والوجاهة الاجتماعية ؟ هل سبب ذلك ان العقاد كان يتأثر بالعوامل الشخصية الدائرية بشكل يطمس رؤيته الموضوعية للامور ، مما كان يدعوه اذا اصطدم اصطداما شخصيا بقيادة الوفد ، ان يلتمس العمل في معسكر سياسي آخر يتوفر فيه بعض اصدقائه الذين يقدرونه ويحترمونه حتى ولو كان هؤلاء الاصدقاء يقفون في معسكر رجعي معاد للشعب ؟ ... لقد درسنا ما استطعنا ان نصل اليه من اسباب تحول العقاد في الفصول المختلفة لهذا الكتاب ، ولكن الذي نريد ان نؤكد عليه في هذه الصورة العامة هو ان العقاد - حقا - قد عانى طويلا من الكفاح في صفوف المعسكر الوطني ، وانه من ناحية اخرى كان

سريع التأثير بعواطفه الشخصية الخاصة ، وكانت نتيجة هذين العاملين - بالإضافة الى عوامل أخرى اشرنا اليها في الفصول السابقة - ان اندفع العقاد الى معسكر الرجعية في القسم الاخير من حياته ... وكان اندفاعه مؤسفا ومثيرا للحزن بعد بدايته العظيمة المشرقة. واذا كان العقاد في مرحلته السياسية الاولى قد احس بخطر الفاشية العالمية وحاربها منذ ظهور موسوليني على المسرح الدولي في العشرينات ، فانه في المرحلة الثانية قد وقف موقفا عنيفا حادا من كل مدارس الفكر اليساري ، وكان عداؤه المفرط لليسار من أبرز خصائص المرحلة الثانية في حياته السياسية. ولا شك ان هذا الموقف قد ساهم في تعميق ملامح صورته ككاتب رجعي في الفترة الاخيرة من حياته .

ولو ان العقاد كان كاتباً سياسياً وحسب لانطوت صفحاته في تاريخنا الوطني منذ سنة ١٩٣٧ ، ولكن العقاد كان اديبا ومثقفا كبيرا ، ولذلك استطاع ان يضيف ملامح مشرقة الى صورته الاخيرة رغم الاطار الرجعي الذي حبس نفسه فيه ... فقد قدم العقاد مجموعة من الدراسات الادبية الهامة ، كما قدم مجموعة كبيرة من الدراسات الاسلامية التي تعتبر اثرا من أهم آثار الفكر العربي المعاصر رغم ما يمكن للباحث ان يسجله على هذه الدراسات من اخطاء وماخذ، ولكن هذه الدراسات مع ذلك كله تعتبر جهدا كبيرا يحفظ للعقاد مكانته في حركتنا الفكرية المعاصرة رغم مواقفه السياسية الرجعية .

لا أريد ان اخرج من دراستي للعقاد السياسي بدروس ومواعظ فلقد حرصت في مختلف فصول الكتاب على ان اقدم الجوانب السلبية في آن واحد مع الجوانب الايجابية في حياة العقاد السياسية ... ولكنني مع ذلك لا املك الا ان اسجل شعوري بالاسف كلما تأملت في الفترة الاخيرة من حياة العقاد ... فقد كان العقاد كاتباً مثابراً مجتهدا الى أبعد الحدود، عاش من اجل قلمه ، واحترم مهنة الكتابة وأخلص لها وأعطاهها حياته كلها، فلم يتزوج ، ولم يشغل نفسه بالاسرة ولا بحياة اجتماعية واسعة ، وعاش حياته كما يعيش الراهب او الجندي المخلص لحياة الجندي القاسية ، وكان العقاد كاتباً موهوباً قادراً على التعبير والتأثير من خلال كتاباته وكان كاتباً مثقفاً واسع الاطلاع ... ومن هنا ولد شعوري بالاسف ، فلقد كان هذا الكاتب يستطيع بكل ما يملكه من اخلاص وامكانيات ومواهب فكرية ان يواصل طريقه في خدمة الحركة الوطنية التقدمية في مصر وفي الوطن العربي، وان

يساهم في تعميق هذه الحركة والاضافة اليها ، لو انه بقي في المعسكر الوطني دون ان ينحاز للرجعيين ، ولو انه أدرك رسالة الفكر التقدمي الاشتراكي فوقف في صفه بدلا من ان يشن عليه حربا عنيفة قاسية دفعته الى محاربة كل الافكار الجديدة في السياسة والادب على السواء ، في المرحلة الاخيرة من حياته ، ولا شك ان الموقف السياسي قد اثر في موقفه الادبي ، فقد كان مجددا في الادب عندما كان مرتبطا بالتيار السياسي الشعبي ، وكان معارضا للتجديد عندما ارتبط بالتيار السياسي الرجعي . ولكن «لولا» هذه لا تستطيع ان تغير التاريخ . . . فهذا هو الواقع الذي بين ايدينا ، لا نستطيع الا ان ندرسه ونتأمله بقدر ما نملك من الحقائق ، ولعل في الظروف العامة التي كانت تعانيها بلادنا قبل ثورة ١٩٥٢ ما يجعلنا نخفف هجومنا على المرحلة الثانية من حياة العقاد السياسية وان لم تعفه هذه الظروف من النقد . . . فلقد كانت مصر تعيش في ظروف قاسية من الامية ولم يكن الكاتب يستطيع ان يعيش مستقلا بقلمه ، وكان لا بد له من ان يستند الى حزب سياسي يمكن ان يعاونه على الحياة ويحميه من الجوع ، ولم يكن العقاد موظفا مثل توفيق الحكيم او طه حسين ، فكان ارتباطه بالاحزاب السياسية امرا لا بد منه .

هناك ايضا تلك التطورات المتلاحقة التي اصابنا السياسية قبل ١٩٥٢ ، ولقد كانت سرعة تطور الاحداث في مصر والعالم في النصف الاول من هذا القرن كفيلة بفرض نوع من الاضطراب والارتباك على مفكر مثل العقاد عاصر هذه العواصف المتصلة زمنا طويلا ، وكان عليه ان يتطور بسرعة تشبه القفز حتى يستطيع ان يلاحق ما يحدث في الواقع من تطورات ، ولا شك ان الاضطراب في المواقف السياسية كان ظاهرة شائعة بين كبار كتابنا في جيل العقاد . . . وان كان البعض قد استطاع ان «يداري» هذا الاضطراب بأساليب لم يكن يعرفها العقاد بحكم طبيعته الصريحة العنيدة الحادة .

لعل هذا كله ان يخفف من حكم التاريخ على العقاد في المرحلة الثانية من حياته السياسية .

على ان حكم التاريخ سيظل في النهاية كما هو . . . سواء ظهر هذا الحكم في صورة هادئة او في صورة عنيفة قاسية .

فالعقاد السياسي قد عاش حياتين مختلفتين :

حياة المناضل الوطني المؤمن بالشعب والحرية والديمقراطية حتى سنة ١٩٣٧ وحياة اخرى في ظلال الرجعية السياسية . . . يدافع عنها ويعبر عن

آرائها ويبرر مواقفها المعادية للشعب والحرية والتقدم منذ ١٩٣٧ حتى ١٩٥٢ . . . ثم بعدها سكت العقاد عن السياسة الا ما كان من معارضته العنيفة للفكر اليساري وهو موقف ورثه عن ايام ارتباطه بالرجعية السياسية ، وعن مرحلة صداقته مع الرجعيين الذين يكرهون اليسار في كل اشكاله ودرجاته ، فقد كانوا يكرهون اليسار المتطرف الذي ينادي بالثورة ، واليسار المعتدل الذي ينادي بالاصلاح ، وكانوا يكرهون اليسار في السياسة والاقتصاد وفي الفن والفكر .

على ان صورة العقاد العامة ما زال فيها بعض الملامح الاخرى . . . فقد كان العقاد يميل في مواقفه السياسية الى النزعة الحزبية الحادة المتطرفة ، وكان هذا الطابع الحزبي في مواقف العقاد يقوده الى عداوات عنيفة ، ويحول بينه وبين اي محاولة لفهم التيارات الاخرى المعارضة له او الحكم عليها بقدر من الانصاف والموضوعية ، ولعل هذا الطابع الحزبي الصارم عند العقاد هو الذي فرض عليه ذلك الاسلوب الذي عرف به في كتاباته السياسية المختلفة ، وهو الاسلوب الذي كان يتسم بالقسوة والتجريح والتشهير ، وكانت كتابة العقاد السياسية - في بعض الاحيان - نوعا من الهجاء الفاحش الذي يعتمد على السب والشتم اكثر من المناقشة والاقناع ، ولقد كان هذا الاسلوب مقبولا - بل ومعشوقا - لدى الجماهير عندما كان العقاد يستخدمه ضد السياسيين المعروفين بعدائهم للمصالح الشعبية مثل : محمد محمود واسماعيل صدقي وحسن نشأت وأحمد زيور وتوفيق نسيم وحلمي عيسى وغيرهم ، فقد كان العقاد بذلك يعبر تعبيرا انتقاميا عن عواطف شعبية اصيلة ضد هؤلاء السياسيين ، وكانت سخريته وقسوته على هؤلاء الرجال مصدرا لاعجاب الشعب ورضاه وتحمسه لكتابات العقاد ، لان هؤلاء الرجال جميعا كانوا يضعون كفاءتهم وخبرتهم في خدمة الاستعمار والملك وضد مصالح الشعب ، وكان الشعب يرفضهم ويستنكر مواقفهم .

ولكن عندما تحول العقاد الى معسكر هؤلاء الرجعيين استخدم أسلوبه في الهجاء السياسي ضد رجال كان لهم تاريخهم الوطني المعروف ، وكانت لهم شعبيتهم ومكانتهم لدى الجماهير مثل : مصطفى النحاس ومكرم عبيد وغيرهما من الزعماء الوطنيين .

وعندما نقلب صفحات الحياة السياسية نجد ان الكاتب الذي ورث العقاد ومكانته في الفكر السياسي الشعبي هو محمد مندور ، ونجد في نفس الوقت ان محمد مندور كان حادا وصارما مثل العقاد ، وذلك عندما

كان مندور يتحدث عن مطالب الشعب الاساسية في الحرية والعدالة ، ولكن كتابات مندور كانت تتسم بالركة والتهذيب والموضوعية والبعد عن الهجاء حتى في مهاجمة معسكر الاعداء ومن فيه من الرجال البارزين .

من الملامح الاخرى التي نجدها في شخصية العقاد ان ايمانه بالديمقراطية وعدائه للسلطة الفردية كان ينبع من الديمقراطية بمعنى واحد هو : حرية الراي والتعبير ، وقد دافع العقاد في فترة طويلة من حياته عن هذا المعنى بشجاعة وجراة وشرف ، ودفع ثمن مواقفه دون تردد . ولكن ايمان العقاد بالديموقراطية كانت تحوطه اكثر من علامة استفهام واحدة .

فالعقاد لم يظهر اهتماما حقيقيا بالفكر الاجتماعي والاقتصادي ، وآراؤه في القضايا الاجتماعية الرئيسية مثل قضية تحرير المرأة كانت اقرب الى الآراء الرجعية منها الى الآراء الديموقراطية ، بل وكانت في بعض الاحيان قريبة من الآراء الفاشية التي كان بعضها ينادي بأن المرأة هي : «المطبخ والسرير» وليست للعمل او للمساهمة الاجتماعية الواسعة ، ومن ناحية اخرى نجد العقاد بعيدا عن الفهم الصحيح لدور العدالة الاقتصادية في بناء العدالة السياسية ... لقد كانت الديموقراطية عنده حرية في التعبير ومساواة في هذه الحرية ، ولم تكن الحرية مساواة في الظروف الواقعية وفي الفرص الاقتصادية ايضا .

ومن ناحية اخرى نجد ان ايمان العقاد بالفرد المتفوق الممتاز اقترب به في كثير من الاحيان من الافكار الفاشية والنازية في عبادة البطل وعبادة القوة ، مما ألقى ظللا كثيفة على ايمان العقاد بالديموقراطية .

على اننا في آخر الامر لا نملك الا ان نثني امام هذا الكاتب الكبير ، فقد هاش اكثر من خمسين عاما لا عمل له الا القلم ، والقلم الملتزم المرتبط بالقضايا العامة ، لا القلم المنعزل المتعالي ، والقلم الشجاع لا القلم المتردد ، وكانت ظروف العقاد وظروف المجتمع معقدة صعبة ، ومع ذلك صمد العقاد ، واعتمد على قلمه وحده حتى آخر يوم في حياته .

ولا شك عندي في ان آراءه - ما كان منها خطأ وما كان صوابا - انما كانت كلها من وحي ضميره وايمانه ومعتقداته الخاصة ، ولم تكن من وحي احد ولا من الهام قوة من القوى التي يتصور البعض ان العقاد كان هميلا لها . لقد عاش العقاد حياة فكرية مليئة بالخصوبة ، مليئة بالخطأ والصواب ، ولكنها ايضا مليئة بالشرف والاستقلال والشجاعة .

ولقد كانت الصفحات السابقة رحلة طويلة مع الصواب والخطأ فسي آراء العقاد على قدر الرؤية لدينا وعلى قدر الاجتهاد ... ولكن الشعور

العام الذي خرجت به من رحلتي مع العقاد - رغم الاختلاف الواسع معه في مرحلة كاملة من تاريخه السياسي - هو شعور الاحترام والتقدير والاكبار لرجل عاش عمره الطويل من قلمه ومع قلمه ، ويوم مات لم يترك وراءه زوجة ولا ولدا ولا ثروة، وانما ترك عشرات من الكتب والآراء والأفكار، سهر عليها ليالي عمره الطويلة واستمد منها الدفء في أيام الصقيع، والطعام في أيام الجوع ، والحنان في أيام الوحشة ، والكرامة لنفسه وعقله في كل أيام عمره .

ملحق

مناقش

هذه مجموعة من الوثائق تقدمها الى القراء بنصها، لانها وثائق ذات أهمية في الكشف عن جوانب أساسية في حياة العقاد السياسية وما مر بها من تقلبات ومواقف، كما انها تكشف من ناحية أخرى جوانب أساسية في الحياة السياسية المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ، وما امتلأت به هذه الحياة من أحداث ومواقف وتطورات . وقد اخترنا ان نقدم هذه الوثائق بالذات لانها غير ميسورة للقارئ العربي ، فهي مبعثرة في صحف وأوراق قديمة يصعب على القارئ ان يحصل عليها .

وهذه الوثائق هي بالترتيب :

- ١ - نص الحديث الذي أجراه العقاد سنة ١٩٠٨ مع سعد زغلول ، وما يكشفه هذا الحديث من الصلة الوثيقة بين العقاد وسعد ، وهي الصلة التي بدأت منذ ان أجرى العقاد حديثه مع سعد ، كما يكشف هذا الحديث عن بعض المشاكل الفكرية والثقافية التي كانت تعانيها مصر في ذلك الحين .
- ٢ - نص حيثيات الحكم في قضية اتهام العقاد بالعيب في الذات الملكية سنة ١٩٣٠ ، وهي القضية التي انتهت بالحكم على العقاد بالسجن لمدة تسعة اشهر .
- ٣ - نص دفاع مكرم عبيد عن العقاد ، حيث كان مكرم سكرتيراً للوند وكان العقاد كاتبه الوند الاول في تلك الفترة -١٩٣٠- .
- ٤ - «آخرة عباس العقاد - حقيقة الكاتب وما كتب» ، وهو مقال كتبه مكرم عبيد ايضاً سنة ١٩٣٥ ، والمقال يمثل ما حدث في حياة العقاد من تحول في علاقته مع الوند ، وما حدث في موقف الوند من تحول وتغير بالنسبة للعقاد ، وهذا المقال الذي كتبه مكرم عبيد اذا وضعناه الى جانب دفاع مكرم السابق عن العقاد فان التناقض بينهما يكشف لنا - بوضوح - عن التناقض في حياة العقاد السياسية ... من كاتب الوند الاول الى اكثر اهداء الوند هنفا وخصومة .
- ٥ - رد العقاد على مقال مكرم عبيد .

نص الحديث الذي اجراه العقاد مع سعد زغلول «وزير المعارف» سنة ١٩٠٨

جريدة «الدستور» مايو ١٩٠٨ - وكتاب عامر
العقاد : «(صفحات من معارك العقاد السياسية)» صفحة ٤٦ .

حديث مع ناظر المعارف راي سعد زغلول في اللغة العربية

«مسألة التعليم الان هي المسألة التي شغلت الالهام وانماضت الجرائد في فحصها وتقليبها من جميع وجوهها .
ولي الحقيقة انها المسألة التي يجب على كل ذي بصر ان يضرب فيها بسهم وينقب عما يفتح مغلقها ويزيل عقباتها مع اخلاص العامل الذي لا هم له الا ترقية بلاده وخدمة وطنه بكل ما في وسعه .
فاذا بحث فيها فانما يبحث عن كل ما يستحق البحث في مصر وعلى قدر اخلاص الباحثين او خبت نيتهم تكون النتيجة حسنة او سيئة على هذه البلاد التي نفتخر بانفسنا ابناءؤها دون غيرنا المسؤولين امام الله وامام ضمائرنا عما يسعدنا او يشقيها ، وكل زلة يات بها الباحث في هذا الموضوع تبعده عن الف حقيقة مقررة وتدنيه من عاقبة وخيمة عليه بصفته مصريا يسوؤه ما يسوء البلاد التي ينتسب اليها .
ولقد تضاربت الآراء في امر التعليم ، فذهب الناس مشرقيين ومغربيين فمنهم من يمم الكعبة ومنهم من خاض في بحر الظلمات ، واصبحوا يتساءلون عن تلك الضجة القائمة حول التعليم ومبلغها من الصدق والاخلاص لان عليها يتوقف مستقبل ابنائهم وذويهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشدون .

لذلك اردت ان ارجع الى رجل أعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد وأرى ان في قوله خير حاسم لهذا النزاع الذي استطار شرره واستفحل ضرره - ذلك الرجل هو سعد زقلول باشا ناظر المعارف الحالي - فكتبت اليه استأذنه في مقابلة صحفية فأذن وحدد لذلك الساعة العاشرة من صباح امس - يوم الخميس وقد كان .. فدخلت عليه وهو منكب على عمله وبعد ان استقر بي المكان بدأت الحديث كما يأتي :

قلت : ان بعض الجرائد اشارت الى ان نظارة المعارف طلبت من المالية زيادة ميزانية هذا العام فأبت عليها ذلك ، واحتجت بقلة المال عندها . فهل هذا صحيح ؟

قال : نعم هو صحيح وقد كانت حجة نظارة المالية في ذلك مقبولة لان ما لديها كان حقيقة لا يفي بما أطلب منها .

قلت : وما هو رأيكم في عرض لوائح التعليم على مجلس الشورى قبل تقريرها ؟
قال : ان هذه المسألة قد عرضتها علينا الحكومة ونحن نفحصها الان ونعد الجواب عليها ولكن لم يتقرر شيء من ذلك رسميا حتى الان .

قلت : حادثة بعض نظار المدارس الابتدائية فاذا هم يتخذون تسهيل الامتحانات في اللغة العربية دليلا على ميل النظارة الى اهمالها والاستغفال بغيرها من المواد الاخرى وقد سمعت مثل هذا من غير واحد منهم .

فرايت انهم يكادون يجمعون على هذا القول ، وفي ذلك ما يدعوهم اليه اهمالها حقيقة جريا على ما يظنونه رغبة نظارة المعارف ، فهل يجدون في سهولة الامتحانات ما يحملهم على هذا الظن ؟

قال : ارى ان كل عمل في هذا العالم لا يخلو ممن ينتقده ويستنتج منه معنى غير معناه الحقيقي ، ولقد كان الامتحان في اول الامر على شيء من الصعوبة لما سلمت نظارة المعارف ممن يرميها بأنها تعتمد اسقاط النابضين من التلامذة . فلما توخت تسهيله قام بعضهم بتهمة بأنها ارادت صرف التلامذة عن الاشتغال باللغة العربية الى غيرها من العلوم . وهو امر غريب يحار بازائه من يريد التوفيق بين اميال الجميع .. وعندى ان الافضل نبذ هذه الاقاويل والاستغفال بما يفيد الفائدة المطلوبة . وان في اهتمام نظارة المعارف بأمر اللغة العربية والغات نظر المفتشين والمعلمين الى وجوب التدقيق فيها ما يغنيها عن تطلب المستحيل والجمع بين النقيضين . وكل ما تكلف به الان ان تقوم بواجبها المناط بها ثم لا يعنيها بعد ذلك ما يقول الناس عليها .

قلت : كان بعض وجهاء الصعيد قد طلبوا من الحكومة انشاء مدرسة ثانوية في اسيوط لتكفي ابناءهم مشقة السفر الى العاصمة في طلب العلم فهل في نية النظارة انشاء هذه المدرسة ؟

قال : ان النظارة تود لو أمكنها اجابة وجهاء الصعيد الى مطالبهم ولكنها تجد امامها صعوبات تحول دون ما تريد فان المال لديها قليل ، والرجال اقل ، الا اذا اتت بهم من الخارج

وهو ما تتحاشاه الآن بقدر ما في استطاعتها . ومما يؤسف له انها لم تجد من المصريين من يدرس مادتين في السنة الاولى من القسم التجهيزي الا بعد جهد جهيد .

لماذا ذلت هذه الصعوبات هان عليها تنفيذ كثير من المشروعات التي يحول دون تنفيذها قلة المال والرجال .

قلت : الا يسمح سعادة الناظر ببيان الخطة التي وضعها لتسير عليها نظارة المعارف فيما يختص باللغة العربية ؟

قال : ان خطتي لم تتغير ولن تتغير وقد قلت في مذكرة المعارف التي ردت بها على الجمعية العمومية في هذا الشأن : ان من اعظم آماني تعليم المواد المختلفة في المدارس المنوعة باللغة العربية ، وقد اهتمت بهذا الامر من يوم اسناد نظارة المعارف الى مهدي وبحثت فيه بحثا دقيقا فتبين لي ان هنالك صعوبات تحول دون تحقيق هذه الامنية في الحال . واشرت الى بعض هذه الصعوبات في الخطبة التي تشرفت بالقائها على الجمعية العمومية . ويسرني ان حضرات اعضائها قد قدروا هذه الصعوبات حق قدرها فعدلوا اقتراحهم بأن يقرروا ان يكون التعليم في المدارس باللغة العربية تدريجيا لا ان يحصل جميعه مرة واحدة .

وقلت في تلك الخطبة ايضا : «اني اتمنى بصفة كوني مصريا ان يكون التعليم في المدارس جميعها بلغة بلادنا ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه لان هنالك صعوبات كثيرة تحول بيننا وبين بلوغ هذه الامنية الان . وهذه الصعوبات وان كان يجب السعي لتذليلها وصرف العناية لتسهيلها الا انه يلزم ان نحسب الان حسابها . ولم اقل مرة واحدة ان اللغة العربية غير صالحة للتعليم وانما كل ما يستفاد من كلامي ان الشروع في التعليم بها وقت مرض الاقتراح مستحيل وان الواجب تذليل الصعوبات التي تقف في سبيل المشروع حتى نتمكن من جعلها لغة التعليم تدريجيا» .

وقد سردت بعض هذه الصعوبات على اعضاء الجمعية العمومية فقدروها قدرها ووافقوا على جعل التعليم باللغة العربية تدريجيا . فانت ترى اني لم اعارض للجمعية العمومية رغبة ولم احاول رفض اقتراحها هذا ولكني اريت اعضاءها وجه الصعوبة فصدقوا عليه واقتنعوا به .

اما ما ذُِّل من تلك الصعوبات حتى الان فهو كثير : منه تعليم المواد كلها في المدارس الابتدائية باللغة العربية ، وتعليم الحساب والهندسة بها في السنة الاولى من المدارس الثانوية ، وتعليم الحساب والهندسة والجبر بمدرسة الزراعة باللغة العربية ايضا ، كما ان بعض الدروس في القسم الابتدائي من مدرسة المعلمين الخديوية وفي مدرسة الحقوق قد اصبحت تدرس بتلك اللغة وصرح للناهين من تلامذة المدارس الثانوية الامتحان بها في اي عام ارادوا . ولعل نظارة المعارف تتعدى حدود التدريج اذا هي قررت اكثر من ذلك في

عام واحد فانه لا معنى لكونها تقرر لتدريس العلوم كلها في كل المدارس مرة واحدة باللغة العربية وبين كونها تراعى قاعدة التدرج وتذليل الصعوبات شيئا فشيئا .

قلت : الى هنا اراني عرفت ما فوق الكفاية بآيكم في شئون نظارة المعارف، فهل تسمح لي بإبداء رأيكم من الجامعة المصرية ؟

قال : بلى ، واني اقول لك ان رأيي في كل معهد علمي صغير كان او كبيرا فان مصر في حاجة الى العلوم ولا يستهان بأقل معهد علمي يكفل لها أداء هذه الحاجة .

قلت : هل كنتم تعلمون ايام توليتم رئاسة الجامعة انها ستقرر تدريس الآداب الانكليزية والفرنسوية عند تأسيسها ؟

قال : اننا لم نبحث اذ ذاك في هذه التفاصيل ولكن الذي كنا نرعى اليه من انشاء الجامعة وأعلناه للأمة انها تعلم التلاميذ ما لا يتعلمونه في المدارس العالية ، وآداب اللغتين الانكليزية والفرنسوية مما يدخل في هذا الباب .

ولكن لجنة الجامعة لا تكتفي بذلك الا في اول الامر وقد اشترت عليها باضافة آداب اللغة العربية الى هاتين المادتين وهي تناقش في ذلك الان .

وقد علمت ان حضرات اعضاء اللجنة يبذلون كل الجهد في ابلاغ هذه الجامعة اقصى ما تبلغ اليه ، وكل من يعلم من هم اعضاء هذه اللجنة يثق ثقة تامة بنجاح المشروع على أيديهم ، وان من الغريب ان يكون في الناس من يشطب هم العاملين والمكتسبين لهذا العمل الجليل .

ان الهمم فائرة من طبيعتها فليست هي في حاجة الى من يشطبها ، ولكن هذه الاقوال ربما دفعت الخجول الذي تحمله الغيرة على الاقتداء بأمثاله الى قبض يده عن الاكتتاب فان فيها مسوغا يبرر عمله ويظهره في أمين الناس بمظهر الوطني الفيور على مصلحة بلاده ... يقولون ان الجامعة وقعت في أيدي الموظفين فانتشلوها منهم .

ولكن الا يتدبرون في عاقبة ذلك ؟

من يقوم مقام رشدي باشا ، وركي بك وعلي باشا ، والمسيو ماسيرو من غير الموظفين اذا حولنا على انقاذ الجامعة من يد هؤلاء وسلميمها الى غيرهم ؟

لست أنكر ان الجامعة كما هي الان ليست كجامعات اوروبا ولكن الحالة الحاضرة تقضي علينا بالابتداء بالبداءة لا بالغاية فاذا ما كانت لنا اليوم جامعة صغيرة ففدا تكون كبيرة ولا يبعثنا كونها كذلك على احتقارها ونفرض أيدينا منها لان في ذلك جناية كبرى ونحن في حاجة الى ما هو دون الجامعة بكثير .

اذكر انه لما أنشئت الجمعية الخيرية الاسلامية قام بعضهم واستضعف شأنها لانها نشأت حقيرة كما مستنشأ الجامعة ، فما هي الا سنوات قلائل حتى اتسعت دائرتها وأخصب مواردها وكثر عدد مدارسها حتى بلغ ما تراه ، ولو ان القائمين بها جبنوا أمام الانتقباد لقبرت في المهد ولم تبلغ ما بلغته الان .

وفضلا من ذلك فان المال الذي جمع الى اليوم لا يفي بالحاجة لان ستة وعشرين الف جنيه لا تكفي لانشاء جامعة كبرى كجامعات اوروبا .

.. هذا لو دفع كل مكتتب ما تبرع به ولم يقصر الامر على العشرة آلاف التي دفعت حتى الان . ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ بأجمعه في السنة لما زاد عن الف جنيه مصري وهو ما لا يكفي للانفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة .

كل هذا والذين يريدون اخراج الجامعة من قبضة الحكومة يجهلون انها دفعت مسرة واحدة خمسة اضعاف ما دفعه المتبرعون في انحاء القطر المصري بأجمعه .

وليس هذا كه ما امدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس الى الاقبال عليها اقبالا لا تظفر بمثله اذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا ننسى ان بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة امانة المشروع ماديا ، فرفضهم الان اشرافها عليه بعد ان أدت الحكومة ما طلبوه منها بعد من الغرابة بمكان ويدل على تناقض لا يمكن الجمع بين اطرافه ..

وهب ان اشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون ، فهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟

لا اظن ذلك لان انقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الان من المكنات وليس من المستحيلات ، وانما يكون ممكنا بكثرة المال والمتبرعين فهي في هذه الحالة احوج الى المال منها وهي بعيدة عن الحكومة ، ومهما يكن من مخامرة اليأس للنفوس فلن يبلغ الى درجة يجزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة الى الابد فمن العبث على كل حال العمل على اسقاطها وحرمان البلاد منها ..

اقول هذا وأنا على يقين من ان الحكومة لا تقصد سوا بهذه الجامعة ولم تفكر في اعاقلة سيرها وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تتيسر بغير ذلك . واود لو نفيت كل ريبة بشأنها من الازهان ، فانها على اي صورة ظهرت معهد علمي يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجاجه .

وانتهى الحديث لان زائرا جاء لمقابلة الباشا فالتهمست الاذن منه بالانصراف وخرجت من حضرته وكلي السنة ناطقة بشكره .

حيثيات الحكم في قضية اتهام العقاد بالعيب في الذات الملكية وهي القضية التي حكم فيها على العقاد بالسجن سنة ١٩٣٠

باسم صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر - محكمة جنايات مصر - المشكلة علنا
تحت رئاسة حضرة صاحب السعادة عبد العظيم راشد باشا وحضور حضرات صاحبي العزة
مصطفى حنفي بك ويس احمد بك المستشارين بمحكمة الاستئناف الاهلية ومحمود منصور
بك رئيس النيابة العامة ومحمد احمد السيد أفندي كاتب المحكمة .
اصدر الحكم الآتي :

في قضية النيابة العمومية نمرة ٤٢ سايرة عابدين سنة ١٩٣٠ المقيدة بالجدول الكلي
بنمرة ٩٩١ سنة ١٩٣٠ ضد :

١ - محمد فهمي الخضري الفندي عمره ٣٨ سنة وصناعته صاحب جريدة «المؤيد الجديد»
وسكنه شارع الدواوين .

٢ - عباس محمود العقاد الفندي عمره ٤٢ سنة وصناعته عضو مجلس النواب وسكنه بمصر
الجديدة .

وحضر للدفاع عن المتهم الاول حضرة وهيب دوس بك المحامي وعن المتهم الثاني حضرات
مكرم عبيد بك ومحمود سليمان غنام أفندي المحاميان . بعد سماع امر الاحالة وطلبات
النيابة العمومية واقوال المتهمين وشهادة من شهد ، والمراعة والاطلاع على اوراق القضية
والمدولة قائلونا .

حيث ان النيابة العمومية اتهمت المتهمين المذكورين بأنهما :

الاول : في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا
لجريدة «المؤيد الجديد» عاب علنا في حق الذات الملكية بأن نشر مقالات في الجريدة المذكورة
بالامداد ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٣٣ و ٣٦ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين : «الوزارة البريطانية

والأزمة المصرية الحاضرة» و«الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعليمها» و«رأي في الأزمة الحاضرة» و«الرجعيون والانجليز المحليون» و«سيعدل الدستور ولكن كيف؟» و«الرجعية هي العدو الأكبر في الأزمة الدستورية الحاضرة» بالتعاقب ، تحوي عبارات العيب المذكورة .

والثاني : بصفته شريكا للمتهم الأول في الجريمة آنفة الذكر بأن اتفق معه على ارتكابها وسبأه مع علمه بها في الأعمال المسهلة والمتعمة لها بأن أنشأ المقالات الواردة في الأعداد رقم ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٣٣ و ٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها وسلمها اليه لنشرها . وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذنبك الاتفاق والمساعدة وطلبت النيابة من حضرة قاضي الاحالة إحالتهما على محكمة الجنايات ، لمحاكمة الأول بالمادتين ١٤٨ و ١٥٦ من قانون العقوبات ومحاكمة الثاني بالمواد ١٤٨ و ١٥٦ و ٤٠ فقرة ثانية وثالثة و ٤١ من القانون المذكور وحيث ان حضرة قاضي الاحالة قرر بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠ إحالة المتهمين المذكورين على هذه المحكمة لمحاكمتهم بالمواد سالفة الذكر .

وحيث انه بجلسات ٢٥ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ سمعت المحكمة هذه القضية على الوجه المشروح تفصيلا في محضر الجلسة .

ومن حيث ان المحكمة قد اطلعت على المقالات موضوع الاتهام في هذه الدعوى وترى ان تقف في ذكر الوقائع والادلة عند الحد الذي يقتضيه القانون وبراءه كافيها للفصل في التهمة المطروحة امامها ، وان تجتنب الافاضة في ذلك لما يترتب على هذه الافاضة من اعادة نشر صحيفة مخالفة لما يجب من الولاء العام لحو صاحبه الجلالة الملك .

ومن حيث انه يتبين من أقوال المتهمين بالتحقيقات وبالجلسة ان الأول منهما هو المدير المسئول لجريدة «المؤيد الجديد» التي نشرت بها المقالات المرفوعة بسببها هذه الدعوى ، وانه يطلع على ما ينشر بالجريدة في أغلب الاحيان ويشرف على تحريرها وان الثاني هو منشئ المقالات المذكورة وهو الذي قدمها للنشر .

ومن حيث انه تبين للمحكمة من الاطلاع على المقالات سالفة الذكر انه بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ أصدر العدد ثمة ١٩ من جريدة «المؤيد الجديد» وبه مقال تحت عنوان «الوزارة تعبت بالمصريين وهي آلة في يد المستعمرين» بامضاء «ابو فصاد» تحدث فيها الى القراء عن تلك الأزمة ونسبها لتدخل الانجليز لاحداث الانقلاب الحاضر في مصر ، فكان هذا المقال فاتحة مساجلة اشترك فيها عباس افندي محمود العقاد بعدة مقالات نشر اولها بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد ٢١ تحت عنوان «الوزارة البريطانية والأزمة الحاضرة» قال فيها :

«انه لمناسبة المقال الذي نشره الكاتب الكبير «ابو فصاد» في مؤيد امس وهو المقال المشار اليه آنفا ، أعيد نشر فقرات من حديث في هذا الموضوع جرى بيني وبين مراسل «الاحرار» السورية منذ اكثر من شهر ، لان هذه الفقرات تتضمن وجهة نظر شائعة لسي

تصوير الحالة على ما هي عليه وكل ما ينضمن وجهة نظر كهذه خليق ان يعرف تفصيله في هذه البلاد . فقلت لحضرة المراسل ردا على سؤاله : «اعتقادي ان هذه الازمة هي ازمة الرجعية قبل كل شيء ، والرجعيون اعداء الدستور كانوا يتهياون من زمن بعيد لالفناء الحياة النيابية او لابقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى» ثم قال بعد ذلك : «وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ، فان نالت الاكثريه بقيت على تأييدهم ، اي تأييد الرجعيين واصبح هؤلاء الرجعيون هم حكام البلاد المستبدين وراء ستار من الدستور» وان نالت الاقلية تقدم مرشحوه آخرون ، وهذا هو القضاء المبرم على الدستور لان كثرة الاحزاب في المجلس النيابي تنزع السلطة من المجلس وتضعها في ايدي الرجعيين» . وقال فيها ايضا «ولو تم هذا التدبير لاستغنوا به عن مسح الدستور ، ولكنه لم يتم فهم يلجأون الى الخطة الاخرى التي يحاولون تنفيذها اليوم» .

ثم قال ردا على سؤال المراسل الذي ذكر فيه انه لا يعتقد براءة الانجليز في هذه المؤامرة : اؤكد انه ليس للانجليز ضلع في المؤامرة ولكنها بعد ظهورها كانت فرصة للوصول الى مطالبهم» . وقال : «هذه خلاصة رأيي في حقيقة الازمة منذ البداية وكلما مضى يوم بعد يوم زادني الحوادث اقتناعا به ، وادلة محسوسة على صحته» ثم قال : «ان الانجليز لم ينشئوا الازمة لان الازمة نشأت قبل المفاوضة بل نشأت لاحباط المفاوضة والوصول من وراء ذلك الى الغاء الدستور» ثم قال : «فلا يسعني ان اعتقد ان كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وان الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية : هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين» .

وفي اليوم التالي اي في ١٠ سبتمبر عقب على المقال الاول بمقال آخر نشر في العدد رقم ٢٢ تحت عنوان «الاستقلال لحرية مصر وسماحتها لا لاستعباد مصر وتعليقها» قال فيه : «انستطيع الرجعية ان تظن ظنا ام تتوهم وهما انها هي التي طلبت ذلك «يشير الى الاستقلال» فكان ، او انها كانت تطلبه على اي وجه من الوجوه فيكون ؟ انستطيع ان تذكر لنا كلمة واحدة قالتها في سبيل ذلك او تدبيرا واحدا دبرته او نية واحدة اظهرها بأي نوع من انواع الظهور ؟ لا : ان الرجعية لا تستطيع ان تظن ذلك ظنا او تتوهمه توهمها ولا تستطيع الا ان تعرف ما يعرفه كل انسان ولا يخفى على انسان» - (في يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ظهر في ميدان المساجلة مجهول امضى مقالا بحرف «من» نشر في العدد رقم ٢٥ تحت عنوان «رأي في الازمة الحاضرة» ذهب كاتبه الى ما رآه عباس افندي المعقود من حيث الازمة المنوه عنها فقال «اولا : ان الازمة ازمة الرجعية» وعلى ذلك بقوله : «ولا نستغرب من الرجعيين في مصر الجراة على تدبيرها لانهم لم يطمئئنا قط الى حكم الامة» ثم قال : «اما دكتاتورية محمد باشا محمود فقد اعتمدت حقيقة كل الاعتماد على تأييد اللورد لويد ولكن اللورد لويد لم يكن يستطيع وحده اجراء الانقلاب لولا ان ساعدته الرجعية بكل ما

تملك من دسياسة وسلطان فلما عملت وزارة العمال على تبديل الحال في مصر سعت الرجعية في انجلترا ليكون هذا التبديل في صالحها ، فيحل استبدادها محل استبداد محمد محمود باشا ، فلما لم يفلح في هذا المسمى وعادت الحياة الدستورية ، ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكون آلة الاعتداء على حقوق الامة ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هذا فاستقالت حكيمة كريمة . وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب الحالي ، الى ان قال: وأبلغ من كل ما تقدم ان بواذر الازمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية ان تتفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين ، واضطرت الى تأجيل النظر في ذلك الى ما بعد عودة الوفد الرسمي ، وان الرجعيين كانوا يعملون لاجباط المفاوضة ، فلا يعقل ان تكون الحكومة البريطانية قد اشتركت معهم في هذا التدبير .

وفي يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٢٦ من جريدة المؤيد تحت عنوان : «الرجعيون والانجليز المطليون» استهله بقوله «في الخطاب المفصل الذي ارسله اليكنا صديقنا (ص) بيان واف للرأي القائل بأن الازمة الحاضرة في مصر هي ازمة الرجعية قبل غيرها ، وان الانجليز لم يخلقوا الازمة وانما حاولوا ويحاولون ان يستفيدوا منها بعد خلقها وهذا الرأي هو رأينا الذي لا نريدنا الحوادث الا اقتناما به ووثوقا منه ، ولا يدمونا الى تقريره وتوكيده الا ان يعرف المصريون الحالة على حقيقتها ، ويعلموا اصول الدسياسة من اين تنجم والى اي غاية تسمى ، فانها -اي الرجعية- في سبيل الاستعداد لمسح الدستور: تحضن الاذئاب الذين لا يستحقون في شريعة الوطنية والانسانية والاخلاق الا النبذ والاهمال والتحقير ، فتجني بذلك على ضمير الامة جناية شديدة الفتك بعيدة القرار» .

وبتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٣ - و٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٦ نشر عباس الفندي العقاد مقالين : الاول منهما تحت عنوان «سيعدل الدستور ولكن كيف» والآخر تحت عنوان «الرجعية هي العدو الاكبر في الازمة الدستورية الحاضرة» لحرر ليهما منحى المقالات السابقة .

وبتاريخ ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٠ رأت النيابة العمومية ان المقالات المذكورة تتضمن العيب في الذات الملكية فأجرت التحقيق مع المتهمين واقامت عليهما هذه الدعوى طالبة عقابهم بالمواد المبينة بقرار الاحالة .

ومن حيث انه بتاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٤ قضت محكمة النقض والابرار المصرية ار العيب في الذات الملكية قد يكون بطريق التعريض كما يكون تصريحاً ، وأن للمحاكم ان تبحث موضوع المقال المطروح امامها لاستظهار ما قد يكون فيه من الامور المائبة عليها ، وأن ذلك يقتضي الذهاب في تاويل معانيه لتعيين من يكون قد أريد بالمطاعن ، وعملا بهذا المبدأ بحثت المحكمة المذكورة القضية التي كانت تنظرها وجاء في حكمها : «انه يتبين ان المقامات تشمل العبارات المبينة في تقرير الاتهام ، وهي في مدلولها تسند العيب الى الذات الملكية التي تعينت من مرامي الفاظه وعباراته ، الى حد يصعب صرفه الى غير حضرة صاحب الجلالة

ولا عبارة الى استناد محكمة الجنابات الى ماضي المتهم تدليلا على حسن نيته ، ان مجرد نشر عبارات مع العلم بمضمونها تقطع بسوء النية .

ومن حيث انه مما تقدم يكون لهذه المحكمة الحق في انزال العقاب بالمتهمين متى ثبت لديها ان المقالات موضوع المحاكمة تشمل عيبا في حق الذات الملكية سواء كان هذا العيب قد اسند اليها تصريرا او تلميحا ، وكما وان لها الحق ان تستنتج ذلك من مدلول العبارات ومرامي الالفاظ الواردة بالمقالات ولا يمنعها اذن من مؤاخذه المتهمين كون العيب لم يكن مسندا لحضرة صاحب الجلالة الملك تصريرا ، وذلك بخلاف ما ذهب اليه الدفاع عن المتهم الثاني من قوله : ان العيب المعاقب عليه بالمادة ١٥٦ من قانون العقوبات المطلوب تطبيقها انما يجب ان يكون اسناده مباشرة وصراحة للذات الملكية ، فاما قوله «صراحة» فقد تبين مما تقدم ان التفسير الصحيح للمادة ١٥٦ هو ما ذهبت اليه محكمة النقض والابرار بان العيب لا يجب ان يكون موجها مباشرة لانه موجه الى الوزارة الحالية ، لهذا هو الموضوع المطلوب من المحكمة الفصل فيه وهو ما ستبين رايها بشأنه مؤيدا بالدليل .

ومن حيث انه يتمين بحث المقالات المطعون فيها تحت ضوء الاعتبارات المتقدمة .
ومن حيث ان المطلع على هذه المقالات يجد الادلة تفيض على ان المتهم الثاني قد اترف جريمة العيب في حق الذات الملكية الرفيع ، فاسند اليها امورا ليس فيها فقط اخلال بالواجب المفروض على كل فرد من الاجلال لهذه الذات السامية ، بل ان هذه الامور تجاوزت هذا الحد الى اسناد اعمال لجلالته تؤدي شعوره وتظهره بمظهر المعتدي على حقوق الامة .

ومن حيث ان الغاريء للمقالات المشار اليها يجد ان (ص) والمتهم قد تلافيا عند لفظة «الرجمية» ووقع اختيارهما عليها وجعلها عنوانا للمقام الجليل الذي لا يجران على ذكره بالتسريح - وهو مقام الملك المعظم - لانهما ذكرا هذا اللفظ في مناسبات وملابسات تاريخية وسياسية تصرنه حتما وبلا عناء في التفسير والتأويل الى حضرة صاحب الجلالة الملك كما سيحيى البيان .

وعليه فليست كلمة «الرجمية» في المقام الذي ذكرت فيه واعتبرتها المحكمة بسببه دالة على جلالة الملك مقصودا بها كما قال الدفاع «كل فكرة او شخص او هيئة مسؤولة الآن او فيما مضى من هدم دستور البلاد او العبث بحرياتها وليس مثله مثل عبارات الديمقراطية او الديماجوجية وليس مقصودا بها في المواضع الاتي تفصيلها لا الاحزاب ولا الوزراء بل الذات الملكية كما سبق القول .

ومن حيث ان المتهم الثاني كتب في المقال الاول بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ما ياتي: «اعتقادي ان هذه الامة هي ازمة الرجمية قبل كل شيء ، والرجميون اعداء الدستور كانوا يتهاون من زمن بعيد لالناء الحياة النيابية او لابقائها ناقصة مشوهة ، تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى وكانوا يتوهمون انهم قادرون

على تأليف وزارة وفدية تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ، الى آخر ما جاء في العبارة .

والمفهوم . بداءة من . ذلك ان المتهم الثاني قصد بالرجعية والرجعيين جهة غير جهة الوزارة الوفدية المراد تأليفها ، ذلك لان الجهة التي تستطيع تأليف وزارة او اسناده - وهو المعنى المقصود هنا - جهة ذات سلطان وتعيينها على هذا الوجه بصرفها مباشرة جلالة الملك الذي يملك وحده حق اسناد الوزارة - والتعبير هنا بالرجعية والرجعيين و فان اللفظ تجيز استعمال الجمع في مقام المفرد تنويها في التعبير .

ومن حيث ان المتهم الثاني كتب كذلك في المقال الانف الذكر ما يلي : « فلا يسعني اعتقد ان كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وان الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين » ، وظاهر جليا ان الكاتب اراد بجهة الرجعية ذات مكان عال وساطان عظيم ، والا لما استقامت هذه المقابلة فلا يمكن الافتراض ان قد قايلا هنا بين سلطة الانجليز وسلطة الوزارة ، والافتراض البادي للذهن والمتبادر انه انما يقابل بين جهتين عظيمتين هما جهة الانجليز وجهة صاحب الجلالة .

ومن حيث ان المتهم الثاني كتب في المقال الثاني المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠ انه « لا يستطيع الرجعية ان تظن ظنا او تتوهم توهما انها هي التي طلبت ذلك » يشير الاستقلال فكان ، او انها كانت تطلبه على اي وجه من الوجوه فيكون - يستطيع ان لنا كلمة واحدة قالتها في سبيل ذلك ، او تدبرا واحدا دبرته او نية واحدة اظهرتها نوع من انواع الظهور ... » فهذه العبارة قاطعة في الدلالة على ان المتهم انما اراد بالرجعية جلالة الملك لان معنى العبارة لا يستقيم بأي حال اذا كان المراد بالرجعية هنا الو كما يقول الدفاع ، اذ المعلوم للكافة ان بعض رجالها على الاقل قام بما ينفي الكاتبها من الرجعية ، وانما اراد الكاتب ان يستغل جهل الجمهور بالتقاليد الملوكية التي تت مع اظهار ما يبذله الملوك عادة في هذا السبيل .

ومن حيث ان الكاتب (ص) كتب في مقال نشر في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ والقي المتهم الثاني في مقاله المنشور في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ « ان الرجعية سمعت في انه ليكون هذا التعديل في صالحتها ليحل استبدادها محل استبداد محمد باشا محمود ، لم تفلح في هذا المسعى وعادت الحياة الدستورية اودت من وزارة النحاس باشا ان آلة للاعتداء على حقوق الامة ، ولكن الوزارة النحاسية لم تكن تقبل هذا ، فاستقالت كريمة » ، وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب ، والمحكمة ليست في حاجة التذليل بان الرجعية هنا انما يقصد بها جلالة الملك ، وليس ادل على ذلك من تلك المناد التي يذكرها الكاتب فليس في هذا البلد هيئة سياسية فضلا عن افراد تستطيع ان وزارة النحاس باشا آلة للاعتداء على حقوق الامة بحيث اذا لم تقبل تضطر للاستقالة

ومن حيث انه جاء ايضا في مقال (ص) ، المشار اليه والذي وافق عليه المتهم الثاني في مقال ١٤. سبتمبر سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

«وأبلغ من كل ما تقدم ان بوادر الازمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية ان تنفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين ، واضطرت الى تأجيل النظر في ذلك الى ما بعد هودة الوفد الرسمي» وهذه العبارة قد ذكرت في سياق التدليل على ان الازمة هي ازمة الرجعية ، وليس يخفى على احد ان الوزارة النحاسية لم تكن لتعجز عن الاتفاق في هذين الشانين الا اذا كان المراد بالرجعية جلالة الملك الذي له حقه الدستوري في تعيين الشيوخ وكبار الموظفين .

ومن حيث ان المتهم الثاني قد استهل المقال المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بعبارة صريحة في موافقته لراي الكاتب (ص) في المراد بكلمة الرجعية ، وهو يتفق معه على بيانه المفصل في مقاله السالف الذكر ، وزاد المتهم الثاني على الامور المفصلة في هذا البيان قوله «ان الرجعية في سبيل الاستعداد لمسخ الدستور تحتضن الاذئاب» الذين وصفهم بالاوصاف المبينة في المقال ويؤخذ من هذه الاوصاف تحديد صريح لمرکز بعض هؤلاء الاذئاب ، اذ اسند اليهم افعالا تدل على ان لهم سلطة وزارية فيتعين ان هذا الاحتضان لهم بحاصل من جهة تملك تعيين الوزراء وهي جهة صاحب الجلالة الملك .

ومن حيث انه يتبين من الوقائع والادلة السابق ذكرها ان المتهم الثاني قد عاب في حق الذات الملكية ، ليس فقط بالادلال عليها بلفظ معيب هو «الرجعية» وهو وخذ كافي باتفاق الدفاع عن هذا المتهم لتكوين جريمة العيب المنصوص عنها بالمادة ١٥٦ بل بنسبة امور شائنة اليها كادعائه بأنها كانت تنهيا من زمن بعيد لافناء الحياة النيابية ، وانها لا تستطيع ان تتوهم انها هي التي طلبت الاستقلال او بدا منها اي عمل او اية نية للوصول اليه ، وانها ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكون آلة للاعتداء على حقوق الامة وهو الامر الذي وافق عليه صديقه المستتر وراء (ص) وانها تحتضن الاذئاب الذين نعتهم بأحط الاوصاف ، الى غير ذلك مما جاء في المقالات موضوع الاتهام .

وحيث ان الدفاع عن المتهم الثاني قد بذل جهدا محمودا محاولا محو هذه الصحف التي سودها المتهم المذكور بقلمه واستدال سثار على ما فيها ، ولكن الجهد مهما بلغ ما كان ليستطيع ان يداري جريمة واضحة وأدلة قائمة بينة ، بل ان مهمة الدفاع كانت تفوق كل مجهود والتهمة لا دافع لها . فقد استشهد الدفاع بماضي عباس محمود العقاد أفندي وبقصائده التي مسأها مدحا في الذات الملكية وببعض فقرات جاءت في مقال منسب المقالات يوجه فيها الطعن الى «المنافقين الذين يستعدون الانجليز على القصر» ، فأما الماضي وما تميز به من الولاء وادب العبارة ومن الاشادة بالعمل الجليل ، فإنه لا يغني عن الحاضر وهذه صفحته التي يحاكم المتهم اليوم من اجلها ، وأما الخطاب الموجه الى المنافقين فهو

طعن لهم لا دفاع عن القصر .

ومن حيث انه متى ثبت ان المقالات السالفة الذكر بما فيها مقال (ص) تحوي عيبا في حق الذات الملكية ، فالمتهم الاول مسئول حتما عن هذه الجريمة بصفته فاعلا أصليا ، ذلك لان القانون المصري يفترض قرينة الاجرام افتراضا في الاشخاص المبينين في المادة ١٦٦ مكررة فلا يقبل منهم اي عذر من شأنه ابعاد المسؤولية الجنائية كالقول بأنهم لم يقرأوا المقالات المعاقب عليها ، او لم يفهموها كما يدعي المتهم الاول متى ثبت اتصالهم فعليا بإدارة الجريدة وهو حال هذا المتهم في هذه القضية ، فدعوى الدفاع بأن المتهم الاول جاهل لا يستطيع فهم العبارات التعريفية المذكورة بالمقالات المتقدمة دعوى غير مقبولة واذا كانت المادة ١٦٦ مكررة تعاقب الباعة او الموزعين او اللاصقين وهم اشخاص مفروض عليهم ليس فقط عدم الفهم بل القراءة لمن باب أولى مدير الجريدة المسئول عما ينشر فيها مسئولية جنائية مفروضة عليه من القانون فرضا والمتهم الاول لم يدفع هذه القرينة القانونية بدفع مقبول .

ومن حيث انه لما تقدم يكون قد ثبت بأن المتهم الاول في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة المؤيد الجديد : عاب ملنا في حق الذات الملكية بأن نشر مقالات في الجريدة المذكورة بالاعداد ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٣ و ٢٦ الصادرة في ٩ و ١٠ و ١٣ و ١٤ و ٢١ و ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين «الوزارة البريطانية والازمة المصرية الحاضرة» و«الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعليقها» و«راي في الازمة الحاضرة» و«الرجميون والانجليز المحليون» و«سيعدل الدستور ولكن كيف» و«الرجعية هي العدو الاكبر في الازمة الدستورية الحاضرة» بالتعاقب عبارات العيب السابق بيانها في حيثيات هذا الحكم .

والثاني بصفته شريكا للمتهم الاول في الجريمة آنفة الذكر بأنه اتفق معه على ارتكابها وساعده مع علمه بها في الاعمال المسهلة والمتمة لها بأن انشا المقالات المحتوية على العيب السالف بيانه الواردة في الاعداد رقم ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٣ و ٢٦ من الجريسة المتقدم ذكرها بناء على ذينك الاتفاق والمساعدة :

وعقاب المتهم الاول ينطبق على المواد ١٤٨ و ١٥٦ و ١٦٧ من قانون العقوبات وعقاب المتهم الثاني ينطبق على المواد ١٤٨ و ١٥٦ و ١٦٧ و ٤٠٠ فقرة ثانية وثالثة و ٤١ من قانون العقوبات . ومن حيث انه فيما يتعلق بتقدير العقوبة فقد راعت المحكمة من جهة انكار المتهمين للتهمة التي اسندت اليهما ورات في هذا الانكار توبة وندما ، ومن جهة أخرى جسامه الجريمة على انها من جسامتها قد لاحظت ان مثلها لا يقصد الشارع اولا وبالذات العقاب على ما هو واقع منه بالفعل ، بل يقصد بالاخص من ايقاع العقاب منع وقوع اي عيب آخر في حق الذات الملكية الواجب للمصلحة العامة ان تكون مصونة محاطة بالاجلال .

فلهذه الاسباب وبعد رؤية المواد آتفة الذكر ، حكمت المحكمة حضوريا بحبس المتهم الاول محمد فهمي الخضري افندي مدة ستة اشهر حبسا بسيطا وبحبس المتهم الثاني عباس محمود العقاد افندي مدة تسعة اشهر حبسا بسيطا وأمرت بطبع الحكم في ثلاث جرائد يومية بمصاريف من قبل المحكوم عليهما .
صدر هذا الحكم علنا بجلسة يوم الاربعاء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، ١١ شعبان سنة ١٣٤٩ .

نص دفاع مكرم عبيد عن العقاد امام القضاء سنة ١٩٣٠

((جريدة مصر ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠))

يا حضرات المستشارين :

لقد سمعتم مرافعة النيابة وتبينتم ما فيها من جهد - بل واجتهاد - في التدليس والتخريب والتأويل ، ولو انكم تفضلتم فالحق فيكم نظرة واحدة الى خارج المحكمة حيث القوات تتوزع وتتجمع ، واخرى الى قفص الاتهام : حيث المتهم البريء يتوجع ، ونظرة ثالثة الى موضع الاتهام في ذاته .. لاقتنغتم بأن القضية المعروضة على حضراتكم ان هي الا مأساة ينفطر لها القلب ، اكثر منها قضية ينسجّم لها البيان .

ذلك هو الوضع الصحيح للقضية ، فهي مأساة امة تمثلت في مأساة فرد ، ولكن النيابة رأت ان تخلص من الجوهر الى المظهر ، فرسمت لنا من تهمة باطلة صورة هي اشبه الصور بالحق ، وان لم تكن من الحق في شيء ، وفي ذلك خطر هو كل الخطر ، فان اخطر الباطل واشده تضليلا ليس ما بينه وبين الحق هوة سحيقة ، بل هو الذي يفصله من الحق طلاء خارجي او قشرة رقيقة .

لذلك ارى واجبا لزاما عليّ ان امرض للمحكمة الصورة الحقيقية لهذه القضية ، مجردة من كل طلاء عارية من كل رياء ، وان ابرز ما خفي من عواملها وما ظهر ، اذ بغير ذلك لا يتسنى لي ان اقوم بمهمة الدفاع فيها .

والواقع ان هذه القضية التي تبدو في الظاهر بين النيابة والاستاذ العقاد هي في الحقيقة بين الرجعية والدستور ، او هي بالاحرى بين مبدأي لتأخر والتقدم ، ايا كان الشكل الذي قد يتخذه كل من هذين المبدئين او الاسم الذي يتسمى به في مختلف الازمنة والظروف ، وما العقاد الا خصم للرجعية عنيد ، انهال عليها بضربات قتالة رأت الا قبل لها بها فاعتزمت ان تنكل به قبل ان ينكل بها ، ولما لم تقو على مجابهته وجها لوجه : فرت

الى السدة الملكية ، تتعلق بركابها وتتمسح بأعتابها ولم تستح ان تتخذ منها ستارا لعيوبها
فأسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب منها .

ولكن : ما هي الرجعية التي معناها المقاد ؟؟ هي كل فكرة او هيئة او شخص مسئول
من العيب بالدستور ، او بحريات البلاد في اي زمن من الازمان ، وبما ان نفس الدستور
الذي استتمت العقاد في الدفاع عنه يقضي بأن الملك غير مسئول وأن ذاته مصونة فلا يمكن
ان ينصرف لفظ الرجعية الى الذات الملكية لا موضوعا ولا قانونا .

يا حضرات المستشارين :

لو ان هذه القضية هي الوحيدة من نوعها لجاز ان يكون تصويرنا لها وتعليلنا لاسبابها
محل ريبة وتشكك ، ولكن الدليل لا يعوزنا على ان الرجعية في صراعها الدائم مع خصومها
طالما لجأت الى مثل هذا السلاح المريب وهو التحكك بالعرش وشخص الجالس عليه ، من
غير ان يكون للعرش اي شأن من قريب او بعيد في الخصومة ، واليكم بعض الامثلة على ما
ذكرناه ، وهي امثلة رائعة لا يأتيها الباطل من اي ناحية من نواحيها :

منذ أمد بعيد ينوف على الالف وتسعمائة سنة ، ظهر بين الناس رجل من رجال الله
الاطهار هو كلمة الله وروح منه « ولكنه كان بين الخلق متواضعا فقيرا ، لا يكاد يجد لجسمه
قطعة ولا مثوى ، حتى انه كان يقول عن نفسه : «ان لطيور السماء اوكارها وليس لابن
الانسان مأوى» ، وكانت رسالته الى الناس ان اعبدوا الله عبادة الروح والحق ، وانبلدوا
من الدين تقاليد الرجعيين من وجاله ، اذ هي ليست من الدين في شيء .

خصومة دينية كما ترون ، ولكن الرجعيين من رجال الدين لم يجدوا سبيلا للانتقام
من خصمهم الا ان ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم الولاء لقيصر صاحب العرش ، ورغم قوله
صراحة : «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فانهم شكوه الى الحاكم الروماني مدعين
انه طعن على قيصر ، ولو ان لخصومه لسان النياحة المصرية لقالوا بالامس ما تقوله هي
اليوم «انه عاب في الذات الملكية» .

الا ترون يا حضرات المستشارين كيف تلجأ الرجعية - حتى في المسائل الدينية البحتة
التي لا شأن لها بالملك ولا بالملوك الى الانتقام بالملكية ؟ وهل لا ترون بأن الرجعية هي
اليوم والامس والى الابد واحدة في تفكيرها وفي تدبيرها .

ساقوا المسيح هيسى الى المحاكمة فأخذت الحاكم الروماني روعة من رنة صوته وجلال
صمته ، ولما تبينت له براءته من كل عيب أسقط في يده ، ولم يدر ما عساه يفعل ، ولعله
احس في النفس حسرة ، او خشي من الضمير ثورة ، فأمر باحضار اناء من الماء وغسل
يديه أمام الجميع ثم صاح قائلا «اني بريء من دم هذا البار» ، ولكن والاسف فانه رغم
مسئوليته واعلان حياده التام : سلم المتهم البريء الى خصومه من الرجعيين - وكان اسمهم
وقتل الفريسيين - وأمر جنده من الرومان ان يرقبوا التنفيذ ، فأحاطوا به مهددين
مستهزئين .

يا حضرات المستشارين :

لم يكد يمضي على هذا الحادث الجلل بضع مئات من الاعوام حتى ارتفع من صحراء العرب صوت رهيب عذب ، يندر الكافرين فتلهج النفوس لدويه ، ويبشر المؤمنين فتنتفتح القلوب لوجيه ، بدا الرسول الامين بتبليغ رسالته الى بني قومه فدعاهم الى عبادة ربه ، وتحطيم أصنامهم ، وما كان لقومه ومد عرفوا ليه الامانة والقناعة والوداعة ان يسندوا اليه مطمعا خفيا ، او يظنوا انه كان ينبغي من متاع الدنيا شيئا ، وهو الذي كان يدعو باسم ربه الى الاجلة دون العاجلة .. ولكن زعماء الجاهلية الاولى - والجاهلية هي الرجعية - اتهموه بالظلم على حكمتهم ، والطموح الى سلطانهم ، وتمادى بهم الوهم الى حد ان همه ابا طالب فاتحه في ذلك ولوح له بالحكم والسلطان على ان يتنازل عن رسالته فما كان من النبي الكريم الا ان قال له : « يا عم - لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله او هلك دونه » .

اذن : يستخلص من هذين المثليين الرهيبين ، اللذين هما محل ايمان واجماع ان الرجعية لا تتورع حتى في المسائل الدينية والنفسية البحتة عن اتهام خصومها بالمساس بنظام الملك او بشخص ولي الامر ، وذلك تحقيقا للنكاية بهم وامعانا في الانتقام منهم . فكيف الامر في قضية قضيتنا هذه تتصل مباشرة بالشئون السياسية والنظم الحكومية ؟ هل من عجب اذا كانت الرجعية السياسية او الحكومية تنقم على الاستاذ العقاد دفاعه الباسل من المبادئ والنظم الدستورية لترميته بتهمة العيب في الذات الملكية ، وترى من السهل عليها ان تقلب بشيء من التحوير والتفسير والتنقيب بين السطور الطعن البريء في نظام الحكم الى العيب في شخص الملك ؟ لا عجب ولا غرابة ، بل الغريب ان نتطلب من الرجعية اساليب غير رجعية ، ولا حياة للرجعية في جو من الانصاف والحرية .

ولكي تبينوا - حضراتكم - الاسباب الحقيقية التي دمت الى رفع هذه القضية - وهي كما ذكرنا اسباب كيدية - وجب ان نتبع ادوار هذه القضية فنفهم اولا نفسية العقاد فيما كتب ، ثم نفسية خصومه واساليبهم ، ومتى وضحت لنا هاتان النفسيتان امكنا ان نفهم التهمة على صحتها سواء من جهة الوقائع او التكييف القانوني ، وبعبارة أخرى فان دفاعنا ينقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية :

- ١ - بواحد الاتهام .
- ٢ - التكييف الموضوعي للاتهام .
- ٣ - التكييف القانوني للاتهام .



قلنا ان الباعث على الاتهام يتضح جليا من تحليل عقليتين متعارضتين : عقلية العقاد

وعقلية خصومه السياسيين ،

اما نفسية العقاد بآراء الرجعية الحكومية فهي من نفسية الامة جمعاء ومثلها مثل رجل رأى بيته عرضة للزلازل والعواصف فشرع في تدعيم جنباته وسد فتحاته ، فجاءت الحكومة فاضبة صاخبة وهدت البيت على رأس صاحبه ، ولم تجد لها عذرا في تعطيمه الا ان المسكين شرع في تدعيمه . واذا كان للعقاد صفة تمتاز بها شخصيته كرجل - او عبقريته ككاتب وشاعر - فهي الصراحة التي تأبى المداورة والمواربة او اللف والدوران على حشد تعبيره في بعض مقالاته ، ولو ان النياية تفهمت نفسيته ... لادركت ان مثل هذه الصراحة تأنف ان تستتر وراء لفظ او عبارة ، لانها تعني ما تقول وتقول ما تعني . بيد ان هذه الصراحة نفسها هي التي حفرت خصومه الى المبادرة لتكميمها ، فقد كان العقاد صريحا وجريئا في هجومه على الرجعية وفضح نياتها . وكان اول من عناه بالرجعية الوزارة الحالية كما هو ظاهر من مقالاته ، والوزارة خافت من اول الامر تلك الصراحة فحاولت اسكاتها بتعطيل الجرائد التي يكتب فيها العقاد ، كما عطلت غيرها من الجرائد التي تولى امرها غيره من الكتاب الاحرار ، هي اليوم تسوقه الى المحاكمة كما فعلت مع غيره ، وكما ستفعل مع هذا الغير من بعد ، اذا طال بهذه الوزارة العهد .

يا حضرت المستشارين :

هل انتم في حاجة الى ترسم هاتين العقليتين ، وما هما امامكما مائلتان، هاكم واحدة منهما مراء سجيبة في قفص الاتهام وهي مع ذلك مطمئنة ابية وهاكم الاخرى تصول وتجول من غير قيد ولا أسر ، ولكنها متحصنة بالاسلحة والدروع ، فهي لعمري خائفة وجلّة ، عقليتان احدهما لمصري حر وكاتب فد ونائب من نواب الامة ... رأى البرلمان يخلق والاقلام تحطم ، ودعائم الدستور تقوض وحرياته تنقض ، لشحد قلمه ولسانه وفكره - وهي كل اسلحته - لمحاربة الرجعيين والذب عن دستور الامة الذي أقسم يمين الولاء له والدفاع عنه ، وما كان لئل العقاد ان يحث بيمينه ، واليمين حبة من قلبه وعهد الى ربه ، والعقلية الاخرى عقلية وزير تسنم ذروة الحكم على انقاض الدستور وكان مبيتا النية على هدم الدستور حتى قبل ان يتولى الحكم - كما اعترف بذلك في حديث له مع جريدة المقطم . ولكنه كان مضطرا لي اول الامر لمداورة الرأي العام حتى لا يصدمه صدمة عنيفة من جهة وحتى يتسع له الوقت لحبك الدسياسة من جهة اخرى ، لذلك اعلنت الوزارة عند تكوينها انها لن تعتدي على الدستور او تمسه بسوء ، وكان جل همها ان لا تفتضح نياتها للناس حين يحين الحين لمباغتتهم بها، ولكن رجال الصحافة وفي مقدمتهم الاستاذ العقاد سخروا اقلامهم لفضح ما خفي من النيات بما ظهر من الاعمال المتنافية للدستور فبادرت الوزارة الى غسل الاقلام وسافت بعض الكتاب فيها الى الاتهام، ثم تدرجت من هذه الى تعطيل اللسان بمنع الاجتماعات والقبض على الافراد ، ولقد ثارت لهذه الاجراءات الخائفة نفس العقاد الحرة، فكتب بقلم من نار محذرا الوزارة وانصارها من مغبة هذه الاساليب الرجعية، منذرا اباهم

في احدى مقالاته بانه اذا حطمت الاقلام فاللسن تنطلق واذا كتمت الافواه فالنفوس تشتعل
وكانه يقول مع القائل :

كسروا الاقلام هل تكسرها	يمنع اللسان ان تنطلق جهرا
قطعوا اللسان هل تقطيعها	يمنع الاعيين ان تنظر شورا
اغمضوا الاعيين هل اغماضها	يمنع الانفاس ان تخرج زفرا

ذلكم بيان موجزا لنفسية العقاد ونفسية خصومه ومنه ترون ان العقاد كان له نصيب
الاسد في محاربة الرجعية فلا عجب ان يكون له اكبر نصيب من نعمتها .
ولكن اذا لم نعجب من عقلية الوزارة وتصرفاتها الرجعية فالعجب ان تكون النيابة
وهي الامينة على الدموى العمومية اداة للرجعية وسوطا لنقماتها ، فلم تكتف بأن اهمته حيث
لا تهمة بل سايرت الوزارة في سبيل الانتقام منه ومن قلمه فقررت القبض عليه ومعاملته
في السجن معاملة اللصوص والمجرمين . وفاتها انها بحبس العقاد قد غيبت قلمه وفضحت
نفسها ، فاتها انها هي نفسها ، وفي تهمة كهذه التهمة نفسها ، لم تقرر القبض على متهم آخر لا
لسبب الا انه لم يكن عباس العقاد .

نعم ان للنياية الحق قانونا في القبض ، ولكن الحق اذا اسيء استعماله كان هو
الباطل فعلا ، واذا كان منطق البائسين يقضي بأن المساواة في الظلم عدل فبالاخرى ان
لا يكون التفريق في الحق عدلا .

لكم هي الحقائق الاولى التي اففلتها النيابة في استعمال حقها ، فجعلت من حقها
باطلا ، والا فما معنى القبض على الاستاذ العقاد وعدم القبض على غيره فيما مضى
كالاستاذ محمود عزمي مثلا والتهمة واحدة في الحالتين والنيابة هي هي لم تتغير . فما
الذي تغير اذن ؟

هو نظام الحكم ولا ريب . فقد كانت الوزارة وقتئذ دستورية شعبية واصبحت الان
استبدادية رجعية . هي الرجعية اذن التي تحرك النيابة لتنتقل بلسانها وتقبض بسلطانها .
اليس كذلك يا رجال النيابة ؟

والا فافتونا كيف تكيلون بكيلين فتحللونه عاما وتحرمونه عاما ...
وليس للنياية ان تنتحل الاعذار فتدعي في درجة الثبوت بين القضيتين ، فقضايا
العيب وما شاكلها من جرائم النشر تثبت عادة بطريق الاستدلال من نص العبارة المنشورة
والنيابة رأت التهمة ثابتة في الحالتين ، بل ان الاستاذ عزمي نسب الى جلالة الملك بصريح
اللفظ تصرفات قال ان فيها اعتداء على الدستور ، وكان ذلك لمجرد حركة تعيينات وتنقلات
في المحاكم الشرعية بينما الاستاذ العقاد لم يشر الى الملك بحرف بل وجه مطاعنه الى
الرجعية والرجعيين مدفوعا بمامل الغيرة على الدستور الذي رأى بنيانه يتداعى امام عينيه .
فكيف جاز للنياية اذن ان تقبض على هذا دون ذلك وكلاهما متهم في نظرها وتهمة
احدهما صريحة دون الاخرى ؟

اللهم لا تعليل الا ان النيابة تعمل اليوم باسم وزارة رجعية بينما كانت بالامس تعمل في ظل الحياة الدستورية وكفى بهذا فارقا ودليلا ...
بيد ان حبس العقاد لم يكن فيه اجحاف لحسب بل تعذيب ايضا ، فهو جريمة ضد العدالة والانسانية معا .

لا أشير بذلك الى إن العقاد رجل سياسي وأنه كان من الواجب ان يعامل معاملة المجرمين السياسيين كما وعدت بذلك وزارة عدلي باشا البرلمانية ، كلا .. فلا اطمع في مثل هذا من وزارة العهد الحاضر ، ولكني اقول : ان العقاد رجل مريض ولقد رايتموه بالامس مريضا وسمعتموه مريضا وتوجعتم له مريضا وللمرض روعة ورحمة ... وللخصام فيه هدنة . ولكن النيابة ابت او خشيت ان تتهاذن مع خصم طريح الفراش ، صريع المرض فلم تأبه للشكاوى التي قدمها مؤيدة برأي الاطباء ، وقد رجوت بنفسى حضرة صاحب العزة النائب العمومي ان ينقله الى غرفة خاصة في مستشفى السجن اذ ان حالته العصبية والعسحية تقتضي مثل هذه العزلة عن بقية المرضى، ورجوته اذا لم يتيسر ذلك ان ينقله الى سجن الاجانب، فوعد ان يبدل اقصى جهده لاعداد غرفة خاصة له في سجن مصر، ولكن هذا الجهد لم يثمر مع الاسف ، فالعقاد كان الى اليوم محبوسا في زنزانة ضيقة لا تدخلها الشمس وتبللها قطرات الرطوبة كما بين لكم ذلك في الجلسة السابقة وهو لا يزال مريضا بل ان المرض اخذ في الاشتداد عليه حتى اصبحنا نخشى على حياته الغالية سواء وان يصبح السجن له قبرا حيا .

يا حضرات المستشارين ...

لا يعرف السوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيتها

لقد كنت نزل السجون في وقت من الاوقات فاذا حدثتكم عن معيشة السجن في الزنزانة فهو حديث الخبير ولا فخر .

تصوروا حجرة صغيرة جرداء وكأنها جحر . ليس فيها نافذة يطسل منها السجين وبجوار سقفها كوة تطل هي على المسكين اما الشمس فلا تدخلها مطلقا بل من الساعة الرابعة بعد الظهر يدخلها الغلام ويبعث فيها حتى الصباح ، اذ ان النور نعمة حرمت على السجين ولم ينعم بها العقاد الا منذ ايام قليلة كما اخبرنا حضرة رئيس النيابة ثم ان الزنزانة تظل مغلقة صباح مساء الا عند الخروج لحاجة او لرياضة في حوش السجن مرة او مرتين ، وبما ان ليل الزنزانة يبدأ حوالي الساعة الرابعة او الخامسة بعد الظهر فليس في مقدور السجين ان يقرأ كتابا او جريدة بل كل ما يقدر عليه هو ان ينام او لا ينام .
صوروا لانفسكم حياة رجل مفكر متحضر كالعقاد في مثل هذا الجحر . ثم صوروه لانفسكم مريضا بصدوره في حجرة مرطوبة لا تدفئها شمس ولا نار لاسيما وأنه قد أصيب من زمن بذات الرئة . ثم اذا لم ترعجكم الصورة فصوروه لانفسكم مريضا بأمراض اخرى كالاعصاب والمعدة والحنجرة والزكام الزمن الذي ترتب عليه نزول الدم من انفه ، ولكن ما

حاجتكم الى الصورة وقد رأيتكم بالامس وترون اليوم مرسوما على جبينه اثر ما عاناه من الالام التي كادت تؤدي به الى رمسه . لولا رحمة من ربه وقوة من نفسه . وقد رفع العقاد الشكوى تلو الشكوى واليكم صورة آخر شكوى قدمها :

حضرة صاحب السعادة مدير مصلحة السجون. بعد تقديم واجب الاحترام أرجو أن تسمحوا لي بتلخيص شكواي المذكورة التي آمل أن يكون لها نصيب من الاجابة ، انني اذا قلت يا صاحب السعادة ان رطوبة الزنزانة تتلف صحتي وتعرض حياتي للخطر، فلست اقول غير الواقع الذي يتساوى في العلم به الطبيب وغير الطبيب، فاني اصببت فيما مضى بالالتهاب الرئوي والنزلات الشعبية وحالة الانف والحنجرة والصدر هي عندي معرضة للنزلات التي لا يسهل شفاؤها في جو الرطوبة بل لا تزيدها الا تفاقمها واشتدادا .

وهذا عدا عسر الهضم المزمن ومرض الاعصاب ومن كان في مثل هذه الحالة يحتاج الى الشمس في محل نور حاجته الى الحياة ويتوقى الرطوبة كما يتوقى السم القاتل ، ولم تمض عليّ في الزنزانة عشرة ايام او نحو ذلك حتى اصببت بركام شديد لا يزال مستمرا الى اليوم، اي لا يزال مستمرا بعد انقضاء اكثر من خمسين يوما في جهد مقلق وضيق نفسي متتابع، وقد سرى الى الحنجرة فالتهبت، ثم تحول الى سعال واصبح السعال منذ عشرة ايام مصحوبا بافران وبلغم كثيف يضرب احيانا الى الاخضرار. وهذه حالة غير مأمونة على الصدر ولا سيما في جو الرطوبة الذي لا يصلح لشفاء نزلة من هذه النزلات ولست اذكر ما يصحب الركام من صداع وارق وما يصحبه من تأثير سيء في الاعصاب فان ذلك ظاهر بالبداية بل اقول ان الرطوبة زادت عسر الهضم سوءا على سوء . فبعد ان كان يعتريني اياما متقطعة اصبح مستمرا في كل يوم لا يجدي فيه استعمال الادوية التي كانت تزيله في الاحوال العادية. يا صاحب السعادة - خلاصة ما اقول : ان صحتي تتلف في هذا الجو الرطب الذي اميش فيه وان حياتي نفسها معرضة للخطر وانني لا اطلب الا الشمس في المكان الذي ابقيت فيه وليس من العسير تدبير ذلك . وتقبلوا الاحترام .

المضاء : عباس محمود العقاد



ليس هذا هو التعذيب بكل معانيه في مصرنا هذا ؟ عصر المدنية والنور ، سجين مريض بصدوره يطلب الشمس فيحرمها ، ورجل قد من انبغ الكتاب المصريين ، وأكبرهم نفوسا واطهرهم يدا ، يرجو أن ينقل الى سجن الاجانب ليعامل كما يعامل القتلة واللصوص من الاجانب فيستكثرون عليه ذلك ، وامتدروا النيابة بأن سجن الاجانب تحت اشراف وزارة الداخلية فاذا قيل لها انقلوا هذا المريض الى غرفة في المستشفى ، اجابت بأنها تستعمل الان كمخزن او مكتب ؟؟ وارحمتهه للانسانية من الانسان ؟ بل وارحمتهه للرجولة في عهد

يبتش فيه بالمريض وهو صريع !.. هل تريدون مني بعد ذلك دليلا يا حضرات المستشارين على ان القضية المرفوعة على عباس العقاد انما هي قضية كيد وانتقام ؟ وهلا ترون الان لماذا حوكم المتهم وقد رأيتكم كيف عومل المريض ؟ وهلا ترون ان الرجعية ممثلة في الوزارة الحالية ارادت ان تحطم هذا القلم الجبار فأوعزت الى النيابة برفع الدعوى وتلا ذلك ما رأيتكم من قبض وتنكيل .

اليست هذه الاجراءات وحدها مع ما سبقها من مقومات دليلا كافيا على ان الخصومة سياسية بحثة لا تعرف القانون ولا القانون يعرفها ؟
ومع ذلك - فسترون حضراتكم في القسمين الثاني والثالث من دفاعنا الدليل لـ
الدليل على بطلان التهمة موضوعا وقانونا .

القسم الثاني وقائع الاتهام وتكليفها

اما عن وقائع الاتهام والاشارة الى الوقائع هنا من باب التجاوز فقط فليس في التهمة وافعة ما ، بل فيها فروض واستنتاجات . والواقع ان النيابة قد تنكبت سبيل المنطق منذ اول الامر . فبدأت بالبحث عن التهمة قبل ان تبحث ليها ، واقتنعت بها قبل ان تثبينها ، وكانت هذه هي الخطوة الاولى في منزلة ما اشد انحدارها وما ابعد قرارها !.. فلذلك لم يكن للنيابة مناص من ان تتبع الخطوة بخطوات والهفوة بهفوات .. فالمرضت اولا . ثم بحثت . ثم اوكت . ثم تعسفت ثم انتهى بها الامر الى حيث بدأت . فوجهت الاتهام الى رجل ارادت او اريد لها ان تتهمه .

وها هي اليوم بلدها في مواقفها الى ابعد في التأويل والتخريج والتفريع مما ينسب عنه كل منطق . لما بالكم بمنطق قانون العقوبات الذي يقضي بأن لا عقوبة عن طريق القياس والتخريج وما بالكم بمنطق اللياقة الذي يقضي ان تصان الدات الملكية من تأويل تعسفي يسند اليها الرجعية من حيث لا مسند .

تقول النيابة : ان الاستاذ العقاد اراد بعبارة الرجعية الاشارة الى الدات الملكية ، ونقول ونكرر ان الرجعية التي معناها هي كل فكرة او شخص او هيئة مسئولة الان او فيما مضى عن هدم دستور البلاد ، او العبث بحرياتها ، وان لفظ الرجعية لا ينصرف في مبناه ولا في معناه الى شخص الملك ولاسيما وأن الدستور يخلي جلالته من المسئولية وينص صراحة على ان اوامر الملك الشفهية او الكتابية لا تخلي الوزارة من المسئولية .

ذلك قول النيابة وذلك ردنا عليها وما كان علينا ان نرد بل حسبنا ان نصمت حتى نقيم النيابة الدليل . ولكننا رددنا وسندل على صحة ردنا حتى يكون لنا فخر البراءة ايجابيا لا سلبيا ، انما يجب قبل ذلك ان نبحت أدلة الاتهام التي تمسكت بها النيابة في التحقيق والمرافعة ، لنرى هل هي تثبت على المتهم ام لا .

اما الدليل الاول والاكبر الذي تركز عليه النيابة في تحقيقها ومرامعتها فهو من اهراب ما راينا من ابواب التدليل تقول النيابة ان عبارة الرجعية تعني جلالة الملك ولماذا لا لانها لا يمكن ان تعني الا جلالة الملك ... وهنا يتساءل العقاد ايضا لماذا هذا والعبارة عامة لا ذكر فيها لشخص معين ؟ فتجيب النيابة بصوت الظاهر المنتصر «نعم» . فان عدم ذكرك لشخص معين هو الدليل على انك تقصد صاحب الجلالة الملك !» . لعلمكم تظنون انني اخطأت فهم عبارات النيابة ، ولكنني اوفر على حضراتكم الدهشة فانلو عليكم نص عبارتها بالحرف الواحد كما وردت في مرامعتها امام قاضي الاحالة في صفحة ١٥ من الدوسيه «ان المقالات التي كتبها الاستاذ العقاد خاصة بالرجعية والرجعيين كلها منصبة على جهة واحدة وهي حضرة صاحب الجلالة الملك ، ولا يمكن ان يستفاد منها اي جهة اخرى ، وكما قدمنا انه اذا كان للاستاذ العقاد ان يذكر جميع الاشخاص الذين اقتضت ظروف المقالات وسياق عباراته ان يذكرهم فان احجابه عن ذكر من يقصده بعبارة الرجعية بالذات لاكبر دليل على انه يقصد حضرة صاحب الجلالة الملك ، اذ انه ما كان هناك مانع يمنعه من تخصيص الرجعية والتنويه بأسماء اصحابها اذا كان يقصد جهة غير صاحب الجلالة الملك ...» .

هذا هو دليل النيابة الاكبر كما تسميه فلمري ما هو الاصغر ! بيد ان هذا الدليل فضلا عما فيه من تناقض منطقي يسميه المنطقيون *Petita Principi* او التدليل على

التهمة بالتهمة فهو تدليل لا يتفق مع الواقع في شيء وذلك للأسباب الآتية :
اولا - ان الرجعية هي من العبارات المصطلح عليها والتي تستعمل لذاتها فيفهم الناس مدلولها بمجرد الاطلاع عليها من غير حاجة الى تعيين اشخاص او نظم مثلها في ذلك مثل عبارات الديمقراطية والاريسستوقراطية والديمقراطية والاستعمار - الخ . وليس ادل على ما ذكرنا من تعريف الاستاذ العقاد نفسه للرجعية فقد سئل منذ اول التحقيق عن المعنى الذي يقصده من كلمتي الرجعية والرجعيين في مقالته فاجاب من غير تردد بما يلي -
صفحة ٢٩ .

«الرجعية هي مجموعة عوامل مختلفة ، تكره التقدم وتدمو الى الجمود على القديم في كل شيء ، سواء كان سياسة او اجتماعا او تفكيرا وهي قديمة العهد في مصر بطبيعة تكوينها ولها مظهر تبدو به في كل ظرف من الظروف في تاريخ النهضة المصرية» .
«وفي السياسة يوجد رجعيون يكرهون الدستور ، ويشيعون عنه اشاعات باطلة ، ويستعينون على هدمه بطلاب المصالح الشخصية ، وقد كان هؤلاء الرجعيون موجودين في مظهر من المظاهر قبل خمسين سنة ...» .

يضاف الى ما تقدم ان عبارة الرجعية هي عبارة جامعة ولا تعرف كلمة غيرها تدل دلالتها على العناصر المختلفة التي تحارب الدستور ، فليس من الحق ان نحصر محاربة الدستور في طبقة من الطبقات ، او وزارة من الوزارات ، او حزب من الاحزاب ، والوزارة الرجعية الحالية سبقها غيرها وقد يتبعها مثلها . وكذلك تكون حزب رجعي جديد وسبقه غيره من

قبل ، وقد يليه آخر من بعد .. وهكذا دواليك .

ثانيا - انه بخلاف ما تدعي النيابة فان الاستاذ العقاد عين في مقالاته الاشخاص والهيئات الذين اشار اليهم بالرجعية والرجعيين ولم يذكر جلالة الملك ، ولم يشر اليه بحرف واحد ، وفي ذلك دليل قاطع يدحض اقوال النيابة، بل وفيه دليل نفي لنا يهدم التهمة من اساسها ، خلدوا حضراتكم مقالات العقاد التي هي موضوع المحاكمة والمقالات التي كتبها قبلها وبعدها بأيام قليلة ، ولم تر النيابة مصلحة لها في تقديمها ، ففيها جميعا ثرون ان المتهم اشار فعلا الى اشخاص الهيئات ووصفهم بالرجعية ، مع انه كان في غنى عن هذا التعمين ، اذ ان عبارة الرجعية تشير بداتها الى مدلولها كما سبق ان ذكرنا ، اشد من ذلك واقوى في التدليل انه لم يقتصر على تعيين الرجعيين بل استبعد منهم صراحة القصر ورجاله ، وهو دليل نفسي قاطع لا ندري كيف اجترأت النيابة على رفع الدعوى مع وجوده صريحا ناطقا .

واليكم الادلة التي تثبت ان العقاد لم يعن بالرجعية جلالة الملك بل اشخاصا وهيئات اخرى منهاهم بالذات .

١ - استبعاد القصر صراحة في مقاله المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وهو من المقالات موضوع المحاكمة ، يقول الاستاذ العقاد ما يلي صفحة ٩ من الدوسيه :

«ايها الرجعيون الذين ما طلبوا الاستقلال لهذا البلد يوما ، ولا يطلبونه الان ولن يطلبوه ، ولن يكون لهم شأن فيه لو استقل كل الاستقلال ، وخرجت منه قسوة المستعمرين ، ايها المنافقون ... ليس من الاستقلال ان تطلبوا مسح الدستور فـلا تستطيعوه ، لقولوا لنا هل من الاستقلال ان يضايقكم حسن نشأت فلا تزالون توقعون بينه وبين اللورد جورج لويد حتى يتعرض للقصر ليأمر بنفي هذا الموظف منه الى خارج البلاد ؟

ليس من الاستقلال ان يحال بينكم وبين الدلال المصريين فهل من الاستقلال ان يضايقكم حسن نشأت فتلجأوا الى اللورد جورج لويد لينتقم لكم منه ويأمر بإبعاده عن وظيفته ويتعدى بذلك على استقلال القصر فضلا عن استقلال الحكومة المصرية» .

اذن الاستاذ العقاد يفرق بين الرجعيين والقصر ، بل واكثر من ذلك واشد فهو يقول ان الرجعيين اعداء القصر ، لانهم لجأوا الى اللورد لويد ليمتدي على استقلال القصر بإبعاد حسن نشأت باشا .

الرجعيون يعتدون على استقلال القصر ومع ذلك تقول النيابة ان الرجعية والرجعيين هم جلالة الملك دون سواء .

حقا ان للنيابة طريقة في التدليل يقتصر منها الفهم ..

اما الرجعيون الذين منهاهم الاستاذ العقاد هنا فظاهر انهم الوزراء ، او انصار الوزارة الحالية ، الذين دعاهم تارة بالرجعيين ، وتارة بالمنافقين ، وأخسرى

بالمستهترين بالاستقلال الخ .

٢ - الرجعيون او الرجعية هم الوزارة الحالية - جاء في مقال ٢١ سبتمبر تحت عنوان «سيمعدل الدستور» عبارات صريحة تدل على ان المقصود بالرجعية هم الوزراء الحاليون؛ فمثلا في صفحة ٢١ من الدوسيه «فاذا كان امل القوميين الوحيد ان تسقط وزارة العمال وت خلفها وزارة المحافظين ، فالامل بعيد والمحافظون لا يمكنون مجرى السياسة المصرية رأسا على عقب بغير سبب الا ان الرجعيين يريدون عكس الامر» .
اذن فالرجعيون هم القوميون او الوزراء القوميين كما كانوا (وكان فعل ماض) يدعون انفسهم .

وفي مواضع اخرى من المقال صفحة ٢٢ يقول الاستاذ العقاد بصريح العبارة «ولو كان الانجليز يريدون تعطيل الدستور اليوم لاستطاعت الوزارة القومية ان تعلن التعديل من اشهر مضت ، ولم تعتمد الى التاجيل والتسويف ، فموقف الوزارة ظاهر لا لبس فيه . موقفها هو موقف من يريد ارقام الامة على ما ترفض وارغام الانجليز على تسخير قوتهم في هذا البلد وفي خدمة مطامع الرجعيين ، ولا تفسر الامر الا بهذا التفسير فالرجعيون لن يقووا على المساس بالدستور بغير قوة الانجليز ... الى ان قال : افي وسع احد ان يزعم لنفسه فضلا من زعمه لغيره ان وزارة كالوزارة الحاضرة كانت تستطيع ان تجابه الامة كلها لو لم يكن في مصر جيش احتلال» .. الى ان قال «ولسنا ندري وحق الرجعية ماذا يفضي هذه الرجعية من الدستور الحاضر .. وهي تزعم ان كل ما صنعت داخل في حدود الدستور فتعطيل مجلس النواب واغلاق الصحف وفصل القضاة الذين لا يحكمون بما يراه وزير الحقانية وقتل الناس بالمئات في الطرقات ... كل اولئك فيه مخالفة للدستور» .

اذن بالرجعية هنا يشير العقاد صراحة الى الوزارة واعمالها التنفيذية ، من غلق الصحف ، وفصل القضاة ، وقتل الناس الخ ، كل هذه الامور من اعمال الوزارة ولا ريب وكان العقاد اراد ان يزيل كل اثر للريب في ذهن القارئ فقال في ختام مقاله «اننا لا نريد مسح الدستور وهذه هي القضية كلها بلا موارد ولا تحوير ، فاذا قام اسماعيل صدقي يريد مسح الدستور وقام الانجليز يابون عليه ما يريد فليس معنى ذلك ان مسح الدستور اصبح واجبا وطنيا » .

وبذلك قطعت جبهة قول كل خطيب . فالرجعية التي عناها العقاد هي اسماعيل صدقي ووزارته ولا شأن لشخص الملك فيها .

وليس الامر مقصورا على هذا المقال وحده . ففي عدد ١٠ سبتمبر صفحة ٧ من الدوسيه اشارة الى ان الرجعية هي الوزارة اذ جاء في اول المقال «اذا كان للرجعيين اليوم لسان يستطيع ان يلفظ بكلمة الاستقلال ويقول هذا من شأني وهذا ليس من شأنك فليذكر هؤلاء الرجعيون ان الاستقلال لمصر لا لهم» وفي هذا اشارة الى خطب صدقي باشا ودعواه العريضة بأنه تمسك باستقلال البلاد في رده على مكدونالد .

واكثر من ذلك ففي مقال نشر في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وهو ليس من المقالات موضوع المحاكمة اشار العقاد الى الوزارة الحالية بعبارة الرجعية اذ قال «في الايام الاخيرة كثرت الحركة بين جماعة القانونيين الذين تعتمد عليهم الرجعية في الفتاوى والتعديلات وتضييق الثياب الفضفاضة وما الى ذلك من المهام ، فشاهد بعضهم ينتقل مرارا بين القاهرة والاسكندرية ، ويحظى بالمقابلات ، ويعود بالاشارات والتعليقات . ما الخبر ؟ قال الوزاريون ان الوزارة تتأهب لامر خطير جسيم . امر فيه مفاجأة للمصريين والانجليز على السواء ، قالوا انه شيء يمس الدستور وقانون الانتخابات» الى ان قال «ثم جرت مقابلة مستر هور ووزير الحقانية وبعض الرجال القضائيين» .

وهذا صريح في ان الرجعية التي اعتمدت على الرجال القضائيين هي الوزارة الحالية . ثم جاء في مقال القضاء بتاريخ ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٠ وهو ليس في المقالات موضوع المحاكمة ما يأتي :

«ان صدقي باشا وجماعته كثيرو التعويل على حزب المحافظين لانهم مستعمرون لا يريدون لمصر الا ما يراه لها (الرجعيون)» .

فالرجعيون هم اذن صدقي باشا وجماعته من غير لبس ولا غموض . وكذلك في مقال نشر في ٢٨ أغسطس يقول العقاد بعد كلام طويل عن الوزارة الحالية «اذن ليس في الامر عشر سنين ولا عشرة اشهر . لقد علم القوم مصيرهم القريب ، وعلموا انهم زائلون ، والحكم للدستور غدا لا للرجعية والطفيان» .

والزائلون هم الوزارة ، ولن يكون الحكم للرجعية بعد زوالهم ، وهو صريح في ان الرجعية هي الوزارة ، وهناك مقال هام بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ (اي في اليوم التالي لمقال ٢١ سبتمبر الذي تحاكمنا عليه النيابة) وفيه اشارة وقاطعة الى ان العقاد يقصد بالرجعية الوزارة الصديقية واليك ما جاء فيه بعد كلام طويل عن سياسة الوزارة: «هذه هي سياسة الوزارة القومية التي تسير عليها في هذه الايام في سياسة الامة الشيء الذي نحمد الله عليه . ان الازمة الحاضرة وضحت كل شيء ، فلم تدع موقعا للمغالطة والتمويه ، فالرجعية مكشوفة كشفا لا يستر دثار ولا حجاب ، والانجليز اذا لم تكن سياستهم اليوم مكشوفة كل الكشف ، فانهم لا محالة ينكشفون تماما متى علم المصريون ان الوزارة الصديقية استطاعت ان تمضي في مسخ الدستور ، ووضع القانون الجديد للانتخاب ، فيتضح يومئذ ما هو مشكوك فيه ، ويتبين للامة ان الغرض من كل انتخاب مقبل هو التواطؤ بين الانجليز والرجعية على تمزيق الامة وهدم دعائم الدستور» .

اذن فالرجعية مكشوفة كشفا لا يستر حجاب . هي الوزارة الصديقية كما يقول العقاد بصريح اللفظ .

٣ - الموظفون الرجعيون :

في مقال مؤرخ في ٢٦ سبتمبر وهو ليس من المقالات موضوع المحاكمة يقول الاستاذ العقاد «اذن ليس في هذا المرسوم الا انه يدل الناس على تزعزع الوزارة وقلة اطمئنانها على مركزها ، وخوفها من ان تخلفها بعد سقوطها وزارة حرة لا ترضى عن الموظفين» .

اذن فالموظفون يدخلون ضمن الرجعيين فضلا عن الوزارة والوزاريين فكيف تقول النيابة ان العقاد لم يعين المقصود بالرجعية ؟ ولكن هناك هيئات اخرى ذكرها العقاد وعينها تمينا كما سترون .

٤ - بعض الصحف الرجعية :

ذكر العقاد في مقال مؤرخ يحمل فيه على جريدة المقطم ما يأتي : «والمقطم جريدة الرجعية للرجعيين» .

اذن لبعض الصحف المعينة دخلت في معنى الرجعية كما ارادها العقاد .

٥ - الرجعية قبل الاحتلال :

لم يكتف الاستاذ العقاد بالاشارة الى الرجعيين الحاليين بل عني بعبارة الرجعية اولئك الذين وجدوا قبل الاحتلال فقال في صريح اللفظ في المقال المنشور في ٢٤ سبتمبر صفحة ٢٥ من الدوسيه ما يأتي «ان مصيبة الرجعية على هذا البلد اكبر من مصيبة الاحتلال ، فانها هي التي مهدت له واستعانت به واوقمت البلد في البلاد الذي ادى اليه ، فلولا كراهة الدستور القديمة في نفوس هؤلاء الرجعيين ، ولولا التكبر عن الاعتراف للفلاحين العبد بالحرية والحكومة المصرية لما حدثت تلك الاحداث التي نعاني جرورها الى اليوم» . فهل هناك دليل نفي أقطع من هذا الدليل ، ان العقاد يقول ان الرجعية موجودة قبل الاحتلال ، وهي التي مهدت له بسبب كراهتها للفلاحين ، وهو يشير بذلك الى الضباط الشراكسة والاسراك الذين قاومهم مرابي ، فهل تقول النيابة بعد ذلك ان الرجعية يقصد بها شخص جلالة الملك في الوقت الذي يقول فيه العقاد ان الرجعية هي التي مهدت للاحتلال البريطاني .

٦ - الرجعيون هم الاحزاب المعادية للوفد وللدستور :

نذكر على سبيل الاستئناس ما جاء في خطبة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ونشر في المؤيد الجديد بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠ فقد قال «اذن ليضع الرجعيون العقبات في الطريق . لقد قالوا قبل اليوم : ان الدستور لا يصلح لهذه الامة لانه ثوب فضفاض ، وانها غير جديرة به ، ولذلك اوقفوا الدستور وعطلوه علانية ، وكانوا في عملهم جريئين صريحين ، فكان النضال جريئا وصريحا بين الامة والدكتاتورية . اما الان فان الرجعيين لا يستطيعون مواجهة الحقيقة ، ولا يجرؤون على ان يصرحوا بحقيقة خطتهم ، فهم يزعمون انهم دستوريون ولا يحيدون عن الدستور» .

ومن ذلك نرى ان رئيس الهيئة التي ينتمي اليها الاستاذ العقاد فهم بالرجعية حزب الوزارة الحالية والاحزاب الاخرى التي عطلت الدستور من قبل .

ومن هذا القبيل ما جاء في المقال الافتتاحي في المؤيد الجديد بتاريخ اول سبتمبر ١٩٣٠ تحت امضاء «ابو فصاده» .. (ثم ألم يسبق قبله طلاب الحكم من الرجعيين الاتحاديين النشأتين ومن ساعدتهم في ذلك من فئة المستوردين) اذن فرئيس الهيئة التي ينتمي اليها العقاد وكتاب الصحيفة التي يكتب فيها العقاد لم يفهموا من عبارة الرجعيين الا خصومهم السياسيين من الاحزاب الاخرى . وهو دليل نذكره في باب الاستثناس حتى لا نترك مجالاً لقائل بعد الادلة الخمسة التي ذكرناها والتي تقطع بشيء واحد هو ان الرجعية لا تعني ولا يمكن ان تعني اللات الملكية المصونة .

وفوق ما تقدم فان لدينا دليلاً ايجابياً من مقالات كتبها الاستاذ العقاد تدل دلالة على ولائه للعرش ولشخص الجالس عليه ، فقد جاء في مقال له بجريدة كوكب الشرق بتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ وهو يوم استقالة دولة النحاس باشا .. ما يأتي : «ويلوح لنا اننا في غنى من القول ان حماية الدستور مصلحة عامة لكل من في مصر ، من ارفع مقام الى اصفر صفيح في سواد الجماهير ، فلا ننسى ان جو الانقلاب قد شجع اناساً من اصحاب الحزب على الطمع في المقام الارفع ، والسعي هنا وفي اوربا لتحقيق ما يطمعون فيه ، وكان دعوتهم الى عقد الجمعية التأسيسية احدى الخطوات التي رتبوها للبحث في نظام الحكم من جديد ، والتدرج من هذه الخطوة الى ما وراءها حسب ما يشتهون ، وحسب ما تخيل اليهم الاحلام . ولم يحدث شيء من هذا قط في عهد الدستور ، ولا يعقل ان يحدث فيه يوماً لانه العهد الذي يقوم على النظام وحماية اصفر الحقوق فضلاً عن الحق الاكبر الجليل» . وجاء في كوكب الشرق في ٥ يونيو ١٩٣٠ في مقال الاستاذ العقاد ما يأتي : «لحماية الدستور ضمان لا يكرهه في الحقيقة الا الخوارج من اعداء الحياة النيابية ، واعسداء العرش والنظام ، وبهذه الحماية تحقق كل رغبة كبيرة بالرعاية والتحقيق ، وفي مقدمة ذلك رغبة صاحب الجلالة الملك التي اهرب فيها للكاتب الالماني اميل لودفيج وترجمتها الصحافة المصرية قبل بضعة اسابيع . فجلالته يمتد ان هذه الامة لا يمكن ان تحكم بغير الرقابة البرلمانية ويؤدي ارتياحه لخلص مصر من ذلك الشيء الذي كان يسمى بالدكتاتورية . هي ربة سامية يعبر عنها القانون المسنون لحماية الدستور احسن تعبير» .

اما زواية اكبر رأس في الدولة التي دستها النيابة في مرافعتها امام قاضي الاحالة بأن قالت «ولكن المقالات قد حوت اكثر مما يظن وأبلغ في الاجرام ، وهو المساس باكبر رأس في الدولة .. تلك العبارة التي اذا قيلت لا يمكن ان تنصرف لاي شخص غير شخص جلاله الملك» - فليسمع لي حضرة رئيس النيابة بان دسه لهذه العبارة في مرافعته انما هو استغلال غير نزيه من جهة وغير مبني على اي اساس من الحق او الواقع من جهة اخرى .

نفرض ان العبارة قيلت في مجلس النواب بالشكل الذي قيلت به ، فليس للنيابة قانوناً ان تستعملها ضده كدليل ، او بأي طريقة من الطرق ، اذ ليس لها ان تحاكمه عليها طبقاً لنص الدستور ، هذا فضلاً عن ان العبارة كما روتها النيابة ليست صحيحة واني اتلو

عليكم ما جاء في كوكب الشرق من مقال للعقاد في هذا الصدد ... ونشره الكوكب في ١٩ يونيو ١٩٣٠ :

«ان البلاد مستعدة لان تسحق كل رأس يخون الدستور . هكذا نقول اليوم وهكذا نقول غدا وهكذا يقول القانون والدستور ، فان مصر دولة ملكية دستورية تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر ، وتعد حماية الدستور لها فريضة لا تنسى ، وواجبا أقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء» ..

. وهذا صريح في ان العقاد لم يشر بتلك العبارة الى جلالة الملك ، بل كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الدستور ، وقد سبق ان ذكرنا ان شخص الملك غير مسئول عن مثل هذا الاعتداء ، اذ المسؤولية تقع على هاتق الوزراء .
الرد على اعتراضات النيابة :

وهنا تكلم الاستاذ مكرم بك طويلا في الرد على بعض اعتراضات النيابة ، واهمها قولها ان الدستور منحة لدلل على ان الدستور حق من حقوق الامة رد اليها ، واستشهد على ذلك بنص الدستور على ان الامة مصدر السلطات ، وبالمادة ١٥٧ من الدستور التي تحرم تعديل الدستور من غير اشتراك الملك والبرلمان معا ، وأشار الى تعليق وزير الحقانية في سنة ١٩٢٣ الذي جاء فيه «ان الدستور في يد جلالة الملك وانه رده الى شعبه واخيرا فان المادة ٧٨ مقوبات تعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة او المؤقتة كل من اعتدى على الدستور بالقوة» ، ثم رد الاستاذ مكرم على قول النيابة بان العقاد مسئول عن مقال (ص) وبين ان الاستاذ العقاد قرر صراحة موافقته على الراي دون الوقائع المفصلة فيه ، اذ من غير المعقول ان تنصب الموافقة على الوقائع مفصلة . هذا فضلا عن ان الوقائع المذكورة لا تشير الى شخص جلالة الملك ، بل تشير الى وزارة نسيم باشا وحسن نشأت باشا وحزب الاتحاد .
ثم استطرد الاستاذ الى الرد على اعتراض النيابة الخاص باحراج الوزارة ، وقال ان الاحراج لا يأتي من الملك ، فلجلالته اقبالته او قبول الاستقالة اما الاحراج فيأتي من الاحزاب المعارضة ، او من الطامعين في الوزارة المقبلة او من حملات صحفية او حتى من رجال الراي لما قال عبد العزيز باشا فهمي عن نشأت في سنة ١٩٢٥ ، من ان هذا الاخير يخرج الوزارات ، بل ويعطل الدستور ، اذن لعبارة الاحراج لا تنصرف الى جلالة الملك بل ولا يليق توجيهها اليه . ورد الاستاذ على ملحوظة النيابة الخاصة باذئاب الرجعية وقال ان العبارة التي وردت في مقال العقاد عن الرجل المشهر العرض المهتوك السيرة لا تنصرف الى رئيس الوزارة الحاضرة على التعيين كما تقول النيابة فانه بين الموظفين الذين رفتهوا وأعيدوا من قد تنطبق عليه هذه العبارة ، ثم ان الاستاذ العقاد ذكر هذه العبارة من باب التحليل بدليل انه اشار الى الرجل المعتوه الخامل النكرة والمجرم والمحكوم عليه والسارق والافقار والاندال باعتبار انهم جميعا اذئاب الرجعية ثم قال الاستاذ مكرم :

القسم الثالث

التكييف القانوني للتهمة

كلمة ختامية

يا حضرات المستشارين :

اني كمحام يمت الى القانون بصلة وثيقة شريفة هي صلة الدفاع عن العدالة مستمدة من نصوصه ، مستنبطة من أحكامه ، أراني في حيرة كيف أوفق بين التهمة كما تفهمها النيابة والقانون كما أفهمه .

فلقد ارتكبت النيابة خطأ مزدوجا . فمن حيث التكييف القانوني فإنها أولا عمدت الى التأويل والتخريج ، مما تنبؤ عنه قواعد قانون العقوبات العامة ، ولأنها وهو المهم فإن جريمة العيب في الذات الملكية لا تقع من طريق التلميح أو من أي طريق غير مباشر . وهنا تلا الاستاذ صفحة ١٥٦ من كتاب التشريع السياسي وقال ان ما كتبه عبد العزيز باشا فهمي في هذا الصدد اعتبر كأنه مذكرة تفسيرية في مادة العيب في الذات الملكية ، وعبد العزيز باشا يقول انه عندما كان وزيرا للحقانية طلب اليه ان يضيف الى المادة ١٥٦ من قانون العقوبات الخاصة بالعيب في الذات الملكية العبارة الآتية وهي : «سواء كان العيب مباشرة أو غير مباشرة . تصريحاً أو تلميحاً» ولكنه اعترض على ذلك بشدة وانتهى الامر بأن عدل من هذه الاضافة .

لما معنى هذا العدول . لا معنى له الا ان المادة بنصها الحالي تنفي بتماما ان العيب من باب التلميح أو من طريق غير مباشر ، فاذن ما كان يصح للنيابة قانونا ان ترفع هذه الدعوى ، لانه ما كان يصح لها ان تلجأ الى التفسير والتأويل في مادة العيب التي يجب ان يكون فيها العيب صريحا ومباشرا .

ولفوق ذلك فان العيب على صراحته يجب ان يكون موجها للذات الملك ، وهنا استشهد الاستاذ مكرم بكتاب باربيه فقرة ٣٣٨ صفحة ٢٤٢ وبكتاب احمد بك امين صفحة ١١١ .

كلمة ختامية (١)

يا حضرات المستشارين :

لقد شامت النيابة وشاء لها فهمها الخاطيء للاوضاع الدستورية والقانونية واللفوية ان تجعل من الدفاع تهمة ، ومن الحق جريمة ، فسأقت الى المحكمة رجلا اراد ان يدافع

١ - يبدو هذا الجزء من دفاع مكرم عبيد غامضا لانه يتصل ببعض ما نشرته الصحف في مصر ولبنان حول قضية العقلاء سنة ١٩٣٠ .

غائلة الاذى عن حقوق بني قومه ، فكان مثلها في ذلك مثل من يترك الجاني ملبسا بجريمته ، يأخذ المجنى عليه ان استصرخ القوم لنجدته .

لقد تبين لكم صراحة ان عباس العقاد الكاتب ومباس العقاد النائب لم يعب ، وما كان له ان يعيب في الذات الملكية التي هي ذات مصونة طبقا لاحكام الدستور الذي كان يقاتل في سبيله ، وفوق ذلك فان المقالات التي كتبها في كوكب الشرق تدلكم على مقدار اجلال العقاد لذلك المقام السامي .

ولقد عانى العقاد كثيرا في سجنه حتى ساءت صحته الى حد خطير . وبثا شكا امره الى النيابة لما كان لشاكيه ان ينتصف لشكواه او يرق لبلاواه ، ولكن مثل العقاد يقع ولا يضرع ، ويتألم ولا يجزع ، ولذلك صبر وتأسى ، وكأنه يقول لنفسه :

كل شيء لضده يتحول فالزم الصبر اذ عليه المول

والحمد لله فقد انتهى صبره اليكم ، وسينتهي الظلم على يديكم ، فقولوا كلمة العدالة فانا لها لمرقبون ومنتظرون .

رواية تروى عن احد القضاة انه سمع مرافعة احد المحامين وكانت خارجة عن الموضوع، فانتهى بان قاطعه وقال : حكمت المحكمة ببراءة المتهم لغير الاسباب التي بينها الدفاع . واني لاضيق ذمعا بالرافعة ، بل اقول اني اطلب البراءة للاسباب التي ارتكبت عليها النيابة واؤكد ايضا فيما تقوله النيابة انه غير معقول ، فانا اقول ايضا انه غير معقول وان كانت النيابة قد ارتكبت على الاسباب التي جاءت بها فنحن نلاحظ اولا ان النيابة قد اتجهت الى القضية اجهها جديدا ، او ان القضية اتجهت بالنيابة الى جهة لم تكن في الحسبان، واني أخشى ان السفينة التي تتقاذفها الامواج وزجتها النيابة بين تيارات متعارضة قد صارت من غير ربان ، فان النيابة في مرافعتها الاولى كانت ترتكن على تأويل وتعسف في التأويل ، اما الان فقد انتقلت من تعسف في التأويل الى تعمق في التفصيل ، الى حد ان السفينة كادت تفرق في بحر من التفصيلات .

ان التهمة لا تؤخذ من سطر او كلمة او نهر ، بل تستخرج من مجموع المقالات ، وباب التخريج مفتوح على مصراحيه ، فاذا دخلنا من مدخل خرجنا من مخرج ، ويظهر ان النيابة قد اسحت لنفسها المجال ، حتى تجد امامها سبيلا الى الاتهام .

ما الذي استجد في القضية : عرض للمحكمة ان تطلع على جريدتين اشير اليهما في مقالات العقاد احدهما جريدة الوادي والثانية جريدة الاحرار .

وقال الاستاذ من تلقاء نفسه ولم يكن هذا معلوما للمحكمة ولا للنيابة . . هذا الحديث وضع تحت عنوان معين ، وانا اعترضت عليه ، وطلب استدعاء الشاهد ، كل هذا حصل بطريقة جدلية طبيعية لا محل للريب فيها ، ثم جاء الشاهد وأطلعنا على المقالات فما الذي تريد ان توصلنا اليه اليوم فانا قد ازلقنا فعلا من البحث في نيسة الزحلاوي وعبد الحميد حمدي وانتقلنا الى البت في مقالات اخرى .

وأقرب من هذا وصلنا بطريق ملتو معوج الى الكلام في مسألة اكبر رأس التسني
استبعدتها المحكمة استبعادا وهو غير معقول وليس محلا للبحث .

ولكن هناك عناية تلغلغل الابرياء من السماء ، هناك عين ساهرة على مصير الابرياء ، وهي
التي ألهمتكم ان تطلبوا جريدة العقاد ، وألهمت العقاد ان يطلب الجريدة ، ولكني سأقدم
اليكم بالدليل المادي على صدق الزحلاوي .

أريد ان اختصر الطريق عليكم وأن أجابه الاتهام وجها لوجه وأن أناقشهم على أسوأ
الفروض حتى ننتهي . نفرض ان الزحلاوي على أسوأ فرض أساء فهم أقوال العقاد ، وأنه
فهم ان العقاد يقصد جلالة الملك ، فهل يعتبر الزحلاوي حكما بيننا وبين النيابة . هل هناك
خبراء فنيون يا حضرات القضاة .

ولكني لما قلت لحضراتكم ان العناية الربائية ساقطت لنا هذا الدليل من حيث لا ندري
كنت انتظر ان الحديث سيكون قاصرا على ما جاء بالمؤيد الجديد ، وقد فسرته كل حسب
مصلحته ، ولكنه تبين في الحديث ما يفسر معنى الرجعية ، وما لم يأت في جريدة المؤيد
نفسها مرت عليه النيابة وتركته ، ولو قرأ النائب هذا الكلام بأمان لتبين ان المقصود
بالرجعية هي الوزارة ، وتبين ان العقاد خصم عنيد للوزارة .

وما جاء في الحديث ان الازمة ستنتهي حالا ، وأن الوزارة الحالية لا ولن تمتدي على
حكم البلاد ، ولا سيما بعد ان فشلت الوزارة فشلا كاملا في سياستها الاقتصادية ، فاذن هذا
معناه ان العقاد يقصد بالرجعية الوزارة دون غيرها .

ثم تكلم عن التعليق والعنوان فقال :

أما العنوان فهو من عمل الجريدة . لها خطة معينة في العناوين : النحاس باشا يكشف
عن صدره ويقول للبوليس اطمعوني بحرابكم — فهذا عمل صحفي يقصد به لفت النظر ،
فإذا كان زحلاوي وضعه فلا ينتظر ان يستشار العقاد في اختيار العنوان .

ثم نعود الى التعليق . ما الذي عناء هذا الشاهد لو ان هذا طعن في جلالة الملك .
هل تكون اشياء جديدة بالنشر . ولكن الامور مرهونة بأوقاتها . ويريد تشويش القاريء
ولفت النظر . واقص عليكم من ذلك ان الجرائد كانت تكتب عناوين مهولة ودموت لذلك بعض
الصحفيين وأفهمتهم ، فقال أحدهم ان الاستاذ مكرم يبتسم وأن ابتسامته هذه تخفي معنى ،
وقال آخر انه اطلال في الحديث ، وكل يفسر على هواه ما يريد ، ولكل جريدة عقليتها
ونفسيتها ، ومسألة الدكتور حامد عاد لان السيدة والدته مريضة ، ويريد القدر ان تنتقل
الى رحمة مولاها . ولكن الجرائد ذات الغرض لا يهمها ذلك فلماذا تتصرف تلك الكلمة . كلمة
اكبر رأس الى جلالة الملك . ولكن سنقدم لحضراتكم الدليل القاطع وبعد الاطلاع عليه
ستقولون كلمتكم الحازمة ببراءة هذا المتهم .

ثم نعود الى ما قاله الشاهد اولا انه قال انه ارسل تكديبا بلسان العقاد لما نشر في
المقطم ، وثانيا طلب منه ان يعترض على هذا العنوان وفعلنا ارسل للجريدة بذلك ، ولنقدم

اليكم التكذيب وهو منشور في عدد ٢٠ يونيو . وقالت المقطم عن السياسة ان العقاد قال في مجلس النواب ان المجلس مستعد لسحق اكبر رأس في البلاد ... الخ . وبتاريخ ٢٤ يونيو وهو الموعد الذي نشرت فيه الاحرار مقالا تحت عنوان « ماذا يقول العقاد » واليكم ما جاء فيه : تجاوزت في احدي وسائلنا السابقة عن ذكر ما جاء ببعض الخطب النارية ، وعمدت الى محاضر مجلس النواب ، فقد انفردت جريدة السياسة بذكر كلمة « اكبر رأس » وقد علقنا عليها الجريدة بنزعتها الحزبية وهي تقصد بذلك الإيقاع بين الوزارة والعرش .

وقد صدرت كوكب الشرق صباحا وهي تحمل في صدرها مقالا بقلم الاستاذ العقاد جاء فيه ان البلاد مستعدة ان تسحق كل رأس في البلاد .
واظن لا يمكن ان يكون تكذيب من مراسل جريدة ونشر التكذيب بعد ان علق على ما نشرته السياسة .

اذن ثبت بالدليل القاطع ان الزحلاوي لم يكن كاذبا في قوله : انه ارسل لجريدته تكديبا ، وهو يفسر ما جاء في جريدة السياسة بأنه خاص بنفي امر آخر وهو انه بعد نشر الحديث اعترض الاستاذ العقاد على بعض ما جاء به وجاء الشاهد هنا ونسأل ان العقاد اعترض فعلا بعد نشر الحديث وكلفه بتبليغ جريدته هذا التكذيب .

وقد يقال ما معنى انه كذب حديث المقطم ؟ ثم يعود وينشر هذا المقال بهذا العنوان ، فردا على ذلك نقول ان هذا فقط من طريق التشويق واحببت لكي ادلل لحضراتكم على ان المراسل بطبيعته او بطبيعة عمله يضع بعض الرغوش في الخبر الذي يرسله . واقول لحضراتكم ايضا رواية غريبة نشرها هذا المرسل نفسه بجريدة خاصة بهذه المحكمة ايضا . وهي تبين نفسية هذا المراسل الغريبة .. وقرا الاستاذ مكرم الفقرة الخاصة بمحاكمة الاستاذ العقاد وهي تتضمن ان العقاد لما دخل قاعة المحكمة وقف الناس اجلالا له ولما امرهم رئيس المحكمة بالجلوس امتنعوا وقالوا حتى يجلس العقاد ، وحدث اثناء قراءة هذه الفقرات ضحك من الجمهور وهذا دليل على نفسية المراسل .

وقد ارسلنا تلفرافا الى مراد بك الصلح ونفس التلفراف الى صاحب جريدة الاحرار البيروتية هذا نصه :

نشرت جريدة الاحرار البيروتية حديثا للاستاذ عباس العقاد بتاريخ ١٢ آب عدد ١٩٣٠ عنوانه « الرجل الذي هدد بسحق اكبر رأس في مصر » والعقاد يقرر ان القضية مرفوعة ضده الان وانه بعد اطلاعه على هذا الحديث اعترض على العنوان وعلى تعليق المراسل وطلب من الزحلاوي افندي مراسل الجريدة الذي اجرت معه الحديث المذكور نشر اعتراضه بنفس الجريدة . وشهد زحلاوي امام المحكمة اول امس بصحة ما قرره العقاد لنشره في الاحرار ولكنه لا يعلم هل نشرته الجريدة ام لا لمنع دخولها مصر . والمحكمة مهتمة بمعرفة هل نشر الاعتراض والرجو تحري الامر والتفضل بارسال تلفرف اليوم باسمنا بالنادي السعودي ،

والفادنا هل نشرت الجريدة هذا الاعتراض وما نصه وتأريخه فان لم تكن نشرته فهل وصلتها رسالة من مراسلها عن هذا الاعتراض والضرورة تقضي بإرسال الرد تليفرافيا حيث يصلنا اليوم لان آخر جلسة فدا صباحا واني على كل حال انتظر ردا من حضراتكم وتفضلوا بقبول عظيم شكري واجلالي . مكرم عبيد المعامي .

وجاء الرد وهذا نصه : النادي السعودي تسلمت من مكاتبنا في مصر اعتراضا على حديث العقاد للاحرار - وعلى تعليق الكاتب ولكن قلم التحرير صاحب الشأن المطلق في وضع العناوين للرسائل ودرج ما يختار منها . لم ينشر الاعتراض يقينا من ان العبارة المتوج بها الحديث سبق ان نشرتها صحف مصر بكاملها ونسبتها ان خطأ او صوابا للعقاد وهذا ذلك لمنع «الاحرار» من دخول مصر كان سببا آخر لاهمال نشر الاعتراض وسواء من حوادث مصر اعتقادا منا ان لا فائدة من نشرها بعد منع الجريدة من دخول القطر المصري.

خليل كسيب

رئيس تحرير الاحرار

وبعد ذلك قال مكرم عبيد بك :

ايها الرجعيون انما انتم تعتمدون على استغلال القصر ، وكنا نعتقد ان هذا كاف لهدم التهمة من اساسها ، لكن جاءنا فوق ذلك دليل وشاهد .

اذن قد انهارت التهمة من اساسها لانه جاءنا دليل خارجي .

وختم المرافعة بقوله : تبين من مرافعة رئيس النيابة انه في هذه المدة يتكلم بملهجة اللائق من نفسه ، وليته فطن الى المثل الانجليزي المشهور كم من عشرة بين شفة الشارب وكأسه والواقع قد عثر الاتهام عشرة لا مقيل له فيها وتبين ان الادلة التي ارتكبت عليها وقالت انها ادلة مادية ان هي الا ادلة مادية ايجابية لتبرئتنا .

واني اهيئ بحضراتكم ان تعلنوا حكم البراءة في وضوح وجلال لتصونوا المتهم من هذا الاتهام المريب ، بل لتصونوا الذات الملكية من مثل هذا الاسناد المريب .

وانه من الحرام ان يرج برجل في السجون وان تقام تهمة على اساس واه من التدلليل والتحوير والتضريع والتأويل .

هذا عيب قانوني فضلا عن انه عيب لفظي ومعنوي .

وانا لفي انتظار كلمة العدالة واضحة صريحة لوضع الامور في نصابها وتطمين النفوس على حرياتنا .

آخره عباس العقاد حقيقة الكاتب وما كتب

بقلم المجاهد الكبير مكرم عبيد

«جريدة كوكب الشرق - ٦ أكتوبر ١٩٣٥»

اعتذار

اني مدين للكثير من اخواني واصدقائي بكلمة اعتذار ، ففي رأيهم ان مثل الاستاذ العقاد لا يصح ان ينازل او يجادل وانه لا يليق به ان انزل معه الى مستوى واحد في ميدان القلم ، فلن انال منه الا الشتم فوق ما شتم .

هذا حق ولكنه بعض الحق .

لمن جهة اولى ، ليس لي نيتي ان ادخل مع الرجل في حوار او جدل بل هي كلمتي الاولى والاخيرة اوجهها - لا اليه ولا ردا عليه - بل الى الرأي العام بيانا موجزا عن حقيقة الامر في الدسياسة التي اتخذت من العقاد اسما وبوقا ..

ومن جهة ثانية فمن قواعد الجدل انه اذا انتهت المناقشة الى شتائم ، فالمهزوم فيها هو الشاتم لا المشتوم .

ومن جهة لثالثة فمن الرحمة برجل فقد كل شيء وغلب في النهاية على امره ، ان يسمح له بالتفريج عن نفسه بعض الشيء ، ولو بما ينفثه من صدره .

فليطمئن اذن الاصدقاء والخصوم معا .. فان لم يكن في الشتائم ، الا ابراز ما في الصدور من سخائم ، لكفى بها جزاء موفورا للمشتوم عن اهانتة وكفى بها عزاء يسيرا للشتام من هزيمته .

خيانة

والآن أعود الى الوقائع ، ففيها ابانة ، وفيها خيانة ..

اسبوع دبح فيه الاستاذ العقاد - بمعاونة حليفه الجديد الاستاذ عزمي - المقالات والشدرات والمختارات على اختلاف انواعها وأحجامها وعناوينها .. ولما أشرفا على اليأس خيل اليهما - وللأس خيال فخيال - انهما قديران في ظل السيدة روز اليوسف هلسى هدم ذلك الطود الشامخ الذي شيده المصريون حجة بعد حجة على اعناق المجاهدين واشلاء المستشهدين - ذلك الطود الذي هو الوفد والزعامة والنحاس .

ولعلمهم حسبوا ان الامة لم يتم لها النضوج السياسي والفكري بعد ، وان عملية الهدم عندها لا تقتضي اكثر من بعض الالفاظ الضخمة والدعاوى المبهمة فراحوا ينبشون ما اتراه الخصوم قديما على الوفد ، واتخذوا من تلك المفتريات مجدة معاول جديدة للهدم والتعطيم ناسين او منناسين انهم كانوا حتى الامس القريب يسبحون بعهد من جعلوا وينكرون من الافكار ما عادوا لأكدوا ..

ليس عجيبا ان يطعن العقاد بعد مديح في زعامة النحاس ، وصلابة النحاس ووطنينه هو ومكرم ... وهلا أدرك المسكين انه بذلك يضع نفسه بين شقي الرحى اذ لا مفر له من احد امرين :

فاما انه كان يبغى بالمديح نفاقا .. او انه كان يبغى من وراءه اجرا وجزاء ونفاقا ... كلا الامرين شر وأحلاهما مر .

ومهما يكن من امر فقد كانت خيانة ما بعدها خيانة تلك التي اقترفها العقاد «الوفدي» بما حاوله من هدم الوفد وتجريح الزعامة - هذا اذا صحت الدعاوى التي يدعيها ضد الوفد فما بالك وهي مفتريات حقيرة كما سيأتيك بيانا :

بل إنها لخيانة ما بعدها خيانة ارتكبها بصفة كونه مصرياً فقد حاول ان يخرّب بيديه المعتقل المصري الاوحد ... يعلم ان الوطن المصري مهدد بخطر الحرب الداهم ، وأن مصر بأسرها متحدة في وفدها واقفة للانجليز بالمرصاد وتطالبهم باستقلالها وازالة العقبات من طريق دستورها .

فلو ان الزعامة انهارت ودبّ الانقسام في صفوف الشعب بفضل جريمة العقاد ومن معه لما الذي كان يبقى لنا في اشد الاوقات حرجا ، اللهم الا اشتاتا مبشرة ، لا يحسب المستعمرون لمفاضبتها او محاستتها حسابا .

وليس يخفف من وزر وخيانة العقاد وجماعته ان الوفد اعظم قوة وامنع جبهة من ان يهدمه الهادمون مهما تناصروا وكان بعضهم لبعض ظهيرا ، فالخيانة جريمة معنوية تتم بمجرد النيل ولكل خائن ما نوي ...

مدى الدسيسة

ولقد كانت الخيانة دسيسة مدبرة ، ماجورة ، وأريد بها ان تكون واسعة النطاق ، لولا ان الله قد وضع في نفوس الامة غريزة تلهم الحق الهاما ، فقتلت المؤامرة في مهدها، واذا كانت المصلحة الكبرى تأبى ان تكشف عن خبايا هذه الدسيسة في الوقت الحالي فحسبي ان اقول محمدا ومؤكدا ان العقاد وبعض من على شاكلته كانوا من ورائها وان من وراء هؤلاء خصوما للوفد معينين . . وبعبارة اصرح فمن الثابت اولا ان العقاد ومن معه طرف في المؤامرة وثانيا ان وراءهم جماعة من خصوم الوفد يمولون المؤامرة بالمال وثالثا ان الفرض الاول من المؤامرة هو هدم الوفد في زعامته وفي سياسته حتى تستقط الوزارة (١) في فترة الصيف قبل ان تستكمل مسعاها فينتهزها الخصوم فرصة يحاولون فيها تأليف وزارة منهم، واغلاق كل باب مفتوح وبذلك يتم الامر الواقع الذي حسبته ان ليس له من دافع .

مؤامرة خطيرة ضد امانى البلاد ، صبغها الماكرون بصبغة التطرف ، وبدلوا في سبيلها الجهود والنقود .

ولقد كانت هناك مقابلات واتصالات بين العقاد وبعض خصوم الوفد المعنيين ومثلها بين عزامي وبينهم .

ولدينا على هذه الاتصالات أدلة لا يتطرق اليها الشك ، ولكن واجبا اكبر يتحتم علينا كتمان ما نعرفه ، وحسبنا ما يأتي من الأدلة من نفس الوقائع ففيها ما يغني عن كل دليل سواها: -اولا- قبل صدور القرار باقصاء جريدة روز اليوسف سبق جماعة ومحرضوهم الحوادث فأصدروا منشورين بتوقيع مستعار ينضحان بأفذر السباب واكذب المفتريات ضد دولة الزعيم وضدي ، وقد وزع المنشوران على اعضاء الهيئة الوفدية واللجنة السعدية للسيدات وكثيرين من اعضاء اللجان الفرعية والطلبة والموظفين الخ . . وكان الطبع متقنا، والتوزيع واسع النطاق ، مما دل على ان من وراء الطابعين والموزعين اشخاصا من ذوي الجيوب الرحبة الواسعة . ثانيا - بعد صدور قرارى الوفد بفصل الجريدة والعقاد معها، رأينا في الجريدة مقالات وعناوين واطارات تتفق في المعنى وفي اللفظ مع المنشورات البلدية المشار اليها ، فردت المنشورات جميعها لانها هي ايضا سبق ان اخذت من الجريدة مطاعن منقولة بالفاظها فضلا عن معانيها .

ثالثا : ولعل اقطع دليل على تأمر العقاد ومن معه انه منذ اكثر من شهر وقبل ان يعرف جمهور الناس شيئا من الخلاف بين الوفد والعقاد صدر منشور (نمرة ١) موقعا عليه بنفس

١ - المقصود هنا هو وزارة توفيق نسيم التي كان مفهوما انها تمهد لانتخابات حرة سنة ١٩٣٥ مما يؤدي الى عودة الوفد الى الحكم . . . وكان العقاد يهاجم وزارة نسيم بينما كان الوفد يؤيدها .

التوقيع ولقد حذر المنشور رئيس الوفد من المساس بالعقاد العظيم ، وتهجم على الزعامة مهونا من شأنها بالقياس الى «عظمة» العقاد :

أما ما خفي فكان اعظم ، وسيأتي وقت يعلم فيه الناس ما يجهلونه من أغراض الجريمة وأشخاص الجرمين ... فلقد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

من هو العقاد ؟

ليس من حقي ان اعرض لشخصية العقاد الا من ناحيتها العامة التي تهم الجمهور . ولعلي لن اجد كبير مشقة في تحليل الناحية العامة من شخصيته فهي تكاد تتلشى امام الناحية الخاصة منها :

ولست أعرف لي من اعرف رجلا كمباس العقاد يرى الدنيا مركزة في شخصه فلا يعنيه ان يضحى بكل شخص ، وبكل عاطفة ، وبكل فكرة في سبيل شخصه ، ولزوات شخصه ، وشهوات شخصه .

ولما كان الرجل لا يرى في كل شيء غير شخصه ، ولا عقيدة له الا في شخصه ، فهو مسلوب العقيدة ، او في القليل ضعيفا في كل ما عدا شخصه ، او كل ما لا يؤدي الى منفعة الشخصية .

فهو لا يؤمن بالله - لا عن فكرة او دراسة - بل لانه سبحانه قد شاء ان يكون العقاد اقل مالا او جاها من زملائه ومنالسيه الصحفيين - او لانه اقل استمئاءا بنعيم الحياة من غيره ممن يراهم دونه جدارة وعظمة ...

لذلك يلاحظ الناس على كفره بالله طابعا خاصا يميزه عن سائر الملحدين هو طابع الانتقام - فهو لا ينكر الحادة ولا يحفظه لنفسه بل يعلنه للناس حاقدا متهمكا كلما احس بمرارة الفشل تأكل صدره لتراه يقسم متهمكا «والله الذي لا وجود له ا» من غير داع الا الانتقام لشخصه من الخلاق العظيم وكذلك هو لا يؤمن بالوطن الا اذا اتفقت الوطنية مع مصلحته الشخصية فاذا ما تعارضتا كان اول الجاحدين بمصر والمصريين .

ولكم سمعته وسمعه غيري يصب اللعنات على الملايين الاربعة عشر ممن المصريين لانهم لم يقدروا مواهبه الممتازة حتى بارت بغضاوته ، وافلست جريدة مصر التي كانت تحمل هذه البضاعة الكاسدة لجمهور الناس .

وكذلك لا يؤمن العقاد بالوفد الا اذا قبض اجره من مال الوفد ... وسيرى القارىء فيما يلي ان العقاد لم يكن خلال اتصاله بالوفد الا كاتباً مأجورا يتناول الاجر دراهم معدودات ، فلما انقطع اجره ، نفذ صبره ...

وكذلك لا يؤمن العقاد برعامة او بفكرة ، وهو اليوم يكفر بالزعامة التي قدسها ، ويهاجم المبادئ التي طالما دافع عنها ، بل انه لينكر ماضيه في سبيل حاضره ، ولا يهمه

الا ان يقبض الاجر الى آخره .

ولعل ابرز صفة في العقاد ، انه لا يؤمن بصديق اسدى اليه احسانا فما جزاء الاحسان عنده الا الكفران ، وتعليل ذلك راجع الى انانيته التي لا حد لها ، فهو يابى ان يكون مدينا لانسان والناس له مدينون .

ولكن ليس معنى ذلك انه يرفض الاحسان ، كلا ، بل هو يقبله ، ويطلب به ... ولكنه يكفر به لاول فرصة سانحة ، وبخاصة اذا انقطع عنه الاحسان او تضاعل بعض الشيء فالويل حينئذ كل الويل لذلك المسكين الذي ينكر على العقاد انه صاحب «حق» في الاحسان ، او ينتظر منه على الاحسان بعض الشكران ...

كان دولة الرئيس الجليل - حفظه الله - يفتدق على العقاد من عطفه الشيء الكثير ، ويحسن اليه معنويا وماديا (كما ستري) ، وكنت انا المحامي الذي تطوع للدفاع عن قضيته، ولما خرج من السجن سعيت فالحقته بجريدة مصر مقابل اجر شهري ما كان يحلم به طوال عمره (١٠٠ جنيه شهريا) ثم لما حل الكساد بالجريدة على يديه ، وخرج منها جاوني يبيكي ويستبكي ، طالبا نفحة من مال الوفد تساعد على قضاء مظلة الصيف على شاطئ البحر ... لمنحه الرئيس مبلغا آخر فوق ما منح (ولهذه الواقعة حكاية طريفة سياطي بيانها) وبعد ذلك توسل بي الى العمل في جريدة الجهاد مقابل اجر كبير - وكانت كل هذه المساعي بناء على ارشاد دولة الرئيس الجليل وعطفه عليه ، ولكن عباس العقاد ما كان ليقدّر الفضل لاهله ، او يرد الجميل بمثله ، بل راح يقيم الدليل في شخصه على صحة ذلك القول الخالد (اتق شر من احسنت اليه ا) .

وهل تعرف ايها القارئ لماذا كانت هذه القفزة الجبارة من الاحسان الى النكران ؟ لا بسبب الا لان دولة الرئيس الجليل لم يور عباس العقاد في دار جريدة روز اليوسف مهنتا بعمله الجديد ... ولان مكرم هو شيطان الرئيس في هذا الوزر الشديد !! لست هازلا او ساخرا ، بل هي الحقيقة بحروفها استمدتها من مقال للاستاذ عباس العقاد ذكر فيه اسباب خروجه على الوفد وفي مقدمتها هذا السبب العجيب .

اليس هو الخبل بعينه ؟ نعم وفوق الخبل ...

ولكن يخطيء من يظن ان عباس العقاد هو مجرد رجل مغرور - كلا بل هو ايضا وبوجه خاص - رجل ماجور ! واليك البيان الحاسم :

ماجور !

بدأ العقاد حياته العامة ، وحياته الصحفية ، بمراقبة الصحف المصرية تحت اشراف السلطة العسكرية البريطانية اثناء الحرب العظمى .

ولما كان العقاد امينا على الدوام لذاته ، لم ير مانعا من ان يعمل لمصلحة بطنه ، بدلا

من مصلحة وطنه ، والفارق يكاد لا يذكر بين المصلحتين فلهذا أجر ولتلك أجره - أما الأجر فعلى الله ، وأما الأجرة فعلى الناس ، وفي متناول الناس !! .

ولكن إذا كان عجيبا أن يقبض العقد اجرا في مقابل رقابة للصحف المصرية وخدماته للسلطة العسكرية البريطانية ، فأعجب منه أن يتقاضى العقد اجرا من الوفد المصري فسي مقابل خدماته للامة المصرية ! ولكن هذا العجب هو الواقع الذي وقع ، وإلى القراء بيانته: - كان عباس العقاد هو الكاتب الوحيد الذي يتناول من الوفد «اجرا شخصيا» أو مرتبا شهريا مقداره ثلاثون جنيها !! وكان يقبض هذا المرتب طوال حياة الزعيم الخالد سعد رحمه الله ، وظل يقبض طوال زمامة النحاس حتى الزمن الاخير كما سيأتي البيان .

ويلاحظ ان العقد كان يقبض هذا المرتب السخي مزدوجا مع المرتب الذي كان يتقاضاه من البلاغ وبعض الصحف الاخرى فاذا ما تأخر سداد هذه الضريبة الشهرية راح يهدد ويرمجر ، مهددا بتسخير قلمه لجهات اخرى مناوئة للوفد !! .

ولما توفي سعد الى رحمة ربه استمر دولة النحاس باشا على دفع هذه الاتاة الشهرية له حتى تم الاتفاق بينه وبين جريدة مصر على مرتب شهري قدره ١٠٠ جنيه شهريا ، فاقطع عنه المرتب الاضافي ، ولكنه ما كاد يخرج من جريدة مصر بعد شهور قليلة حتى عاد الى الوفد مطالبا بحقوقه في اموال الوفد ...

فرضي الرئيس الجليل حفظه الله ان يعينه على الحياة بمرتب كان يبلغ احيانا الخمسين والستين والسبعين من الجنيهات ، واني لاذكر ان العقد جادني في هذه الفترة يزورني في الاسكندرية فما كدت احببه حتى رايت الغضب يتطاير من عينيه ، ويهدد بين شفتيه ... فسألته عما دهاه فأجاب ان الوفد ارسل له ٢٥ جنيها فقط مصاريف «لسحة» على شاطئ البحر ، وأنه يجب على الوفد ان يدفع له مبلغا آخر مثله ، وأنه لا يدري قيم تصرف اموال الوفد اذا لم تصرف على مثله ٠٠٩ ثم راح يسخط على الوفد والوفديين ومصر والمصريين ١٠٠٠ .

لهذات من رومه ورجوت له دولة الرئيس الجليل في مبلغ آخر يهديه من غضبته ، ويشفي من علته ، فأذن له الرئيس بمبلغ آخر يسمح له ببسطة في العيش على شواطئ البحر الابيض ...

ولعلي احتقرت هذا العقد من ذلك الوقت ، ولعله لحظ مني سخرية وتهكما فحقد علي ذلك الحقد الذي نرى آياته في مقالاته ...

نعم احتقرته منذ ذلك الوقت ، فما كنت ادري انه اجير الوفد الا بعد ان اتصلت بدولة الرئيس الجليل في صدد المبلغ سالف الذكر - وما كنت ادري ، وما كان احد منا يدري ، انه كان اجير السلطة العسكرية لرقابة الصحف المصرية الا في هذه الايام الاخيرة بعد خروجه على الوفد .

وأخيرا بعد انتهاء العطلة الصيفية ، سميت جهدي بناء على اشارة الرئيس الجليل لكي

أهد لهذا الرجل ميثا موصولا ، فالتحق بجريدة الجهاد بأجر شهري مقداره ٧٠ جنيها مصريا ، وكان الولد يدفع من هذه السبعين ثلاثين جنيها مصريا كل شهر ، حتى تفضل في آخر الامر حضرة الاستاذ صاحب الجهاد بدفع المبلغ كله من ماله الخاص ، ولكن العقاد ما كان ليخلص لصاحبه الجهاد اكثر من اخلاصه لغيره ، فتركه والتحق بجريدة روز اليوسف على ان يزيد من الجنيهاات عشرة . . . مع انه كان يقسم جهد ايمانه انه لا يقبل العمل في جريدة تحمل اسم شخص من الاشخاص .

ولكن العقاد لا يأبى شيئا ، ولا يترفع عن شيء ، ما دام شخصه في الميزان . . . وبما ان مال الولد قد انقطع منه ، فليقطع عن الولد .



مفرور !

ولكنه فرور قل ان تصادف مثله بين الناس ، حتى بلغ بالمسكين مبلغ الخبل .
ولعل العلة في تفاقم الفرور لدى العقاد انه يكاد يكون مجردا من ملكة التقدير النسبي ، او حاسة التدوق المعنوي . . . فهو آخر من يعرف قدر نفسه بالقياس الى غيره ، وقديما قال الحكيم العربي «رحم الله امرءا عرف قدر نفسه !»
ولهذا النقص الخلقي علة هي علة العلل عنده ، فهو رجل ضعيف الثقافة ، ضعيف الخلق ، ولكنه في الوقت ذاته حاد الذكاء . . . فاذا ما قرأ كتابا لم يتفهم جوهره ، والتقط منه قشوره ، واذا ما أقدم على عمل كان له من ذكائه دفعة ، ومن خلقه رجمة .
لذلك هو رجل كله مظهر ، ولا يتدوق غير المظهر ، فهو في ادبه ، مثله في شعره ، مثله في وطنيته ، قوال ، طبال !
اما اذا انكشف عنه الغطاء ، وانقشع الغلاء ، فهو هواء وهباء . . .

فروره في نظر سعد

ولدينا على فرور العقاد امثلة يكاد لا يصدقها العقل لانها بلغت عنده مبلغ «جنون العظمة» .

فقد حدث انه اشتبك مع سعد رحمه الله في مناقشة حادة ، فلم يقم سعد لرأيه وزنا ، فقال العقاد متغيظا «انا خلقت الولد من قلبي» فضحك سعد ساخرا منه ، ولما خرج اشار احد الزملاء الى وقاحته فقال سعد «اداروا سفهاءكم» وكان ذلك منه ابلغ تعليق على فرور هو السفاهة بعينها .

يشتم ربنا والدين !

ومن أغرب الامثلة على خياله ان بعض حضراته اعضاء الهيئة الوفدية زاروه قبل صدور اقرار بفصله وطلبوا اليه ان يتورع عن التهجم على الزعيم الجليل ومكرم ، فما كان من المخبول الا ان اجاب : «انا باشتم ربنا ، افلا أشتم هذين الولدين» .
غفر الله له ولطف به !

سر تهجمه على وزير المعارف

لما اشتدت حملة العقاد البديثة على وزير المعارف لفت دولة الرئيس الجليل نظر العقاد الى ما كتب قائلا انه يجب الانتقاد ولكنه يكره التحامل فما كان من عباس العقاد الا ان اجاب متعظما «انا كاتب الشرق» فرد عليه الرئيس متواضعا «وانا يسرني ان اكون رئيسا على كاتب الشرق» .

ولكن كاتب الشرق لم يرتدع ، واشترط لايقاف الحملة ضد وزير المعارف ان ينقل صديق له من وظيفته الكتابية بقنا الى وزارة المعارف بمصر ، وان يعود صديق له في اسبوط - وهو كاتب آخر - الى مقر الوزارة بمصر .

وفي ذات يوم زارني في الفندق بالاسكندرية حضرات الاساتذة محمد صبري ابو علم والشيخ عباس الجمل وابراهيم عبد الهادي - وحضر بعدهم مصادفة صديقي احمد ماهر - وتكلمنا معا في وجوب ايقاف حملة العقاد التي اصر عليها حضرته تحديا لامر دولة الرئيس الجليل ، فاقترح حضراتهم علي وعلى صديقي ماهر ان نعد العقاد بالتوسط لدى وزير المعارف في نقل هذين الموظفين الى مصر ، على ان يقف العقاد حملته فرضينا بهذا الحل ، وقام احد الزملاء فعلا وتكلم مع العقاد تليفونيا من غرفتي بالاسكندرية فهاج العقاد وماج واشترط لوقف الحملة شروطا ثلاثة :

اولا : ان يتكلم مكرم فورا مع وزير المعارف لنقل الموظفين الاثنين الى مصر (وكسان صديقي ماهر قد ابلغني انه علم ان احدهما فاسد الخلق والآداب) .

ثانيا : ان يتم نقلهما من اسبوط وقنا الى مصر في ظرف ثلاثة اسابيع لا اكثر .

ثالثا : اذا لم يتم النقل في الميعاد المحدد ، او تأخر عنه قليلا عادت الحملة على الوزير بأشد ما كانت .!!!

ضحكنا كلنا من هذا الانذار النهائي .. وغضب احد الزملاء وطلب مؤاخدة العقاد على هذا التحدي وهذا الصلف ..

ولكن الذي يعني من هذه الرواية المضحكة المبكية ان عباس العقاد كان يكتسف

سياسته بأهوائه ، فاذا نقل الصديقان الى القاهرة حسنت سياسة الوزير وسكت عليه ،
واذا لم ينقلا قبحت سياسة الوزير وحمل عليه !!

ارأيت ايها القارئ الكريم الى اي حد بلغت وطنية هذا العقاد والى اي درك هوى
تقديره للمصالح العام ، والى اية هواية شخصية تسخر الجرائد السياسية !!

جيبان !

ليس عجيبا ان يكون المغرور ذليلا جبانا ، بل العجيب هو العكس لان الجبن والمغرور
منفرعان من اصل واحد ، هو الضعف - فالجبان ضعيف امام غيره ، والمغرور ضعيف
امام نفسه !!

ولست اعرف جمعاها اقل طحنا واكثر جبنا ، من عباس العقاد .. كانت محاكمته
فضيحة مزرية برجولة الرجال ! لقد كان المسكين يقف امام المحكمة والدلة تهبط بأذنيه
والرعدة تسري بين جنبيه ولكم ادمى المرض ، وتصنع احتباس الصوت على ان يراف به
قاضيه ، او في القليل سجنه ، والى القراء بعض اقواله في الجلسة التي كان يصرخ
فيها متوسلا « اطلب الشمس » .. « اطلب الشمس » !!

وفيما يلي بعض اقوال « البطل » الرعيد امام قضائه ::

« هل يسمح لي الرئيس بالوقوف في حرم المحكمة لان لي كلمة وصوتي » (منحاش) ...
ولكي ابرهن للمحكمة على اني ابرهن لها كثرة ما البسه من الثياب ... ثم كشف عن يسراه
واطلع المحكمة على ملابسه الداخلية ... وقال لقد مضى علي في السجن اكثر من ٥٥ يوما
وانا مصاب باحتقان في الزور وزكام وسعال يتجدد في الصباح والمساء ... ولتتصور
المحكمة ماذا اصنع في الساعتين الرياضيتين ، اخرج الى الخارج تحت السماء ، تحت الفيوم
تحت البرد ... ان الرطوبة لا تدخلها الشمس ، ماذا يحدث فيها ليلا ، اذا انقطعت
من الرعدة من شدة العرق الذي يسيل مني بسببه وطوبى الارض ، واذ انقطعت بنفسي
ضعيف تأملت واحسست بالبرد .. انا اطلب الشمس ، انا اطلب الشمس !!
يا للمسكين فقد خائنه رجولته !

اتفقوا مع الانجليز باي ثمن !

وما ان خرج البطل من السجن حتى ابتلع حماسه ، ولطف حديثه ، فكنت تقرأ مقالاته
فتكاد لا تعرف أسلوبه .. لان أسلوبه من الصنف العنيف ، بينما السجن من الصنف
المخيف !!

ولذلك ترك السجنون لغيره من امثال توفيق دياب وواح يكتب بميزان ،

ويتعمل الحكمة والاتزان ...

وحدث ان قابلني مرة في الطريق - في ابان اشتداد الحكم الصديقي - وقال «يا استاذ شوفولكم طريقة اتفقوا مع الانجليز بأي ثمن» فناقشته في ضرورة الثبات والجلاد ، وأخبرت دولة الرئيس وقتئذ بما كان بيني وبينه فلم يدهشه ما بدا عليه من خور كان ملحوظا في مقالاته .

هذا هو العقاد الذي بدا الان يجول ويضول ، لانه لا يخشى مقبة ما يقول ...



ذلك بعض الشيء عن الكاتب ، وفيه الكفاية !

اما ما كتبه العقاد عن دولة الرئيس الجليل وعني فغير جدير بمقابل ان يلتفت اليه او يرد عليه ... فهو يتهمنا بمخاللة الانجليز ... ويتهم الرئيس بعدم الصلابة ! ويتهم السكرتير بالتسلط على الرئيس !

ذلك ما جاد به ذكاء العقاد ... ولم يكن له فيما قال فضل الابتكار فقد سبق لخصوم الوفد ان اتهموا سعدا واتهمونا بمثل التهم التي يرددها العقاد صباح مساء .
اما ميالاتنا للانجليز فالذي نعلمه ان النحاس ومكرم كان لهما بالسلطة العسكرية البريطانية صلة شبيهة بالصلة بين العقاد وبينها .. مع الفارق البسيط ، وهو ان السلطة العسكرية نفتنا الى سيثيل بعيدا عن البلاد العربية المصرية ، بينما هي استخدمت الاستاذ العقاد لمراقبة الصحافة المصرية .

ولو اننا كنا ممن يمالئون الانجليز ضد مصلحة الوطن ، انما كان اولى بنا ان نوقع المهادنة التي عرضت علينا ، ليستتب لنا السلطان والجاه بدلا من ان نحال على مجالس التأديب ونعرض لكيد الكائدين وظلم الظالمين .
ولكن حرام ان اناقش مثل العقاد فيما لا تنكره علينا امة بأسرها ، ولو انه أدرك معنى ما كتب لفهم انه قد كذب نفسه بنفسه عندما قال في مقال له «انه كان مشروطا في الوزارة القومية ان لا يدخلها النحاس باشا ومكرم عبيد» .

أندري لماذا كان هذا الاشتراط ؟ لاننا كنا نماليء الانجليز !!

اما ما حاولته يا استاذ من الطعن في صلابة الرئيس الجليل ، فحسبك ان تعيد قراءة ما كتبت لتعلم انك أجرت لا في حق الرئيس ، بل في حق البداهة والمنطق ...
ولقد اغناني الكوكب عن كل تدليل بما نقل من مقالاتك السابقة التي تمدحت فيها بصلابة النحاس وبذلك أقام عليك الدليل من جنس دليلك وسلط عليك نفسك لتكذيب نفسك !
اما ادعاؤك ، لي سخافة ووقاحة ، انني مسيطر على الرئيس الجليل حتى أصبحت «رئيسنا جليلا» ثانيا ، فلا يليق بي ان ارد عليك بأكثر من ان احيلك على الكشكول وما كتب

في قديم الزمان ... ومع ذلك فقد كان اكثر منك ادبا واحتشاما ..
ولعله يهملك ان تعرف ان النحاس باشا ليس ممن يسيطر عليه مسيطر الا ضميره ،
وانه عندما كان سكرتيرا للوفد ، لم يكن يخضع لسعد نفسه لان سعدا رحمه الله لم يكن
يطلب منه خضوعا ، بل كانت الصلة بيننا وبينه ، كما هي الان بيننا وبين خليفته ، صلة
محبة وثقة ، وليست صلة خنوع من عضو او سكرتير لرئيس ، فما بالك من رئيس لسكرتير !!
ولقد وقفت مصادفة على مناقشة برلمانية حادة بين سعد ومصطفى بصدد قانون
المخدرات ، وحسبي ان اقتطف بعض فقرات من مضبطة مجلس النواب ففيها ما يغني عن
كل تعليق :

«الرئيس : سعد باشا - لقد أبديت هذه الاعتراضات في لجنة الشؤون الدستورية» .
مصطفى النحاس باشا - لا علم لنا بهذه الاعتراضات ... وأرى ان هذا رجوع الى
المناقشة في قرار سبق صدوره من المجلس .
الرئيس - ان الرجوع الى الحق فضيلة .
مصطفى النحاس باشا - لا جدال في ذلك وانما يجب ان نتأكد من ان ما عملناه كان
مخالفا للحق ، كما اننا نريد الوقوف على الاسباب التي أدت الى الرجوع الى مسألة فصل
فيها المجلس .

الرئيس - لا حق لك في الاستشهاد بالقانون الذي أشرت اليه .
مصطفى النحاس باشا - ان لي بلا شك حق الاستشهاد به .
الرئيس - يتلو تقرير اللجنة الدستورية .
مصطفى باشا - ان الاسباب التي تلاها دولة الرئيس الان لا تعزز الرأي الذي أبداه .
الرئيس : اني آسف لاستنادي على أدلة لا تعزز رأيي في نظرك ؟
فهل يخضع مثل هذا الرجل لمخلوق ما ، يا حضرة الاستاذ ؟ كلا بل هي الدسيمة
القديمة ترددها على لسانك وانت أعلم الناس بكذب ما تدمي وادماه الخصوم من قبلك .
ولكن الناس يألفون عامة من التهجم على زعيم وسخت مكانته في الامة فيشخدون من صديق
له هدبا يهاجمون الزعيم في شخصه

فيم انها حيلة مكشوفة ، ومعروفة ، وقديما كان اليونان والرومان يعتقدون ان للشعراء
شياطين يوحون اليهم الشعر . فهذا حديثنا عن شيطانك فلعله احدث وأخبث الشياطين !
اما ما قلته تدليلا على ما لي من سيطرة مرعومة وهو اني اردت ان استبق قرار الوفد
بالخطبة التي القيتها في جماعة المحامين فحسبك ان تعرف اني لم اخطب الا بعد الاتفاق
مع دولة الرئيس الجليل وصديقي أحمد ماهر وأما ما ذكرته من وقائع خاصة بجريسة
الجهاد وجريدة روز اليوسف - فهي وقائع كلها مكذوبة او مشوهة ولا شأن لك بها من
اختصاص الوفد وسكرتيرته ومن لم لا محل لمناقشتك فيها .

وأما ما قلته في مقالك اليوم من انني سافرت مع الاستاذ وهيب دوس الى المنصورة

للمرافعة في بعض القضايا وخالفت بذلك قرار الوفد من مقاطعة اذ ذاك فهو قول لا يتفق مع الحقيقة لان الوفد استثنى من قرار المقاطعة علاقة المحامين بعضهم ببعض .
وليس قولك انني دائب على كسب قضايا المخدرات الا مفخرة اشكرك على تسجيلها لي .
واما زعمك انني كنت اؤس بين الرئيس الجليل والاعضاء الاقباط في الوفد عندما خرجوا منه لكي اصل بذلك الى الوزارة باعتباري عضوا قبطيا فيها فلو انك تدري ما تكتب لادركت اني عينت في الوزارة منذ سنة ١٩٢٨ واني كنت على احسن صلات بيني وبين زملائي الاقباط والمسلمين على السواء ولست ادري كيف جال لك ان تفترى على المولى من امثال المغفور له ويصا واصف او تحاول الايقاع بيني وبين صديقي واصف غالي باشا .

ثم من اقرب ما قلته انني كنت احابي الاستاذ توفيق دياب عليك مع انك اقرب الي حتى في موقع المولودين من اهل الصعيد ، فهو قول لفضلا عن انه غير صحيح ، يكشف عن حقيقة حنقك ضدي ، وانك لتعلم انني كثيرا ما احسنت اليك بطريق الوساطة الى الاستاذ توفيق دياب .

تلك بعض مزاعمك ، او لعلها كل ما في جرابك من مطاعن ضدي وانك لتري معي انها قد انهارت بمجرد كلمة واحدة في الرد عليك .

واخيرا

واخيرا ، فاني وايم الحق لاسف ان تكون تلك آخرتك ، ولكنها اخرة محتومة ، لمن كانت بدايته بدايتك وشخصيته شخصيتك .
ولئن فاصبت امتك العدا ، فاصبحت عدوا لبني جنسك ، فانك لم ترحم حتى شخصك فصرت عدوا لنفسك ، واذا كنت في الاولى قد اندحرت ، ففي الاخرى قد انتحرت !!
تلك كلمتي الى الراي العام بصددك ، وليس يعني بعد ذلك ما تقول او لا تقول فتلك خاتمة المطاف بيني وبينك .
«الاسكندرية في ٥ اكتوبر ١٩٣٥» .

رد العقاد على مكرم عبيد لسنا عبيداً .. يا عبيد حقيقة المرتجل ... وما ارتجل

بقلم : عباس محمود العقاد

« جريدة روز اليوسف في ١٧ أكتوبر
١٩٣٥ ، وكتاب عامر العقاد (صفحات من
معارك العقاد السياسية صفحة ٢٣٨) » .

« البهلوانات والمسرحيات طبيعة في الدساس الدجال مكرم عبيد، لا ينساها ولا تنساه،
في سطر من مقال ، او في عمل من الاعمال ، كما لا ينساها ولا تنساه في واقع او خيال
ولا في تحضير او ارتجال ..

وعلى هذه السنة البهلوانية شرع في الاعلان عن مقاله البهلواني كل يوم منذ خمسة
ايام .. كما تصنع معارض الصور المتحركة في الاعلان عن المناظر الجديدة قبل اسبوع من
تغيير «البروجرام» .. وكما يصنع هو حين يلقي الخطبة وتصدر الصحف ساعة القائلها
وفيها بين السطور «تصفيق شديد» ... هتاف بحياة (المجاهد الكبير) .. «تصفيق حاد
ومتواصل» الى آخر المناظر المحضرة والتعليقات المقدرة في لوحة المحفوظ .. لوح التهويش
والتهريج ..

وسنعلم المجاهد الكبير او المخدر الكبير - دوما كان مسيرا عليه ان يتعلمه لولا اننا
بحمد الله نعرف كيف تعلم امثاله من ثام التلاميذ . سنعلمه ان ينزل طائما - او كارها -

عن دعوى الارتجال التي ذهب منها الى اقصى المدى من الغفلة والاستغفال . وسنعلمه اشياء كثيرة لم يكن يحلم بها وسيتعلم وأنفه في الرغام ..

لقد قال كثيرا يوم اعلن عن «بروجرامه» البهلواني وهو لا يعني ما يقول ولا يعتمد ما يقول فلم يبق لنا مزيدا على ما قال الا ان نشرح هذا الضرب الجديد من الارتجال .. لو بدأ مكرم عبيد حياته السياسية بمقاله عن آخرة العقاد لكان هذا المقال وحده كافيا لاستمتاعه بجميع القاب الكذب والنفاق والدسيسة التي كسبها في حياة طويلة جمعت بين اقدر السيئات واوخم الاشرار واحقر الاغراض فقد واجهته بالوقائع المشهودة التي لا تقبل التكذيب لان سردها - مجرد سرد - كفيل باثباتها لكل هاقل ولو كان من المغرضين المتحيزين .

قلت انه يعيب بكرامة الوفد فيسبق اجتماعاته «الخطيرة» باعلان قراراته قبل انعقاد الاجتماع والاطلاع على المعلومات المكنونة لكي يرى الانجليز انه يملئ على الوفد من الآراء كل ما يشاء .. وقلت انه يدس للناس حبا لنفسه لا حبا للزعامة ولا حبا لطائفة . لهذا نقم عليه جميع الاقباط في الوفد قبل زملائه المسلمين ، وقلت انه بيت نية السوء للصحيفة التي اكتب فيها قبل سبعة شهور من ظهور اي كلمة من الكلمات التي يتعمللون بها زورا وتلفيقا في الزمن الاخير ، ولهذا حرمتها مصطفى النحاس باشا زيارته الشريفة التي يوالي بها المراقص والولائم والمسارح بلا توقر ولا اعتدال ، وحرمتها الدساس الدجال اخبار الوفد وخطب الوفد ورسائل الوفد قبل ان تنقضي عليها خمسة ايام .

وقلت غير هذا كثيرا من الوقائع التي يكفي تقريرها لاثباتها ايما اثبات ..

فماذا واجهني الدساس الدجال حين واجهته بالوقائع الصادمة والدلائل القاطعة التي لا يجدي فيها الصراخ والخلط السقيم ؟ واجهني باختراعات من الاحاديث يستطيع ان يخترعها في كل ساعة وفي كل مكان .. لقيني العقاد مرة في الطريق وقال لي كيت وكيت .. تحدث العقاد مرة مع سعد فقال له كيت وكيت .. وخرج العقاد وسعد يقول كيت وكيت للحاضرين .. ولا يذكر لنا الدساس الدجال اسما واحدا من اسماء اولئك الحاضرين .. ويدعي الدساس الدجال اني ما حملت على وزير المعارف (احمد نجيب الهلالي) الا لانه نقل صديقا او صديقين لي من القاهرة الى قنا واسبوط مع ان الشاهدين والغائبين والداكرين والناسين في مصر يعلمون ان نقل هذين المظلومين لم يكن الا عقابا لهما - هما البريثان - على حملتي انا التي حملتها على وزير المعارف اتكارا لما يصبغ به التعليم من المصبغة الدنلوبية ولما يسلطه من الاضطهاد والمحابة على المبعدين والمقربين .

... ويزعم الدساس الدجال اني كاتب المنشورات لان في المنشورات ما يشبه المقالات التي اكتبها في هذه الصحيفة اليومية ، فلماذا يا ترى لا يكون كاتبو المنشورات هم الناقلين من تلك المقالات ؟ ولماذا لا يكون الكلام دائما شامعا لانه حق معروف للمئات واضعاف المئات ؟ ولقد أصبح البوليس السري عمدة الدساس الدجال في بياناته وتحقيقاته منذ أصبح

البوليس السري والوفد يعملان مسع الوزارة في صف واحد .. فلا عجب ان يكون مرجع الوفد اليوم تقريرات البوليس بعد ان كانت مرجعا لاتهام المخلصين وترويج اكاذيب المفرضين ..

اما انني كنت اناقش سعدا فهذا صحيح لا ريب فيه ، ولكنني كنت اناقشه في خطبة العرش وفي قانون الجيش وفي السياسة العامة ولا اناقشه لاقول له كما افترى هذا المأفون المأفوك . «وانني خلقت الوفد بسن قلبي» .. ثم يكون كل ما يجيب به سعد على هذا السخف المزعوم بعد خروجي : «داروا سفهاءكم» .. وكأنما كان سعد جباناً ذليلاً كمكرم عبيد او كمصطفى النحاس .

وكانما كان سعد الذي يفترى عليه هذا المخلوق رجلاً آخر غير سعد الذي كان ينعت العقاد بالجبار ويفاخر به امام الاعداء والانصار .. ورحم الله سعدا الذي كان يستمع الى المناقشة في عمله وقوله وهو اهل للاستقلال برأيه لولا ما فطر عليه من خليقة الجرية وروح الشورى . ومسح الله خلقا له فوق ما مسخهم وهم ينغرون من مناقشة او معارضة ، ولو سألوا الراي كل انسان لما بلغوا من الهداية ما يبلغه راي سعد في استقلاله وانفراده .. ولولا ان الدساس الدجال مخبول يترنح ويتخبط من وقع الضربات التي صيبتها على ام رأسه في هذه الايام لما شككت لحظة في انه صديق حميم يريد لي الخير من حيث لا اريد لكنه في الحقيقة غائب اللب شارد البديهة لا يعقل ما يقول ولا يفرق بين التشريف والاتهام ..

فهو يزعمني مأجورا ويقول في صدر هديانه عن هذا المأجور :
« — بدأ العقاد حياته العامة وحياته الصحفية بمراقبة الصحف المصرية تحت اشراف السلطة العسكرية البريطانية اثناء الحرب العظمى — .. »
وان باطلا من قرارة الجحيم سلطة الابالسة على الحق فمعا كل ما اسلفت من محمدة في حياتي العامة او حياتي الصحفية — الا هذه البداية التي يذكرها الدساس الدجال — الغلبت عن محامد شتي ، ورجحت بها على ما يدميه هؤلاء المحتالون الوصوليون من وطنية وجهاد ..

كانت الحرب العظمى ، ولم يكن للصحفي عمل ولا رجاء في العمل القريب وكنت اعرف الاستاذ ميثان فهمي العالم الاديب الذي كان يومئذ من كبار الموظفين بوزارة الداخلية، ثم أصبح مديرا لاسوان ، فمديرا لقنا ثم احيل الى المعاش ، فخاطب الاستاذ جعفر والي في شائي وكان يومئذ وكيلا للوزارة فصدر الامر بتعييني في قلم المطبوعات وأنا على احوج ما يكون الانسان وهو يطلب الرزق ويطلب الشفاء ..

فهل يعلم القراء كيف كان عملي الذي يعرثني به الدساس الدجال وانني لفخور به لو فقدت المفاخر جميعا في حياتي العامة او حياتي الصحفية ..
انهم لا يعلمون وما كان لهم ان يعلموا لولا مشيئة مكرم عبيد وهو ينبش عن دفائني

فيما يتوهم ، وهو يظهر لي من الحسنات ما لم يظهره وليّ ولا صديق ..
أبيت إن أعمل في قلم الطبوعات الا كما يعمل المصري في خدمة الامة المصرية ..
فلم ينقض على خدمتي فيه اسبوع - اسبوع فقط - حتى دعاني مستر «هوريلور»
وقال لي :

- ان لم يكن عطفاك معنا فلماذا تعمل في هذه الوظيفة ؟

قلت : انني لا افهم ما تعني ..

قال : انك لا تتوخى الدقة في مراجعة الصحف . واراني اخبارا تركتها في بعض
الصحف وكان من حقها الا تترك محالطة على «امن الخواطر» .

قلت : انني لا اجد في هذه الاخبار ما يمتنع نشره بين المصريين ، وانني اقرأ في
الصحف الانجليزية نفسها ما هو اهم من هذه الاخبار فلماذا ينبغي ان يجهل المصريون ما
يعلمه الانجليز المحاربون ؟

فنظر اليّ طويلا ثم قال : هل انت من الحزب الوطني ؟

قلت : كلا ولكنني من المصريين ..

«قال : حسنا .. نحن لا نثق . وأشار اليّ بالتحية فخرجت وأنا اعلم انني خارج
من الوظيفة . وفارقت العمل بعد اسبوع واحد ، وأنا لا اعلم متى تنتهي الحرب ولا اعلم
متى أعود . يعمل يكفيني الكفاية في شئون المعاش وشئون العلاج . ولو كنت ندلا ماحورا
كلاستاذ مكرم عبيد او كصديقه «الاستاذ الفاضل» توفيق دياب لاستطعت ان ابقي سبع
سنوات في تلك الوظيفة لا سبعة ايام .. وأن اخدم «قلم المخابرات» مع الخادمين .. وأن
أبشر للاستعمار بين المصريين والشرقيين وأن اغنم الرضى والامعجاب من «الوطني الفيور»
الدجال المحتال . كما غنم الرضا منه الحصفاء الالباء الذين لا يتخذون بالشرف كما نتخذ
نحن البلباء ولا يفضلون الفاقة على الهوادة في أيسر مبدأ من مبادئ «الوطنية» لو كانوا
في حاجة الى القوت . ان هذه هي المعرة ايها المخبول ؟

وهل عندك معرة أخرى من هذه المعرات التي ترتفع بها رؤوس وتنحني لها جباه
الكاذبين المنافقين .. ؟



يذكر المفضوح المهتوك المرببات والاجور ويروهم انني جريت نحاسه بالكنود والعقوق لانه
كان يحسن اليّ من فضل ماله الفزير ..

فليسمعها اذن كلمة صدق لا تنفيها الاقاويل ولا تخفيها الاباطيل .. انني ما تناولت
قط من الوفد مربيا وأنا في غنى عنه ، وانني ما تناولت مربيا قط وأنا أجد الكفاية من عملي
في النيابة او في صحيفة من الصحف كروز اليوسف او الجهاد او كوكب الشرق او مصر
او المؤيد الجديد .

وانني كنت أتناول مرتبا من الوفد يوم كانت الوزارات التي أحتاجها تغلق كل صحيفة اكتب فيها وتعرض عليّ مئات الجنيئات ولا تطلب مني عملا ولا قولا غير السكوت . والني كنت استطيع ان اسكت لان الصحف تقفل على الكره مني ولا حيلة لي في خنق الصحافة التي اكتب فيها ، ولكنني كنت اؤلف الرسائل كرسالة «الحكم المطلق» ورسالة «اليد القوية» واطبعها على الرغم من رقابة المطابع تجديدا لما يريدونني عليه من سكوت مأجور فاذا كان هذا عارا - يا وفد - فقل لي أخواك الله . . فيم كان الوفد يجمع الالوف من الجنيئات بل مئات الالوف من الجنيئات باسم القضية الوطنية واسم الاعمال السياسية واسم الجهاد والمثابرة على الجهاد ؟ فيم كان الوفد يجمع التبرعات تارة باسم المكتب المصري في لندن ، وتارة باسم المنكوبين او جزية مفروضة على الشيوخ والنواب والمرشحين . . . فيم كان الوفد يجمع نحو ثلاثين الف جنيه صفقة واحدة من مكافآت الشيوخ الموقوفة اثناء تعطيل المجلس ولم يدخل منها ملجم واحد في جيب شيخ واحد ؟ اتراه كان يجمعها - يا وفد - لتنفق انت منها سبعة عشر الف جنيه في لندن لا تقدم عليها حتى السامة اقل حساب . . .

اتراه كان يجمعها لتقبض انت اجر الدعاية وقد كان خليقا بك - وانت ذو يسار - ان تبرع بالالوف من عندك كما تطلبون الى الناس ان يتبرعوا من عندهم بالالوف . . . اتراه كان يجمعها لتقبض منها انت عشرة آلاف ولم تنزل عنها الا الى ثمانية الاف كما طلبت يوم احتاج سعد في باريس الى سكرتير يعرف الانجليزية . . . اتراه كان يجمعها لينعم النحاس باشا وحده بمرتبه يتقاضاه بغير انقطاع من سنة ١٩٢٠ الى ان تولى رئاسة الوفد فاصبح المال كله بين يديه ينفق منه على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرايين الوسطاء والشفعاء . . .

من اين جاء النحاس بالسبعمائة جنيه التي بذلها بين مهر وشبكة وهدية لخطيبته الاولى قبل ان يحال بينه وبين الزواج منها لاسباب لا يعنيها بحثها في هذا المقام ؟ اي والله على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرايين الوسطاء والشفعاء ينفقون ويعيرون العقاد ثلاثين جنيها يأخذها حين تحاربه القوة في رزقه ويلفظها حين يجد الكفاية من عمل صحفي يؤديه . ولقد علم الكثيرون انباء ذلك الزواج المفسوخ وبقي الاكثرون لا يعلمونه الا على السماع البعيد ، فليعلموه اذن ما دام الصديق الوفي المدافع عن النحاس باشا يابى الا ان يعلموه . . .

منذ سنتين عرفت السيدة عائدة مكرم عبيد صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا الى فتاة يخطبها «الباشا» للزواج ، ثم فسخت الخطبة لاسباب قلنا ان بحثها لا يعنيها في هذا المقام ، ولكنها لم تفسخ حتى بذلت الهدايا ودفعت مقدمات المهور ونفخ الوسطاء والشفعاء بالهبات «هبات السلاطين والامراء» من مال الجهاد في سبيل القضية المصرية ومن مال الوفد الذي يعاب على العقاد ان يتناول منه القليل عند مسيس الحاجة اليه ولا يعاب بذل الكثير

منه في سوق الغرام ونفحات الوسطاء والخدام. والآن ماذا يريد الولد ان يقول بذلك الكلام الذي ارى به وبمصطفى نحاسه ولم يرتفع الى موطنه النعال من كاتب هذه السطور ١٠٤٠
يستطيع كل انسان ان يكون شريفا في اتهامه وادعائه الا المهرج الخسيس فانه لن يستطيع الا التهريج والخسة في ثنائه وهجائه ، وكذلك كان الوغد منحذرا في الخسة الى حضين اغوارها الموبوءة في غير ما طائل ولا اقناع ، الا التنفيس من جحيم من الضنن في صدره الحقوة ، وعن بؤرة من الدلس في راسه المخبول .

الفهرس

٧	مقدمة
١٣	تيارات واتجاهات
٢١	البحث عن طريق
٢٩	كاتب الثورة
٥٩	اعنف معارك العقاد ضد الرجعية سنة ١٩٣٠
٧٩	المحاكمة والسجن
٩٧	العقاد وحرية الفكر
١٠٧	أزمة وانتكاسة : الخلاف مع النحاس والخروج على الوفد
١٢٥	بعد الوفد : اللامنتمي
١٥١	العقاد واليسار
١٦٧	العقاد والماركسية
١٩٧	العقاد والنازية
٢٠٧	محامي العباقرة
٢٢٩	العقاد والصهيونية
٢٦٣	العقاد والايخوان المسلمون
٢٨٥	العقاد والحزب الوطني
٢٩٥	بين الملك فؤاد والملك فاروق
٣٠٩	العقاد وثورة ٢٣ يوليو
٣١٧	العقاد والوحدة العربية
٣٣٣	صورة عامة

- ١ - حديث العقاد مع سعد زغلول سنة ١٩٠٨ ٣٤٥
- ٢ - نص حيثيات الحكم في قضية محاكمة العقاد وسجنه سنة ١٩٣٠ ٣٥١
- ٣ - نص دفاع مكرم عبيد من العقاد أمام القضاء سنة ١٩٣٠ ٣٦١
- ٤ - آخره عباس العقاد ، حقيقة الكاتب وما كتب بقلم مكرم عبيد ٣٨١
- ٥ - رد العقاد على مكرم عبيد : لسنا عبيدا يا عبيد ٣٩٣

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب أول دراسة شاملة في المكتبة العربية حول حياة عباس العقاد السياسية بين اليمين واليسار، وتتناول الدراسة علاقة العقاد بالوفد والسعديين ومصر الفتاة والأخوان المسلمين وبقية الأحزاب المصرية، كما تتناول الدراسة موقف العقاد من الماركسية والصهيونية والنازية وموقفه من الوحدة العربية وثورة ٢٣ يوليو، ويتضمن هذا الكتاب مجموعة من الوثائق الهامة من بينها «حيثيات الحكم» ضد العقاد بالسجن سنة ١٩٣٠ بتهمة «الغيب في الذات الملكية» ومن بينها أيضاً نص دفاع مكرم عبيد عين العقاد في هذه المحاكمة، ويكشف الكتاب كثيراً من جوانب الصراع السياسي في مصر منذ أن بدأ العقاد الكتابة سنة ١٩٠٧ تقريباً حتى وفاته سنة ١٩٦٤، حيث كان العقاد على الدوام طرفاً من أطراف هذا الصراع السياسي، وحيث شارك في كل القضايا التي أثرت خلال هذه الفترة في الحياة السياسية في مصر، وكانت مواقفه وآراؤه تثير المناقشة الواسعة بالتأييد أو بالنقد والاعتراض.

Bibliotheca Alexandrina



0665891

السعر : ٨ ل.ل.
أو ما يعادلها

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

شكاخ مشهوريا - بنتاية صمدبول وصفاقة
ص.ب. ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان